تاريخ المسلمين

فى شبه القارة الهندوباكستانية وحضارتهم

القسم الأول : من الفتح العربى حتى قيام الدولة المغولية
القسم الثانى : الدولة المغولية حتى التقسيم
وبه مقدمة عن الهند القديمة وملحق به فصل فى تاريخ أفغانستان

تأليف
الأستاذ الدكتور
أحمد محمود الساداتى
الأستاذ بكلية الآداب جامعة القاهره

الطبعه الثالثة
مزيدة ومنقحة

وقدر كل امرئ ما كان يحسنه
والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حياً به أبدا
الناس موتى وأهل العلم أحياء

الناشر
مكتبة نهضة

تاريخ المسلمين

في شبه القارة الهندوباكستانية وحضارتهم

القسم الأول : من الفتح العربي حتى قيام الدولة المغولية

القسم الثاني : الدولة المغولية حتى التقسيم

وبه مقدمة عن الهند القديمة وملحق به فصل في تاريخ أفغانستان

تأليف

الأستاذ الدكتور

أحمد محمود الساداتي

الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ومعهد الدراسات الإسلامية

الطبعة الثالثة

مزيدة ومنقحة

الناشر

مكتبة نهضة الشرق

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين ، والصلاة والسلام على خير المرسلين

شبه القارة الهندية التي تضم اليوم دولتى باكستان الاسلامية والهند الهندوكية[1] بدأ أظهر أدوارها التاريخية — على إجماع من المؤرخين — بالفتوحات الاسلامية ، وأخصها تلك التي توغل فيها الغزنويون . ومن جاء من بعدهم ، بهذه البلاد منذ أواخر القرن الرابع الهجري ، وصحبهم فيها جملة من العلماء والمؤرخين والرحالة المسلمين الذين درسوا أحوال الهند وكانوا عما كان بها من حضارات ومدنيات عريقة تقصوا أسسها وتفصيلاتها

وتاريخ شبه القارة الهندية القديم ، وفيما قبل فتوح المسلمين ، غالبيته الغالبة عموما يكتنفه الغموض الشديد . ولولا القليل منه الذي استشفه المؤرخون من الكتب الهندية الدينية القديمة ، ومن أكداس أساطير الهنود القدماء ، وما وصل إلينا من تدوينات جوابى هذه البلاد فى الأزمنة الغابرة لظل ماضى هذه البلاد مجهولا إلى درجة كبيرة . ذلك أن آثارها وعادياتها القديمة ، التى اكتشفت حتى اليوم ، لا تعد فى الغالب ثبتا وثيقا متصلا لماضيها على نطاق واسع نظير ما عند مصر واليونان .

---

(١) لفظ هندوكى أو هندوسى — وهو معرب — غدا عند كتاب العربية المحدثين علما على أصحاب العقائد الهندية القديمة من سكان شبه القارة الهندية ، وهو ما ذهبنا إليه فى هذا الكتاب.

والمسلمون الذين أسهموا في حفظ تراث اليونان وزادوا عليه ، هم أنفسهم الذين أظهروا العالم على الكثير من تراث الهند الذى اطلعوا عليه، فجر الإسلام وعظام ضحاه، بحبب إليهم الاستزادة مما عند غيرهم من مختلف فنون المعرفة(١) ودفعهم إلى طلبها .

فلقد دخل المسلمون أقليم السند أواخر القرن الأول الهجرى ثم انطلقوا — ابتداء من أواخر القرن الرابع الهجرى — يوغلون في هذه البلاد ، فإذا بعلمائهم يقفون على ما عند الهنود من فنون المعرفة الكثيرة ، على نطاق واسع، من أفواه المشتغلين بها من رجالهم بعد ما كانوا قد اطلعوا على قدر منها في بطون كتبهم ، ويتعرفون على أحوالهم وعقائدهم بمخالطتهم ومساءلة كهنتهم ورهبانهم ومناظرة فلاسفتهم . وكان إمام هؤلاء العلماء الأعلام جميعاً هو العلامة أبو الريحان البيرونى العارف بلغات الهند . وفيما تركه من كتب قيمة عن هذه البلاد ثبت لذلك كله.

وأخذ هؤلاء الفاتحون يستقرون بالبلاد التى فتحوها ابتداء من القرن السابع الهجرى ، فخفظت بذلك أموال الهند وثرواتها عليها بعد أن كان الغزاة يحملون معهم الكثير منها إلى بلادهم .

وما لبثت عقيدة الإسلام السمحة الفتية ـ بمبادئها الإنسانية الرفيعة ونظمها الاجتماعية القائمة على المساواة التامة بين معتنقيها، والتى لا تعترف بنظام الطبقات ـ أن طفقت تجتذب إلى صفوفها ألوفا وألوفا من الهنود في أزدياد متدرج ، فهم اليوم بشبه القارة هذه يزيد عددهم على مائة وعشرين مليونا .

---

(١) Havell, E.B The History of Aryan Rule in India London p. 254–56.

والمسلمون بناة حضارات أينما حلوا ونزلوا . وفى طبيعة الإسلام أنه يدفع دائما بعجلة الحضارة والمدنية إلى السير من جديد فى كل بلد يدخله . وأصحابه حين توغلوا بالهند ، وممهم حضارتهم ، التى كانت قد بلغت خارج هذه البلاد درجة عالية من الرقى، لم يهملوا أمر حضارة الهند وثقافتها، بل شغلوا بها وانهمك علماؤهم فى كل العصور فى النقل منها ، حتى ترجموا أقساما من المهابهارتا نفسها سفر الهنادكة المقدس .

ولا تجد حتى عند أشد المؤرخين الهنادكة كراهية للحكم الإسلامى إشارة واحدة إلى إحراق المسلمين لكتب الهنادكة وأسفارهم أو إتلافها .

وها هو ذا المؤرخ الهندوكى المعاصر إشوارى براساد يقرر صراحة بأن الحكم الإسلامى فى شبه القارة الهندية كان فيه الكثير من الخير ، ويرد ما يسمو به المجتمع فى هذه البلاد اليوم من الخصال الحميدة وما يروج فيه من رسوم وعادات راقية إلى تقاليد هؤلاء الفاتحين[١] .

ولئن كانت شبه القارة الهندية قد عرفت أظهر أدوارها التاريخية أيام الحكم الإسلامى بها ، فقد شهدت تلك البلاد أروع مظاهر الحضارة والمدنية بها فى عهد الدولة المغولية التى قامت بشبه القارة الهندية فى القرن العاشر الهجرى ، فوصلت بالحكم الإسلامى فى هذه البلاد إلى أرقى صوره ، وبنفوذ المسلمين إلى أوسع مداه ، وبالعقيدة الإسلامية إلى أقصى درجاتها من الذيوع والانتشار ، حتى بلغت بذلك كله إلى تحويل ملايين عديدة من أهل الهند عن معتقداتهم القديمة إلى دين المسلمين ، وعن فنونهم ولغاتهم ورسومهم إلى فنون المسلمين ولغاتهم ورسومهم .

---

(١) Prasad: Med. India, pp. XXXI

عاصرت هذه الدولة ، أول نشأتها ، دولتين إسلاميتين فتيتين كبيرتين هما : الدولة الصفوية التى قامت فى فارس وامتد سلطانها على خراسان والعراق ، والدولة العثمانية التى كانت إذ ذاك تحكم فى آسيا الصغرى وأجزاء من أوروبا والتى ما لبثت أن أغارت على الشام ومصر وأجزاء من فارس فاغتصبتها .

كانت الدولة المغولية أحدث هذه الدول جميعاً ، وأصحابها كانوا أكثر ملوك عصرهم تسامحاً وأعظمهم كلفا بالحضارة والمدنية ، فلم يدانيهم فى ذلك عاهل لا فى الشرق ولا فى الغرب .

وهم من أصلاب المغول والترك الذين أنزلوا الخراب والدمار بكثير من بلاد العالم الإسلامى ، ثم ما غدوا أن انقلبوا ، بفعل الحضارة الإسلامية ودخولهم فى الإسلام ، إلى بنائين للمدنيات ، حتى ازدهر على أيديهم كثير من المدائن التى خربها أجدادهم من قبل ، وصادفت المدنية والحضارة فى عهدهم رواجا كثيراً[١] .

لم يجر حكام هذه الدولة فى تسامحهم على مجرد إطلاق حرية العبادة لأهل البلاد من الهنادكة فحسب ، حتى فتحوا لهم أبواب المناصب ، وقربوهم منهم ، وأصهروا إليهم ، وحضوا رعاياهم من المسلمين على ذلك . ليستهوى الإسلام من بعد ذلك كثيراً منهم ، بقوله بالمساواة التامة بين معتنقيه ، فيقبلوا على الدخول فيه أفواجا ، حتى لنرى المسلمين فى شبه القارة الهندية اليوم ، بعددهم الذى ينيف على المائة والعشرين مليونا ، هم فى غالبيتهم الغالبة من أبناء هذه البلاد الأصليين .

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ص ٩٥ — ٩٨

ولقد هدف هؤلاء الأمراء التيموريون ، أصحاب هذه الدولة ، بتسامحهم هذا إلى تآلف سكان الهند واتحاد شعوبها لتقوى بهم دولتهم وترسخ أسسها ، حتى كان منهم من تعدى تقريب الهنادكة والإصهار إليهم إلى التفكير في محاولة ابتداع مذهب جديد يقوم على التوحيد ، وتذوب فيه عقائد الهند كلها ولا يتعارض مع أسسها ، ليبلغ بذلك إلى توحيد هذه البلاد كلها توحيداً حقيقياً في ظل الدولة .

ومن آيات تسامح هؤلاء السلاطين كذلك ، أنهم،وهم في كلفهم وشغفهم الزائد بالثقافةوالدنية ، لم يغفلوا شأن الثقافة والمدنية الهندية.فلم يكتفوا بالاطلاع عليها بل انطلقوا يحرضون أهلها ، في الغالب ، على الاشتغال بتراثهم القديم وإحيائه وتطويره ، لينجم عن ذلك كله مزيج عجيب بلغ بالحضارة الإسلامية الهندية إلى أرقى صورها في كافة نواحي المعرفة .

وأدى الإسلام ببساطته وقوله بالمساواة التامة بين أتباعه إلى تأثر فريق من مفكري الهنادكة ومصلحيهم بتعاليمه ، فنادوا بمذاهب ومبادىء جديدة خففت كثيراً من غلواء نظام الطبقات ، وأنكرت صراحة عبادة الأوثان ، ودعت إلى عبادة إله واحد أكرم عباده عنده هو أتقاهم ، بصرف النظر عن العرق أو الطبقة والجنس ، واعترفت للارملة والأيم بحق الزواج . وصادفت جهود هؤلاء من التوفيق قدراً غير قليل بين الطبقات المستنيرة،غير أن سلطان البراهمة بقي عند العامة أقوى من كل حركات المصلحين ، فأقامت شعوب الهند في الغالب ، على خلافاتها المدمرة التي مزقتها شيعاً وطوائف ، فلم يجد المستعمرون البريطانيون ، حين أقبلوا على الهند ، مشقة كبيرة في إخضاعها لهم ، ليمعنوا من بعد ذلك في إذلالها ويستنزفوا في يسر تام كل خيراتها ومواردها وثرواتها .

إن عقائد الهند تقوم عليها نظمها الاجتماعية لسكانها جميعاً . والمسلمون الهنود يغايرون سواهم من سكان هذه البلاد مغايرة تامة في عقيدتهم وتقاليدهم ورسومهم ، فلم يكن لهم بذلك مناص من أن يصروا على قيام دولة خاصة بهم تضم المناطق التي يسودونها بشبه القارة الهندية ، فلا تضيع بذلك أقليتهم الضخمة في وسط الغالبية الهندوكية ، وتم لهم ما أرادوا ، في الغالب ، عام ١٩٤٧ م ، بقيام دولة باكستان الخاصة بهم في حدود لا ترضيهم ، قبلوها ليضعوا بذلك حداً للمذابح الكبيرة التي سقط فيها من المسلمين، بفعل الاستعمار، أكثر مما سقط من الهنادكة .

والله المستعان

القاهرة — المعادى

أحمد محمود الساداتي

موضوعات الـــكتاب

«كلما تقدمت الحضارة وتنوّر الناس
زاد عدد المسلمين ، فأسفر عن لين تعصّب
الطوائف وانتشار المبدأ القائل بإلـه واحد في
ذلك القطر المملوء بالخرافات انحناء النفوس
بالتدريج أمام جلال الله وعظمته ـ حقاً إن
فتح الإسلام للهند لمّا يتم ، وهو سائر بطيئاً
صامتاً على طريقه فلم يقف تقدمه سلطان
انكلترا النصرانية .»

(من كتاب حضارة الهند لجوستاف لوبون)

الهنـــد القديمة

جغرافية الهند :

لم تـكن الهند فى القديم هى شبه القارة المترامية الأطراف المتعارف عليها فى العصور الحديثة ، إذ كانت هذه التسمية يضيق مدلولها حيناً ما فلا يعرف به إلا شقة ضيقة من الأرض ، أو يتسع اتساعاً كبيراً حيناً آخر فيشـمل رقعة واسعة من جنوب القارة الآسيوية .

واختلف الناس فى منشأ تسمية هـذه البلاد فمنهم من نسبها إلى الإله « إندرا » إله الهند القديم ، ومنهم من ردها إلى السـند الذى كان يعرفه الفرس القدماء باسم « هند هو » أى النهر ، جرياً على عادتهم فى إبدال السين السنسكريتية بالهاء ؛ وكان نفوذهم قبل غزو الإسكندر قد عم الجزء الغربى من هذه البلاد وتوغلوا فيه .

وهؤلاء الفرس هم الذين أطلقوا كذلك اسم الهنـدستان (أى أرض الأنهار) على الشمال بأ كمله من هذا الإقليم .

وشبه القارة الهندية ، التى تضم اليوم جمهوريتى باكستان والهنـد ، هى كتلة بالغة الضخامة من اليابس تصل مساحتها إلى المليونين من الأميال المربعة، أى بما يزيد على نصف مساحة القارة الأوربية ، فيها تمثيل كامل لمختلف عروق الإنسان وما عرفه من فنون وآداب وعلوم وما اعتنقه من مختلف العقائد منـذ ظهور الوثنية حتى اهتداء الناس بالتوحيد . وفيها أنواع الأجواء المتباينة من

الصقيع القطبي وثلوجه بالهملايا ومرتفعاتها بالشمال إلى قيظ المناطق الاستوائية وشواطئها بأقصى الجنوب . وفيها كذلك من صنوف الحيوان والطير والنبات والمعدن ما يصلح لأن يكون إجمالا لما بالعالم كله منها . فهي في الحق دنيا قائمة بذاتها قد عزلها عن بقية اليابس الآسيوى أمنع متراس أقامته الطبيعة بين بلدين وهو جبال الهملايا الهائلة التي تعرف بسقف الدنيا . وبهذه الجبال الشامخة مسارب تجارية ضيقة تنفذ إلى التبت وبلاد التركستان ولكنها لا تصلح لمرور القوافل الكبيرة .

والحدود الشرقية للهند جبلية كذلك ، وتتمثل في جبال آسام ، وبها بعض المسالك التي تصل أرض الهند بالصين الغربية وشرقى آسيا .

وتمتد في الغرب جبال الهندكوش من الشمال حتى البحر جنوباً . وتخترقها بدورها كذلك مسالك تصل إلى التركستان وأواسط آسيا عبر بلاد الأفغان ، وإلى إيران عبر بلوخستان . وعن طريقها نفذ الغزاة والمهاجرون ، آريون وإغريق وهون وسيث وفرس وأتراك ومغول ، إلى شبه القارة الهندية ، فلم يظهر طابعهم قوياً إلا في الشمال والشمال الغربى منها ، حتى أصبحت هذه الأجزاء التي تعرف باسم الهندستان تغاير في ثقافتها ونظمها الاجتماعية والاقتصادية نظائرها في الوسط والجنوب .

وكان مما سدّ حضارة الشمال عن التسرب جنوباً ووقف حائلا في وجه الغزاة تلك الوهدة الضيقة العميقة التي تتوسط شبه القارة ممتدة من الشرق إلى الغرب عند شمال الدكن ، وتقع فيها جبال الوندهايا وتلال ساتبورا مع نهر تربدا .

وبما عدا ما ذكرنا من حدود جبلية لشبه القارة الهندية فالبحر من حولها محيط .

وفى شمال الهندستان يجرى كذلك أعظم أنهار الهند وهما السند والكنج اللذان يستمدان ماءهما من ثلوج الهملايا .

والنهادكة يقدسون مجارى المياه قاطبة لما تهبه لهم من خيرات ونعم . ونهر الكنج هو أقدسها جميعاً عندهم حتى ليتطهروا بمائه كل يوم . بل إنهم ليلقون بجثث موتاهم فيه تبركاً ما أفلتوا من الرقابة . وطوبى لمن يكتب له منهم الحجيج إلى منابعه العليا المقدسة .

وأكبر روافده هما جمنه وبراهمايترا ، وبنهيراته الاثنى عشر التى تؤلف دلتاه يصيب إقليم البنغال خصباً عميا .

ولئن كان الكنج هو أقدس الأنهار عند الهنادكة فإن السند بأمياله الألف أطولها جميعاً . وروافده الخمسة ، وهى سلتج وجيناَب وبياس وجهلم وراوى ، قد عُرف الإقليم الذى تجرى فيه بعددها ، فالبنجاَب يعنى الأنهار الخمسة . وللسند كذلك رافد سادس هو نهر كابل الذى ينبع من الهندكوش ويلتقى بالنهر الرئيسى فى ناحية الغرب وإقليم البنجاَب هو من بوابات التجارة الهندية الكبرى ، ومنه نفذ أغلب الغزاة والفاتحين فأوغلوا فى شبه القارة .

ويضم وديان السند والكنج أغلب أراضى الهند الزراعية ، وإن كان وديان الثانى أكثر اتساعاً وخصباً وبالتالى أغص بالسكان ذلك أن الكنج تمده على طول مجراه روافد عدة تستمد ماءها من ثلوج الهملايا الدائمة ، وهو ما ليس للسند منه نصيب فضلا عن انسيابه فى أرض يغلب الاستواء عليها مما يؤدى إلى بطء جريانه وضياع الكثير من مائه فى صحراء النار أكبر صحراوات الهند والتى تفصله عن الكنج . وتعرف هذه الصحراء أيضاً باسم «الراجبوتانا»

نسبة إلى الأمراء الهنادكة الراجبوتيين الذى جرى بذكر شدة بأسهم وبطولتهم ووقوفهم دائماً فى وجه الغزاة والفاتحين ، وتاريخ الهند وأساطيرها على السواء .

وفى وسط الهند يجرى نهر تربدا ، وإلى الجنوب منه يجرى مهندى ، وتحته جودافرى أعظم أنهار الدكن ثم يليه نهر كرشنا .

وأنهار شبه القارة الهندية هذه برغم كثرتها لا تكفى لرى أراضيها ، لذلك كان اعتماد الزراع الأكبر على مياه الأمطار الموسمية التى يؤدى امتناعها إلى مجاعات مروعة محتومة . فلم يكن عبثا إذاً أن ذكر المطر فى كتب الهنادكة المقدسة القديمة بأنه عطاء الآلهة الذى يهب لهم الزرع قوام الحياة .. (١)

سكان الهند

وأصل سكان الهند لم يصل إليه الباحثون على وجه التحقيق ، وإن كان الثابت المعروف أنه قد ورد على شبه القارة هذا موجات متتابعة من هجرات أجناس مختلفة .

وكما تتغاير الهند فى أجوائها تغايراً واسع المدى فهى كذلك تختلف فى أجناسها اختلافا بيناً شديد الوضوح . ففى مناطقها الشمالية يعيش جماعات لهم سمات الشعوب الشمالية ونشاطها فى الغالب . وبجانبهم أقوام آخرون لهم ، خصوصاً فى وسط الجنوب ، سواد سكان المناطق الحارة حيث تقسو حرارة الشمس على الناس فتضعف أبدانهم وتقلل من نشاطهم (٢) .

---

(١) تنبه هنا إلى أن كلمة هندوكى ليس لها أى دلالة جنسية أو عرفية فهى تطلق فى

(٢) V Le Bon Les Civilsations de l'Inde Paris 188 p.3456.

(٣) الهند على اتباع عقائد الهند القديمة .

وأقدم من سكن الهند فى الغالب قوم سود ، لهم سمات الأجناس الحامية قطنوا الغابات ، ولا تزال منهم بقايا متقرضة منعزلة تسكن وسط الهند حتى اليوم .

وقدم الهند من بعد ذلك ، فى عصور ما قبل التاريخ ، موجات تورانية وافدة من الشمال فدفعوا بأهل البلاد أمامهم صوب الأماكن الجبلية فى الوسط. وما لبثوا أن توالدوا معهم فظهر الدراوريون والتمول أقدم من سكن الهند فى التاريخ . ومنهم أغلب سكان شبه القارة اليوم .

وتوالت موجات الآريين البيض من السيث والهون على الهند من بعد ذلك قادمة من ناحية الشمال الغربى فاكتسحت أمامها التورانيين وأخضعتهم والدراوريين والتمول لسلطانها وعن الدراوريين أخذ هؤلاء الغزاة نظامهم الحكومية والاقتصادية .

وسكن هؤلاء البيض فى بادىء الأمر إقليم البنجاب ، باب الهند الآرى ، ثم أخذوا من بعد ذلك ينتشرون فى منطقة الدوآب التى صارت مركزاً لحضارتهم .

وخاف البراهمة مغبة اختلاط بنى قومهم الآريين بعناصر الهند الأخرى فوضعوا نظام الطبقات وجعلوا أنفسهم والنبلاء المحاربين من الآريين على رأسها. فالجيش يقوده النبلاء فى الحرب والبراهمة يؤيدونه ويشدون من عضده بالدعاء الذى لن يتم له النصر بدونه[1] .

وإلى جانب الطبقتين الآريتين . وهم الكهنة البراهمة والاكشترية المقاتلة

Dunhar. G. A. History of India from the earliest—1 timas to tne pressal day. vol. 1 p.15.

من النبلاء ، الذين يرون فى موت الرجل منهم بخدعه عاراً وأى عار ، سلك التورانيون فى طبقة الويشية التجار . ولا يأتى من بعدهم سوى طبقة الشودرا التى تنتظم الزراع والصناع والعمال ، وكانوا أغلب سكان شبه القارة الأصليين إذ ذاك .

أما الباريا ، وهم المنبوذون ، فكانوا فى بادىء أمرهم جماعة صغيرة لا تنتمى إلى الطبقات الأربع سالفة الذكر . وقوامهم بعض القبائل الوطنية وأسرى الحرب ، ورجال تحولوا إلى عبيد عقابا لهم بسبب ولادتهم عن زواج بين براهمة وشودرية ، أو لعجزهم عن وفاء بالدين ، أو لممارستهم المهن الحقيرة التى تضم الكناسين والجزارين والجلادين والحواة ومن إليهم . وهم بعددهم المتزايد الذى ينوف على الأربعين مليونا ونفوسهم الثائرة مع عطف البشر البالغ عليهم ، حين يزداد الوعى الإنسانى تغلغلا فى صفوفهم ، كفيلون بزلزلة كيان النظام الطبقى كله والقضاء عليه .

وأثر الآريين العظيم فى الحضارة والمدنية يتجلى فى ديانات الهند القديمة وعاداتها وطباعها ولغاتها .

وإذا كانت غلبة الجنس الآرى تظهر واضحة فى مناطق الهملايا العليا حيث يتميز السكان ببياض بشرتهم ، فإنها ما تلبث أن تأخذ فى القلة إذا ما اتجهنا صوب الجنوب حيث تأخذ سمرة اللون فى الظهور بازدياد متدرج .

حتى إذا ما نزلنا وادى الكنج ، أخصب بقاع الهند والذى يزدحم فيه أكثر من ثلث سكان البلاد ، وجدنا به تمثيلا يكاد يكون كاملا لعروق الهند من الدراوريين والآريين والتورانيين على تفاوت. هذا والعنصر الأخير ، أى التورانى ، كان أبعد أثراً فى سكان الهند من الناحية الجثمانية وأظهر من كافة العناصر الأخرى التى قدمت هذه البلاد من بعده .

وإذا كان وادى الـكنج قد اختلطت فيـه عروق الهند من آريين وتورانيين ودراوريين ، وتجاورت فيه كذلك دياناتها وعقائدها من برهمية وبوذية وهندوكية وإسلامية ، فإننا نجد البنجاب وأغلب وادى السند يكاد يـكون وقفا على عرقين اثنين ، هما العرق التورانى والعرق الآرى ، وعقيدة واحدة هى الإسلام .

ومن بين سكان البنجاب والسند قبائل الميد والجات (الزط) الذين عرفوا بشجاعتهم ، ومهارتهم فى التجارة . وقد قيل إن على بن أبى طالب استخدمهم على حراسـة أموال البصرة فى وقعة الجمل ، كما أنزلهم الأمويون ثغور الشام فشاركوا فى حمايتها [1] .

وهذه القبائل ومنها الـكهكر فيهم المسلمون وفيهم المنادكة ، وتمتد منازلهم حتى صحراء الراجبوتانا .

أما وسط الهند وجنوبها فغالبية سكانه الساحقة من الدراوريين والتمول القدماء ، وهم عند البراهمة يعدون من الشودرا والياربا نفاية البشر ومنبوذيه فى الغالب .

وأيا ما كان من تباين عروق الهند واختلاف أجناسها الشديد فقد حمت البيئة الواحدة طباع وعادات مشتركة ، ولا غرو فللبقاع تأثير فى الطباع على حد قول المقدسى جغرافى العرب .

وسكان شبه القارة الهندية الذين يبلغون اليوم أربعمائة مليون ، أى خمس سكان الدنيا بأسرها — إذا غضضنا الطرف عن قلة ضئيلة من أهل الفطرة تسكن أماكن منعزلة متناثرة ، ولا تزال على عقائدها الطوطمية الأولى فتؤله

(١) فتوح البلدان للبلاذرى طبع ليدن ص ٣٧٥

الأفاعي والقردة والنمرة، فضلا عن ممارستها إلى عهد غير بعيد لعادة تعدد الأزواج من الذكور حيث يبنى بضمة أقارب أو إخوة فى العادة بامرأة واحدة ويقيمون أسرة — يمكن أن نكتلهم فى كتلتين كبيرتين على هدى البيئة وأساسها .

وأكبر الكتلتين هى الكتلة الهندوكية التى تقطن غالبيتها جمهورية الهند اليوم . وهى تأتلف ثلاثة أرباع سكان شبه القارة الهندوباكستانية على كل حال .

وقد أدى معيشة هؤلاء المنادكة فى بيئة واحدة تخضع لعقائد واحدة منذ القدم ، إلى قيام صفات عامة مشتركة كثيرة فيما بينهم .

وأما الكتلة الثانية فهى كتلة المسلمين الذين يجاوز عددهم اليوم المائةمليون من الأنفس ، وتضم أغلبيتهم جمهورية باكستان . وبرغم وفود جموع الغزاة المسلمين من العرب والفرس والأتراك إلى هذه البلاد فإن غالبية المسلمين هناك فى أصولهم الأولى هنادكة خلص . ذلك أن المسلمين فى مدى قرون قليلة حكموا فيها بالهند ، أفلحوا فى تغيير معتقدات هذا الفريق الهندوكى الكبير إلى دينهم وعقيدتهم . بل لقد بلغوا به كذلك إلى تغيير لغته وفنونه إلى لغتهم وفنونهم، وهو ما مارسوه فى كل البلاد التى فتحوها وعجز عنه غيرهم من الأمم ورجال الدين . وكان من أهم أسباب انتشار الإسلام فى شبه القارة الهندية خاصة ، بشهادة ثقات المؤرخين حتى فى العصر الحديث ، هو قوله بالمساواة ، فلم تستطع بريطانيا ومن سار فى ركابها ، حين كانت تحتل هذه البلاد أن تحد من نشاطه فيها ، ذلك النشاط الذى جرف كل ما كان يقام فى طريقه من معوقات وعراقيل[1] .

---

(١) حضارة الهند لجوستاف لوبون ، تعريب عادل زعيتر — القاهرة ١٩٤٨ ص٦٢٦

معتقدات الهند القديمة :

فى شبه القارة الهندية كما قلنا من قبل تمثيل كامل لكافة العقائد التى عرفتها الدنيا ومراحل تطورها من الطوطمية الوثنية إلى التوحيد الكامل ، وعليها تقوم النظم الاجتماعية لسكانها جميعاً .

ولقد عرفت الهند قبل البرهمية كثيراً من معتقدات الآريين والآسيويين الذين كانوا قد وفدوا إليها قبل الميلاد بأكثر من خمسة عشر قرناً ، فاعتنقت الناجا الطوطمية وعبدت إلهها الأفعوان ، كما عبدت هانومان الإله القرد وناندس الإله الثور ، وقدست الأشجار والموتى من الأسلاف اعتقاداً منها بخلود أرواحهم ، وقدمت لهم القرابين ، وصلت من أجل سعادتهم فى مثواهم الأبدى ، واستخدمت الرقى والتعاويذ والسحر لجلب السعادة وإطالة العمر ودفع الأرواح الشريرة وإيقاع الارتباك بالأعداء . وقد انتقل كثير من ذلك كله إلى الهند فى العصر التاريخى ، وما زال اليوم قلة منقرضة منعزلة تؤله البقرة والقردة والأفاعى والآفات .

وقد ورد بكتب الويدا ، أقدم أساطير الهند ، تفصيل لآلهة الآريين الكثيرة هذه ومن بينها ما يمثل قوى الطبيعة نفسها وعناصرها مثل الإله إندرا الذى ينسب إليه البعض تسمية الهند ، وهو إله العواصف والسماء ، وهو الخالق البارىء الأعلى الذى يجلب الأمطار والماء أصل الحياة ، وأغنى إله النار موجب الحياة الكونية والعوالم والآلهة ؛ وشوريا إله الشمس .

ولئن اختلف الرأى فيمن ينسب إليه خلق العالم من بين هذه الآلهة

الماتية ، فقد أجمعوا ، على كل حال ، على وجوب رد الأمر كله إلى خالق واحد قهار [1] .

وصار للبراهمة بعد العصر الويدى السلطان والمنعة فثبتوا نظام الطبقات الذى كانوا قد أقاموه من قبل ، ووضع قديسهم الأعظم منو شرائعه وفقهه الذى غدا دستور الهند وقانونها الأساسى فى كافة نواحى الحياة بها .

وظهر فى هذا العصر ، قبل الميلاد بقرون أربعة ، ملاحم للمهابهارتا والرامايانا . والأولى تشتمل اليوم على قرابة ربع المليون بيت من الشعر فى حين تضم الثانية بين دفتيها ثمانية وأربعين ألف بيت ، أى أضعاف أضعاف الياذة هو ميروس : فبذا كانتا أضخم آثار العالم الأدبية القديمة على الإطلاق .

ولا يستقيم مع العقل القول بكتابة هذه الأسفار فى بضع سنين . فهى قد تعرضت ، دون أدنى ريبة ، إلى إضافات كثيرة غزيرة على كر القرون حتى بلغت صورتها الأخيرة .

وللمهابهاتا على الخصوص قداسة عظمى عند الهنادكة، كقداسة القرآن عند المسلمين ، والإنجيل عند أتباع المسيح ، حتى ليعدون قراءة ما تيسر منها مجلبة للرحمة والمغفرة .

هذا وتنص شرائع منو على امتيازات البراهمة لا يرقى إليها الملك نفسه الذى كان عليه ألا يقطع أمراً دون الرجوع إليهم فيه أو يصير حتى على حاجة لهم .

---

(١) أبو الريحان البيرونى « ذكر ما للهند من مقولة مقبولة للعقل أو مرذولة » طبع لندن ١٨٨٧ ص ١٣

فهذه الشرائع التى رسمت لكل طائفة من الطوائف حدوداً لا تتعداها[1] قد أطلقت فى الوقت نفسه أيدى البراهمة من كل قيد وجعلت لهم زعامة الناس جميعاً . فالبرهمى لا يدنس بذنب حتى ولو قتل أهل الكون جميعاً ، فهم وما يملكون ملك يمينه .

وأباح منو لأبناء الطبقات الثلاث الأولى حق المصاهرة فيما بينهم على قدر ، حتى إذا ماتجاوزه إلى طبقة الشودرا الذين حرم عليهم مخالطتهم ، انقلبوا منبوذين يصيبهم الخزى فى الدنيا والآخرة .

وكم من شودرى نفى من الأرض لمحاولته التطلع إلى من هم أعلا منه طبقة . وكم منهم من جرع الحميم من الزيت الفوار أو قطعت يداه لمجرد معارضته للبراهمة .

وأيا ما كان من صرامة شرائع منو بشأن امتزاج الطبقات ، فقد استطاعت المرأة الهندية بفتنتها أن تحطم هذه القيود وتخترق هذه الحواجز فى أحوال كثيرة كافية لأن تنفى اليوم القول بنقاء دماء أبناء الطبقات العليا .

هكذا أتاح منو بشرائعه ذلك السلطان المطلق والنفوذ الواسع لطبقة الكهنة ظل براهما على الأرض — رب الكون الذى يحيط بجميع المخلوقات بجسم مؤلف من عناصر الطبيعة الخمسة — فأخضعوا أتباعهم لنظام مرهوب خشعوا له خشية سوء المصير فى الآخرة .

---

(١) نص منو ذهر ما ساسترا فقيه الهندوس الأكبر على أن البرهمى — سيد الطبقات جميعا — هو المعلم والكاهن والقاضى والوزير الأكبر الذى لا يقضى الملك فى أى شأن بدون رأيه ، أما الاكشترى — وكان الملك من بين الاكشترية — فعليه أن يتعلم ويقدم القرابين ويتصدق ويحمل السلاح دفاعا عن الوطن ، وأما الويشى فعليه أن يتجر ويجمع المال وينفق على رجال الدين وأهل العلم ، وأما الشودرى فعليه أن يخدم هذه الطوائف الثلاث الشريفة . (حضارة الهند) .

وضاق الناس ذرعا باطراد سلطان البراهمة واشتداد وطأتهم عليهم ، حتى بدت لهم تباشير الخلاص على أيدى مصلحين عظيمين ظهرا من بينهما فى القرن السادس ق . م . وهما مهابير صاحب الديانة الجينية و كوتاما بده صاحب البوذية .

ولقد غمضت حياة هذين المصلحين ، اللذين يقدس اسميهما ملايين من البشر اليوم ، أشد الغموض على الذين تصدوا للكتابة عنهما وعن مبادئهما فلم يجدوا ما يعتمدون عليه فى الغالب إلا الأساطير .

وعلى حد قول جوستاف لوبون ، الذى طاف بالهند سنوات عشراً باحثاً ودارساً ومنقباً حتى أخرج كتابه المشهور عن حضارتها ، فباستثناء النبى الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم ، نجد أن مؤسسى الأديان لم تؤلف سيرهم إلا بعد وفاتهم بزمن طويل مما أعسر الاطلاع على حياتهم اطلاعاً صحيحاً (١) .

والجينية ، أى عقيدة قهر النفس ، هى أسبق فى الظهور من البوذية . وفيها ينظر نبيها مهابير (أى البطل العظيم) إلى الحياة بأنها لعنة على المرء أن يتخلص منها بنعمة الانتحار البطىء جوعا ليبلغ سر الوجود ، ويدرك الحقيقة المجردة التى لا تتكشف إلا للواصلين . ذلك أن الحقيقة والمعرفة عند أهل الدنيا المتعلقين بأهداب الحياة فيها لا تتجاوز النسبى فى الزمان والمكان فيهما ، فما هو عند فريق منهم حق محسوب هو عند غيرهم باطل معلوم فى الغالب (٢) .

وطريق الخلاص عند الجينيين يقتضى الامتناع عن إيذاء أى كائن حى

---

(١) حضارة الهند ص ٣٤٤

(٢) الهند وجيرانها وهى الجزء الثالث من قصة الحضارة لـول ديورانت ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود ص ٥٩

أو جماد فالمعادن والحجارة والأشجار لها بدورها أرواح كامنة فيها ، حتى امتنعوا عن ممارسة أى عمل من الأعمال وغطوا أفواههم بأيديهم كى لا تتسرب إليها كائنات من الهواء فتقتل ، وكنسوا الأرض برفق زائد أمامهم ومن تحتهم خوف القضاء على ما يسرح فيها من هوام حين يمشون وحين يجلسون أو يرقدون . ويفعلون ذلك كله إلى أن يتم لهم أعظم انتصار تظفر به الروح على إرادة الحياة وهو الانتحار البطيء جوعاً .

هذا وحياة البدو وعقيدته كما ترويها الأساطير تتفق فى كثير وسيرة المسيح بن مريم وتعاليمه . فبوذا (البد) قد ولد كعيسى عند جذع شجرة[1] مثمرة ، وأشرقت السماء بنور ربها عند مولده ، وسمع الأصم ونطق الأبكم ، وأقبل الملوك من أقصى الأرض يرحبون بمقدمه . وهو يماثل عيسى عليه السلام فى الصيام فى البرية ومحاولة الشيطان أن يغويه . هذا كما نرى كلتا الديانتين تدعوان إلى أن يتغلب المرء على غضبه بالكظم والعفو ، ويزيل الشر بالخير والكراهية بالحب . بل لقد استخدم البوذيون للماء المقدس والبخور وأضاءوا معابدهم بالشموع ، كما ابتدعوا الرهبانية فارتدى رجالها مسوحا خاصاً بهم ، وحملوا المسابح واعتكفوا بالأديرة ، وتقبلوا الاعتراف من المؤمنين ، قبل أن يفعل اتباع عيسى ذلك كله بقرون عدة[2] .

وإذا كان مبلغ علم هؤلاء الكتاب فى ذلك لا يعدو ما وقفوا عليه فى الأساطير الغامضة ، فلا يجوز لنا أن نصل بأقوالهم إلى نتائج إيجابية عن مبلغ دينونه إحدى هاتين العقيدتين للأخرى ، وهو ليس من موضوعنا على كل حال .

---

(١) يذكر الأستاذ جوستاف لوبون أيضاً فى كتابه ص ٣٣٤ نقلا عن الأساطير الهندية أن البد قد ولد من أم عذراء كذلك .

(٢) الهند وجيرانها ص ١٩٨

ويتفق البد مع مهابير فى إنكار وجود خالق للعالم وأن الموجودات كلها ليست إلا وهم وظواهر باطلة فانية ، وأن الحديث عن الكون وهل هو متناه أو لا متناهياً ، والروح وامتزاج النفس والبدن أو انفصالها ما هو إلا أسطورة وخرافة من خرافات الفلاسفة . وكذلك أنكر البد القضاء والقدر وقال بأن مصير كل حى منوط بسلوكه الذى قد يقوده إما إلى السعادة أو إلى الشقاء ، فلا آخرة ولا جنة بنعيم ولا سقر بجحيم .

على أنه ، أى البد ما يلبث أن يختلف مع سالفه فى مسألة تعذيب النفس الذى أدى به حين مارسه إلى الشعور بالغرور فكاد يقصيه عن الطريق لبلوغ المعرفة وسلم بوجوب الحياة على أن يكبح الإنسان جماح شهواته الذاتية ساعياً إلى الخير المجرد دون سواه ، إذ أن كل لذة تحمل فى طياتها سماً هو الألم الذى يرجحها .

وسخر البد من البراهمة سخرية شديدة هزت من كيانهم حين أعلن بأن الطقوس وشعائر العبادة وما وراء الطبيعة واللاهوت مسائل لا تستحق النظر ، وأن القرابين والأدعية والتمائم إن هى إلا من صناعة الكهنوت . كما هاجم نظام الطبقات ضمنا حين صرح بأن الناس ، أشرافهم وأدنياءهم وأغبياءهم ، كلهم سواء .

وقضى على الجينية بقلة الانتشار ما تدعو إليه من تطرف بالغ فى التقشف والزهد حرم على أتباعها التملك والزواج والتدثر بالثياب[1] . فليس لها اليوم

(١) الناسك الحق هو الذى يقهر جميع مشاعره فلا يشعر بالحر أو البرد . والمرء طالما يتذكر أنه عار أو هناك خير أو شر ، حسن أو قبح ، فمعناه أنه لا يزال متعلقا بالدنيا ومافيها فلا يفوز بالنجاة والشعور بالحياء من العرى يتضمن تصور الإثم . فترك اللباس هو ترك الإثم وقد كان آدم وحواء يعيشان فى الجنة عاريين بطهر كامل ، حتى أكلا ، بفعل الشيطان من شجرة العلم بالخير والشر فأخرجا من الجنة .

بالهند إلا أتباع ، (دون المليون عداً) يتناقصون بالتدريج . ولا ينبذ الثياب منهم إلا قد يسوهم المتقون والغالب أن ما كان يصمد إليه غاندى زعيم المنادكة الأكبر من التطهر بالصوم الشاق والسير فى خرقة بسيطة ، لا تستر إلا عورته ، لم يكن إلا أثر من آثار هذه العقيدة .

وفى الوقت الذى لم يأبه البراهمة فيه لأمر الجينية التى لم تكن بذات خطر جدى بالنسبة لهم ، انصرفوا انصرافاً نشيطاً حازما إلى العمل على تقويض صرح البوذية المتسامحة التى غدت تناوىء سلطانهم حتى أحدثت تغييرات غير قابلة فى نظم الهند الاجتماعية والسياسية بما صار لها من أتباع كثيرين ؛ فما زالوا بها حتى أفلحوا على كر السنين فى تقويض نفوذها بالهند لتلقى قدراً كبيراً من الرواج فى بورما وبلاد الصين واليابان والتبت من بعد ذلك .

ذلك أن رؤساء البراهمة عمدوا إلى إدخال قدر غير يسير من التطور والتسامح فى شعائرهم ، فى الوقت الذى انحرف فيه سدنة البوذية عن مبادئها الأولى المبسطة إلى مستحدثات معقدة أقحموها على عقيدتهم ، وراحوا ينشدون لأنفسهم ، بغرور ، نظير ما للبراهمة من مجد وسلطان ، حتى وسعوا ، بامتيازاتهم التى ادعوها لأنفسهم ، الشقة فيما بينهم وبين أتباعهم الذين ما لبثوا أن جذبهم تسامح البراهمة الطارىء وتدبيرهم المحكم حين أخلوا للبد نفسه مكاناً بين آلهتهم هو ومهابير ، وأعلنوا لهم قدسيتهما ، فراحوا يعبدونهما وكانوا قد نهوا عن ذلك من قبل .

وهكذا ظهرت برهمية جديدة لا تختلف عن البرهمية القديمة فى كثير . وساعد على استرداد أصحابها لسلطانهم القديم ما وجدوه عند الأمراء الراجبوتيين

من مناصرة وتشجيع وتعضيد يسر لهم نشر مدارسهم فى كل مكان، حتى سادت عقيدتهم الهند كلها لا يضيرها وجود تلك القلة الجينية الضئيلة .

ودين الهنادكة اليوم السائد هذا ، للألوهية فيه ثلاث صور رئيسية هى : براهما الخالق سيد الآلهة والمسيطر على العالم كله والذى يحيط بجميع الكائنات فتنمو بعد أن تولد ثم تنحل على مايشابه مذهب وحيدة الوجود ، ووشنو الحافظ إله الحب الذى أحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص ثم صعد إلى السماء ليعود إلى الناس من جديد قبل النشور ليهديهم إلى الحق ، وشيوا المدمر الموكول به قبض أرواح الناس وخلاصها من أبدانهم . وإلى جانب هؤلاء الآلهة فهناك ملايين من آلهة آخرين تزدحم بها الهند بعضها أقرب إلى الشياطين وبعضها أقرب إلى الملائكة ومنها ما هو فى صورة الطير أو الحيوان والهوام . وتجمعها كلها كالشبكة لا حدود لها تتناسخ الأرواح فيها .

والهندوكية المشتركة ، أى البرهمية الجديدة ، والشيوبة والوشنوية وجميعها مستمدة من البرهمية الأولى ، لم يقف الأمر عند تفرعها إلى مذاهب لا حصر لها ، هى اليوم فى عددها أشبه بأوراق شجرة باسقة كثيفة الأغصان أيام الربيع ، حتى ذهب أتباع كل مذهب منها يتشددون فى أحكامهم فلا يطاعمون غيرهم أو يجالسونهم (١) .

لغات الهند :

لم يكن عجباً وفى شبه القارة الهندو باكستانية من المذاهب والعقائد

---

(١) حضارة الهند ص ٦١١

ما لا يدخل تحت حصر أن يروج فيها أكثر من مائتين من اللغات وما يتفرع عنها من لهجات تربو على الثلثمائة .

وترد لغات الهند عموماً إلى أصلين اثنين :

الأصل الآرى وإليه ترجع أغلب لغات الشمال وقسم من لغات الوسط ، والأصل الدراوى وإليه ترد أغلب لغات الجنوب ومناطق متفرقة فى الوسط والشرق .

والسنسكريتية هي أشهر لغات الهند الآرية القديمة وأعرقها ، وبها كُتبت أسفار الهند المقدسة القديمة . ولقد أتى على هذه اللغة حين من الدهر كاد يكون استعمالها فيه مقصوراً على رجال الدين والعلماء ، ثم كُتب لها من بعد ذلك قدر من الرواج بفضل تشجيع بعض سلاطين المسلمين . حتى إذا جاء « أكبر » ، أعظم سلاطين الدولة المغولية ، ينادى بأن الهند للهنود ، هنادكة ومسلمين ، صادفت هذه اللغة بدورها رواجاً كبيراً إذ راح هذا السلطان النابه يحفز الهنادكة على الاشتغال بآدابهم وإحياء تراثهم فى نهضته العلمية الكبرى التى لم يعرف العالم لها نظيراً فى عصره . وهى اليوم ، أى السنسكريتية ، لغة جمهورية الهند الحديثة . ويصفها بعض اللغويين الأعلام بأنها فضلا عن اتحادها فى أصولها مع أغلب اللغات الأوربية فإنها أكمل من لغة اليونان وأوسع من لغة الرومان ، أى اللاتينية ، وأدق من كليهما (1) .

وتروج فى الدكن والجنوب لغة تأمل وتلنجو وهما من اللغات الدراوزية القديمة .

---

(1) Elp ninstone, M, the History of India London 1911 p.161.

وأعظم لغات شبه القارة الهند وباكستانية انتشاراً هي الأوردوية وهي لغة آرية وضع قواعدها ونحوها علماء المسلمين. وكلمة أوردو معناها المعسكر. والمقصود هنا معسكر أسرى المغول والترك المسلمين حول دهلي حيث نشأت هذه اللغة فبدأت بالظهور في القرن العاشر الهجري. وألفاظها مزيج من العربية والسنسكريتية والفارسية والتركية. وهي في قواعدها آرية خالصة، وتكتب بالحروف العربية مع الإضافات الفارسية [1].

ولا يزال للفارسية سوق رائجة في الأوساط الإسلامية وما برح المجوس، الذين يعرفون بالبارسيين، محتفظين في الغالب بلغتهم البهلوية القديمة. وهم في غرب البلاد على قلتهم يعدون بين أصحاب الثراء الواسع. هذا إلى جانب بعض اللغات الآسيوية والأوروبية الأخرى التي تسمع هنا وهناك بالهند.

تاريخ الهند القديمة وحضارتها

كان بشبه القارة الهندوباكستانية حضارات مزدهرة أيام كان المصريون يقيمون أهراماتهم قبل ميلاد المسيح بقرون ثلاثين. فقد كشفت بعثة مارشال في حفرياتها عند « موهنجو دارو » في غرب السند عام ١٩٢٤ م عن آثار، يرجع تاريخها إلى عصر الأهرامات، لمدنية عريقة كانت تسود البلاد إذ ذاك، وكان أصحابها على صلات اقتصادية وثقافية وسياسية ببابل في الغالب. وهذه المدن الأربعة أو الخمسة التي كشفت عنها هذه البعثة، والتي كان يقوم بعضها فوق بعض، حوت دوراً من طبقات عدة قوامها الآجر المتين، وإلى جوارها الحمامات والآبار، وفيها آنية من خزف مصقول، وأسلحة دقيقة، وزخارف

---

(١) هي الباء المثلثة أي التي تكتب بنقط ثلاث من تحتها. ثم الجيم المثلثة والزاي والكاف الفارسية.

رقيقة من الخشب والمعدن ، وأدوات للزينة مما لا تروج عادة إلا في أرقى المجتمعات[1].

على أن قلة وثائق الهند القديمة التاريخية عموما ، وصعوبة الاستدلال على ماضيها من نقوشها وأطلالها ، قد أظهر المؤرخين على أن لا معدى لهم من أن يستشفوا من كتب هذه البلاد الدينية القويمة وملاحمها ، وما حوت من أكداس الأساطير ، ما يكشف عن ، بعض نواحي التاريخ الهندي القديم وأحداثه .

وحمد جمهرة المؤرخين . لمؤرخي المسلمين ورحالتهم جهدهم العلمي البارز الموفق حمداً جعلهم يقررون بأن أظهر أدوار الهند التاريخية[2] لم يبدأ إلا بتدوينات هؤلاء العلماء الذين صحبوا الفتوحات الإسلامية في الهند ، ونعني بها تلك الفتوحات التي بدأها محمود الغزنوي وخلفاؤه فأخضعوا أغلب شبه القارة الهندية لحكمهم ، بعد أن كان العرب قد اقتصر أمرهم في القرن الأول الهجري على احتلال بعض ولايات سندية صغيرة . وسنتحدث عن ذلك كله تفصيلا في الصفحات التالية .

وعاون كذلك على استجلاء غوامض تاريخ الهند القديم ما وصلنا من تدوينات بعض الرحالة الذين زاروا الهند في القديم واطلعوا اطلاعا واسعا على أحوالها ، أمثال ميغاستين ، سفير السلوقيين الإغريق لدى دولة الموريا الهندية في القرن الثالث قبل الميلاد ، ثم الحاجين الصينيين البلاذيين فاهيان

---

(١) Dunbar, pp 1—3, 583

(٢) حضارة الهند ص ٢٠٦

وهيون تسيانغ اللذان طوفا بالهند فى القرنين الخامس والسابع الميلادى على التـــوالى .

ولا نعرف من تاريخ الهند قبل نفاذ الإسكندر المقدونى إلى هذه البلاد إلا استيلاء الفرس على أقليم السند والقسم الشمالى الغربى من هـــذه البلاد فأقاموا به قرنين من الزمن واستخدموا سكانه وفيولهم فى جيوشهم فحاربوا بهم اليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد .

وا كتسح الإسكندر بلاد فارس ثم نفذ من أرض كابل إلى السند فدخله عام ٣٢٦ق.م ، بعد أن عبر الهندكوش ، فطفق يتجول بالبنجاب عاما بأ كمله . حتى إذا ما عزم على المضى فى الفتح قدما بعد ما هزم بورس ملك الهند ، ليبلغ البحر فى ناحية الشرق فيقيم له إمبراطورية هندية ، عارضه رجاله ، الذين لم يصبروا على احتمال حر هذه البلاد مع ماعاودهم من الحنين إلى بلادهم ، فاستدار بهم عائدا إلى وطنه ، عبر بلوخستان ، فوافاه أجله فى الطريق قبل أن يبلغه .

وكان من أثر فتح الإسكندر هذا اتصال الهند بثقافة الإغريق وحضارتهم اتصالا وثيقا . أما ما أسسه بعض قادته ، ومن تخلف معهم من رجالهم ، من بعض الأمارات بالسند ، فلم يعمر إلا عدد سنين .

وظهر بالهند ، أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، إمبراطورية الموريا الهندية التى اتخذت لها الطاووس شعارا . وكانت رقعتها تمتد من البنغال إلى الهندكوش وتضم معها مالوه والسكجرات وأرض كابل .

هذا وكان جندرا كبتا (٣٢١ — ٢٩٦ ق.م) مؤسس هذه الدولة قد

أقام بدوره زمنا بمعسكر الإسكندر ، إذا كان أبوه من زعماء البنجاب الذين وقعوا فى أسر القائد المقدونى ، ثم نكل بالحاميات الإغريقية من بعد ذلك وطفق يوسع من رقعة ملكه متخذا من بتنه حاضرة له.

وذاع صيت هذا الملك الهندى ، حتى بعث إليه نيكاتور السلوقى ، الذى ملك بعد وفاة الإسكندر سوريه وبابل ، سفيره ميغاستين فاطلع اطلاعا واسعا على أحوال هذه البلاد وطباع أهلها وعاداتها ، حتى ليُعَد ماوصل إلينا من مذكراته ، من أهم مصادر الهند التاريخية القديمة[1] .

وقد أشاد هذا المبعوث الإغريقى بما كان عليه قصر الملك من الروعة والفخامة وما كان يزينه من نقوش وجواهر وعُمد طليت بالذهب . كما وصف الحضارة الهندية التى كانت قائمة إذ ذاك بأنها تساوى أختها اليونانية مساواة تامة . وأثنى الثناء الكثير على شيوع الفضائل ونصرة الحق بين السكان عموما ، وانعدام الرق عندهم رغم قيام نظام الطبقات فيما بينهم[2] .

وكان من أهداف هذا السفير العمل على تحويل مجرى التجارة الهندية إلى بلاد الشام ، عبر مملكة السلوقيين ، بدلا من الطريق البحرى الذى ينتهى بها إلى مصر فتثرى من ورائه . ودهمت الهند فى أواخر عصر هذا الملك مجاعات شديدة اعتزل الحكم بسببها ، فترهب مدى اثنى عشر عاما قتل نفسه فى آخرها جوعا على مذهب مهابير .

---

(١) Cambriqge History of Indie pp. 3-4.467

(٢) Havell, E.B. The History of Arayen Rule in India. pp. 75-83.

ويعتبر المؤرخون حفيده الملك الفيلسوف آزوكا (آشول : ٢٧١ — ٢٣١ ق.م) أول حاكم واضح الشخصية فى تاريخ الهند القديم[١] . وبه يبدأ تاريخ المعمارى ؛ ولا تزال بهذه البلاد حتى اليوم كثير من عُمُدِهِ التى أقامها فى أنحاء متفرقة بها لتنقش عليها مراسيمه ، هذا فضلا عن قصوره التى وصفها الرحالة فاعيان بأنها كانت من الأعاجيب .

وتروى الأساطير أنه قتل أخوته المائة الذين ولدوا لأبيه من ست عشرة زوجة ليأمن بذلك منافستهم له فما غدا أن ندم على فعلته ، فوقف حياته من بعد ذلك على التعبد والعناية بأمر الدين حتى صار داعية البوذية الأكبر الذى أحيا شعائرها من جديد . فقد أمر عماله فى كافة أنحاء بلاده أن ينظروا إلى رعاياهم نظرتهم إلى أبنائهم فيعاملونهم بالحسنى ، كما بنى دورا للشفاء وملاجىء للعجزة من الإنسان والحيوان ، ثم بعث بمبشرى هذه العقيدة إلى خارج الهند فبلغوا مصر واليونان وسوريا وبلاد العرب ، كما انتشروا فى أواسط آسيا وجابوا التبت والصين واليابان . وفى عهد هذا الملك عرفت الهند النقود كأداة تعامل لأول مرة فى تاريخها .

وانتهى أمر أسرة الموريا هذه عام ١٨٤ ق.م . على أيدى أسرة أندهارا التى خلفتها فى بلادها .

وظهرت قبائل السكا على حدود الهند الشمالية الغربية بعد قليل ، وأنشأت لها إمارات فى الشمال والوسط ، ولكن أسرة اندهارا ماعتمت أن تصدت لستاربتهم[٢] فأنزلت بهم هزائم كثيرة .

---

(١) Havell. p 89

(٢) الستربه هو حاكم الإقليم عند الفرس القدماء ، وعنهم أخذ البابليون والإغريق .

كذلك عبرت قبائل كوشان السيثية حدود الهند الغربية وتوغلت فى شمال الهند حتى بنارس . وفى عهد ملكهم كنشكا ضمت دولتهم أرض كابل والبنجاب والراجبوتانا .

ويعد هذا الملك ثانى حماة البوذية فى الهند بعد آزوكا[1] . فقد جمع مجلسا من كهنة البوذية الكبار عهد إليهم بتدوين سنن البوذية فبلغت ثلثمائة ألف نص رفعوا فيها البد إلى مصاف الآلهة .

وفى عهد هذا الملك الذى كان على اتصال بالرومان ، راجت الحياة العقلية رواجا كبيرا وازدهرت العمارة والنحت .

ويغيم تاريخ الهند حتى بداية القرن الرابع الميلادى لتظهر أسرة كبتا الثانية على مسرح الحوادث فى شبه القارة ، فتطرد ، بفضل بطولة ثانى ملوكها بكر ماديت ، السيث أصحاب كنشكا من الهند ، وتُبعِد عن حدودها ستاربة السكا ، ثم تبسط نفوذها من بعد ذلك فى الشمال والوسط والغرب وتخضع لولائها الدكن والبنغال وآسام .

وقد تحدث الرحالة الصينى فاهيان فى مذكراته عن ملوك هذه الأسرة ، ووصف بلاطهم وما كان به من الفلاسفة والشعراء وكُتّاب المسرحيات[2] .

وخلب لب هذه الحجاج البوذى مارأى بالهند إذ ذاك من مدن كبيرة تعج بالحركة والسكان ، وما صادفه من دور للشفاء مجانية عديدة ورباطات كثيرة ، بل

---

(١) Morcland, W. Ashort history of India. London 1936 p.76.

(٢) Dunbar, India. pp 70-72

ومدارس وجامعات تزدحم بعلمائها وطلابها ، ومن بينها جامعة تكسيلا السندية ومدرستها الطبية المشهورة . هذا فضلا عن شيوع العدل بين الناس ورخاء العيش .

وفي عهد هذه الأسرة نعم البراهمة برعاية ردت لهم سلطانهم ونفوذهم القديم الذي كان آشوكا قد حد منه كثيرا ، فراحوا بالتالي يحيون تقاليدهم الأدبية من جـــديد فكتبوا المهابهارتا والرامايانا في صورتيهما الحاضرة في الغالب (١) .

وظلت هذه الأسرة تحكم الهند حتى أقبل الهون من بلاد ما وراء النهر في القرن الخامس الميلادي فقضوا عليها في الوقت الذي كانت فيه قبائل أخرى منهم تتوغل ، بقيادة زعيمهم الأكبر أتيلا ، بأوروبا .

وأقام عرشا ، وكان من سلالة الكوبتيين ، امبراطورية واسعة له في القرن السابع الميلادي شملت آسام والكجرات مع شمال الهند كله . وكان هذا الملك شديد الرفق برعاياه فحد من سلطان البراهمة وأخذ بيد البوذية من جديد . ويروى عنه أنه كان يتنازل لشعبه عن كل ثروته مرة في كل أربع سنوات . وقد استنفذت هباته في إحدى هذه المرات كل أمواله وأملاكه حتى ذهب يستجدي أختاً له رداء قديماً ليتدثر به ، فما كاد يتناوله منها حتى سجد للبُد حمداً وشكراً (٢) .

ويذكر الحاج الصيني الثاني هيون تسيانغ الكثير عن فضائل هذا الملك العابد الذي انتزع الملك من الهون ، ويشيد بما كانت عليه حاضرته قنوج

---

(١) الهند وجيرانها ١١١

(٢) Ischwari Prasad. Medieval India P.XXIX.

من الروعة والفخامة . وهذه المدينة التى كانت حاضرة أسرة كُبتا من قبل ، والتى ذكرها بطليموس الجغرافى عام ١٤٠ م باسم قنوّجيا ، كما أعجب بها محمود الغزنوى فاتح الهندستان إعجابا شديداً ، كانت تقع إلى الشرق من آكرا الحالية وعلى مسيرة كيلو مترات قليلة من نهر الـكنج .

وانفرط مُلك هرشا عقب وفاته مباشرة . ذلك أن خلفاءه ، لم يستطيعوا لضعفهم أن يقفوا فى وجه قبائل الهون التى طفقت تتدفق من جديد على أرض الهند ، فضربت الفوضى أطنابها فى أنحاء البلاد ، وقام بين أمرائها مايشبه الحرب الأهلية التى أخذ البراهمة يذكون نيرانها طلبا لزيادة نفوذهم ولإخضاع البوذية لسلطانهم .

واستطاعت إمارة قنوج ، برغم انسلاخ الجزء الأكبر من إمبراطورية هرشا الواسعة عنها ، أن تحتفظ بمركز الصدارة فى الشمال الهندى كله . وظلت تقاوم غزوات أمراء كشمير والبنغال وما حولها حتى نهض بها مهير بهوج فى القرن التاسع الميلادى فاسترد لها كثيراً من أملاك هرشا السابقة فى البنجاب والدوآب وعند كواليار . وبدأت الغزوات الإسلامية تترى على هذه الإمارة منذ أوائل القرن الحادى عشر الميلادى فلم يشارف على نهايته حتى دخلت فى حوزة المسلمين .

كذلك بقى بسال دبوا يسيطر هو وأحفاده على إمارة دهلى ، التى كانت تمتد فيما بين الهملايا والوندهايا ، حتى اقتحمها الغوريون ، خلفاء الغزنويين ، عليهم وجعلوا من مدينتهم الكبرى حاضرة لملكهم .

أما مالوه فكان قد نهض بها بدورها راجا كرسنا فى القرن التاسع الميلادى. واشتهر خلفه مونكا ، إلى جانب بطولته فى الحرب ، بتشجيعه ورعايته للفنون

والآداب السنسكريتية . وقد اعتنق آخر حكام مالوه الهنادكة الإسلام على أيدى الخلجيين فى بداية القرن الرابع عشر الميلادى .

هذا وقد اشتهر من بين حكام الكجرات « مولراجا » الذى بنى معبد سومنات وخليفته راجا بهيما الذى حاول أن يحمى هذا المعبد الشهير بوقوفه فى وجه محمود الغزنوى الذى دمره عن آخره ، وقد ضم الخلجيون إلى أملاكهم أيضاً هذه الولاية التى تعد أهم مراكز التجارة الهندية .

وبرغم أن هرشا لم يستطع فتح إقليم كشمير فإنه أفلح فى حمل أصحابه على قبول البوذية فى بلادهم .

وأتيح لهذه الإمارة فى القرن الثامن الميلادى أن توسع من رقعتها حتى اشتهر أمرها ، فقامت بينها وبين الصين علاقات اقتصادية وثقافية وسياسية .

على أن وعورتها وحصانة موقعها الطبيعى لم تمنعها على غزاة المسلمين ، فاجتاحتها جيوش محمود الغزنوى الذى يرد إليه الفضل فى نشر الإسلام بها .

وسطع نجم بهار والبنغال بعد انفصالهما عن ملك هرشا ، فحكمهما أسرتا بالا وسنا على التوالى .

وبسطت الأولى منهما نفوذها على أغلب الشمال الهندى بعض الوقت . وكان الخلجيون هم أول غزاة من المسلمين نفذوا إلى هاتين الإمارتين .

أما إقليم السند ، وهو آخر الأقاليم الشمالية التى نتحدث عنها ، فقد خضع طويلا لقبائل السكا الآرية حتى انتزعه منهم الملك البرهمى داهر ، وهو الذى وجده العرب المسلمون على هذا الإقليم عند غزوهم له .

ويشير الرحالة الصينى هيون تسيانغ إلى حكم الأمراء الراجبوتيين فى الدكن . وقد اشتهر من بينهم أسرة الشاليوكيين ، إذ استطاع بليكسين الثانى، أحد ملوكها ، أن يقف فى وجه هرشا سالف الذكر ويغزو الكجرات ومالوه والراجبوتانا ، كما أنشأ علاقات ود وصداقة مع ملوك الفرس والساسانيين . وتعد النقوش التى ظهرت فى عهده من أعظم آثار الهند الفنية حتى اليوم .

وخلف الشاليوكيين على عرش الدكن أسرة راشتراكوتا فى القرن الثامن الميلادى ، وقد قامت بينها وبين العرب علاقات اقتصادية[1] قوية ، وكان تجارهم حين يفدون إلى بلاد الدكن يقابلون بالحفاوة والترحيب .

وبقيت الدكن تستعصى على غزاة المسلمين حتى اجتاحها الخلجيون الذين بلغوا بفتوحاتهم شبه القارة الهندية جنوباً .

والأمراء الراجبوتيون الذين حكموا فى إمارات الشمال والدكن ، والذين ذاعت شهرتهم وبطولتهم فى التاريخ الهندى والأساطير على السواء ، لم يصل الباحثون حتى اليوم إلى حقيقة أصلهم . والرأى الغالب أنهم من أصلاب الأبطال الآريين الذين سبقوا الهون إلى أرض الهند فحكموها . وقد احتموا من وجه الغزاة المسلمين آخر الأمر بالمنطقة الصحراوية الوعرة بصحراء الثار التى عُرفت باسمهم كما تعرف كذلك براجستان أى أرض الملوك . وترد الأساطير الهندية نشأتهم إلى تزواج القمر بالشمس .

على أن بطولة هؤلاء الأمراء هذه لم تمنعهم من الانغماس فى تيار المنازعات الداخلية ، شأنهم فى ذلك شأن الأمراء الإقطاعيين فى كل زمان ومكان ،

---

(١) Prasad. India pp. 30-03

فآثروا فى الغالب الاندفاع وراء أطماعهم على الاتحاد والتآزر لدفع الغزاة والفاتحين عن الهند وطنهم الأكبر .

وتاريخ جنوب الهند أشد غموضاً من تاريخ شمالها الذى لم يرتبط به إلا عرضاء ولا تشير كتب الشمال وملاحمه ، بل ونقوشه وآثاره ، إلى الجنوب إلا إشارات قليلة ، وجدت فى مخلفات عصر آشوكا وبعض مخلفات أخرى، تفيد قيام ممالك بهذا القسم الهندى قبل الميلاد بقرون قليلة . وما وجد من كتابات التمول والتلنجو عن هذا الجنوب لا يسبق القرن الثامن الميلادى فى التقدم ، ولا يجاوز مابه من نقوش وآثار القرن الخامس .

ويرجع ظهور ممالك الجنوب الكبرى ، وهى بنديا وكولا وجيرا ، إلى ماقبل ميلاد المسيح بقليل . وكانت الأولى تقع بأقصى الجنوب ، وكانت على قدر كبير من الثراء وعلى اتصال اقتصادى وثيق بالمصريين والرومان كما كانت عاصمتها مادورا من أجمل مدن الهند إذ ذاك . وإلى الشمال منها والشرق كانت تقوم إمارة كولا ، فى حين كانت جيرا تقع إلى الشمال من الأولى وإلى الغرب من الثانية .

وتمكن حكام كولا من الاستيلاء على بنديا وبسط سلطانهم على جزيرة سيلان جنوبا ، فى حين امتد نفوذهم فى الشمال حتى البنغال وأوده وإن لم يعمر طويلا هناك .

وبلغت جيرا بدورها شأوا عظيما فى القرنين الرابع والخامس ، فلم يهل الثامن الميلادى حتى تجاوز نفوذها نهر نربدا .

وأخذ وسط الهند وجنوبها يتعرض للغزو الإسلامى ابتداء من أيام الخلجيين حتى استقل أمراء من المسلمين بسلطنة بهمنى الدكنية فى القرن الرابع عشر

الميلادى ليقوم من ورائهم بالجنوب ، على أنقاض إماراته الثلاث سالفة الذكر ، إمارة فيايانكر الهندوكية أعظم الإمارات التى عرفها الجنوب . ومنع من القضاء عليها ما كان من اقتتال خلفاء سلطنةبهمنى فيما بينهم ، فلبثت وبعض دويلات هندوكية فى الجنوب تنعم بالنفوذ والاستقلال حتى بسط أورنك زيب المغولى سلطانه على شبه القارة الهندية بأكمله .

هذا وقد كان لقدماء الهنود حضارة عريقة ومدنية رفيعة بلغت من الرقى درجة عالية ، فلم تسكن أقل شأناً من نظائرها عند اليونان ومصر فى القديم .

وتشير كتب الهند القديمة إلى قيام النظام الجمهورى ، وتتحدث عن الوزراء والمجالس النيابية والتشريع والقانون والإدارة حديثاً ديموقراطيا ؛ وتصف الملك الهندى بأنه فى حقيقته خادم لقومه يحصل على أجره ، وكان السدس السنوى من الحاصلات ، ليعمل به على رفاهيتهم (١) .

هذا ولما كانت مساحة البلاد الواسعة لا تمكن الحكومة المركزية من الاضطلاع بشئون السكان فى كل مكان ، فقد أدى ذلك تلقائيا إلى قيام مجتمعات صغيرة متماسكة بالقرى ترعى شئون نفسها بنفسها فى وحدة تامة لا يعلوها سوى الدولة .

فكانت القرية منذ القدم ، بنظامها السياسى والاجتماعى هذا ، وطن الهندوكى الذى يقوم على كافة شئونه الدنيوية والدينية . ففيه حكومته وقاضيه وكاهنه وطبيبه وشاعره ، ومن حوله أبناء عشيرته الذين يشعرونه بأنه واحد منهم ؛ فهو يشترك معهم فى العمل بأرض القرية التى هى فى الغالب مشاع بينهم ، وله

Plasad, Iudia pp XXIII. XXXIV. (١)

من بعد ذلك نصيب من ثمارها أو دخلها ، عن طريق العمل أو عن طريق الميراث .

ولم يتعرض الغزاة وحكوماتهم فى الغالب لهذا النظام ، فلم يكن يعنيهم إلا دفع الضرائب لهم ، وهو ما كان يهون على الفلاح الهندوكى أمره من بعد ذلك [1] . وكانت حالة الفلاح الهندوكى عموماً تتراوح بين الميسرة والمعسرة وفقاً لما يطالب به من ضرائب .

والمرأة الهندية كان لها فى مجتمعات بلادها القديمة شأن مهم ، فشاركت فى الاشتغال بفنون المعرفة ، حتى لاتزال الهند تتغنى بذكرى جارجى التى كان لها شرف الانخراط فى سلك الفلاسفة القدماء [2] وشاركت الهندية كذلك فى الدفاع عن بلادها فحاربت غير مرة بجانب صناديد الهنــد وصعدت فوق المواقد مفضلة للموت حرقا على الوقوع فى أيدى الأعداء .

والمرأة الهندوكيــة لاتتوانى فى الغالب ، ما أتيحت لهــا الفرصة حتى اليوم ، فى أن تحرق نفسها مع جثمان زوجها عن إيمان وشعور بالزهو والشرف بين دعاء القوم وهتافهم . ولعل مما ساعد على ممارسة عادة الساتى هذه ، ما كان ينتظر الأرملة التى ليس لها ولد ، على الخصوص ، من بؤس وشقاء ، إذ تصير منبوذة محتقرة من الناس جميعاً ؛ فلم يكن لها مناص إذن من سلوك طريق الساتى التى لاتزال تمارس حتى اليوم ما أفلت الناس من الرقابة .

هذا وقد وصل فن العمارة فى الهند القديمة إلى ذروة الرقى والجمال الذى

---

(١) Le Bon. pp 637.33

(٢) الهند وجيرانها ص ٢٨ ، ٤٢

تجلى فى معابدها الرائعة وأبنيتها الفخمة فبهر أعين الرحالة والمؤرخين من الإغريق والصينيين والمسلمين الذين زاروا هذه البلاد واطلعوا على أحوالها.

أما الصناعات الهندية، من معدنية وخشبية وحجرية وعاجية وجلدية وصوفية وحريرية وقطنية، فقد بلغت شأواً كبيراً من الازدهار قبل الميلاد بقرون كثيرة. وكان لكل طائفة من أبناء الحرف فى الغالب نقابة قوية تنظم شئونهم وتدافع عن حقوقهم.

وحملت قوافل الهند، مابين برية وبحرية، منتجات هذه البلاد منذ القرن التاسع قبل الميلاد إلى كافة نواحى العالم القديم مباشرة أو بواسطة بلاد الشرق الواقعة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط، فتبارز المقاتلون بسيوف الهند البتارة، وتعطرت النساء بعطورها ورفلن فى حريرها وازين بلآلئها، وازدحمت الجموع حول الملاعب ليشاهدوا نمور الهند وفيلتها فى المعترك[1].

وكانت الهند إذ ذاك تتداول مايشبه خطابات الاعتماد والضمان المتعارف عليها فى عالم الاقتصاد اليوم، وتتعامل بالنقود قبل الميلاد بزمان طويل.

ويذكر الرحالة الصينى هيون تسيانغ الكثير عن انتشار الجامعات بالهند القديمة ومنها جامعة تاكسيلا التى كانت تشتهر بالبحث العلمى أيام الإسكندر وجامعة يوجين الفلكية وأجانتا الطبيّة وبنارس البرهمية ونالاندا البوذية؛ ويفيض فى حديثه عن الفلسفة الهندية وازدهار العلوم والفنون بهذه البلاد. والواقع أن اشتغال الهنود بالعلوم وتقدمهم فيه قديم جداً. فعالمهم آريه بهت، الذى ترجم العرب كتبه أيام العباسيين، هو الذى سبق إلى إثبات دوران الأرض

---

(١) Havell, pp 14 75, 130

حول محورها وأعلن عن كرويتها وعلل أسباب الكسوف والخسوف[1] والانقلابين والاعتدالين فى الفصول الأربعة ؛ كما تحدث عن قيمة النسبية التقريبية المستعملة فى حساب مساحة الدائرة ، ووضع كثيراً من قوانين حساب المثلثات والجيب .

وخلف هذا العالم رياضى آخر يدعى براهما كوبتا وطائفة من الفلكيين قسموا العالم إلى اثنى عشر شهرا ، وكل شهر إلى ثلاثين يوما ، وحسبوا بدقة بالغة مواقع النجوم فى أفلاكها وبحثوا فى قوانين الجاذبية ، كما ابتكروا فكرة السالبية فى الجبر ، وعالجوا الجذور وقواعد التبادل والتوافق .

وكذلك نبغ الهنود فى الكيمياء فصهروا الحديد وبلغوا بالصلب درجة عالية لم يصل إليها غيرهم ، حتى اعتبر الإسكندر هديتهم له منه من أنفس الهدايا وآثرها على الذهب والفضة[2] . ولعل ذلك كان هو مرد شهرة أسلحتهم وسيوفهم هذا كما تفننوا فى الصباغة والدباغة وصناعة الزجاج والصابون ، وكلسوا وقطروا وحضروا الأملاح على اختلاف أنواعها.

وكما بذ الهنود القدماء الإغريق فى نواح من الرياضيات كثيرة ، كذلك فاقوهم فى العلوم الطبية حتى رأينا ديوسقورس الطبيب، الذى عاش بالإسكندرية قبل الميلاد بقرن ، يستخدم كثيرا من المصطلحات الطبية الهندية[3] . فقد كانوا على إحاطة تامة بتشريح الجسم ووظائف الأعضاء والعضلات والأنسجة وتركيبها وخواصها ؛ كما استنبطوا ضروبا من المخدر استعانوا بها على إجراء الجراحات

---

(١) Dunbar, pp 80.81

(٢) الهند وجيرانها ص ٢٤٠ .

(٣) تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ، ترجمة المرحوم حمزه طاهر ص ٦ - ٤ .

الكثيرة التى كانوا يحذقونها ؛ وضبطوا النسل على طريقة لا يعارضها رجال الدين ؛ واهتدوا إلى لقاح الجدرى قبل الميلاد بخمسة قرون ؛ وتمكنوا من تشخيص المرض بمجرد النظر فى بول المريض .

ولا نعدو الحق حين نقول كذلك إن الفلسفة الهندية قد ذاع صيتها قبل أن يشتهر أمر الفلسفة اليونانية بزمان طويل . والمعروف أن فيثاغورث الفيلسوف اليونانى ، الذى عاصر بوذا ، قد شغل بعلوم الهند فى القرن السادس قبل الميلاد ، أى قبل أن يغزو الإسكندر الهند بأكثر من قرنين . ويُروى أن فلاسفة من الهنود زاروا أثينا فى القرن الخامس قبل الميلاد وناظروا سقراط فسخروا منه (١) .

ومن بين فلاسفة الهند القدامى ، فيما قبل عصر الإسكندر ، الفيلسوف كابيلا ، أول من قال بمقدرة العقل الإنسانى واستقلاله وحريته الكاملتين (٢) .

هذا ولم يكن اشتغال الهنود بالآداب السنسكريتية وغيرها من الآداب الهندية الأخرى وسموهم بها ليقل عما فعلوه بالفلسفة . وفى أكداس تراثهم من القصص والملاحم والتمثيليات والشعر ما يشهد بطول باعهم فى هذا المضمار .

ولقد انفرد أبو الريحان البيرونى فى العربية بأول وأكبر حديث عن قدماء الهنود وحضارتهم ومدنيتهم ، وأثبت وجود مبدإ التوحيد عندهم (٣) . وجاء

---

(١) Carratt The legacy of India p 8

(٢) الهند وجيرانها ص ٢٠٢

(٣) انظر كتابه : ذكر ما للهند من مقولة مقبولة للعقل أو مرذولة » ، وقد تداولته طبعات كثيرة فى الشرق والغرب ، ص ١٣ من طبعة زاخاو بلندن ١٨٨٧ « واعتقاد الهند فى الله سبحانه أنه الواحد الأزلى من غير ابتداء ولا انتهاء . . »

معه ومن قبله ومن بعده إلى هذه البلاد طائفة من مؤرخي المسلمين ورحالتهم ، من أمثال العُتبي والبيهقي والمسعودي والاصطخري والإدريسي وابن بطوطه وابن حوقل ، فطوّفوا بها وأسهبوا في الحديث عنها وعن أحوالها .

على أن توفر مقامات الحضارة والمدنية الكثيرة عند الهنود لم تمنعهم من انقسامهم على أنفسهم وتناحر أمرائهم فيما بينهم على النفوذ والسلطان حتى سقطوا آخر الأمر وبلادهم فريسة غير صعبة للغزاة والفاتحين .

وطفق المسلمون منذ أواخر القرن الأول الهجرى ينفذون إلى هذه البلاد فاتحين . ولم يبدأ الغزو الإسلامى الجدى لشبه القارة الهندية إلاّ على أيدى الغزنويين فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، فدخل تاريخ هذه البلاد فى عهد جديد وبدأ فى أرضها الصراع بين القديم والحديث .

ولقد وهم كثير من أهل الرأى فى الهند ، حين أقبل عليهم المسلمون فاتحين ، أن هؤلاء الغزاة سينتهى أمرهم إلى ما انتهى إليه مصير من سبقهم من اليونان والهون وغيرهم من الأمم التى وفدت إلى هذه البلاد فانصهرت جميعها فى بوتقة شبه القارة .

فما لبث هؤلاء المسلمون أن بلغ نفوذهم بالهند نفس الأثر العميق الذى وصله فى جميع الأقطار التى فتحوها ، وهو ما لم يرق إليه اليونان أو الرومان من قبل أو يبلغوه . فتم لهم بهذه البلاد نظير ما تم لهم بوادى النيل حيث حولوا شعبا ، كانت له أقدم الحضارات ، عن دينه ولغته وفنونه وثقافته إلى دينهم ولغتهم وثقافتهم وفنونهم .

وآية ذلك أنه بشبه القارة الهندية اليوم ما يزيد على المائة مليون من المسلمين

هندوكي الأصل في الغالب . هذا كما نجد كثرة بالغة من السكان جميعاً تتحدث الأوردوية التي هي من مشتقات لغات المسلمين .

وكان مما ساعد على إقبال هذه الكثرة الغالبة من الهنادكة على الدخول في الإسلام ما وجدوه فيه من عقيدة فطرة لا طبقات عندها ولا تفاضل بين أفرادها إلا بالتقوى(١) .

والفتح الإسلامي للهند ، باعتراف جمهور المؤرخين العدول ومن بينهم علماء الهنادكة ، كان فيه الكثير من الخير . هذا كما تُرد صفوة تقاليد المجتمع الحديث بشبه القارة الهندية كلها إلى هؤلاء الفاتحين(٢) الذين دفعوا بعجلة الحضارة والمدنية الهندية إلى السير من جديد ، ونقلوا إليها كثيراً من فنون المعرفة عند المسلمين ، وأقاموا من أنفسهم رعاة على ذلك كله(٣) .

وبلغت الشخصية الهندية الإسلامية أوجها أيام الدولة المغولية التي حكمت الهند قرابة قرون ثلاثة ابتداء من القرن العاشر الهجري الموافق السادس عشر الميلادي . وفي عهدها وُحِّدت شبه القارة كلها تحت الراية الإسلامية .

ولقد خضع أهل الهند قروناً طويلة للحكم الإسلامي فلم يجدوا عنده عنتا ولا رهقا ، كما لم يصادفوا في الغالب تقييدا لحريتهم الدينية فعاشوا ، هنادكة ومسلمين ، متحابين في كثير من الأحيان ، في ظل سلاطين المسلمين .

---

(١) Havell. p 257

(٢) Prasad. pp XXXVI, XXXVII

(٣) Le Bon. pp 420 et seq

والحكام المسلمون هم الذين قادوا الثورة التي نشبت بالهند في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي لطرد المستعمرين البريطانيين من شبه القارة .

ويطلق البريطانيون اسم فتنة الغدر والعصيان على هذه الثورة التي تزعمها بهادر خان آخر أمراء البيت المغولي ، بتعضيد ومعاونة الأفغان ، للقضاء على شرور شركة الهند الشرقية البريطانية التي كانت تبسط يدها على أجزاء كبيرة من هذه البلاد ، وبمعنى أوضح ، كان الإنجليز يحكمون هناك باسمها . وقد أفلح البريطانيون ، بمعاونة فريق من المناداكة السك ، في القضاء على الثوار الوطنيين الذين كانوا قد أنزلوا بهؤلاء المستعمرين ضربات شديدة حتى خلصوا من أيديهم أقاليم كثيرة لا سيما في البنجاب وبهار .

ومن ثم نفى البريطانيون الأمير المغولي من البلاد بعد أن قتلوا كثيرين من أبناء أسرته وذويه ، وفيهم أطفال دون السادسة . وأعلنوا من فورهم ضم شبه القارة الهندية لتاج ملكتهم فكتوريا .

ولم يكن البريطانيون هم أول من جاء الهند من جماعات الأوربيين ، فقد سبقهم البرتغاليون إليها ثم جاء من بعدهم الهولنديون . ولحق الفرنسيون بالبريطانيين من بعد ذلك ، لكن الأخيرين استطاعوا بدسائسهم ، في أوروبا على الخصوص ، أن يحملوا لويس الخامس عشر ملك فرنسا على إخلاء أملاكه الهندية الواسعة .

وطفق الإنجليز ، حين أخلى لهم الجو من منافسة الأوربيين بالهند ، ينفخون في نار الخلاف بين أمرائها ويثيرون النزاع بينهم بالدس والوقيعة، حتى انهكت قواهم فسقطوا فريسة سهلة .

وتم للبريطانيين السيطرة التامة على شبه القارة الهندية بمعاونة جنود من الهنود أنفسهم جذبتهم أموال المستعمرين الذين كانوا قد ابتزوها بدورهم من أمراء البلاد حين كانوا ينشدون عونهم على منافسيهم. وهكذا فتح الإنجليز الهند بأموالها ورجالها، وامتصوا خيراتها وبركاتها قرابة القرنين من الزمان. وبدعوى المحافظة على مواصلاتهم بالهند، دخل هؤلاء المستعمرون مصر ثم احتلوا وادى النيل كله واغتصبوا فلسطين التى تركوها أخيرا لليهود، كما اكتسبوا مزايا سياسية بالعراق ومشارف كثيرة بالشواطىء العربية. وداوموا، إبان ذلك كله، على إشعال نيران فتن متلاحقة بإيران بأمل أن يكون لهم الشرق كله فيما بين البحر الأبيض المتوسط والهند، على اختلاف دروبه ومسالكه.

واستيقظت الهند وغيرها من أمم الشرق التى بُليت بالبريطانيين، وطفق الوعى القومى فيها ينمو ويقوى، وأخذ أهلها يشعرون بما فى السكوت على وجود المستعمر ببلادهم من خزى وعار. وأخلى البريطانيون شبه القارة الهندية آخر الأمر عام ١٩٤٦ م وقد اتفق سكانها فيما بينهم على تقسيمها إلى جمهوريتين كبيرتين هما جمهورية باكستان الإسلامية وجمهورية الهند الهندوكية.

الفتوحات الإسلامية في شبه القارة الهندية

فتوح العرب بالسند

كان العرب وحدهم . فيما قبل الإسلام ، واسطة مقايضات التجارة الهندية ما ورد منها براً عن طريق بلاد فارس ، فتولاه المناذرة والغساسنة ليبلغوا به موانىء الشام ، أو بحراً ، عن طريق المحيط الهندي والبحر الأحمر تحمله اليمنيون من أبناء سبإ القديمة ، فمنه ما كان من نصيب القرشيين في رحلة الشتاء ، التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، ليسيروا بدورهم بأكثره في رحلة الصيف إلى بلاد الشام ، ومنه ما كان من نصيب تجار مصر ليقايضوا عليه تجار الرومان والإغريق بعوائدهم على ربح طائل وفير .

هكذا كان العرب في القديم على معرفة غير قليلة بالهند وأحوالها عن طريق تجارهم الذين نزلوا بهذه البلاد في غربها فاختلطوا بأهلها ولقوا في الغالب حفاوة وعناية عند حكامها ، ليعودوا إلى بلادهم في كل مرة فيدهشوا الناس بما يروونه لهم عن ثراء الهنود الطائل وما لهم من غرائب العادات والمعتقدات ويبهروا أنظارهم بما يعرضونه عليهم من لآلىء الهند ونفيس معادنها ومنسوجاتها وعطورها وثمارها ثم سيوفها التي اشتهرت بها .

كذلك وقف العرب القدماء على جانب من حضارة الهند وأخبارها وما بها من ثقافات عن طريق المدارس العلمية في أرض الفراتين ، مهد الحضارات القديمة ومجمعها ، التي كانت على اتصال وثيق بالهند ترد إليها بضائعها ويفد إليها علماؤها . وقد تخرج على أيدى الهنود بمدرسة جندي سابور الساسانية فريق من العرب ، منهم الحارث بن كلدة الثقفي ، طبيب العرب قبل الإسلام الذى

قام على علاج الناس بفارس ، وطَبَّ بعض مرآتها فأعطاه مالا و جارية هى سُمية أم زياد بن أبيه[1].

وفتح المسلمون بلاد الشام ومصر ، وتخطت جيوشهم شمال إفريقية إلى بلاد الأندلس ، كما توغلوا فى بلاد فارس المترامية الأطراف وطرقوا أبواب بلاد ما وراء النهر ، فعظم شأن الدولة الإسلامية بهذه الفتوحات الكثيرة المهمة وقويت دعائم الخلافة الأموية بها.

وعهد الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك ، بأمر القسم الشرقى من بلاده إلى الحجاج بن يوسف الثقفى ، وكان محباً للفتح ميالا إلى التوسع ، فوجه جند المسلمين إلى بلاد ماوراء النهر فدخلت بخارى وسمرقند وخجند وفرغانة حتى وصلت إلى كشغر على حدود الصين .

وكان من الطبيعى ألا يهمل الحجاج أمر إقليم السند ، باب الهند ذات الثراء الطائل ، الذى أصبح يجاور آخر حدوده الشرقية .

هذا وكان العرب ، أيام عمر ، قد خرجوا قبل فتحهم لفارس ، فى حملات خفيفة من البحرين وعمان إلى بعض سواحل الهند على مقربة من ميناء كراحى الحالية وبمباى ، ولكن ثانى الخلفاء الراشدين نهى عامله بالبحرين ، الحكم ابن أبى العاص ، عن المضى فى هذا الأمر ، إذ كان يخاف البحر على جند المسلمين شديد الحذر من « حمل الدود على العود » على حد قوله .

على أن الحكم شجعه ما غنمه فى غزواته على الإغضاء عن أوامر خليفته طلباً للمزيد من الأسلاب والتمكن من الاطلاع على أحوال تلك النواحى، فبعث بأخيه المغيرة هذه المرة إلى ديبل عند مصب السند فى حين قصد هو بروج.

(١) ضحى الإسلام لاحمد أمين - القاهرة ١٩٣٨ أول مارس ص ٢٦٦

فلما فتح المسلمون العراق وفارس، طلب عثمان بن عفان إلى عامله على العراق عبدالله بن عامر، أن يوجه إلى ثغور الهند من يعلمه عنها، فوجه إليها حكيم بن جبلة العبدى الذى بعث يخاوف الخليفة بحديثه عنها فصرف المسلمين عن غزوها (١)

ولم تنته خلافة عثمان على كل حال حتى كان المسلمون قد فتحوا كابل وانتشروا على حدود السند يستطلعون أخباره وأحواله جنوباً حتى البحر .

وغزا المسلمون من بعد ذلك إقليم قيقان السندى ليجىء المهلب ابن أبى صفرة من بعدهم أيام معاوية فيغزو بنه والأهوار (لاهور) بين الملتان وكابل . وعدل الذين خلفوا المهلب هناك عن الاهتمام بالمناطق الشمالية لوعورتها ؛ فعادوا إلى حصر جهودهم فى المنطقة الممتدة بين كابل ومكران عند الشاطىء .

وبعث الحجاج، حين ولى العراق، بسعيد بن أسلم إلى مكران، فخرج إليه معاوية ومحمد بن الحارث العلافى فقتلاه، إذ كانا من الخارجين على سلطان الأمويين فى هذه الجهات . وكانا قد لقيا عند داهر، ملك السند البرهمى، كل ترحيب لجأ إليه برجالهما الخمسمائة ، وما لبثا حين نصراه فى بعض حروبه أن صارا من أصحاب الحظوة عنده .

وبلغ الحجاج الخبر فسأل الوليد الإذن بتسيير حملة إلى السند التى غدت ملجأ للخارجين على الدولة، لكن الخليفة لم يجبه إلى طلبه . حتى إذا ما تعرض قراصنة من ميد الديبُل لسفن كانت قادمة من جزيرة الياقوت (سيلان) وفيها بنات وأرامل لتجار من المسلمين وافاهم الأجل هناك ومعهم هدية من ملك هذه الجزيرة للخليفة، فاعتذر داهر ملك السند للحجاج، حين ألح عليه فى تخليص

---

(١) فتوح البلدان البلاذرى، ص ١٣٢، ١٣٨ .

نساء المسلمين من الأسر ، بعدم قدرته على اصوص البحر هؤلاء ، سيّر الحاكم الثقفى من فوره إلى دَيْبُل ، عبدالله بن نبهان فى قوة انتهى أمرها إلى الهزيمة والقتل . ولقى بُديل بن طهفة البجلى نفس المصير حين خرج من عمان بأمر الحجاج للغرض ذاته .

هنالك تبدى للحجاج مدى الإهانة التى تلحق بهيبة المسلمين وخطورتها إن هو سكت على هذا الأمر ، فما زال بالخليفة حتى أذن له بتسيير الجند لفتح السند ، فى الوقت الذى كانت فيه جيوش المسلمين تتوغل بالأندلس وجهتها بلاد الفرنجة .

واختار الحجاج ابن أخيه محمد بن القاسم الثقفى أميراً للحملة السندية . وطفق قائد هذه الحملة . وكان يقيم إذ ذاك بشيراز ، يعد لها العدة طوال شهور ستة وعُنى الحجاج بالإشراف بنفسه على تزويد الجند بكل ما قد يحتاجون إليه من الذخائر والمؤن حتى أمدهم بالخيوط والمسال بل وكذلك بالخل[1] .

وأقبل محمد بن القاسم ، وهو دون العشرين من عمره ، يغزو بلاداً مترامية الأطراف متسعة الأرجاء ، اشتهر أهلها بأنهم رجال حرب أقوياء وأصحاب حضارة ومدنية عريضة ، وهو فى قلة من الجند إلى جانب كثافة جندهم ، وضآلة من الموارد بالقياس إلى ما كان يرويه الناس عن مبلغ ثرائهم .

وسار المسلمون من مكران وجهتهم ديبل فى اثنى عشر ألفاً من جند الشام والعراق وثلاثة آلاف بعير تحمل متاعهم . أما عتادهم الحربى ، وكان قد

---

(١) كان الخل يعالج بأن ينقع فيه القطن المحلوج فى الظل حتى يتشربه ويجف ، فإذا أريد استخراج ما به من الخل ثانية نقع فى الماء من جديد فيتحلل فيه .

قام على تجهيزه لهم محمد بن هارون حاكم مكران ، فقد اتخذ طريقه بحراً ، فالتقى الجيش بسفنه فى ظاهر المدينة فى ربيع الأول عام ٨٩ هـ — ٧٠٧ م .

وانضم إلى جيش المسلمين عند دبيل جموع كثيرة من رجال الميد والجات (الزط) ، وهما قبيلتان سنديتان هاجر كثير من رجالهما إلى خارج بلادهم لفرط ما كانوا يعانونه من سوء معاملة الحكومة البرهمية ، إذ كانوا فى عداد المنبوذين الذين يحرم عليهم امتطاء الدواب أو ارتداء غالى الثياب ، ولم تكن يباح لهم من المهن والحرف إلا أدنؤها .

وأفاد الغزاة المسلمون من رجال الميد والزط . إلى جانب شجاعتهم فى الحرب وشدة جلدهم فيها ، معرفتهم بمسالك السند ودروبها وأحوال أهلها وأساليبهم فى النزال .

ورابط الغزاة بخنادقهم بظاهر دبيل خلف أسوارها ، فأخذوا يقطعون الأقوات والمدد عن سكانها الذين لبثوا على مقاومتهم . حتى إذا ما نصب محمد ابن القاسم منجانيقه الكبير « العروس » ، وحوله خمسمائة من الرجال الأكفاء يقومون عليه ، فدق بقذائفه معبد المنادكة الأكبر بالمدينة فهدمه ، استولى الرعب والفزع على السكان وشاعت الفوضى بينهم ليقتحم المسلمون المدينة عليهم من بعد ذلك . واستمر القتال بين الفريقين المتحاربين فى عنف بالغ انتهى إلى فرار أمير السند داهر وفلوله من الميدان .

وبنى القائد الثقفى بالمدينة مسجداً ، وعمر المسلمون أحد أحيائها ، وترك بجانبهم حامية قوامها أربعة آلاف من الجند ، ثم واصل زحفه ليبلغ مدينة

نيرون[1] على الضفة الغربية للسند . فما عتم أهلها ، وكانوا بوذيين يدينون بعدم العنف والبعد عن إراقة الدماء ، أن أبرزوا له عهداً بالأمان كانوا قد حصلوا عليه من الحجاج ، يوم أن سار بعض عماله من قبل إلى غزو السند ، فأكده لهم بدوره .

وفيما كان الغزاة على أهبة التقدم بجموعهم صوب الشمال ، ورد على قائدهم كتاب من الحجاج يلح عليه فيه بتعديل اتجاهه إلى شاطىء السند الشرقى حيث يرابط عدوّه فى جموعه .

هنالك رجع ابن القاسم عن موقع سيوى ، الذى كان قد بلغه عند الشمال من نيرون ، ليفاجىء عدوّه بعبور النهر إليه ليلا ، فلم يملك داهر إلا أن يرتد كرة أخرى إلى حصن راور فيمتنع فيه إلى حين .

واشتبك الخصمان فى قتال عنيف ، انتصر فيه المسلمون ، برغم مواجهتهم فيلة الحرب لأول مرة ، وقُتل داهر ، وكان يمتطى فيلا اشتد به العطش فثار على فيّاله واندفع إلى النهر ، فترجّل الملك وأخذ يبارز على قدميه حتى أصابت سيوف العرب منه مقتلا[2] .

وبلغ الخبر رانى باى ؛ وكانت أختاً لداهر بنى بها ، فجمعت بالقلعة خمسة عشر ألفاً من الجند ، أخذوا يقذفون العرب بوابل من سهامهم ومن النفط

---

(١) تقع هذه المدينة على مسافة ٧٥ ميلا من مكران وتعرف أيضاً باسم نيرانكوت وموقعها حيدر آباد السند الحالية . ويغلط بعض الكتاب فيكتبون نون الكلمة الأولى باءاً وينسبون إليها على ذلك العلامة البيرونى ، وهو خطأ شنيع ، فمدينة بيرون مسقط رأس هذا العلامة هى بإقليم خوارزم .

(٢) تاريخ اليعقوبى طبع ليدن عام ١٨٨٣ — ثان ص ٣٤٦

المشتعل وقطع الصخر ، فلم يجدهم ذلك كله نفعاً . هنالك دعت أرملة الملك نساء الحصن ليلقين بأنفسهن فى النيران فلا يقعن بأيدى الغزاة[1] .

واستولى محمد بن القاسم فى راور على الكثير من أموال داهر و كنوزه . ووقع فى أسره خلق كثير كان من بينه نفر من الأميرات بعث بهم جميعاً إلى عاصمة الخلافة .

وزحف المسلمون بعد ذلك صوب الشمال مشرقين حتى بلغوا مدينة برهمناباد، وكان قد فر إليها ابن لداهر ، يدعى جاى سنك ، بعد سقوط راور فأحكم من تحصينها وسد منافذها . واقتحم الغزاة المدينة على أهلها بغتة وعنوة فلم يملك ابن داهر إلا الفرار شمالا مستجيراً بملك كشمير ، فى حين سقط فى الأسر زوجة أخرى لداهر تدعى لادهى وبعض بناته ، إذ أذهلتهم المفاجأة عن سلوك السبيل الذى سلكته رانى باى وصويحباتها فى راور من قبل .

وأقام القائد العربى بهذه المدينة فترة من الزمن دبر فيها شئون المناطق المفتوحة ونظم إدارتها . ومما يؤثر عنه أنه أكرم رؤساء الهنادكة من رجال الدين هناك وأطلق لهم حرية العبادة على أن يوالوا المسلمين ويدفعوا ما يفرض عليهم من جزية عن طيب خاطر[2] .

وبلغ الجيش العربى الرور[3] ، عاصمة داهر ، وكان ابنه قد تحصن فيها من جديد وراح ، فى سبيل حث قومه على المقاومة ، يلقى فى روعهم أن ملكهم

---

(1) Prasad. Med. India pp 42.43

(2) Muslim Rule in India 1638 pp 29.30

(3) تعرف هذه المدينة باسم آلولى .

إنما قد اختفى ليعود إليهم فى القريب بجند وسلاح كثير . واستماتت المنادكة فعلا فى مقاومة الغزاة ودفعهم دفعاً شديداً . حتى إذا مافطن محمد بن القاسم لخدعة خصمه بعث بلادى أرملة داهر ، وكان قد بنى بها ، فنادت فى قومها بأدنى الأسوار تؤكد لهم موت ملكهم . فانهارت قواهم على أثر ذلك بعد ماعانوا طويلا من انقطاع الماء عنهم وطول الحصار من حولهم .

وعبر الغزاة من بعد ذلك بياس ، رافد السند ، إلى مدينة الملتان ، أعظم مدن السند الأعلى وأقوى خصوبة ، فامتنعت عليهم شهوراً ستة نفدت فيها مؤنهم فطعموا الحُمر . حتى أتاهم رجل مستأمن دلهم على مدخل الماء الذى يشرب منه السكان ، فقطعوه عليهم ، فنزلوا إلى قتالهم فى معركة شديدة استمرت أياما سبعة اقتحم المسلمون الأسوار من بعدها واستولوا على المدينة كلها.

وفى الملتان آخر حصون السنديين الكبرى ، أقبل على محمد بن القاسم الأعيان والتجار ، وأصحاب الحرف فى عدد كبير من سكان الأقاليم المجاورة من رجال الميد والجات الذين كانوا يعانون من ظلم البراهمة ، والذين كان قد بلغهم الكثير عن تسامح هذا القائد العربى وكرمه وكفه لأيدى رجاله عن السلب والنهب ، فأعلنوا جميعاً ولاءهم على أنفسهم وأموالهم .

ودل أحد البراهمة محمد بن القاسم ، تقربا منه ، على مكان خفى بأحد المعابد القريبة كان ملوكهم يودعون فيه أموالهم وكنوزهم ، فوجد به من المال الكثير ما مكنه من أن يرُد إلى بيت مال المسلمين ضعف نفقات الحملة السندية ، وكان الحجاج قد تعهد بذلك للخليفة بادىء الأمر ، فحُمل إلى دمشق عشرون ومائة ألف ألف درهم دون أن يضار الأهلون فى أموالهم أو يُفرض عليهم من الغرم مالا يطيقونه[1] .

(١) تاريخ الكامل لابن الأثير الجزرى طبع بولاق ١٣٠١ هـ مجلد ٤ ص ٢٠٩

وهكذا كان لحميد مسلك ابن القاسم من الأهلين ، فى حسن معاملته لهم وتأمينهم على أموالهم وأنفسهم ، وإطلاق حرية العبادة لهم ، أبعد الأثر فى نفوس القوم مما ساعد كثيراً على توطيد مركز المسلمين هناك [1] .

وكتب الفاتح العربى من بعد ذلك إلى الحجاج يستأذنه فى فتح مملكة قنوج أعظم إمارات الهند ، وكانت تمتد من السند إلى البنغال ، فأجابه إلى طلبه وشجعه على المضى فى خطته .

هنالك بدأ محمد بن القاسم ، أولا ، بإيفاد بعثة من رجاله إلى صاحب قنوج تدعوه إلى الإسلام أو الجزية . حتى إذا مارد الملك الوفد رداً غير كريم أخذ الفاتح العربى يعد العدة لغزو عدوه ، فجهز لذلك جيشاً فيه عشرة آلاف من الفرسان وعليه قائده أبو الحكم .

على أنه لم يكد يفرغ من إعداد حملته هسذه حتى وافته الرسل تنبئه بوفاة الحجاج ثم وفاة الوليد بن عبد الملك من بعده وانتقال الخلافة إلى سليمان الذى أرسل يستدعى فاتح السند للقدوم إليه .

وكان سليمان بن عبد الملك يكره الحجاج وينقم عليه لتأييده الوليد حين عزم على جعل ولاية العهد لابنه بدل أخيه هذا . ولم يمنع موت الوليد ، قبل أن يتم هذا الأمر ، سليمان من إنزال نقمته ، فى عنف ، بكل من كان يتصل بالحجاج خاصة بسبب .

ولقد كان بوسع محمد بن القاسم أن يعتذر عن عدم تلبية دعوة الخليفة، بل ويرفض المسير إليه . مستقلا بما فتح من بلدان وما استولى عليه من أراض ، وهو الذى أمكن له أن يخضع السند لراية الخلافة فى مدة لا تتجاوز سنوات

---

(1) Dundar Indiap 89

ثلاثاً ، صار من بعدها يتمتع بمحبة الأهلين وولائهم له هناك ، ولكنه آثر ألا يشق عصا الطاعة على خليفة المسلمين برغم توجسه الشر منه .

فحُمل مقيداً بالأغلال حتى بلغ باسط فلقى بها من العذاب النُكر ، على أيدى أعوان سليمان وأعداء الحجاج من آل المهلب ، حتى لقى حتفه ، فبعثوا رأسه إلى دمشق.

وترُد بعض الروايات غضب الخليفة الأموى على محمد بن القاسم إلى عبثه بسبي الهند إلى دار الخلافة ، وكان فيه ابنتان لداهر هما بارمل ديوا وسورراج ديوا . فما إن اختلتا بسليمان حتى صرحتا له باعتداء الفاتح العربى عليهما قبل مسيرهما إلى دمشق ، فهاج للخبر وأمر بقتل ابن القاسم وأن يُحمل إليه فى جلد ثور محشو بالتبن . وتقول الرواية من بعد ذلك إن الأميرتين حين عُرض عليهما رأس القائد الثقفى ، عدلتا عن قولهما السابق واعتذرتا عنه بما يحملانه من ضغينة وحقد لقاتل أبيهما ، فسبقتا إلى حتفهما بافترائهما وغدرهما .

وليس لهذه القصة سند عند ثقات المؤرخين على كل حال .

وفتر اهتمام الخلافة من بعد ذلك بأمر الفتوح فى شبه القارة الهندية ، إذ كانت بوادر الانحلال والضعف قد بدأت تظهر فى الدولة الأموية . فى حين حرصت الدولة العباسية من بعدها على عدم التوسع الكثير فى الفتح بعد أن عظمت رقعة الدولة الإسلامية وترامت أطرافها. يضاف إلى ذلك أن الولايات السندية ، فضلا عن جدبها النسبى وضعف خراجها ، كانت لا تزال محوطة فى الشمال والشرق بإمارات قوية يحكمها الهنادكة ، كما كان سكان البلاد أنفسهم قد طفقوا بدورهم يثورون فى وجه ولاتهم من العرب الذين حادوا فى الغالب عما استنه محمد بن القاسم من الرفق بالرعية وإشاعة العدل والتسامح بينهم.

وهكذا شُغل أكثر الولاة للمسلمين فى السند بإقرار الأمن والسلام بداخل البلاد وعلى حدودها ، فانصرفوا عن التفكير الجدّى فى المضى فيما بدأه محمد بن القاسم من الفتوح . وأخذت الاضطرابات تنتشر فى السند حتى قامت بين القبائل العربية نفسها هناك من النزارية واليمنية الذين لم يتركوا أى بقعة حلوا بها فى أراضى الدولة الإسلامية الواسعة ، سواء فى أرض الشام أو بلاد الأندلس أو السند ، إلا واعترفوا فيما بينهم بها . وزاد من تفاقم الأحوال بالسند نفاذ الخوارج والشيعة والقرامطة إليه ، فانكمشت أملاك المسلمين هناك من جراء ذلك كله فلم يبق لهم إلا المنصورة والملتان .

وتفصيل ذلك كله أنه قد خلف محمد بن القاسم على ولاية السند يزيد ابن كبشة السكسكى من قبل سليمان بن عبد الملك ، ولكنه مالبث أن قضى على أثر وصوله بأيام قليلة . وأدى اضطراب الأحوال على إثر هذا الحادث إلى أن انتهز جاى سنك ابن داهر المقتول هذه الفرصة فانقض على مدينة برهمناباد فاستخلصها لنفسه ، فلم يستطع حبيب بن المهلب حين ولى السند أن يستردها منه . حتى إذا ما بعث الخليفة عمر بن عبد العزيز بدله عمرو بن مسلم الباهلى أخى قتيبة إلى هذه البلاد فأوصاه بالرفق بأهلها والعمل على ترغيبهم فى الدخول فى الإسلام دون إكراه أو قسر ، صادفه التوفيق والنجاح فيما ندب له حتى أقبل ولد داهر نفسه على اعتناق الإسلام فأقره على إمارته .

وحاول فريق من آل المهلب ، عقب وفاة عمر بن عبد العزيز الذى كان قد ألقى بهم فى السجن لطغيانهم وتبديدهم لأموال المسلمين ، أن يشيعوا الفتن فى الجزء الشرقى من الدولة الإسلامية حتى بلغوا بها السند التى لاذوا بها ، لكنهم باءوا آخر أمرهم بالفشل وقضى عليهم .

وصار أمر السند فى عهد هشام بن عبد الملك إلى جنيد بن عبد الرحمن المرى . وكان حاكما حازما استرد إمارة برهمنا باد من أيدى جاى سنك بعد أن قتله ، كما سير جنده فى غزوات ناجحة بلغت يوجين ومالوه والكجرات عند شرقى السند وجنوبه الشرقى . حتى إذا ما خلفه تميم بن زيد العتبى أضاع بتردده وضعفه كل ما بذله سلفه من جهود .

وجاء السند من بعد ذلك الحكم بن عوانة وفى صحبته عمرو بن محمد ابن القاسم الذى انفرد بالحكم من بعده . وفى عهدهما بنيت مدينتا المحفوظة والمنصورة على شاطىء السند ، غير بعيد من برهمنا باد . وصارت الأخيرة حاضرة المسلمين فيما بعد ، وموقعها اليوم مشارف حيدر آباد السند . هذا وقد نهج عمرو خاصة نهج أبيه محمد بن القاسم فى الحزم والعدل وأحيا سيرته فى التسامح الدينى وإطلاق حرية العبادة للهنادكة .

واقتحم السند على يزيد بن غرار ، خليفة عمرو هناك ، ثائر من الخارجين على سلطان الخلافة الأموية يدعى منصور بن جمهور الكلبى فاغتصب هذه الإمارة عام ١٣٠ هـ لنفسه .

وقضى العباسيون على الخلافة الأموية فعهد السفاح أول خلفائهم بأمر الأقاليم الإسلامية إلى نصيره أبى مسلم الخراسانى الذى بعث بدوره إلى السند بعبد الرحمن بن أبى مسلم العبدى ، ليفشل فى طرد جمهور بن منصور الكلبى منها ويلاقى حتفه على يديه . حتى وفد موسى بن كعب التميمى فما زال بالثائر الكلبى يطارده إلى أن هلك فى الصحراء عطشاً فى حين لقى أخوه نزار مقتله على يديه . وطفق موسى من بعد ذلك يستميل قلوب الناس إلى دعوة بنى العباس ويعمل على التفافهم حوله فجدد بناء المنصورة وأقام بها مسجداً جديداً . وبلغ بجنده بعض غزوات موفقة .

وخاف المنصور السفاح فبعث إلى السند بعمر بن حفص. وكان هذا الوالى الجديد، الذى عرف بحسن تدبيره وحزمه، على تشيع وثيق للعلويين دون الجهر، حتى رحب فى بلاده بأحد زعمائهم حين جاء إليها هربا من وجه العباسيين . فكان عهده هذا هو بداية انتشار التشيع بالسند . ذلك أن عبد الله بن محمد الأشتر الحسنى العلوى كان قد ورد السند مستترا فى هيئة التجار[1] ، فما إن عرف بميل أميره إلى أهل البيت حتى كشف له عن أمره فنال عنده كل حظوة ورعاية . ولكن كان أن خاف عمر بطش الخليفة فأنزل العلوى مع أتباعه عند أمير هندوكى فى أحد البلاد المجاورة ، مواليا رعايتهم والعناية بأمرهم فى الخفاء . ومضت سنوات عشر على هذا الحال حتى علم الخليفة بالأمر ، فكتب إلى عامله السندى يأمره بغزو بلاد الأمير الهندوكى ومطاردة الشريف العلوى . وما إن أحس الخليفة مماطلة عمر فى تنفيذ ما أمره به حتى نقله إلى شمال إفريقية، بعد أن كاد يفتك به ، وبعث مكانه بهشام بن عمرو التغلبى .

كذلك قصد السند أيام ابن حفص داعية من الخوارج يدعى حسان بن مجاهد الهمدانى ، لكنه لم يجد لدعوته سوقا رائجة ، فقد لحظ شدة ميل الأهلين إلى التشيع فرجع من حيث أتى .

على أى ، فان الدعوة الشيعية بالسند لم يظهر أثرها قويا إلا بعد مضى زمن طويل على هذا الحادث ، وقامت لهم دولة إسماعيلية حكمت هناك سنين عدة حتى قضى عليها محمود الغزنوى حين فتح هذه البلاد .

وحرض الخليفة العباسى عامله الجديد على القضاء على الشيعة وأنصارها بالسند،

(١) تاريخ الطبرى طبع القاهرة ١٣٢٣ هـ المجلد التاسع حوادث سنة ١٥١ ص ٢٧٩ .

٨١ —

ولم يكن يدرى ميل هشام بدوره خفية إليهم . ولكن حدث لسوء حظ العلويين أن خرج السفيح أخو هاشم إلى الحدود فصادف عبد الله ورهطه ، فقتل العلوى وفريقا من أتباعه ، وبعث برأسه إلى الخليفة ، فأسقط فى يد هشام ولم يسعه بدوره إلا التظاهر بتدبير هذا الأمر اتقاء لنقمة مولاه وعقابه .

هذا وقد سكتت المصادر التاريخية كلها عن ذكر اسم الأمير الهندوكى ، الذى كان العلوى قد لجأ إليه ، أو اسم إمارته .

واتجهت همة هشام إلى توسيع رقعة إمارته ، فغزا إقليم الكجرات واستولى على بروج ميناء بحر العرب ، وكان بها جالية إسلامية كبيرة ، كما أخضع الملتان كله ، وبلغت جنده كابل وكشمير . وكلف هذا الأمير بالأدب حتى قصده فريق من الشعراء منهم مطيع بن إياس .

وتولى المهدى الخلافة ببغداد فعنى بنشر الإسلام بالسند عناية كبيرة صادفه التوفيق فيها ، إلا أن اشتداد النزاع بين القبائل العربية التى كانت قد هاجرت إلى هناك منذ بداية الفتح العربى ، أخذ يضعف من سلطان الحكومة السندية ويحد من قوتها ونفوذها . فكان من جراء انشغال الولاة بالقضاء على فتن هذه القبائل فى الداخل أن طفق الأمراء الهنادكة بظاهرها يغتنمون كل مايلوح لهم من الفرص لاقتطاع أراض من أملاك المسلمين السندية وضمها إلى أماراتهم . حتى جاء السند . بعد وفاة المهدى العباسى ، الليث بن ظريف فسلك طريق الشدة معهم والعنف فأمكن له أن يؤمن أحوال البلاد ويقضى على ثورات هذه القبائل العربية ولكن إلى حين . ذلك أن داود بن يزيد بن حاتم المهلبى حين آلت إليه إمارة السند عام ١٨٤ هـ مال إلى التخلف ببغداد وأوفد أخاه المغيرة نائبا له هناك — وهى سنة ابتدعها كبار الحكام وراجت على الخصوص إبان

ضعف الدولة ، أعني بقاء الأمراء ببغداد تربصا بالحظوة والنفوذ وزيادة في الترف وإرسال نواب عنهم إلى ما يتقلدونه من الإمارات — فاذا بهذه القبائل تطالبه بتقسيم البلاد إلى ولايات ثلاث ، فقسم لقريش وثان لربيعة وثالث لقيس . فلم يتمكن المغيرة من كبح جماح هذه القبائل إلا بعد أن استعان عليهم بعساكر الخليفة الذين قدموا من بغداد فحاصروا المنصورة عاصمة السند ، عشرين يوما استسلم لهم الثائرون من بعدها .

ولبث داود بن يزيد يحكم السند عشرين عاما مرض في أثنائها الرشيد ، فأوفد لعلاجه بعض أطباء الهنود . وكان شفاء الخليفة العباسي على أيديهم من أسباب مضاعفة العناية بعلوم الهند وطبها . وفي كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ثبت لأسماء الأطباء والصيادلة الهنود الذين نزحوا إلى بغداد فأفاد الناس منهم .

وخلف بشر أباه داود فسار سيرته في الحزم . حتى إذا ولي السند موسى ابن يحيي بن خالد البرمكي عمد إلى محاسنة زعماء العرب هناك ومحاولة فض ما بينهم من المنازعات بالمودة ، ثم صرف همته من بعد ذلك إلى تعمير البلاد فشق كثيرا من الطرق وأقام دور الشفاء وخلفه ابنه عمران فبنى مدينة البيضاء بإقليم قيقان ، بعد أن انتزعه من الزط ، كما قضى على ثورات الميد وقتل بضعة آلاف منهم . وانتهز الهباريون فرصة انشغال عمران بإطفاء فتن الميد والزط ، فثاروا عليه واتهموه بتحيزه لليمنيين وتفضيله لهم عليهم . وانتهت منازعتهم معه إلى مقتله على أيدي زعيمهم عمر بن عبد العزيز الهباري[1] .

(١) كان جد هذا الأمير قد قدم السند مع الحكم بن عوانة الكلبي : البلاذري ص ٤٤٦ .

وهكذا استولى زعيم القرشيين على المنصورة ليكتب منها عام ٢٤٠ هـ إلى المتوكل العباسى معلنا ولاءه له وإخلاصه فيثبته بذلك على إمارة السند .

والملحوظ أن ولاء أغلب حكام الولايات الإسلامية للخليفة ، لاسيما كان منها على مبعدة من بغداد ، غدا ، قبيل منتصف القرن الثالث الهجرى ، مجرد مسألة شكلية اسمية .

وبلغ من إهمال الخلافة لشأن السند أن رأينا الخليفة الضعيف المعتمد العباسى يقطعها للصفاريين هى وبلخ وطخارستان وسيستان وكرمان عله بذلك يخفف من شدة ضغطهم على العراق .

وولى أمر السند أمراء ضعاف من أبناء عمر بن عبد العزيز الهبارى لم يحالفهم التوفيق فى تأمين الأحوال ببلادهم . وما عتموا أن دب الخلاف بينهم وبين رجالهم من قريش ، حتى اقتصر سلطانهم على ولاية المنصورة التى كانت أرضها تنحصر بين الرور وشاطىء البحر . فى حين حكم إقليم الملتان أسرة قرشية أخرى من بنى منبه ، [1] بقيت فيه حتى انتزعه الإسماعيليون الشيعة منها .

ذلك أنه كان قد قدم السند فى بداية القرن الرابع الهجرى دُعاة للفاطميين وعلى رأسهم من يدعى الهيثم رسول عبد الله المهدى . ثم توالى دعاة الإسماعيلية على هذه البلاد حتى جاءها قائد قدير من قوادهم وداعية من خير دعاتهم يدعى جلم بن شيبان . فما غدا حين قدم الملتان ، فالتف حوله القرامطة ، الذين كانوا قد نفذوا إليها قادمين من البحرين وبلاد فارس — أن استقل ما كان فيها من

---

(١) المسعودى ، مروج الذهب طبع القاهرة ١٣٤٦ هـ أول ص ٩٠ « أدرك المسعودى عام ٣٠٣ هـ بالمنصورة عمر بن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز الهبارى أبو المنذر القرشى ، وأدرك بالملتان أبا اللباب المنبه بن الأسد القرشى وهو من ولد أسامة بن لؤى بن غالب » .

اضطرابات حتى تمكن آخر الأمر من الاستيلاء على مقاليد الحكم فيها. فكانت حكومته هذه أول دولة إسماعيلية عرفتها شبه القارة الهندية كلها .

وسلك جلم سبيل العنف مع سكان البلاد ، مسلمين وهنادكة على السواء، فأغلق المسجد الجامع الذى كان قد أقامه محمد بن القاسم كما هدم المعبد الهندوكى بها و كان المسلمون يبقون عليه ضماناً لتجنب مهاجمة الهنادكة المدينة .

وتولى حكومة الإسماعيلية ، من بعد جلم ، الشيخ حميد وهو الذى وجده سبكتكين الغزنوى بالملتان فهزمه ليخلفه أبو الفتح داود القرمطى حفيده . وما زال محمود الغزنوى يطارد داود وقومه حتى قضى على حكومتهم .

وقد انتهى أمر بلاد السند كلها إلى استيلاء الغزنويين عليها حين أقبلوا على الهندستان فاتحين أواخر القرن الرابع الهجرى ، فكانت فتوحاتهم بداية حقبة جديدة فى تاريخ شبه القارة الهندية كلها ، أصحابها من المجاهدين المسلمين ولكن ليسوا من العرب .

نتائج الفتح العربى للسند

لقد وفد على السند أفخاذ من القبائل العربية ، التى كان قوام جيش الفتوح فى الغالب منهم ، فاستوطنوا هذه البلاد ثم أصهروا إلى أهلها بعد قليل على ما فعل أفخاذ أخرى لهم بأغلب البلاد التى فتحوها . كذلك كانت لهم مشاركة ناجحة فى نشر تعاليم الدعوة الإسلامية ، والعربية ، لغة وكتابة ، بين السنديين بفضل من صاحب حكامهم وأمرائهم من علماء المسلمين أمثال الربيع بن صبيح البصرى أشهر المحدثين وأولهم تدوينا للحديث . فلم يمض بضع عشرات من السنين على فتح السند حتى طفقت أفواج من أهله تترى تشارك فى بناء الثقافة الإسلامية العربية وتبرز فى ميادينها. فكان منهم علماء فى الحديث واللغة والأدب مثل أبى معشر

نجيح السندى المحدث صاحب المغازى ، وابن الأعرابى اللغوى ، أستاذ ثعلب وابن السكيت ، وأبى عطاء السندى المخضرم الشاعر[1] ثم أبو على السندى وأبو اليزيد طيفور بن عيسى البسطامى المتصوف .

وغنى عن البيان أن العرب كانوا فى أول عهدهم بالفتوح يكلون إلى أبناء البلاد المفتوحة أعمال الدواوين ، لقلة درايتهم بها إذ ذاك ، تحت إشرافهم ، وينفردون وحدهم فى الغالب بالقضاء وشئون الجزية والخراج على مقتضيات الكتاب والسنة .

ولئن قيل إن الفتح العربى للسند كان من الناحية السياسية حدثاً لا أهمية له فى التاريخ الإسلامى إلا أنه صير هذه البلاد جزءاً من الدولة الإسلامية تخضع لنظامها وتجرى عليه أحكامها ، لئن قيل ذلك إن العرب لم يكن لهم من آثار بارزة هناك إلا نشر تعاليم دينهم بهذه البلاد وتسرب إلسانهم إليها، فقد كان لهم الفضل ، أكبر الفضل ، فى إعادة الاتصال الثقافى بين شبه القارة الهندية وبلاد الشرقين الأوسط والأدنى .

وقد جنى العرب بدورهم من فتحهم هذا كسبا عظيما للثقافة الإسلامية . ذلك أنهم حين قدموا هذه البلاد واختلطوا بأهلها ، وجدوا عندهم من فنون المعرفة وألوان الحضارة ما بهرهم . فالفلسفة الهندية ، وفروعها من الفلك والطب والرياضيات ، كانت قد بلغت من الرقى والتقدم شأوا بعيدا وغدت تزخر بنظرياتها وقوانينها ومبادئها ، وكذلك الفنون على اختلاف ضروبها ، والدراسات الدينية لا سيما ما كان منها خاصا بعلم الكلام والتصوف .

---

(١) ضحى الإسلام ص ٢٥٢ — ٤٤٢ .

ويقول Havell «إن المسلمين مدينون للهنادكة أولا[1] ، لا لليونان ، بما وصلهم من مختلف ألوان المعرفة والثقافة الجديدة فى فجر حياتهم سواء فى الفلسفة أو فى الرياضيات أو الفلك أو الطب ، وقد طلبوها من بعد ذلك عند اليونان حين تمكنت من أنفسهم محبة العلوم واشتد شغفهم بها » ويؤيد رأيه هذا أن أول كتب فى الفلك والرياضيات حملت إلى بلاط الخلافة ، وكان ذلك أيام المنصور العباسى ، هى كتاب براهما سِدُّهانتا لمؤلفه العالم برهمكيت ، وتذكره الكتب العربية باسم كتاب السِّند هِند، وهو أقدم الرسائل الفلكية على الإطلاق إذ يرجع تاريخ تأليفه إلى عام ٤٢٥ ق . م ، وكتاب كهند كهاديكا المعروف باسم أرْكَنْد ، ثم كتاب آريه بهتُ المعروف باسم أرجبهذ أعظم الفلكيين والرياضيين الهنود. ومن أول هذه الكتب يظن أن العرب تعلموا الأرقام الحسابية والنظام العشرى. وقد وجدت الأولى منقوشة على أعمدة آشوكا قبل أن يستخدمها المسلمون بألف عام[2] .

وقد نقلت هذه الكتب الفلكية والرياضية مع طائفة أخرى من الكتب الطبية إلى العربية ببغداد فى منتصف القرن الثانى الهجرى بمشاركة علماء من المسلمين وإشرافهم من أمثال إبراهيم ابن حبيب الفزارى وأبى الحسن الأهوازى ويعقوب بن طارق .

عرف العرب هذا كله عند الهنادكة قبل أن تصل أيديهم إلى كتاب المجسطى ، لبطليموس ، وإلى علوم الرياضة البحتة التى برز فى أغلبها اليونان الهنادكة وغيرهم[3] .

---

(١) Havell, pp 254-56

(٢) الهند وجيرانها ص ٢٣٦ ، ٣٧ .

(٣) تاريخ الفلسفة الإسلامية لدى بور ترجمة الدكتور أبوريدة القاهرة ١٩٣٨ ص ١٣ ، ١٤

ثم جاء البرامكة ، وكان آباؤهم سدنة بوذيين فى الغالب [1] ففتنوا بأمر الهند فى دولة العرب ، وأحضروا علماء طبها وحكماءها على حد قول صاحب الفهرست . فجلبوا منكة الطبيب الهندى الذى نجح فى علاج الرشيد فنال الحظوة عنده وبقى يشرف على نقل الكتب من السنسكريتية إلى العربية بدار الخلافة هو وابن دهن الذى عهد إليه بادارة دار الشفاء ، ثم ابن بهلة الذى تولى علاج إبراهيم بن صالح عم الرشيد فشفى بعد أن كان ابن بختيشوع ، طبيب الخليفة ، قد جزم باستحالة برئه .

هذا إلى جانب عنايتهم وتشجيعهم لدراسة علوم الهند الأخرى وعقائدها وأحوالها ، تلك الدراسة التى وصلت إلى أكمل صورها فيما بعد عند أبى الريحان البيرونى فيما تركه من كتب ورسائل عن هذه البلاد .

ويشيد الجاحظ ، علامة العرب ، بذكر الهند فى بيانه فيقول . « إنما الأمم المذكورة من جميع الناس أربع : العرب وفارس والهند والروم »

(١) بدء العلاقات العلمية بين العرب والهند — للدكتور السيد محمد يوسف الهندى ، (مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة م ١٢ ح ١ سنة ١٩٥٠ ص ١٠٤ ومابعدها .

الغزنويون وخلفاؤهم

لم يكن فتح العرب للسند ، أواخر القرن الأول الهجرى ، إلا احتلالاً لولاية واحدة فى أقصى الغرب ، لا هى بالواسعة الرقعة ولا بذات الموارد الغنية والأرض الخصبة .

وبدأ الغزو الإسلامى لهذه البلاد فى أوسع مداه حين شرع الغزنويون الأتراك ، أواخر القرن الرابع الهجرى ، يطرقون أبواب شبه القارة الهندية ويتوغلون فيها ، بعد أن أقاموا لهم بخارجها دولة واسعة ضمت غزنة وسيستان ولمغان وخراسان وأغلب بلاد ما وراء النهر .

ولقد وقعت فى الفترة ما بين الفتحين العربى والتركى للهند أحداث خطيرة متنوعة فى العالم الإسلامى . فقد زالت الدولة الأموية التى عرفت بتعصبها للعنصر العربى ، وكان مما عجل بسقوطها اشتداد النزاع القبلى بين العرب أنفسهم من جهة ، واستعلاء هؤلاء العرب على غيرهم من المسلمين من جهة أخرى ، الأمر الذى نتج عنه ظهور الشعوبية واشتداد ساعدها . وخلفهم العباسيون فنقلوا العاصمة من دمشق إلى الكوفة ثم بغداد ، وأخذوا ينفضون أيديهم من العناصر العربية فى وظائف الدولة ومناصبها ويستعيضون عنهم بالعناصر الفارسية فى المناصب المدنية على الأخص ، وبالأتراك فى الجيش والحرس الخاص .

وهكذا أخذ المغلوبون يستردون سالف سلطانهم بالتدريج ، بل ويفرضونه على الغالبين ، حتى دب الانحلال فى أوصال الدولة نفسها وطفق فريق من القواد

يستقلون بأجزاء منها مع ولائهم الأسمى لخليفة بغداد ، فظهرت الدولة الطاهرية ثم الصفارية والسامانية وغيرها .

واشتد نفوذ العنصر التركى بالبلاط العباسى ، فما غدا أن طغى على ما كان للعناصر الفارسية من سلطان . فصار الخليفة العباسى آلة فى أيدى رجال بلاطه من الترك ، يرضون عن أمير فيولونه الخلافة ثم يغضبون عليه وينقمون فيسملون عينيه ويعزلونه . ولم يقصروا نفوذهم بطبيعة الحال على دار الخلافة فحسب ، فقد صار كثير منهم حكاما فى ولايات الخلافة فيما بين مصر وبلاد ما وراء النهر .

وعظم شأن الأتراك فى شرق الإمبراطورية الإسلامية فورث الغزنويون والقره خانيون[1] دولة بنى سامان الفارسية . ودفع بالأولين طموحهم إلى التطلع للفتح والغزو فولوا وجوههم قبل شبه القارة الهندية .

وتعد فتوح الغزنويين الهندية بداية غزو المسلمين الحقيقى لشبه القارة الهندية ، ذلك الغزو الذى سرعان ما انتهى بالفاتحين إلى اتخاذهم من هذه البلاد مقاما دائما لهم .

ومؤسس الدولة الغزنوية التى اقتحم أصحابها الهند هو سبكتكين ،

---

١ ـ وهم الايلكخانيون قوم بغرا خان قشغر الذى دخل وقومه الإسلام فى القرن الرابع الهجرى وتسمى باسم هرون بن سليمان . مقال للاستاذ حمزة طاهر عن السلاجقة مجلة الثقافة عدد ٤٦٩/١٩٤٧

Barthold. W. Histoire des Turcs d'Asie Centrale. Paris 1943. p 8

١ — يذكر بعض المؤرخين أن سبكتكين هو من أحفاد يزدكرد شهريار آخر ملوك الفرس قبل الإسلام ، وأن أسرته كانت بالتركستان فى عهد عثمان بن عفان لاجئة فاختلطت بأهلها ، فلم يمض جيلان حتى تتركت . وهو قول مرفوض ، ذلك بأن أغلب الموالى الذين بلغوا رتبة الأمارة قد ادعوا بدورهم لأنفسهم مثل هذا الادعاء طلبا لعراقة النسب وفى تاريخ البيهقى — نقله إلى العربية يحيى الخشاب وصادق نشأت — ص ٢١٦ — ٢١٨ بيان كامل عن أصله .

وكان غلاما لألبتكين صاحب غزنة ، جلب من تركستان إلى بخارى فنيسابور[1] ، ثم خلف سيده عليها عام ٣٦٧هـ/ ٩٦٦م

واتصف سُبُكْتَكِين هذا بالطموح وقوة العزيمة ، فأفلح فى توحيد صفوف الأتراك والأفغان فى إمارته وسيرهم لفتح لمغان وسيستان وخراسان ثم استدار بهم من بعد ذلك واندفع عبر مسالك الهندكوش الوعرة يبغى الجهاد بغزو بلاد الهنادكة .

هذا وقد كان سبكتكين من الناحية العملية مستقلا عن الساماتيين الذين كان مولاه البتكن حاجبا لهم وهم الذين عينوه على غزنه ، ومع أن نفوذه كان يطغى على نفوذ الساماتيين هؤلاء فأنه لم يتنكر لهم بل اعترف لهم بالسلطان وناصرهم فى حروبهم .

وحين التقت جنده بجيش جبيال ، راجا بها تنده ، الذى كان يحكم مملكة واسعة تمتد من سر هند إلى لمغان ، أى من الكنج إلى الأفغان ، ومن كشمير إلى الملتان ، روّع الهنادكة ، فأرسل أميرهم من فوره ، بظاهر لمغان ، يعرض الصلح على جزية كبيرة مع اعترافه بسيادة أمير الأمراء الغزنوى . لكن الأمير محمود ما زال بأبيه حتى صرفه عن قبول عرض الهندوكى فلا يشترى به مثوبة الجهاد فى سبيل الحق .

ولم ييأس جبيال حين بلغه هذا النبأ ، فكتب إلى سبكتكين من جديد يهدده بأن الهنادكة لا يهابون الموت إذا ما ألمت بهم نازلة ، فهم سيفقأون أعين أفيالهم ويلقون بأطفالهم فى النار ويخربون بيوتهم بأيديهم ثم يعرضون أنفسهم على سيوفهم ورماحهم فيزهقون أرواحهم بأيديهم ، فلا يجد المسلمون حين يدخلون ديارهم إلا خرائب ورمما .

هنالك قبل صاحب غزنة المدنة على جزية مقدارها ألف ألف درهم ، وخمسون فيلا من فيول الحرب ، وقدر من الحصون والبلدان .

ونكث الأمير الهندوكى عهده ، حين زج فى السجن بفريق من رجال غزنة الذين كانوا يصحبونه لمراقبة تنفيذ ما صالح عليه سيدهم ، لجعلهم عنده عوضا عن رهائنه لدى سبكتكين . وأثارت أخبار الخيانة والغدر ثائرة الأمير الغزنوى فانطلق من فوره إلى أرض عدوه .

ورغم التفاف أصحاب آجمير ودهلى وكلنجر وقنوج حول جيبال ، وما تهيأ لهم جميعاً من جند كثيف نيف على مائة ألف من المقاتلة ، فقد أنزل سبكتكين بعصبة الأمراء الراجبوتيين هذه هزيمة حاسمة ، اضطروا من بعدها إلى طلب الصلح على أموال كثيرة طائلة عدا مائتين من الفيول وعشرة آلاف من رءوس الخيل سيقت كلها إلى بشاور[1] .

هذا وقد أدار صاحب غزنة دفة القتال فى مهارة فائقة . ذلك إذ عبأ جنده القليل فى وحدات قوام كل منها خمسمائة من المقاتلين لحنقوا يتبادلون مراكزهم فى الجبهة حتى أرهقوا عدوهم فأجهزوا عليه .

وكان من أثر انتصارات سبكتكين الباهرة هذه أن رجعت قبائل الأفغان والخلج عن عصيانها ولزمت طاعته والولاء له .

ولئن لم تكن حروب سبكتكين الهندية هذه إلا مجرد غزوات ، فهى التى مهدت سبيل الفتح أمام جيوش المسلمين فيما بعد على كل حال .

(١) تاريخ العتبى على هامش الفتح الوهبى القاهرة ١٢٨٦ هـ أول ص ٨١ ــ ٨٦ .

محمود الغزنوى :

ومات سبكتكين فى شعبان من عام ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م بعد أن حكم بلاده عشرين عاما ، تاركا من ورائه مملكة واسعة مرهوبة الجانب .

ولأمر ما ، كان الأمير الغزنوى قد عهد قبل وفاته إلى ابنه الضعيف إسماعيل برغم ما عُرف عنه من اعتداده بأبنه الأكبر ، يمين الدولة محمود ، اعتدادا شديدا حتى كان يروى للناس أنه تمثل له فى الرؤيا قبل مولده شجرة نبتت فجأة فى بستان داره فأخذت أغصانها تمتد فى كل اتجاه حتى أظلت العالم أجمع .

على أن محمودا استطاع بعد أشهر قلائل من وفاة أبيه أن ينزع الملك من أخيه على كل حال وينفرد بالأمر .

وما لبث محمود أن ورث ملك السامانيين كله فى خراسان وبلاد ما وراء النهر ، كما قضى على سلطان البويهيين فى الرى ، وهزم السلاجقة والقره خانيين ، وتوغل فى بلاد فارس ، وملك إقليم قزوين . هذا كما فتح بلاد الغور فى الهندكوش ، فيما بين غزنه وهراة ، ونشر الإسلام بين أهلها على نطاق واسع لأول مرة .

ولقد راح محمود يعلن ، من بادىء الأمر ، أنه قد أخذ على عاتقه الجهاد بسيفه فى سبيل نشر تعاليم الإسلام الصحيحة والقضاء على الفرق المضلة من رافضة وقرامطة وغيرهم . وكان يكتب فى أثر كل نصر يحرزه إلى الخليفة العباسى ببغداد يزف إليه النبأ فيصل إليه منه التشجيع والتعضيد والدعاء .

وهكذا امتد سلطان محمود إلى آفاق بعيدة ، وذاع صيته فى أنحاء بلاد

المسلمين . وما لبث هذا الأمير المحارب أن ولى وجهه شطر الهندستان ، التي رأى فيها ميدان الجهاد الأكبر ، فغزاها سبع عشرة مرة في مدى سبعة وعشرين عاما ، فيما بين عامي ٣٩١ هـ / ١٠٠٠ م و٤١٧ هـ/ ١٠٢٦ م ، حتى خضع له شمال شبه القارة الهندية من بنارس إلى غزنة ومن الهملايا إلى الدكن .

هذا ومن المعروف أن الهند لم تكن غريبة على محمود فقد سبق له أن شارك أباه في غزواته لها من قبل مما يسر له الاطلاع على أحوالها والوقوف على قدر غير قليل من أساليب القتال عند أهلها .

ولم تعد وأولى غزوات محمود الهندية تملكه بعض الحصون عند الحدود فولاها بعض رجاله . ثم رجع إلى الهند من جديد في شوال من العام التالي ٣٩١ هـ / ١٠٠٠ م على رأس عشرة آلاف مقاتل لاقى بهم جيش عدو أبيه السابق ، جيبال راجا بها تنده ، عند بشاور ، وكان الأخير في اثني عشر ألفا من الفرسان وثلاثين ألفا من المشاة معها ثلاثمائة من الفيول .

واستمر القتال بين الفريقين في المحرم من العام التالي حتى أبيد من الهنادكة خمسة عشر ألفا وسقط أميرهم نفسه وفريق من حلفائه في أسر السلطان الغزنوي .

ورضي محمود آخر الأمر أن يفك إسار خصومه على أموال طائلة وعدد كبير من فيلة الحرب ، ورهائن كان من بينها ابن لجيبال صاحب لاهور وواحد من حفدائه .

ولم يقو الأمير الهندوكي على احتمال مالحقه من عار الاندحار ، فما لبث

حين آب إلى دياره أن عرض نفسه على النار ، وفق رسوم قومه ، تكفيرا له عما ناله من هزائم متكررة على أيدى غزاة بلاده .

واتجه السلطان الغزنوى فى غزوته الثالثة عام ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ ـ ١٠٠٥ م إلى بهيرة ، على جهلم أحد روافد السند ، فضمها إلى ملكه ، ثم تركها إلى الملتان مقام أبى الفتح القرمطى الذى مالبث على أثر علمه بهزيمة حليفه أمير لاهور ، أن سعى إلى محمود يعرض عليه توبته مع طاعته ، على جزية سنوية مقدارها عشرون ألف درهم من الذهب .

وبلغ محمودا وهو بالهند أخبار مهاجمة أمير قشغر لأملاكه ، فأسرع بالعودة إلى بلاده بعد أن عهد بأملاكه هناك إلى حفيد الجيبال كان قد انضم إليه وأسلم على يديه . وهو الذى تعرفه الكتب العربيـــة باسم نواسه شاه حفيد السنسكريتى .

على أن صاحب غزنة لم يكد يستقر فى عاصمته بعض الوقت ، بعد أن أمن حدوده ، حتى بلغه خروج نائبه بالهند على سلطانه فسارع إليه من فوره ، فلم يرجع عنه حتى افتدى نفسه بأربعمائة ألف درهم .

وتحالف دواد صاحب الملتان مع آننجبالا صاحب لاهور وابن جيبال سالف الذكر على خلع طاعة محمود من جديد ، واستنهض الأخير لشد أزره هم الأمراء الراجبوتيين ، أشجع من عرفتهم الهند ، وفيهم راجاوات أوجين وكواليار وكلنجر وقنوج ودهلى وآجمير . ولم يكن أمراء المناذكة هؤلاء ليتقاعسوا بطبيعة الحال عن نجدة واحد منهم ، وقد تكشف لهم مدى ما يتهددهم من أخطار على أيدى السلطان الغزنوى .

وزحفت جيوش الهند مجتمعة للقاء جند المسلمين بأرض البنجاب ، ومن ورائها الشعب الهندوكي يتفانى أفراده في مدها بالزاد والعتاد في حماس بالغ دفع بالنساء إلى تقديم حليهن في سبيل الدفاع عن الوطن . وبرغم كثرة من هلك من جند المسلمين ، فقد واصل محمود القتال برجاله الستة الآلاف في عنف بالغ وجلد زائد . حتى إذا ما لوى آننجبالا زمام فيله طلبا للهرب ، أفزع الرعب صفوف الهنادكة الكثيفة فراحت الجند بدورها تلتمس الفرار . وهكذا قضى صاحب غزنة آخر الأمر القضاء التام على جيوش الهند المتحدة واستولى على ما كان معها من عتاد طائل وكنوز ، لينطلق من بعد ذلك قائداه عبد الله وأرسلان يطاردان فلول العدو المنهزم يومين كاملين .

واندفع محمود إثر هذا الانتصار الكبير إلى حصن نكركُت ، الذى يعرف أيضا باسم بهيمنكر ، وكان يقوم على تل في منطقة السهول الغنية بسفوح الهملايا ، وبه كانت تكدس الأموال الكثيرة مما كان يتقرب به الهنادكة إلى آلهتهم . وما لبث حراس هذا الحصن ، وكانوا كهنة مسالمين ينكرون الحرب وإراقة الدماء ، أن استسلموا للغزاة دون قتال . وقد وصف العتبي مؤرخ السلطان محمود ، ما كانت عليه كنوز هذا الحصن من الكثرة البالغة فقال : « نقل منها (أى محمود) ما أقلته ظهور رحاله واستحمل سائرها أعيان رجاله[1] » .

هذا والواقع أن الهند كانت ومازالت إلى قرون قليلة تزخر دور أعيانها وحصون أمرائها بثروات وكنوز طائلة مما لا تكاد الأذن تصدقه . وقد رجع

(١) العتبى ثان ص ٩٩

محمود من إحدى غزواته ذات مرة ومعه أربعة آلاف بعير تـكاد تنوء بأحمالها من الأموال والغنائم . بل لقد كان جنده كثيرا ما يتركون وراءهم أوانى الفضة لثقلها اكتفاءا بما كانوا يحملون من ذهب كثير وجواهر . ومن المعروف المشهور أن أدوات المعابد الهندية وأكثرها الآنية التى كان يزخر بها دور الأغنياء ، لم تـكن فى الغالب إلا من الذهب الخالص ، وكذلك السكة المتداولة بين الناس .

ولئن كانت فـكرة الجهاد التى تسلطت على محمود ورجاله وأشربت بها نفوسهم ، هى التى دفعت بهم إلى توالى غزوهم للهند ، هذا بالإضافة إلى ما كان لـكنوز هذه البلاد وثرائها الطائل من إغراء ، فقد كان من العوامل البارزة التى ساعدت على انتصارهم كذلك ما كان يغلب على الأمراء المتحادكة من تحلل اجتماعى جعلهم ابدا يقدمون مصالحهم الخاصة ومآربهم الشخصية على كل شىء فلا يبغون عنها حولا ، ولو حتى بقدر ضئيل ، فى سبيل الهند أمهم الـكبرى . وهكذا كانت الثقة والتماسك والتعاون لا وجود لها بينهم ، فلم تغن بذلك كثرتهم البالغة عنهم شيئا أمام الغزاة الذين كانوا على قلة عددهم مجتمعين على إخلاص تام لهدفهم فى تعاون ونظام وثيق محكم .

وضاق محمود آخر الأمر ذرعا بمؤامرات داود القرمطى ، صاحب الملتان ، فخرج إليه من جديد عام ٤٠١ هـ / ١٠١٠ م بعد أن قضى على فتن بلاد الغور ، فما زال به حتى أوقعه فى أسره فحبسه فى حصن جوراك ، فلم يرجع عن الهند حتى قضى على دولته قضاء تاما وخرب المنصورة قاعدته .

هذا كما طارد جند غزنة راجا بهيمبال ، حفيد جيبال ، حتى كشمير . وإلى محمود يُرد الفضل فى نشر الإسلام بهذا الإقليم الجبلى الواسع .

كذلك تمكن السلطان الغزنوى من انتزاع حصن تنيسر من جموع المنادكة الحربية التى استماتت فى الدفاع عنه ، فحطم ما كان به من أصنام واستولى على ما وجده به من أموال ونفائس كثيرة .

وهكذا دان للغزاة إقليم البنجاب كله وما حوله ، فأصبح الطريق إلى سهول الهند نفسها ممهدا أمامهم وها هم أولاء يتضاعف عددهم يوما بعد يوم بفضل ما كان يفد إليهم من محاربى خراسان والتركستان وبلاد ما وراء النهر الذين استهوتهم انتصارات محمود الكثيرة وغنائمه التى لا تدخل تحت حصر فسار بهم وجهته قنوج ، درة ولايات الهند الشمالية وأقدمها . فما إن عبرت جند المسلمين جمنه حتى برز إليهم هار دانا ، راجا باران التى تعرف اليوم ببلند شهر ، ومعه عشرة آلاف من رجاله طفقوا ، على حد قول ابن الأثير ، ينادون بكلمة الإخلاص طلبا للخلاص .

وما لبث حصن مهاون على جمنه أن سقط بدوره فى أيدى الغزاة بعد أن هلك من حماته خمسون ألفا ابتلعهم النهر . ولم يطق صاحبه الأمير الهندوكى كلجند وقع الهزيمة على نفسه فقتل زوجه ونفسه حزناً على ما أصابه .

كذلك لم تغن قتيلا مقاومة أصحاب مِتراً فسقطت مدينة المنادكة المقدسة هذه وما بها من أموال فى أيدى محمود .

وأشرف محمود آخر الأمر على قنوج عام ٤١٠هـ/١٠١٩م وكانت اخبار انتصاراته قد سبقته إليها ، فاستسلم له صاحبها راجا بياله من فورة دون أدنى مقاومة وفتح خزائن كنوزه .

على أن الأمراء الرجبوتيين الذين ملكهم الغيظ فحنقوا على زعيمهم

لاستسلامه لجند المسلمين ؛ ما لبثوا ، غداة رحيل محمود عنهم ، أن ندبوا ڤيديا هار بن جنداله راجا كالنجر يعاونه راجا كواليار ، فما زالا براجا بياله حتى أوقعاه فى الأمر فقتل صبراً .

وأثار الخبر ثائرة السلطان الغزنوى فارتد من فوره إلى الهند ليعاقب هؤلاء الأمراء على فعلتهم . ولقد هم محمود حين رأى حشود الهنادكة الكثيفة أن يرجع عن قتالها لولا أن مجرد ظهوره فى الميدان ألقى الرعب فى قلوب أعدائه فانفرط عقدهم لساعتهم وانطلقوا هاربين لا يلوون على شىء .

وعاد محمود إلى الهند من جديد فى عام ٤١٢هـ/١٠٢١-١٠٢٢م فاخضع كواليار لسلطانه . كما صالح راجا جنداله على أموال طائلة مع طاعته .

ولئن كان غزو قنوج يُعد من بين وقائع محمود الحربية الباهرة ، فإن فتح الكجرات وسومنات هو دون شك أعظم انتصاراته الهندية جميعاً ، فقد فاق مالاقاه محمود من مصاعب ومتاعب فى هذه الغزوة ، ماعاناه كل الذين سبقوه إلى دخول هذه البلاد وفيهم الاسكندر المقدونى نفسه .

وقد انتهت هذه الواقعة ، التى تعد آخر غزوات محمود الهندية الكبرى ، إلى إنزال أكبر ضربة بالأمراء الراجبوتيين ، فضاع من بعدها كل أمل لهم فى استرداد سابق هيبتهم بالهند : ومالبث خلفاء محمود آخر الأمر أن اضطروهم إلى الهجرة إلى المنطقة الصحراوية الوعرة التى تعرف اليوم باسمهم حيث أفلح فريق منهم الاحتفاظ باستقلاله هناك إلى حين .

ولقد اقتحم محمود فى طريقه إلى الكجُرات عام ٤١٦ - ٤١٧هـ/١٠٢٥-٢٦ م ، مفازة جرداء قاحلة مترامية الأطراف واسعة المسالك هى صحراء الثار

أكبر صحراوات الهند ، فكانت قوة جلده واحتمال رجاله وشدة بأسهم مثار الدهشة والعجب .

واستولى محمود ، وهو فى طريقه إلى هدفه ، على آجمير ونهرواله ، ثم ظهر آخر الأمر أمام سومنات فوجد الأمراء الراجبوتيين قدحشدوا جموعهم الغفيرة لحماية معبد الهنادكة الأكبر بها ، وعليهم بهيم ديو صاحب الكجرات ومعه راجا نهرواله وامراء بهاتى . والتحم الفريقان فى قتال عنيف انتهى إلى مذبحة دامية سقط فيها خمسون ألفاً من الهنادكة مر الغزاة على أشلائهم إلى داخل الحصون.

هذا ولمعبد سومنات قداسة عظمى عند الهنادكة ، حتى إنهم بادروا من فورهم إلى تجديده غداة قيام جمهورية الهند الجديدة ، أى بعد مضى أكثر من تسعة قرون على تدمير محمود له .

ويصف المؤرخون مصلى الهنود هذا بأنه كان بناء عجيبا ذا ست وخمسين سارية صفائحها من ذهب مرصع بالجواهر ، وذا ألوف من التماثيل المصنوعة من الذهب والفضة والمحيطة بهيكله ، وذا صنم ضخم فى وسطه وقد رصع بالجواهر والحجارة الكريمة الكثيرة .

ويعتقد الهنادكة أن الأرواح تتناسخ فى الأبدان عنده ، فهو ينشئها فى الأبدان كيف يشاء ، وأن المد والجزر إن هما إلا صلاة البحر يؤديها لصنمهم الأكبر هناك . هذا وقد كان الناس يحجون إليه فى جموع زاخرة لا سيما عند خسوف القمر[٢] .

---

(١) ابن الأثير تاسع ص ١٤٢ ، ١٤٣ ، حوادث سنة ٤١٦ ، Havell p. 288

وكان فيه من السدنة ألفان من البراهمة ، ومن الراقصات المنشدات خمسمائة.
وكان هؤلاء جميعاً أن يقوموا عند الدجى ، على جلجلة سلسلة غليظة من الذهب، فيقضوا مناسكهم لمعبودهم الأكبر .

ومن البديهى أن محموداً لم يكن ليخاطر بعبور صحراء مهلكة مثل صحراء الثار هذه لمجرد تحطيم صنم أو الاستيلاء على ما بمعبد هندوكى من أموال . فواقع الأمر أن هذا المعبد كان أخطر مراكز المقاومة والدولة الهندوكية طرا، كما كان يتخذ فى الوقت نفسه مثابة للأموال التى كان ينفق على الأعمال الحربية .

ولم يغفر محمود لراجا نهروالة وأمراء بهاتى معاونتهم لراجا كوالبار فى الدفاع عن سومنات فهاجم بلادهم وهو فى طريقه إلى عاصمته عائداً من سومنات واستولى عليها .

وكان آخر غزوات صاحب غزنة الهندية حملة نهرية لتأديب قبائل الزط عند الحاجز الملحى بالبنجاب ، وكانت هذه القبائل قد اشتد نشاطها بعد انفراط عقد إمارة لاهور الهندية فأخذت تعيث فى الأرض فساداً حتى هاجمت أطراف جيوش غزنة مرات متكررة إبان زحفها بأرض الهند .

هذا ولو كانت غاية محمود من غزواته الهندية عموما هى مجرد جمع الأموال فحسب ، كما يقول بذلك بعض المؤرخين ، إذن لقبل ما عرضه عليه الهنادكة من افتداء صنم سومنات بالأموال الطائلة ، ولما ردّ عليهم بقوله المشهور بأنه يؤثر أن ينعته الناس بأنه محطم الأصنام على أن يقولوا عنه بأنه بائع الأوثان .

وفى هذا يتحدث عنه المؤرخ الهندوكى براساد فيقول(۱) « إن محمودا

Prasad, Medieval India 71.77 (۱)

ليُعَدّ فى نظر المسلمين حتى اليوم غازيا ومجاهداً كبيراً أخذا على نفسه مهمة القضاء على الشرك فى مهاد الوثنية . وهو فى نفس الوقت عند الهنادكة طاغية مخرب حطم مقدساتهم ودمر معابدهم وآذى شعورهم الدينى فى كثير . ولكن المؤرخ المنصف حين لا يسقط من حسابه تقاليد العصر الذى كان يعيش فيه ، وسماته واعتباراته ، لا يسعه إلا أن يقرر أن محمودا كان زعيما بارزاً من خيرة القادة والزعماء وحاكما حازما وجنديا عبقريا من الطراز الأول ، اتصف بالعدالة ورعاية الفنون والعلوم فهو جدير بأن يُعد من بين أعاظم الملوك طراً[1] » .

والحق أن محمود الغزنوى كان من أعظم سلاطين المسلمين ، وقد وسع ملكه الأول إلى سلطنة مترامية الأطراف امتدت من بهار فى شرق الهند إلى فارس . وكان ممن ساعد على انطلاق عبقريته الحربية اطمئنانه إلى تأمين مؤخرته حين أقبل على الهند غازيا ، فضلا عن شيوع الخلاف بين أمراء الهنادكة أنفسهم. وقد تيسر لمحمود ، إلى جانب ذلك كله ، عون رجال أكفاء تمكنت عقيدة الجهاد من أنفسهم فتفانوا فى خدمته ، وإن خلوا ، مع الأسف من الخبرة الكافية فى الإدارة والحكومة .

وقد شغف محمود بالهندستان شغفازائداو أعجبه جو الكجرات خاصة فمال إلى الإقامة الدائمة هناك ، على أن ينيب ابنه عنه بغزنة . لكن رجاله عاودهم الحنين إلى منازل قبائلهم ومراعى بلادهم الخضراء وبساتينها ، كما ضايقهم حر الهند وعجزوا عن احتماله .

---

(١) كذلك يشيد المؤرخ لين بول بمحمود فيقول « إن ذلك السلطان الذى أقام تلك المنشآت الفخمة بغزنة وأقام دور العلم ورعى العلماء حتى كان يجود عليهم بما لا يقل ، عما يعادل مائتى ألفاً من الجنيهات كل عام ، فضلا عما كان يجرى على طلبة العلم من الأرزاق ، لا يمكن أن يسلك فى زمرة الطغاة البرابرة » Med. India pp, 81. 2

هذا وقد عُرف محمود ، إلى جانب شهرته الحربية ، برعايته للعلوم والآداب وعظيم بذله لأربابها والمشتغلين بهـا ، حتى قصدوا بلاطه من مختلف الأقاليم الإسلامية . وكان من بين علماء محمود ، البيرونى العلامة الرياضى والفيلسوف الفلكى العالم بلغات الهند وثقافاتها وحضارتها ، والذى تُعد كتبه أعظم ما عرف المسلمون عن حياة الهنادكة الأجتماعية والسياسية والعقلية على السواء ، ثم العتبى الوزير صاحب تاريخ اليمينى والبيهقى صاحب تاريخ آل سبكتكين ، والفارابى الموسيقى الفيلسوف[1] .

أما الشعراء فكان على رأسهم العنصرى الفارسى الذى بايعه بالزعامة أربعمائة منهم ببلاط محمود ، ثم الفرخى والعسجدى . كما نزل فى بلاطه ، وعاش فى كنفه فترة من الزمن ، الفردوسى صاحب الشاهنامة وأبعد شعراء الفرس صيتاً وأخلدهم ذكراً . وإن كان محمود قد خيب رجاء الشاعر فيه فَضَنّ ، من أثر الوشاة ، عما كان يأمله عنده[2] .

ومن أسف أن البناء العظيم الذى أقامه محمود سرعان ما أخـذ ينهار بين أيدى خلفائه الذين أبطرهم ما تركه سلطانهم بخزائن ملكه من ثروات طائلة . فانصرفوا ورجالهم فى الغالب عن إتمام ما بدأه عاهلهم العظيم ، أو المحافظة عليه ، إلى الجدل وحياة الترف .

---

(١) تاريخ فرشته لملا محمد قاسم هندوشاه ــ طبع لكنو ١٣٢٣ هـ جلد اول ص ٣٩ .

(٢) قيل إن محمودا كان قد ندم على ضنه بمكافأة الفردوسى حين قدم له الشاهنامة ، فأمر بإرسال هداياه إليه . فدخلت العير بأحمالها من باب رودبار فى طبران حيث كان يقيم الشاعر فى الوقت الذى كانت جنازة الفردوس تخرج فيه من باب رزان بنفس المدينة . (جهار مقاله لنظامى السمرقندى ترجمة عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب ــ القاهرة ١٩٤٩ ص ٥٩)

خلفاء محمود :

توفى السلطان محمود الغزنوى عام ٤٢١ هـ / ١٠٣١ م بعد أن أوصى بملكه لابنه محمد جلال الدولة دون ولده الأكبر مسعود .

وإذ بلغ مسعود الخبر كتب من فوره إلى أخيه السلطان الجديد يطلب إليه أن يقره على البلاد التى كان قد تولى أمر فتحها ، وهى طبرستان وأصبهان وما حولها ، على أن يقدمه على نفسه فى الخطبة . فلم يكن من محمد إلا أن أغلظ فى الرد على أخيه وقد عزم على الخروج لقتاله برغم نُصح خلصائه له بالجنوح إلى المهادنة والسلم(١) .

ومالبث جند غزنة أن غدرت بأميرها الجديد فى الطريق فألقت به فى الحبس وهو فى سُكره وسملت عينيه ، ثم كتب قوادهم إلى مسعود يستدعونه إليهم ، وكانوا يؤثرونه على أخيه لشجاعته وطموحه .

هذا والواقع أن السلطان محمود كان قد عهد لإبنه الأكبر أول الأمر عام ٤٠٦ هـ / ١٠١٦م ثم ولاه هراة وبعث به لمحاربة الغوريين . وبرغم حسن بلاء مسعود ، فإن أباه مالبث بفعل الوشاة أن غضب عليه وعزله من ولاية العهد ، ثم طابت نفسه من جديد فعفا عن ولده ورده إلى هراة دون ولاية العهد .

وكانت صفات مسعود العالية كفيلة بأن تسير به فى طريق المجد الذى سلكه أبوه من قبل لولا ما كان من سرعة استجابته ، فى الغالب ، لدسائس الدساسين فى بلاطه وإعراضه مرات كثيرة عن الاستماع لنصح وزيريه المجربين ، خواجه أبى القاسم بن الحسن الميمندى وخواجة أحمد عبد الصمد ،

---

(١) تاريخ البيهقى . القاهرة ١٩٥٦ ص ٨١ ومابعدها

فأدى ذلك كله آخر الأمر إلى التعجيل بنهاية الدولة الغزنوية ، المترامية الأطراف ، وتقويض أركانها .

فلقد بعث السلطان بقائده أحمد بن ينالتكين نائباً له على أملاكه الهندية ، فكان من جراء استيلاء هذا القائد على بنارس وما غنمه فيها من كنوز وأموال كثيرة أن دب الحقد والحسد فى نفس عبد الله قاضى شيراز الذى كان يشاركه الحكومة الهندية ، فطفق يبعث برسائله تترى إلى بلاط غزنة طافحة بالتهم لقائد مسعود بالهند . حتى أفلح منافسوا ابن ينالتكين هناك فى أن يلقوا فى روع السلطان ، آخر الأمر ، أن نائبه يهم بالاستئثار بالأمر كله بالهند واستخلاصها لنفسه[1] .

والحق أن مسعوداً قد اصطنع التريث طويلا هذه المرة قبل أن يقطع برأى فى شأن قائده بالهند . حتى إذا خرج من غزنة للقضاء على القوافل التى نشبت فى ختلان وخراسان وبخارى فبلغ العراق من بعد ذلك ، وافته الأخبار باشتباك قوات ابن ينالتكين مع جند قاضى شيراز عند لاهور ، وكان الأخير قد أفلح فى تأليب سكان البنجاب على منافسه . فخشى السلطان استفحال شأن نائبه بالهندستان فسير إليه هندوكيا من رجاله ، يدعى تَلَك كان على قدر كبير من الشجاعة وعلو الهمة[2] .

وما إن ظهر مبعوث السلطان بقواته عند لاهور حتى انتشر الفزع بين صفوف عدوه ، فانفض أغلب الجند من حول ابن ينالتكين الذى ظل يحارب

---

(١) كان الوزير الميمندى يكن للقاضى كراهية شديدة منذ أن رشح للوزارة بدله أيام محمود . البيهقى ص ٢٩٤

(٢) تاريخ البيهقى ص ٤٣٠

فى شجاعة خارقة ، مع قلة ثبتت ، معه حتى نالته عيلة سهام فريق من الزط وسيوفهم طمعاً فى مكافأة مالية كان قد جعلها تلك لمن يأتيه برأس غريمه[1].

وأيا ما كان الحال . فلو أن مسعودا لم يسيء الظن بقائده وسلك معه سبيل المودة واللين ، دون الاستجابة آخر الأمر لدسائس قاضى شيراز وعصبته ، لما احتاج إلى تسييره الجيوش لقتال ذلك القائد الحازم الذى كان كفيلا بتدعيم سلطان الغزنويين فى الهند والوقوف فى وجه السلاجقة الذين كانوا قد طفقوا يهددون بلاد السلطان .

واستبد بمسعود الفرح بانتصاراته تلك فعقد العزم على الخروج إلى الهند غير ملتفت إلى تحذيرات وزيره الشيخ له من حرج الحالة عند حدوده الغربية بسبب الخطر السلجوقى[2] .

وهكذا بارح السلطان الغزنوى عاصمته مستهل عام ٤٢٩/ ١٠٣٧ م لتحقيق حلمه القديم بالاستيلاء على حصن هانسى الهندوكى الكبير فلم يبلغه إلا أواخر ربيع الأول . ذلك أن الداء أقعده أسبوعين بأكملهما عند جهلم أحد روافد السند حتى نذر إن رُزق الشفاء أن يقلع عن تناول الشراب ويحرمه على رجاله وأهل بلاطه . وقد برّ فعلا بعهده .

وما إن فرغ مسعود من أمر هذا الحصن ، بعد قتال عنيف ، حتى واصل زحفه إلى سُنبات عند الشمال القريب من دهلى ، فإذا بأهلها تنطلق منها إلى الغابات القريبة فراراً من وجه الغزاة الذين أصابوا فيها مغانم كثيرة .

---

(١) تاريخ البيهقى ص ٤٦٠ ، ٦١

(٢) تاريخ البيهقى ص ٥٧٥ وما بعدها

وانتهز السلاجقة فرصة غياب صاحب غزنة بالهند ، فهاجم بهم زعيمهم طُغرل بك بلاد السلطان حتى استولوا على نيسابور وبسطوا سلطانهم على خراسان ضاربين عرض الحائط بما كان بينهم وبين مسعود من مواثيق التزموا بها بعد هزيمة جنده لهم عام ٤٢٤ هـ / ١٠٣٢ م[1] .

وحين خرج مسعود لملاقاة هؤلاء الغزاة فى رجب من عام ٤٣٢ هـ - ١٠٤٠ م فالتحم بهم عند دندانقان بالقرب من مرو ، ومُنى بهزيمة حاسمة تقرر على أثرها مصير الدولة الغزنوية فى خارج الهند وداخلها .

ذلك أن مسعود أصر بعد هذه الواقعة على الهجرة إلى الهند برغم إلحاح وزيره أحمد عبد الصمد عليه بالبقاء فى غزنة . فخرج فى ركب كبير شمل أهل بيته وخلصائه مع كنوزه وأمواله ، وفى خاطره أن يتهيأ له بالهند جمع جيش قوى كبير يدحر به السلاجقة ، فلم يكد يعبر السند فيبلغ قلعة هاريكله بين أتوك وروالبندرى ، حتى وثب عليه غلمانه من الأتراك والهنود طمعاً فى خزائنه ، فخلعوه وزجوا به فى القلعة ، ثم نادوا مكانه بأخيه محمد ، وكان ناظراه قد سُملا كما ذكرنا من قبل . وحُبس مسعود فى حصن كيرى حتى قتله الأمير أحمد ابن أخيه فى عام ٤٣٣ هـ :

وبموت مسعود طُويت صفحة حاكم مسلم نابه رعى العلم والعلماء والتفت

---

(١) كان السلاجقة أول أمرهم جند مرتزقة عرفوا بالجرأة والكبرياء ، والاستهانة بمن سواهم ، حتى اضطر محمود إلى سلوك سبيل العنف معهم . حتى إذا ما استعان بهم مسعود لتقوية جيشه فسلك معهم سياسة غير رشيدة ، تفاقم خطرهم لينتهى أمرهم بالاستيلاء على ملك الغزنويين - البيهقى (المقدمة) ص ٢٠ ، ٣٥ .

التفاتا كبيراً إلى الإنشاء والتعمير حتى غصت بلاده بالـكثير من المدارس والمساجد والرباطات التى أقامها .

ولقد استطاع هذا السلطان الـكبير أن يحتفظ مدة غير قصيرة برقعة ملـكه التى امتدت وقتاً ما من العراق حتى حدود الهند الشرقية . لـكن القدر ، على حد قول مؤرخه البيهقى ، دفعه إلى ارتـكاب الخطأ الأكبر الذى قرر مصير دولته ، وذلك حين أصم أذنيه عن الاستماع إلى مشورة رجاله فقرر الرحيل إلى الهند بعد واقعـة دندانقان بدلا من التحصن فى غزنة ومحاولة دفع خطر السلاجقة عن حدوده[1] . ذلك أن الحوادث قد برهنت على قيام مخاوفه على غير أساس، إذ كان هم السلاجقة الأكبر فى التوسع منصرفا فى الواقع صوب فارس ، دون التفات جدى كبير نحو غزنة والشرق عموما . فمراعى خراسان كانت أحب إليهم وآثر من تلال الأفغان وما وراءها ، وناهيك ببلاد فارس الغنية التى كانوا قد استولوا عليها ثم طفقوا يوسعون فى فتوحاتهم حتى بلغوا شواطىء بحر الروم .

ولم يطل الأمر بمحمد على عرش غزنة ، فقـد برز إليه من خراسان ، مودود بن مسعود يطالب بدم أبيه . فالتقى به عند الدينوَرْ ، على طريق كابل وبشاور ، فهزمه . ودخل غزنة حيث انتقم لمقتل أبيه من عمه وأولاده ، وجميع من خانوا عهد مسعود .

وقوّى انتصار مودود من عزيمة الأهلين فى الأقاليم الغزنوية التى كان السلاجقة قد دخلوها ، فثاروا فى وجه المحتلين وأجلوهم عن أغلبها .

---

(١) البيهقى (المقدمة) ص ٣٧ ، ٣٨

وما لبث السلطان الجديد أن بوغت بعصيان أخيه مجدود ، وكان أبوه قد ولاه البنجاب فأعلن استقلاله به ثم سار على رأس قواته نحو غزنة ولكن الأجل وافاه بلاهور بعد قليل .

وكان من جراء ثورة مجدود هذه أن ركن بعض أمراء الهنادكة بدورهم إلى الثورة حتى بلغوا لاهور نفسها وحاصروها . لكن جند الغزنويين ردتهم آخر الأمر عنها وثبتت ما تزعزع من نفوذ المسلمين وهيبتهم فى شمال شبه القارة الهندية كله .

ووافى مودود أجله عام ٤٤١ هـ/١٠٤٩ ، وهو يعد العدة لحرب السلاجقة الذين كانوا قد غدوا يرهبون جانبه ، بعد أن أتيح له الوقوف فى وجههم واسترداد جزء كبير مما بأيديهم من أملاك الغزنويين .

وخلف مودود طائفة من الأمراء الضعاف ، استطاع السلاجقة فى عهدهم اقتطاع أجزاء كثيرة من أراضى الدولة . حتى رقى العرش إبراهيم بن مسعود فأفلح بحزمه فى تنظيم شئون الدولة ، كما ألزم قبائل الترك والأفغان طاعته ، وهادن السلاجقة ، وأقر الأمور فى الهندستان .

وعنّ لخليفته علاء الدين مسعود أن يكفى نفسه شر السلاجقة فأصهر إلى سلطانهم سنجر ، ففتح بصنيعه هذا الباب على مصراعيه لتدخل السلاجقة فى شئون الدولة حتى قضوا على استقلالها .

ذلك أن السلطان السلجوقى سرعان ما ظهر بجنده فى غزنة على أثر وفاة علاء الدين فأزل عن عرشها الأمير أرسلان تلبية لدعوة أخته أرملة السلطان الغزنوى وكانت على شقاق مع هذا الأمير الجديد الذى اضطر من بعد ذلك

إلى النزوح إلى الهند حيث وافاه أجله هناك عام ٥١١ هـ - ١١١٧ م .

وارتقى الأمير بهرام عرش غزنة فى ظل السلاجقة ، فعمل على أن يفيد من تحولهم صوب فارس بالنهضة بدولته من جديد . وجهد فى إقرار الأمور فى الهندستان ، خصوصاً ، فقضى على فتن البنجاب والملتان ورد عصبة الأمراء المناوئة عن لاهور ، وكانت الآمال قد بعثت فى أنفسهم من جديد لطرد الغزاة من بلادهم .

وهكذا كاد بهرام أن يستعيد للغزنويين ماضاع منهم من أراض ونفوذ ، وقد انجلى عنهم خطر السلاجقة وثبتت أقدامهم بالهند من جديد ، لولا ما كان من قيام النزاع بينه وبين ملوك الغور الذين كانوا ينزلون فيما بين غزاة وهراة .

وكان هؤلاء الغزاة المحاربون من خيرة جند محمود الذين نصروه فى أغلب حروبه وغزواته ، ولكنهم حين بدا لهم الضعف فى خلفائه لم يترددوا فى الجهر بالخروج عليهم .

وبلغ التوتر بين الفريقين غايته حين سيق إلى القتل ، بأمر من بهرام ، زعيم غورى يدعى الأمير سورى . هنالك والى الغوريون هجومهم على غزنة حتى أفلح زعيمهم علاء الدين حسين فى دخولها ، ليستردها بهرام منهم ثانية بفضل قواته الهندية .

ومات بهرام عام ٥٤٧ هـ - ١١٥٢ م فخلفه ابنه خسرو الذى ما لبث أن فر إلى الهند على أثر اقتحام قبائل التركمان لعاصمته بعد هزيمتهم للسلطان سنجر السلجوقى . وانتهز الغوريون فرصة الفوضى التى عمت البلاد أثر الغزو التركمانى فانقضوا على غزنة فأعملوا فيها التخريب والنهب والتدمير حتى نبشوا قبور

السلاطين الغزنويين جميعاً إلا مثوى السلطان محمود .

هذا وقد قصد خسرو عاصمته من جديد ولكنه ما أن أحيط بمقتل السلطان سنجر على أيدى التركمان وضياع ملكه حتى إرتد ثانية إلى الهند حيث قضى بلاهور عام ٥٥٥ هـ - ١١٦٢ م .

وتفاقم خطر الغوريين واشتد ساعدهم لحارب زعيمهم : غياث الدين ابن سام ، الغز التركمان ، وبسط سلطانه على غزنة التى عهد بها وإقليم كابل إلى أخيه مُعِز الدين بن سام الذى تذكره كتب التاريخ باسم محمد الغورى .

وما زال الغوريون بخسرو وابنه بهرام شاه الثانى آخر سلاطين الغزنويين يطاردونهما بالهندستان حتى قتلوهما . وبذلك انتهت سيرة دولة عمرت قرنين من الزمان ومهدت بفضل فتوحاتها العظيمة لتوطيد أقدام المسلمين فى أرض الهند .

ولئن كان ظهور الدولة الغزنوية يمثل أول انتصار كبير للعنصر التركى فى صراعه مع العنصر الفارسى على سيادة العالم الإسلامى الشرقى على الخصوص إذ ذاك ، فإن هذه الدولة لم تستطع ، على كل حال ، إلا أن تترسم فى الحكم نظم ما سبقها من الدويلات الفارسية كالصفارية والسامانية. بل إن أصحابها بذلوا جهداً مشكوراً فى تشجيع الثقافه الفارسيه فقربوا إليهم كل من استطاعوا دعوته إليهم من شعراء الفرس وعلمائهم إلى جانب غيرهم من أعلام البلاد الإسلامية الأخرى .

على أن اعتماد السلاطين الغزنويين على قوة السيف وحده فى المحافظة على ملكهم ، دون التنظر ، فى الغالب إلى إقامة الحكومة والإدارة على أساس صالح

ونظام سليم ، قد أدى إلى تداعى بناء الدولة كله حين تراخت الأيدى التى كانت تقبض على هذا السيف .

هذا إلى جانب تهالك أغلب الحكام ورجال الدولة أنفسهم على حياة البذخ والترف بسبب ما أصابوه من ثروات الهند وكنوزها الطائلة ، حتى تمكن منهم السلاجقة ثم التركان وأخيراً الغوريون الذين ورثوهم .

الغـــوريون

ما إن انهارت الدولة الغزنوية على أيدى السلاجقة والغُز ، فأخــذت الاضطرابات والفتن تجتاح غزنة وكابل وكافة أملاك المسلمين فى الهندستان ، حتى ظهر أمراء الغـــور والأفغان وعلى رأسهم زعيمهم معز الدين بن سام المعروف باسم محمد الغورى . وكانوا رجال حرب مبرزين ، فسيطروا على غزنة وما حولها ثم انطلقوا بجندهم إلى أرض الهند ليحافظوا على أملاك المسلمين هناك من الضياع .

ذلك أن أمراء الهند الراجبوتيين كانوا ، منذ أن لمسوا ضعف الدولة الغزنوية ، قد طفقوا ، هم وبقايا القرامطة الإسماعيلية يتخطفون أملاكها ويثيرون الفتن والاضطرابات بين سكانها .

ولقد جاب السلطان الغورى الهندستان غازياً من البنجاب إلى البنغال فى فتوحات متواصلة خلال ثلاثين عاما بدأها باستخلاص الملتان من أيدى القرامطة عام ٥٧٠ هـ/١١٧٤ م ثم استولى على بشاور وأخضع السند جميعه لسلطانه حتى البحر برغم ما تعرضت له جيوشه من خسائر فادحة على أيدى بهيم ديوا راجا نهروالة .

واستعصى حصن لاهور ، أول الأمر ، على صاحب غزنة الجديد فهادن صاحبه الأمير خسرو ملك الغزنوى ثم قفل راجعاً إلى عاصمته .

وزينت قبائل الـكهكر الهندية ، على أثر ذلك لخسرو أن يزحف على

حصن سيالكوت ويستولى عليه . فما أن علم بذلك السلطان الغورى حتى خرج إليه من فوره ، فلم يزل فى زحفه حتى استولى على لاهور نفسها وأوقع فى أسره الأمير الغزنوى الذى سيق إلى قلعة فيروز ببلاد الغور حيث أورد الردى عام ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م .

وقد لاقى ابنه بهرام شاه الثانى نفس المصير من بعد ذلك بقليل . وبموت هذين الأميرين قضى على كل سلطان لآل سبكتكين ، وانتقلت أملاكهم ، سواء فى داخل الهند أو فى خارجها ، إلى أيدى الغوريين .

ولئن كان صاحب غزنة الجديد قد أصبح وله السلطان المطلق على البنجاب والسند ، فقد كان عليه أن يقطع شوطاً بعيداً حتى يسترد كافة الأراضى الهندية الغزنوية التى سقط على كثير منها الأمراء الراجبوتيون ، وكانوا قد عقدوا فيما بينهم حلفاً حربياً لمدافعة من يقدم عليهم من غزاة المسلمين .

على أن هؤلاء الأمراء ، على شدة مراسهم فى الحروب وكثافة جندهم ، كانت طباعهم الإقطاعية ومصالحهم الفردية غالباً ما تطغى ، حتى فى أوقات المحن ، على مصلحة الوطن الهندى العليا . هذا كما كان نظام الطبقات الهندوكى وقيوده الصارمة من أخطر العوامل التى كانت تحطم معنويات عامة المحاربين فتزعزع كيان النظام الحربى كله بالتالى . ذلك أن المحارب الهندوكى العادى، مهما أوتى من الجرأة والبسالة فى القتال ، لم يكن له أن يتطلع إلى مناصب القيادة التى كانت وقفا على أبناء الطبقات العليا بغض النظر عن كفاءتهم الحربية . على نقيض الأمر فى جيوش المسلمين حيث الباب مفتوح أمام كل جندى للوصول إلى أعلى مراتب القيادة ما أظهر من شجاعة وتمرس بالقتال وكفاءة فى الحرب

وإلى هذه النقائص مجتمعة يُرد أغلب السبب فى تقاعس جحافل المنادكة أمام جند المسلمين الذين كانت عقيدة الجهاد تتمكن من نفوسهم تمكنا ثابتاً بعيد الغور .

هذا وكان أشهر الأمراء الراجبوتيين هم أصحاب قنوج ودهلى ، ويليهم فى المكانة أمراء آجمير وبهار والبنغال والكجرات وبندلخاند . وجميع هذه الإمارات تقع فى شمال شبه القارة الهندية ، وهو القسم الذى اصطلح المؤرخون على تسميته بالهندستان . وفيه تقع أعظم أنهار هذه البلاد وأخصب أراضيها ، وأكثف مناطقها السكنية بالتالى :

وخرج السلطان الغورى إلى الهند عام ٥٩١هـ/١١٩٤م فى قوات كبيرة . فما إن بلغ سرهند ، عند حدود البنجاب الشرقية ، حتى علم بحشود الهندوس التى بلغت مائتى ألفا من المحاربين وثلاثة آلاف من الفيول .

والتقى الجمعان عند ترين ، على مقربة من ثنيسر ، فلم يستطع جند المسلمين الثبات أمام عنف حملات الهنادكة وتدفق قواتهم . ودق مركز السلطان نفسه حتى أصيب بجراح شديدة وهو يقاتل بنفسه ، وكاد يضيع فى الميدان من فرط ما بذل من جهود خارقة ، لولا أن بصر به أحد الجند الخلجيين فانطلق به حتى أبلغه مأمنه . ولم يستطع جند غزنة أن يلم شمله من جديد إلا بعد ارتداد طويل بلغ الأربعين من الأميال ، فثبتوا فى مراكزهم ، ودفعوا عنهم كل هجوم شُن عليهم .

ولم يكن محمد الغورى ليسكت عن هذه الصدمة العنيفة التى لم يتلقى المسلمون مثيلا لها بأرض الهند من قبل ، فعاد إلى إعدائه فى العام التالى على

رأس مائة وعشرين ألفا من المقاتلين الأشداء ، من أتراك وأفغان وغيرهم ، كان عليهم أن ينازلوا ثلاثمائة ألف من فرسان الهنادكة ، مع ثلاثة آلاف من فيلة الحرب ، استمدوا للقائهم يقودهم بريتى راجا صاحب دهلى وقنوج .

ولم يفت تفوق الهنادكة الساحق فى عضد صاحب غزنة ، فرسم خطته على أن ينطلق من بين صفوفه أربع فرق ، قوام كل واحدة منها عشرة آلاف رجل ، فتوالى مهاجمة العدو من كل جانب ثم يرتد أفرادها متفرقين على أثر كل هجوم بهيئة من يفر من الميدان .

وإذ أدى نجاح هذه الخطة إلى إرهاق قوى العدو إرهاقا شديداً وتشتيت جموعه ، برز السلطان بنفسه على رأس اثنى عشر ألفا من فرسانه راحوا يشيعون الموت والدمار فى صفوف أعدائهم حتى هلك من الهنادكة ألوف كثيرة وفيهم جملة من الأمراء . أما زعيمهم بريتى راجا فقد اتخذ سبيله إلى عاصمته هربا . ولكنه لم يكد يبلغ سرسوتى بإقليم سنهل حتى لحق به مطاردوه فقضوا عليه .

هذا وتعد هذه الواقعة البداية الحقيقية لانهيار سلطان الأمراء الراجبوتيين التام ونهايته الحاسمة فى شمال الهند . وقد استولى المسلمون على أثرها على سرسوتى وسمنه وكهرام وهنسى ثم آجمير التى أمر السلطان بتحطيم ما بمعابدها من أوثان ، ثم هدم هذه المعابد نفسها واستخدم أعمدتها وأحجارها فى إقامة مساجد ومدارس المسلمين .

وعهد محمد الغورى ، قبل أوبته إلى عاصمته ، بإدارة أملاكه إلى قائده قطب الدين أيبك الذى وصل فى فترة قصيرة بفتوح سيده إلى دهلى فاتخذها قاعدة لحكومته .

هذا وكان يقع بقلب الدوآب ، فيما وراء دهلى حتى حدود بنارس ، إمارة قنوج أعظم إمارات الهند التى ذاع صيتها فى أساطير هذه البلاد وفى تاريخها على السواء .

وبدأ لصاحبها جايا چندرا أن يجمع حوله شمل الأمراء الراجبوتيين من جديد ، بعد هلاك بريتى راجا دهلى ، فى أمل أن يصير بهم سيد الهندستان كلها بعد طرد المسلمين منها .

على أن السلطان الغورى ما لبث أن فطن لتدبير عدوه ، فأيقن أن حكومته الهندية لن يكتب لها الاستقرار إلا بالقضاء على سلطان هؤلاء الأمراء ، فخرج إليهم فى جيش كثيف إلتقى بهم عام ٥٩١ هـ / ١١٩٤ فى السهل المنبسط بين جندوار وأتاوه .

وفضلا عن هزيمة المنادكة الساحقة ومقتل زعيمهم راجا قنوج ، فقد كان أخطر أثر لهذه المعركة هو انسحاب كبار الأمراء الراجبوتيين جميعاً من وجه المسلمين والهجرة إلى صحراء الراجبوتانا التى حملت اسمهم فيما بعد .

وواصل السلطان الغورى الظافر زحفه بعد فتح قنوج حتى بنارس فأقام بها مسجداً كبيراً ثم آب إلى حاضرته .

ولم يتردد قطب الدين أيبك نائب الغوريين بالهند فى استغلال ما أشاعته انتصارات المسلمين القوية هذه من رهبة وفزع فى نفوس محاربى الهند فغزا آجمير من جديد كما فتح نهرواله واستولى على بيـــانه وكواليار وما حولها ، فى الوقت الذى انطلق فيه محمد بن بختيار الخلجى ثانى قواد الغوريين بالهند صوب الشرق ففتح بهار ونفذ إلى البنغال . ومن عجب أن تجمع الروايات

على أن جند الأمير الخلجي لم تكن تعدو فى هذه الفتوح بضع مئات .

هذا وكان إقليم بهار (فهار) ، الذى استولى عليه محمد بن بختيار ، هو الإقليم الهندى الوحيد الذى صادفت البوذية فيه ازدهارا كبيراً بفضل الرعاية العظيمة التى كان يحبوها بها ملوك أسرة پالا الهندوكية . وظلت هذه العقيدة رائجة فى هذه الإمارة حتى اقتحمها القائد الخلجى فخرب معابدها واستولى على ما كان بها من أموال وكنوز .

وتابع هذا القائد زحفه من بعد فتح هذه الإمارة فى ثمانية عشر رجلا من رجاله ، ليس غير ، بلغ بهم نادية عاصمة البنغال عام ٥٩٥/١١٩٩ ، وكان عليها ملك شيخ من أسرة سنا[1] يُدعى لكشمن سنا عرف برعايته العظيمة للفنون والآداب .

وفتح الحراس بوابة المدينة للوافدين وقد خُيِّل إليهم أنهم من تجار الخيول فلم تخالجهم أدنى ريبة فى أمرهم . هنالك اتجهت العصبة الغازية من فورها إلى قصر الراجا ، فما إن بلغ أذنى لكشمن العجوز صريخُ الضحايا من رجاله بخارج إيوانه ، وكان يتناول غذاءه ، حتى هب لوقته فاتخذ سبيله إلى دكا هاربا .

ولم يغادر محمد بن بختيار المدينة إلا بعد أن خربها تخريبا تاما ، ومن ثم تركها إلى لكهناوتى فاتخذها قاعدة له ، وصلى فيها بالناس ودعى فى الخطبة للسلطان الغورى ، وضرب السكة باسمه .

كذلك خرج قطب الدين أيبك عام ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م لحرب برمردى ،

---

(1) Prasad India pp 118 – 20

أمير بُند لخنُد ، فانتزع منه حصن كلنجر ، امنع قلاع الهند إذ ذاك واشدّها بأسا ، ثم أردف ذلك بالاستيلاء على بداون وكالبي .

وبهذا خضع شمال الهندستان كله ومعه اقليم كَواليار لسلطان الغوريين خضوعا تاما[1] .

واطمأن محمد الغوری إلى ترك أملاكه بالهند فى أيدى قواده الأمناء الأقوياء ، فأخذ يتطلع إلى بلاد ما وراء النهر ومدن إيران الزاهرة ، فاندفع يغزو خوارزم عام ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م ، ولكنه أصيب هناك بهزيمة شديدة أخذ على أثرها كثير من الولايات والقبائل الخاضعة لنفوذه تعلن الخروج عليه ، حتى أقفلت غزنة نفسُها أبوابها فى وجهه .

ولم يقف الأمر عند استيلاء تاج الدين يلدز ، أحد قواده الذين خرجوا عليه ، على غزنة والاستقلال بها ، بل سار أحد القواد الغزنويين بدورة ، ببراءة مزيفة ، إلى الملتان حا كما عليها ، كما انقلبت قبائل الكَهكر بالبنجاب تعيث فى الأرض فسادا .

على أن محمد الغورى مالبث بمضاء عزيمته أن استرد غزنة والملتان بعد قليل ، كما أفلح قواده بالهندستان فى إخضاع الخارجين عليه من جديد .

وراودت السلطان الغورى ، كرة ثانية ، أحلامه بالتوسع غربا برغم ما أصابه من خسائر فادحة كادت تقضى القضاء التام على سلطانه . وفيما كان يمهد لهذا الأمر ويعد له عدته ، إغتاله أحد المناد كة ، عند نهر جهلم وهو فى طريقه من لاهور إلى غزنة ، فقضى فى شعبان ٦٠٢ هـ - ١٢٠٦ م[2] .

---

(١) تاريخ فرشته أول ص٥٦ ، ٥٧

(٢) طبقات ناصرى لمنهاج السراج أبى عمرو عثمان (الترجمة الانجليزية لرافرتى) ص ٤٨٤ ، ٨٥ .

ولئن كان محمود الغزنوى قد مهد بغزواته الهندية الطريق أمام خلفائه من السلاطين وجعل لجند المسلمين المهابة والرهبة أينما زحفوا وحيثما حلوا ، فإن محمدا الغورى هو الذى ثبت أقدام المسلمين كذلك فى شمال الهند بأ كمله ، وأقام الحكم الإسلامى هناك ، بفضل رجاله ، على أساس راسخ وطيد ، وهو أمر لم يتح لمحمود من قبله ، إذا كان الغزنويون عموما ، فضلا عن خلو رجالهم من كفاءة الإدارة والتمرس بالحكم ، عجلين على إثر كل فتح بالعودة إلى منازلهم ومعهم من كنوز الهند ما بهرهم وسحر ألبابهم .

وعلى أيدى رجال الغورى بدأ الحكم الحقيقى للمسلمين بالهند . فقد تحول الغزاة إلى الاستقرار والإقامة الدائمة بالبلاد التى فتحوها ، وبهذا احتفظت الهند بأموالها وثرواتها فى نطاق شبه القارة نفسها ، فلم يعدو الأمر انتقال أجزاء منها من أيدى المنادكة إلى أيدى المسلمين الذين صارلهم هناك دولة مرهوبة الجانب وسيعة الرقعة عظيمة السلطان .

دولة المماليـــك

لم يترك السلطان معز الدين محمد بن سام الغورى وريثا للعرش من بعده إذ يذكر عنه المؤرخ منهاج السراج أبو عمر وعثمان ، صاحب طبقات ناصرى ، أنه كان يقول ، بأن الله قد عوضه عن الأبناء بمواليه المخلصين من الأتراك يحافظون على ملكه ويجرون الخطبة بذكره فى كافة أنحاء سلطته .

ونصب قطب الدين أيبك نفسه سلطانا على الهندستان فى عام ٦٠٢هـ/١٢٠٦م عقب وفاة مولاه محمد الغورى[(١)] .

وكان أيبك هذا فى طفولته مملوكا لقاضى نيسابور الذى ضمه فى الدرس إلى أولاده ، فقرأ معهم علوم الكتاب والسنة ، كما نبغ فى الفروسية وركوب الخيل ، واشتهر بالشجاعة والمروءة .

وحين مات القاضى بيع المملوك إلى أحد التجار الذى عرضه بدوره على السلطان محمد الغورى . وكفلت لأيبك خصاله الحميدة أن ينال الحظوة عند سيده الجديد بلغ حتى مرتبة القيادة . وزاد من قدره عند السلطان عظم وفائه وإخلاصه حين بادر من فوره لنجدته على أثر الكارثة التى نزلت بجيوش الغوريين عند أبواب خوارزم وما نتج عنها من انتقاض أمراء وقبائل كثيرة على صاحب غزنة . وعرف له سيده فضله هذا كله فكافأه عليه بتثبيته نائبا له

---

(١) تاريخ فرشته أول ص٦٣

على أملاكه الهندية التي كان له اليد الطولى في توسيع رقعتها حتى صارت تمتد من البنغال شرقا إلى آخر حدود البنجاب غربا .

وبادر سلطان الهندستان الجديد من فوره ، إلى إقامة علاقات طيبة مع زملائه من الأمراء والقواد المماليك ، فبنى ، في سبيل تحقيق ذلك ، بأخت تاج الدين يلدز ، وكان أيبك قد استرد غزنة منه ثم عاد فردها إليه كرما منه . كما زف ابنته إلى التمش وأصهر كذلك إلى قباجه ، وكان كلاهما من زعماء مماليك الغوريين .

واشتهر قطب الدين في حكمه بإقرار الأمن في كافة نواحي بلاده ، وحرصه على قيام العدل بين الناس مع حسن معاملته للهنادكة خاصة .

وقد بنى بالهند مسجدين كبيرين أحدهما بدهلي والآخر بآجمير .

وسقط به جواده سقطة قاتلة عام ٦٠٧هـ/١٢١٠ م فخلفه شمس الدين التمش أحد قواده ، وكان من مماليكه وأصهاره كما ذكرنا من قبل ، في حين استقل قائده قباجة بالملتان والسند ، كما تولى الخلجيون الأمر في بهار والبنغال، وكانوا هم أيضاً بدورهم من رجال السلطان محمد الغوري .

على أن أمراء آخرين من رجال الغوري ، ومعهم طائفة من أتباع السلطان الراحل قطب الدين أيبك ، لم يتقبلوا هذا الوضع الجديد بقبول حسن ، فلم يرضوا بأن ينصب عليهم سلطان هو في الواقع مملوك لمملوك .

وإلى جانب هؤلاء الناقمين ، كان هناك جملة من أقيال الهنادكة ، الذين اغتصب المسلمون أراضيهم ، مازالوا يرون في سيادة المسلمين بلادهم مجرد محنة عابرة ، عليهم ألا يغفلوا أبداً عن انتهازي أي فرصة تلوح لهم للخلاص منها .

لكن التمش بدوره عرف كيف يواجه جميع ما صادفه من مشاكل وصعاب

فى حزم وقوة . فما إن أقر الأمور فى سلطنة دهلى وتوابعها بيداون وأوده وبنارس وسوالك ، حتى خرج إلى البنجاب الذى أغار عليه يلدز ، فهزمه وناصر الدين قباجه حاكم السند واستولى على الإقليم كله .

ذلك أن يلدز هذا كان قد خرج من غزنة ، التى ثبت ملكه بها، فى غزوات ناجحة فيما وراء الهندكوش حتى بلاد خوارزم التى استعصت عليه ، ومن ثم استدار إلى الهند . على أن التمش مازال يطارده حتى أسره ثم قتله، كما رد قباجة إلى إمارته للسلوبة بعد أن تعهد بالولاء له .

كذلك أفلح التمش فى القضاء على جميع الفتن التى أثارها بعض أمراء الهنادكة على إثر وفاة السلطان ايبك سالف الذكر .

ولم يكن جميع ما تعرض له التمش من متاعب ، ليعد شيئاً مذكوراً بالقياس إلى الخطر الداهم الذى أقبل على الهند فى ركاب المغول حين ظهروا عند حدودها عام ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م يقودهم الخان الأعظم جنكيز . وكان هؤلاء قد خرجوا من ديارهم بصحراء جوبى فاكتسحوا فيما اكتسحوا بلاد ما وراء النهر وخربوا أغلب مدنه الزاهرة وقتلوا كثيراً من أهله .

ولقد اجتاحوا ، فيما اجتاحوا ببلاد ما وراء النهر ؛ مملكة خوارزم التى كانت تمتد إذ ذاك من خيوه إلى سمر قند وبخارى ويدخل فى دائرة نفوذها هراة وأصفهان . هذا وكان خصام أميرها مع المغول من أسباب تعجيل الأخيرين بزحفهم على البلاد الإسلامية .

ولجأ جلال الدين ، آخر سلاطين خوارزم ؛ إلى الهندستان هربا من وجه هؤلاء الغزاة ، فتعقبوه وساروا فى أثره حتى أنزلوا به هزيمة حاسمة على ضفاف السند[1] .

---

(١) تاريخ المغول لعباس اقبال . طهران ١٩٣٣ . جلد اول ص ٦٣ .

هذا وكان جلال الدين ، حال وصوله السند ، قد بادر بالكتابة إلى ألتمش يسأله الالتجاء عنده بدهلى بعض الوقت . لكن الأخير خاف مغبة ما قد يؤدى إليه نزول شاه خوارزم عنده من التفاف الجند الأتراك حوله ، وكانوا فى دهلى كثيرين ، فبعث يعتذر إليه متعللا بما قد يجلبه له حر الهند من متاعب صحية لاقبل له باحتمالها .

هنالك لم يجد جلال الدين بدا من منازلة المغول . وحالفه التوفيق أول الأمر فأشاع الاضطراب فى صفوف عدوه . لكن جموعهم المتدفقة سرعان ما عاودت حملاتها العنيفة فلم تكتب النجاة إلا لسبعة آلاف من الجند الخوارزمى من بين الثلاثين ألفاً الذين كانوا يحاربون تحت لوائه .

واستطاع السلطان ، فى فريق من رجاله ، أن يعبر السند تحت وابل من سهام العدو فى شجاعة وجرأة ، فانقض من فوره على قباجة ، والى السند من قبل دهلى ، فأسره وحبسه فى حصن الملتان ثم أخذ ورجاله يعملون السلب والنهب فى الإقليم كله .

على أن الأجل لم يمتد من بعد ذلك بجلال الدين ، فقد أنبىء باستعداد جند العراق لشد أزره وعونه ، فسار ، على هدى أمله الجديد ، إلى إيران ليقع فى الطريق بأيدى بعض الناقمين فيقتلوه .

وكان من حسن طالع الهند أن جيوش المغول لم تطق حرها فاستدارت صوب الغرب من جديد لتنجو هذه البلاد من جحافلهم وشرورهم .

هنالك تنفس ألتمش الصعداء ، فراح يعمل على إخضاع الخارجين على حكمه . ذلك أن الأمير غياث الدين الخلجى ، وكان من أحسن الأمراء المسلمين

سريرة بالهندستان ، كان قد بسط نفوذه على جاينكر وكروب وترهوت وجور إلى الشرق من دهلى وأعلن إستقلاله بها . وقبل هذا الأمير مهادنة التمش أول الأمر على جزية كبيرة دفعها له ، كما أعاد قراءة الخطبة باسمه . لكن جند دهلى ما كادت ترجع عنه حتى انقض على إقليم بهار فاستولى عليه . وسرعان ما سار إليه ناصر الدين محمد شاه ، حاكم أوده من قبل دهلى ، فهزمه وقتله ، كما أوقع فى أسره جميع أعوانه من الخلجيين ، وأخضع كافة الأراضى الممتدة حتى لكهناوتى ورنتنبهور ومندوار .

هذا وكان قباجه بدوره قد استطاع ، بعد زوال الخطر المغولى ، أن يسترد الملتان لنفسه من جديد . وما لبثت قواته أن تضاعفت على أثر هزيمته لجند الخوارزميين والخلجيين الذين كانوا يطمعون فى أراضيه وطردهم منها. حتى أوجس صاحب دهلى خيفة منه ، فأوعز إلى نائبه فى لاهور بالزحف على الملتان ، فى حين خرج هو بنفسه على رأس جيش قوى إلى أوكا مقام خصمه . هنالك لجأ قباجه ، بجنده وأمواله ، إلى قلعة بهكر فتحصن بها . وما لبث أن قضى غرقا فى السند بعد قليل وهو يحاول عبوره هربا من وجه عدوه .

وكان أن أعلن الخليفة العباسى المستنصر بالله عام ٦٢٦ هـ - ١٢٢٨م تثبيته لالتمش على عرش الهند ولقبه بناصر أمير المؤمنين ، فكان من أثر هذا الإعلان أن قوى مركز صاحب دهلى بين مسلمى الهند قوة عظيمة ومكن من نفوذه بينهم . وقد قابل التمش صنيع الخليفة هذا بتقديمه فى الخطبة عليه وضرب السكة باسمه .

واغتنم التمش فرصة تأييد الخليفة له فخرج يبغى القضاء على خصومه وتوسيع رقعة ملكه . فهزم الخلجيين فى المناطق الشرقية مرة أخرى ، وكانوا قد

سارعوا باسترداد نفوذهم القديم عقب وفاة ناصر الدين محمد شاه فى البنغال . هذا كما خرج إلى كواليار فاستردها من الأمير الهندوكى منجال ديوا وأرغمه على الفرار منها .

كذلك استولى التمش على مالوه ، فدخل حصن بهيلسا ثم رحل منه إلى أوبان عاصمة فكر ماديتا القديمة لحطم ما كان بمعابدها من أصنام مشهورة ثم آب إلى عاصمته .

وكان من أثر هذه الحروب ، التى ظل هذا السلطان يمارسها مدى ربع قرن من الزمان ، أن أنهكت صحته . فقضى بدهلى فى شعبان من عام ٦٣٣ هـ — ١٢٣٥ م بعد أن أرسخ نفوذه فى كافة الأقاليم التى فتحها سلفه وسيده قطب الدين أيبك .

هذا والمعروف أن حروب التمش على كثرتها لم تمنعه من أن يمد رعايته إلى المشتغلين بالعلوم والفنون . وقد لاقى فى عهده فن العمارة بالهند إزدهاراً كبيراً . ومن آثاره الباهرة منارة القطب بدهلى التى يبلغ ارتفاعها ٢٤٢ قدماً والتى تعد من أروع العمائر الإسلامية بالهند قاطبة . وينسبها بعض المؤرخين خطأ إلى قطب الدين أيبك ، وحقيقه الأمر أن التمش قد أطلق عليها هذا الاسم نسبة إلى ولى بغدادى ، يدعى قطب الدين ، تبركا .

وقد أفاض صاحب طبقات ناصرى فى ذكر فضائل هذا السلطان ، وكان معاصراً له ، وذكر الكثير عن شدة تقواه وعدله وبره برعاياه . وأوصى التمش قبل موته بالملك لابنته رَضِيّه دون أبنائه من الذكور الذين لم ير من بينهم من هو جدير بحكم الهند . لكن رجال البلاط ما لبثوا أن عهدوا بالملك إلى الأمير

ركن الدين فيروز شاه أحد أبنائه ، انتهز شاة تركان فرصة انصراف ابنها السلطان الجديد إلى الاستمتاع بمباهج الحياة وملذاتها فتستأثر بتصريف شئون البلاد فى استبداد أدى إلى إثارة ثائرة الأمراء فى أوده وهنسى وبداون والملتان ولاهور . وجرى فى خاطر أم السلطان المستبدة أن تكون الأميرة رضية من وراء هؤلاء الأمراء فى خروجهم عليها ، فحاولت ، فى وسط هذه الاضطرابات ، أن توقع بها ، لكن تآمرها باء بالفشل فقضى عليها وعلى ابنها .

هنالك التف الأمراء حول السلطانة رضية من جديد وأجلسوها على عرش أبيها ، فاستطاعت بما أوتيت من حسن السياسة والحزم أن ترغم على طاعتها جميع الأمراء ببلادها ، ومن غرائب المفارقات أن صادف حكمها بالهند تولى شجرة الدر ، قاهرة الصليبيين ، الأمر بدورها فى مصر .

على أن هذه السيدة التى قادت بنفسها حملات عديدة ناجحة للقضاء على عصيان الأمراء من مسلمين وهنادكة ، والتى كانت تجوب الأسواق فى ملابس الرجال وتجلس إلى الناس تستمع إلى شكاواهم ، غلبتها أنوثتها آخر الأمر فتعلق قلبها بأمير الخيل فى بلاطها ، وكان عبداً حبشياً يدعى جمال الدين ياقوت[1] ، فأثارت بذلك عليها حفيظة الأمراء جميعاً ، فقتلوا ياقوت ثم انقلبوا يحاربونها بزعامة أخيها بهرام شاه .

ورغم توصلها بدهائها إلى كسب بعض القواد إلى صفها ، إلا أنها أصيبت آخر الأمر بالهزيمة . وفيما كانت تهيم على وجهها فراراً وقعت فى أيدى عصبة من الهنادكة فقضوا عليها .

Lane — Poole India, P.75 . — ١

على أن بهرام شاه مالبث بدوره أن سلك سبيل الشدة فى حكمه حتى إذا ما أقبل المغول عام ٦٣٩هـ / ١٢٤١ م على البنجاب استطاعوا أن يخربوا لاهور ، دون أن يصادفوا مقاومة تذكر ، وذلك بسبب نفور القواد المسلمين بالهند من سلطانهم واستبداده وطغيانه حتى اجتمعوا عليه آخر الأمر فقتلوه .

وولى الأمر من بعده علاء الدين مسعود شاه حفيد التمش . وفى عهده دخل المغول الهند من جديد ، عام ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م ، بقيادة مانكو وتوغلوا فى السند حتى تصدى لهم بَلْبَنْ قائده ، فردهم عن سلطنة دهلى بعد أن أنزل بهم خسائر فادحة ، وإلى هذا القائد يُرد أيضاً الفضل فى القضاء على ثورات الحكام المسلمين فى كواليار وچندرى ومالوة ونروا .

وبرغم أعمال هذا القائد الباهرة فقد أفلحت الوشايات فى إقصائه عن بلاط دهلى بضع سنين .

وخلف ناصر الدين محمود شاه أصغر أبناء التمش أخاه علاء الدين بعد عزله . فانصرف إلى مصاحبة العلماء والدراويش تاركا عبء الحكم كله على أكتاف وزيره القائد بلبن الذى اضطلع به فى قدرة وكفاءة تامة ، وحين وافى السلطان أجله عام ٦٦٤هـ / ١٢٦٦ م رقى الوزير العرش مكانه .

وينتسب غياث الدين بلبن هذا إلى قبيلة إلبارى التركية التى كان من أبنائها التمش نفسه ، وكان أبوه من بين زعمائها وشيوخها المقدمين .

ولكن حدث أن سقط بلبن بأيدى المغول فى إحدى غزواتهم ، وكان إذ ذاك فى صدر شبابه ، فبيع بالبصرة إلى مَن يدعى خواجه جمال الدين ، فأحسن شواءه ثم صحبه معه إلى دهلى حيث باعه بدوره إلى شمس الدين التمش سلطانها إذ ذاك ، فلم يزل يرقى بجده واجتهاده حتى غدا من خاصة حرسه المقربين .

وبلغ بلبن مرتبة أمير الصيد عند الملكة رضية . حتى إذا ماثار أمراء الدولة فى وجهها لما شاع من أمر كلفها بأمير خيلها ياقوت الحبشى : — بادر من فوره بالانضمام إليهم وبذل الجهد لنُصرتهم .

واعترف له السلطان بهرام ، حين خلف أختـه رضية ، بصادق عونه وإخلاصه فولاه رِوارى وضمّ إليها بعد قليـل ولاية هنسى ، فانصرف إلى إدارة هاتين الإمارتين إدارة حكيمه استقام معها حال الأهاين وتقدمت الزراعه عندهم وراجت أحوالهم الاقتصادية .

وقبل المغول بقيـادة مانـكو على الهنـد عام ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م فغزوا السند وحاصروا حصن أوكا ، فـكان بلبن ، دون سـائر الأمراء الآخرين ، هو الذى انبرى لهم وحده حتى أوقع بهم هزيمة قاصمة ، ارتدوا على أثرها عن الهند سراعا تاركين وراءهم ما كان بأيديهم من أسرى كثيرين ما بين مسلمين وهنـادكة .

وقُلد هذا القائد القدير الوزارة فى عهد السلطان ناصر الدين محمود ، الذى عرف بانصرافه إلى أهل التصوف والأدب ، فطفق ينظّم شئون الدولة فى حزم بالغ . حتى إذا ما تم له ذلك ، انطلق يبغى تأمين سـلطان دهلى ويثبت من هيبتها ، فعبر على رأس قواته نهـر راوى ، أحـد روافد السند ، إلى منازل الـكهكر وغيرها من القبائل الثائرة فاقتحمها عليهم . كما خرج كذلك مرات عديدة إلى الدوآب فقمع الفتن التى كان يثيرها أمراء الهنادكة بها ، واستولى على حصن تلسنده فى قنوج ، وأخضع رانا ملـكى مع كافة الأراضى الواقعة بين كالنجر وكره .

هذا كما استخلص كذلك موات ورنتفبهور من أيدى هنادكة الراجبوتانا ،

فى حين أوقع قائده شيرشاه فى أسره عز الدين زعيم الثوار عنـد أوكا . فلم ترجع جيوش دهلى إلى قواعدها فى ربيع الأول من عام ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م حتى كانت كواليار وجندرى ومالوه ونارور قد دانت جميعها للسلطان وناله منها أسلاب وأموال طائلة .

ونفس فريق من الأمراء والقواد على بلبن أعماله الباهرة هـذه فانتهزوا فرصة خروج السلطان إلى الملتان وأوكادون قائده الأكبر فاقبلوا ، بزعامة القائد عماد الدين ريحان ينصبون شباك الدس له عند سيدهم حتى بلغوا غايتهم فأبعد بلبن إلى إقطاعه عند سولك وهنسى ، واستبدل به الوزير محمد جنيدى ، فى حين رقى القائد ريحان إلى منصب الحجابة .

ولم يـكن أمراء الترك وقادتهم ببلاط دهلى ليقبلوا ، فى بساطة ، الخضوع لهندوكى قريب العهد بالإسلام مثل القائد ريحان . فسرى التذمر بينهم إلى كافة أرجاء البلاد ، وانهالت رسائل الحكام والأمراء على مقـام السلطان بطلب إقصاء هذا القائد عن شئون الدولة .

وتفاقم الحـال بالتفاف أمراء كره ومانيكبور وأوده وترهوت وبداون وسمانه وكوهرام وسونام وتبار هنداه وإقليم سوالك حول الوزير المعزول . وما عتم أن انضم إليهم من الأمراء الـكبار ألغ خان وجلال الدين مسعود شاه فزحفوا جميعاً على رأس قواتهم إلى العاصمة .

ولقد كان حريّا بالقائد ريحان أن يبادر من فوره بالتخلى عن منصبه حقنا للدماء ، لـكنّه ركب رأسه وحمـل السلطان على الخروج بجيشه حيث دارت الدائرة عليه عند تبار هنداه فأرغم على إبعاد حاجبه إلى بداون .

ورُد الوزير القديم إلى منصبه ، فاستقبلته العاصمة ، فى ذى الحجة من من عام ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م ، استقبال الغزاة والفاتحين بعد غياب استغرق عامين من الزمان .

وشمّر بلبن عن ساعد جده المعهود فقضى على فتن الدوآب المتكررة وأقر الأمور فى أوده والسند حيث كان قتلُغ خان زوج أم السلطان ومعه القائد عز الدين بلبن قشلو خان وفريق من أمراء المنادكة قد جنحوا هناك إلى نبذ طاعة السطان وإعلان العصيان .

وأقبل المغول على السند من جديد ، عام ٦٥٥ هـ/١٢٥٧ م يقودهم نوبيين سارى ، فما إن أحيطوا بتدبير الوزير القائد لنزالهم حتى ارتدوا على أعقابهم من حيث أتوا .

وكان آخر وقعة كبيرة ذات خطر خاضها الوزير بلبن هى التى خرج فيها عام ٦٥٧ هـ /١٢٥٩ م للقضاء على ثوار المنادكة الذين راحوا بزعامة أميرهم ملكا يعملون السلب والنهب فى قرى سوالك وبيانه وهربا إلى جانب إنتهابهم لأملاك المسلمين فى موات ، لم يردهم عن غيهم ما نزل بهم من ضربات شديدة قبل ذلك بسنوات ثلاثة على أيدى ألغ بك أحد قواد دهلى . وأفلح الوزير فى تطهير المنطقة كلها ثم عاد إلى العاصمة ليقف إلى جانب سلطانه فى استقبال مبعوث من لدن هولا كوخان المغولى حفيد جنكيز خان .

وهكذا أظهر بلبن فى الفترتين اللتين ولى فيهما الوزارة جدارة فائقة فى تصريف أمور الدولة وإقرار النظام فيها والأمن والقضاء على كل ما كان يتهددها من أخطار سواء فى الداخل ، حيث قضى على عصيان الأمراء فى الدوآب والسند ، وفى الخارج حيث دفع عنها عدوان المغول وحصن حدودها الشمالية الغربية فى وجههم

ورقى غياث الدين بلبن عرش الهند على أثر وفاة السلطان ناصر الدين كما ذكرنا من قبل ، فعمل على أن يسترجع لمنصب السلطنة سابق هيبته ونفوذه الذى زعزعه ضعف السلاطين من أبناء التمش من جهة وازدياد سطوة المماليك من أتباع التمش من جهة أخرى ؛ هذا إلى جانب الخطر المغولى الذى ما برح يطل على السند من آن لآخر .

وفى سبيل تحقيق هذه الأغراض جميعها أعاد بلبن تنظيم قواته وتدعيمها حتى تمكن بها من إقرار الأمن فيما حول عاصمتــه وفى الدوآب والبنجاب : ومن ثم وجها لدفع خطر المواتيين ، وكانت عصاباتهم قد تفاقم أمرها بدرجة مخيفة حتى طفقت تهدد دهلى نفسها ، فلم يزل جنده تطاردهم وتتعقبهم فى الأدغال والغابات حتى طهرتها منهم تماما . كذلك عمل بلبن على تأمين الطرق والمسالك فى أنحاء بلاده من عبث اللصوص وقطاع الطرق وكانوا من الكثرة بدرجه مخيفه ، لاسيما فى الدوآب ، حتى كان يستحيل فى أغلب الأحيان نقل المؤن والبضائع من موضع إلى آخر بأمان .

ودعم السلطان عملياته الكثيرة هذه بإقامة كثير من المعاقل والحصون فى مختلف أنحاء البلاد وتعميرها بالجند والسلاح ، كما أمر بشق كثير من الطرق عبر الأدغال والأحراش .

هذا وقد استعان بلبن على ضبط الأمور ، فى مملكته المترامية الأطراف ، بشبكة محكمة من العيون كانت توافيه بكل ما كان يجرى فى البلاد من حوادث وما كان ينزع إليه عماله من تصرفات فى دقة وسرعة وتفصيل تام .

وبلغ من حرص صاحب دهلى على إلزام عماله جادة الصواب والعدل أنه

لم يتردد فى الاقتصاص من أكثر من واحد منهم فى عنف وشدة حين بلغه قتلهم بعض السكان ظلما .

على أن بلبن ، برغم ما كان له من جند كثيف عالى التدريب ، فقد ابث فى هم مقيم خوف قدوم المغول. فلزم عاصمته ، وجها كل جهوده إلى تأمين حدوده بإزاء غزوات جحافل هؤلاء البدو الآسيويين غلاظ الأكباد ، الذين أنزلوا الخراب والدمار بأغلب بلاد المسلمين . ألم يكن أولاء قد اقتحم بهم خانهم هولاكو ، حفيد جنكيز ، بغداد مدينة الخلافة فدكوها على أهلها وقتلوا المستعصم أمير المؤمنين بها شر قتلة ، وهاهم بالهند قد احتلوا إقليم لاهور ثم راحوا فى غاراتهم تترى يكتسحون أرض السند والبنجاب .

وبلغ من فرط تحوط سلطان دهلى وشدة حذره أن أبعد عن بلاطه كل مَن كان يخالجه أدنى شك فى إخلاصه له ، حتى عزل فى سبيل ذلك جميع الهنادكة عن مناصبهم وأصبحت موارد الدولة كلها وجهودها وقفا على تحصين البلاد ووقايتها من خطر المغول .

وكان من ذلك أيضا أن عهد إلى ابنيه ، محمد وبغراخان ، بالمرابطة فى الملتان وسمنه أقرب مراكز الحدود الشمالية تعرضا للخطر وأمدهما بجيوش قوية حسنة التدريب .

وجرّ على بلبن لزومه عاصمته ، دون الخروج منها للغزو والجهاد على سنة أسلافه ، كثيرا من المتاعب فى مختلف ولايات الدولة لاسيما ما كان منها على مبعدة من مقره . بل أن هيبته بدأت تقل فى أعين سكان دهلى نفسها الذين لم تعد تهز أسماعهم أنباء الانتصارات السلطانية أو يشاهدوا عساكر المسلمين خارجة للغزو والجهــاد .

وأرغمت اضطرابات البنغال بلبن آخر الأمر على الخروج من عاصمته . ذلك أن أميرها طغرل كان قد جهر باستقلاله بعد أن أوقع بحملات دهلى إليه مرات متكررة [1].

هذا والواقع أن نفوذ دهلى فى البنغال كان قد طفق يتضاءل عموما منذ حكم الخلجيين هناك . وساعد أمراء هذا الإقليم على نبذ طاعة دهلى بعد بلادهم الشاسع عنها مع سوء المواصلات معها ورداءة الطرق إليها ، فضلا عن انتشار الملاريا بها انتشارا وبائيا شديدا .

ولقد أتيح لألتمش من قبل أن يقر الأمور فى هذا الإقليم وقتاما حتى نصب عليه ابنه ، لكن الأحوال مالبثت بعد موته أن عادت هناك إلى سيرتها الأولى نتيجة للاضطراب والتفكك الذى دب إلى الحكومة المركزية فى دهلى بما فصلناه من قبل .

وزين لطغرل خان نائب بلبن على هذا الإقليم ، مستشاروه خلع طاعة دهلى ، وقد خيل إليهم أن السلطان قد شارف على الهلاك لشيخوخته ، فى حين شغل والده بقتال المغول فلا قبل إذن لأحد بالمسير إليهم .

ودفعت بهذا الأمير أطماعه إلى مهاجمة جاجنكر ، فانتهبها واستولى فيها على أسلاب ثمينه طائلة . ومن ثم راح يجهر باستقلاله فاتخذ لنفسه لقب السلطان مغيث الدين وأمر بضرب السكة وقراءة الخطبة باسمه ، ثم راح يفيض على رجاله مما استحوذ عليه من الغنائم جلبا لولائهم ورضائهم .

وبعث بلبن ، أول الأمر ، بقائده آ بتكين المعروف بأمير خان إلى البنغال

---

(١) رياض السلاطين أو تاريخ بنكالة - لغلام حسين سليم . كلكته ١٨٩٠م ص ٧٧ - ٨٥

فأصيب بهزيمة شديدة انفرط على أثرها عقد الجند ، فمنهم من بادر بالانضمام إلى صفوف المنتصر ومنهم من ركب طريق الفرار . وبلغ من شدة انفعال بلبن وفرط غضبه ، حين بلغه خبر هذه الهزيمة ، أن أمر بقائده أمير خان فشنق على أسوار أوده ، مركز إقطاعه ، فجاءت قسوة هذا الإجراء مذهلة لرجال الدولة مثيرة لقلقهم .

وسير بلبن حملة ثانية إلى البنغال لم يكن نصيبها بأفضل من نصيب سابقتها . ذلك أن طغرل كان على أثر انتصاره قد زحف خارج حدود بلاده حتى بلغ لكهناوتى فانقض على جيش دهلى فأباده .

هنا لك بلغ ارتياع السلطان أشده ، فقرر لوقته الخروج بنفسه إلى البنغال . فعهد بشئون الدولة إلى ملك فخر الدين ثم قصد إلى سمانه وسنام فطلب إلى ابنه بغراخان أن يصحبه فيما اعتزل عليه من حرب ، فى حين أوصى ابنه الآخر محمدا بمزيد الالتفات إلى ما بيده من أقاليم ، وأن يرقب الحدود بعين ساهرة حذر المغول .

وبرغم عنف موسم الأمطار وكثافة الوحل وكثرة المستنقعات فقد جد السلطان السير ، حتى إذا بلغ حاضرة البنغال وجد أن طغرل قد غادرها فرارا إلى جاجنكر وقد صحب معه كنوزه وصفوة من رجاله الأشداء. هذا كما اختفى من لكهناوتى كذلك أغلب أعيانها خوف بطش السلطان ونقمته عليهم لتقاعسهم فى الحد من نفوذ الأمير البنغالى .

وأقسم السلطان ألا يبرح البنغال إلى دهلى قبل أن يوقع بطغرل ، ولو اقتضاه ذلك ركوب البحر وراءه . واستطاع رجال المخابرات السلطانية آخر الأمر

الاهتداء إلى معسكر الأمير الثائر فى مخبأ يتوسط الغابات ، فسقطوا عليه فى غفلة من الحرس . وأصاب أحد الجند طُغرل بسهامه وهو يحاول عبور أحد المجارى المائية هرباً ، فقطع رأسه وأسرع بها إلى مقام السلطان .

ولم يرجع بلبن إلى حاضرته إلا بعد أن أنزل بسكان لكهناوتى مذبحة قاسية لم تعرف الهند لها نظيراً فى تاريخها إلا القليل . وأوصى ابنه بغراخان ، بعد أن ولاه البنغال ، بسلوك طريق العنف والحزم معهم .

وظل هذا الأمير وخلفاؤه من بعده يحكمون البنغال ما ينوف على نصف قرن ، فى حين لم تستطع أسرة بلبن نفسها أن تحتفظ بعرش دهلى بعد وفاة عميدها أكثر من سنوات ثلاث .

ولم يكتف السلطان بما أراق من دماء غزيرة فى الأقاليم الشرقية ، فبادر حال وصوله حاضرته إلى القصاص من كل من ثبت عليه أدنى اتصال بالثائر طغرل ورجاله .

هذا وكان بلبن قد وكل بابنه الأكبر محمد أمر الجبهة الغربية كما قلنا من قبل ، وكان بها حاميتان قويتان إحداهما بالملتان والأخرى بسمانة أقرب المراكز إلى المناطق التى كان يحتلها المغول .

وخرج هذا الأمير عام ٦٨٤ هـ/١٢٨٥ لدفع خطر المغول عن لاهور وديبالبور فنالته رماحهم . وقد حزن أبوه عليه حزنا شديدا عجل فى نهايته بعد قليل .

ويذكر عن هذا الأمير ميله الشديد إلى مجالسة العلماء والأدباء . وكانت ندواتهم عنده تدور على دراسة كتب الشعر والتاريخ والفلسفة كالشاهنامة وديوان

سنائى والخاقانى وخمسه نظامى . وكان من بين كبار رواد هـذا الأمير شاعر الهند الـكبير خسرو الدهلوى تلميذ نظام الدين أوليا .

وبعث بلبن على أثر هذه الـكارثه إلى ابنه الآخر بُغراخان يدعوه اليه ليوليه عهده ، لـكنه آثر البقاء بالبنغال بعيدا عن مشاكل الملك بالعاصمة . ومن ثم أوصى السلطان بالملك من بعده لحفيده كيخسرُو ابن الأمير الشهيد محمد .

ولقد ولى محمد بلبن عرش الهند أربعين عاما حـكم فيها البلاد بحزم ومقدرة عظيمة ، فدفع جحافل المغول عن حدودها كما قضى على كل ما أشاع فى ملـكه من فتن واضطرابات كثيرة .

وأضفى هذا السلطان على بلاطه تقاليد راقية رفيعة فألزم حاشيته ورجال دولته بمراسم معينة فى لباسهم وفى سلوكهم ومناصبهم على السواء . كما ألزم نفسه ورجاله بالتمسك الشديد بآداب الإسلام وفضائله ، ونشأ أولاده عليها ، ودفع بنى قومه على التحلى بها ، حتى ليرُد المؤرخون صفوة عادات المجتمع الهندى اليوم وتقاليده الرفيعة إلى ما أستنه منها هذا الأمير وخلفاؤه من بعده(1). وشُهر بلبن ، إلى جانب ذلك كـله ، برعايته للعلماء والأدباء مع برة الشديد بالناس جميعا لا فرق عنده بين مسلم وهندوكى ، وإن كانت ظروف البلاد فى حربها مع المغول قد دفعته اعتبارا تها إلى إبعاد الأخيرين عن مناصب الدولة .

وضرب رجال البلاط فى دهلى صفحا عن مشيئة سلطانهم الراحل ووصيته لهم ، فأجلسوا على العرش الأمير كيقُباذ بن بغُراخان ، فـكان اختيارا غـير موفق حل فى ثناياه نهاية هذه الأسرة .

Prasad. Med. India. pp 171,2 — 1

ذلك أن السلطان الجديد لم يكن له من الجدارة ما يليق بسد الفراغ الكبير الذى تركه جده العظيم بعد موته .

ولئن كان هذا الأمير قد نشىء فى الواقع تنشئة طيبة منذ حداثته ، وجهد القائمون على تربيته فى تثقيفه تثقيفا عاليا وبث الفضائل وحميد الخصال فى نفسه؛ إلا أن توليه العرش فى سن المراهقه ، إذلم يكن يعدو السابعة عشرة ، دون وجود نصحاء مخلصين له من حوله ، قد أسلس قياده لزمرة من أصحاب الأهواء أخذوا يزينون له الاستماع بمباهج الحياة وعبثها ، حتى استجاب لهم وانصرف عن شئون الملك بكليته إليهم .

واستطاع رجل من أصحاب الطموح والأطماع بالبلاط يدعى نظام الدين، أن يستأثر بتصريف الأمور بتعضيد ختنه فخر الدين أمير الجند بالعاصمه ، فراح ينتقص من حقوق الأمراء ويقصى عن مراكز الحكم أكفاءهم ، وفيهم أولئك الذين كانوا يخدمون الدولة بوفاء وجد وإخلاص منذ أمد طويل .

ومالبث نظام الدين أن تطلع إلى العرش نفسه . فهام أولاء الأمراء والقادة قد ألزمهم طاعته والخضوع لمشيئته ، وها هو ذا بغراخان ، أقوى أبناء بلبن ، يقيم بالبنغال التى تبعد عن العاصمة مئات الأميال فلا سبيل يسيرةله إليه . فرتب خطته على أن يبدأ أولا بالتخلص من الأمير كيخسروا ، وهو الذى كان بلبن قد عهد إليه أصلا بالعرش قبل موته ، فمازال بالسلطان حتى زين له اغتياله وحمله عليه ، فقتل عند رهتان وهو قادم فى طريقه من الملتان إلى دهلى تلبية لدعوة السلطان .

وحين أثار مقتل هذا الأمير سخط رجال الدولة ، برز نظام الدين يلقى

بالتبعة على خواجه خاطر وزير السلطان، فمثل به شر تمثيل وطوف به المدينة على حمار ثم قتل. ولقى فى هذه الفتنة كذلك جملة من رجال بابن المخلصين نفس المصير بتدبير من هذا الأمير الذى عرف كيف يجعل من السلطان أداة طيعة لتنفيذ مآربه وتحقيق أغراضه وأهدافه.

ونظر نظام الدين ومعه ختنه فخر الدين فرأيا معارضيهما والساخطين عليهما يلوذون بالأمراء الخلجيين ويتطلعون إليهم فى هـذه المحنة الجارفة. فحزما أمرهما على الإيقاع بهؤلاء الأمراء الذين، فضلا عن توليهم لمناصب هامة فى الدولة، كانوا وآباؤهم هم الذين أرسخوا فتوحات المسلمين فى البنغال والأقاليم الشرقيه.

ولقد حاول بغراخان صاحب البنغال أن يرد السلطان إلى صوابه فالتقى به فى جيش كبير عند أوده، لكنه ما لبث أن ارتد بعد قليل إلى طريقة القديم حتى انتهى به انغماسه فى العبث والمجون إلى الإصابة بالفالج.

وأدى اضطراب الأحوال وتناحر الأمراء فيما بينهم إلى أن ذهب فريق منهم إلى حريم القصر فأتوا بغلام من أبناء السلطان المريض ورفعوه على العرش.

هذا وكان الأمراء الخلجيون بدورهم قد أحسوا بما كان يدبر لهم فى الخفاء فخرج بهم زعيمهم جلال الدين فيروز مع أتباعهم وجندهم إلى ظاهر العاصمة.

هنالك حسبها الأمراء الأتراك بدورهم فرصة سانحة لخلاص الأمر لهم. لكن أبناء الأمير فيروز الخلجى سرعان ما أحبطوا خططهم باختطاف السلطان الصبى والفرار به إلى معسكرهم.

وإن هى إلا أيام قليلة حتى اجتاح الخلجيون المدينة بجندهم فقصد فريق منهم

قصر المرايا حيث كان كيقباذ طريح الفراش ، فقتله رجل منهم انتقاما منه لأبيه . وألقيت جثته بنهر جمنة فى التاسع عشر من المحـــرم عام ٦٨٩ هـ/١٢٩٠ م .

وبمقتل كيقباذ انتهى أمر ســـلاطين المماليك وانتقل الملك إلى أيدى الخلجيين .

الخلجيون

يرجع محمد قاسم هندو شاه ، صاحب تاريخ فرشته ، نسب الخلجيين إلى الترك ، ويحتج على ذلك بترداد ذكرهم فى تاريخ ملوك غزنة خصوصاً أيام حكم سبكتكين وابنه محمود [1] . فى حين ينسبهم نظام الدين أحمد، صاحب طبقات أكبرى ، إلى قليج خان أحد أصهار جنكيزخان [2]، حيث تقول الرواية بأنه نزل بجبال الغور بعد هزيمة شاه خوارزم ثم حرف اسمه بعد ذلك إلى خلج الذى ينسب إليه الخلجيون . ويقول بهذا الرأى كذلك ضياء الدين بارانى صاحب تاريخ فيروز شاه محتجا بكراهية الخلجيين للترك .

ومهما يكن الأمر فإن الخلجيين قد تأثروا بالبيئة التى عاشوا فيها ،فصاروا يعدون أنفسهم أفغانيين أكثر من أى شىء آخر .

وبدأ نجم هؤلاء الأمراء فى الظهور بالهندستان أيام محمد الغورى وقطب الدين أيبك وشمس الدين التمش ، فكانوا حكاما على البنغال والأقاليم الشرقية كما ولوا كذلك كثيرا من المناصب الرفيعة الأخرى فى الدولة . والتف الأمراء الأفغان حولهم ببلاط بلبن وخلفائه فى جبهة تناهض نفوذ الترك الآخرين وغيرهم حتى انتهى بهم الأمر إلى أن ارتقى زعيمهم جلال الدين فيروز شاه عرش دهلى ٦٨٩ م/ ١٢٩٠ م وكان فى السبعين من عمره .

---

(١) تاريخ فرشته لمحمد قاسم هندو شاه – ص ٨٨، ٨٩

(٢) لا تزال بعض قبائل الهزرا بمناطق بلاد الأفغان الجبلية محافظة على المقومات الجنسية واللغوية المغولية غالبا حتى اليوم ، وقد نشر الأستاذ جايلتز بحثا شيقا فى هذا الموضوع بمجلة المستشرقين الألمانية ZDMG Bd XX S 326-8

ولم يتقبل أهل العاصمة حكم الخلجيين أول الأمر بقبول حسن لفرط ما ارتكبته قوادهم معهم من ضروب القسوة من جهة ، ولبشاعة مقتلهم سلطانهم المفلوج من جهة أخرى ولكن السلطان الشيخ مالبث بحسن سياسته وعدله ومودته أن تألف القلوب حوله من جديد . فقد أثر عنه أنه ، لفرط بغضه لإراقة الدماء ، كان يكتفي بنفي قطاع الطرق إلى البنغال دون قتلهم . كما بلغ من تسامحه كذلك أن عفا عن ملك چجو ، ابن أخي بلبن وحاكم إقليم كره ، حين وقع أسيراً في يده ، وكان قد زحف إلى العاصمة في جيش كبير بدعوى أحقيته في العرش ، فاكتفى فيروز شاه بخلعه عن إمارته وتنصيب ابن أخيه جلال الدين الخلجي مكانه .

ولم يكن تسامح جلال الدين وقفا على المسلمين دون غيرهم . فقد خرج من عاصمته إلى جهاين ومالوه بعد ما بلغه من انتهاب راجا رنتنبهور لهما ، فما إن رأى هذا الأمير الهندوكي يحتمي بإحدى حصونه خوف بطشه حتى رجع عنه حقنا لدماء الرعية .

على أن بغض السلطان الخلجي الشيخ لإراقة الدماء لم يكن ليقعده بطبيعة الحال عن الذب عن بلاده إذا ما اكتنفتها الأخطار أو تهددها الغزو . فما إن عاد المغول إلى الهندستان من جديد يهاجمونها بجحافلهم حتى تصدى لهم جلال الدين وأنزل بهم هزيمة منكرة أسر فيها بضعة ألوف منهم أنزلهم بضواحي دهلي ، وهم الذين عرفوا هناك بالمسلمين الجدد ، وقد صارت محلتهم مثابة للتآمر والاضطرابات التي جرت على دهلي كثيرا من المتاعب فيما بعد .

وأذن جلال الدين لابن أخيه علاء الدين عام ٦٩٤ هـ - ١٢٥٤ م بالخروج إلى الدكن غازيا ، وكان هذا الأمير واسع الأطماع طموحا ثبيت في نفسه أن يستقل عن دهلي ويقيم لنفسه هناك ملكا .

وبرغم ما كان معه من جند قليل لا يجاوزون ثمانية آلاف فارس، فقد استطاع أن يغزو بهم إمارة ديوكر الهندوكية الواسعة ويهزم صاحبيها رام جندرا وسنكره ديو ثم عاد إلى مقره بكره محملا بغنائم طائلة كانت تضم أكداسا من الجواهر الثمينة وأربعين من الفيلة وبضعة آلاف من رءوس الخيل.

وطار السلطان فرحا بما حازه ابن أخيه من انتصارات، وكان إذ ذاك فى نواحى كوالهار، فعزم على الخروج بنفسه للقائه.

وكاد جلال الدين يستجيب لتحذيرات بعض خلصائه وارتيابهم فى نوايا ابن أخيه. حتى إذا ما أقبل عليه الماس بك ألغخان برسالة من علاء الدين يلوح له فيها بقتل نفسه أو أن يضرب وكنوزه فى الأرض على غير هدى إذا ما عدل السلطان عن تشريفه بالقدوم إليه، — أصم أذنيه عن مقالة رجاله برغم مزيد إلحاحهم عليه وتبصيرهم إياه بسوء نواياه، فعزم على الخروج إليه من فوره.

وهكذا عبر جلال الدين الكنج فى فئة قليلة من رجاله، فما إن بلغ مقام علاء الدين فأقبل يحييه، حتى انهالت ضربات السيوف عليه وعلى رجاله ثم نودى فى الناس من بعد ذلك بالأمير القادر سلطانا عليهم.

وروع الخبر دهلى فبادر الأمراء ورجال البلاط بالالتفاف حول ملكه جهان زوجة جلال الدين وقد بلغ بهم الغضب والحزن مبلغه لاغتيال السلطان الشيخ الرحيم بهذه الأساليب الوحشية الوضيعة.

وبادرت هذه السيدة، بحسن تدبيرها، فغمرت الزعماء بالهبات والعطايا

كما نثرت الفضة والذهب على عامة الشعب بالمجانيق حتى اجتمعوا جميعاً على تنصيب ابنها ركن الدين إبراهيم على عرش دهلى .

على أن علاء الدين سرعان ما اقتحم المدينة على أهلها وأرغم سلطانها الشاب على الفرار إلى الملتان . وهكذا جلس هذا الأمير المغامر الطموح على عرش الهند عام ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م فأجريت الخطبة له وضربت السكة باسمه .

وغزا المغول أرض الهند من جديد فانبرى لهم علاء الدين فى حروب طويلة استمرت إلى عام ٧٠٥ هـ / ١٣٠٤ م حتى رد غائلتهم عن البلاد . وكان أكبر عون له فى حروبه هذه قائده الكبير غازى تغلق ومعه ظفر خان وألغ خان . وكان علاء الدين قد نهج كذلك نهج سلفه العظيم بلبن بإقامة حصون قوية مستديمة عند الحدود الغربية وتزويدها بالجند المدرب القوى والعتاد الحربى .

ولقد بدأت هذه الحروب فى السنة الثانية من حكم هذا السلطان حين خرج الأمير داود المغولى من بلاد ما وراء النهر فى عشرة آلاف مقاتل يبغى الاستيلاء على الملتان والسند والبنجاب ، فتصدى له ألغ خان قائد دهلى وأنزل به هزيمة شديدة .

على أن هؤلاء الغزاة لم يثنهم عن عزمهم ما أصيبوا به من خسائر فادحة ، فعادوا إلى الهند بعد قليل ، فالتقى بهم القائد الخلجى ظفر خان فى معركة كبيرة أسر فيها منهم ألفين ومعهم قائدهم فسيقوا جميعاً إلى دهلى مصفدين بالأغلال .

وكان أخطر هجوم مغولى تعرض له علاء الدين هو الذى وقع عام ٦٩٨هـ/١٢٩٨م حين زحف قتلق خواجه على رأس قوات كثيفة صوب دهلى . لكن السلطان ومعه قائداه ألغ خان وظفر خان ثبتوا لهم حتى تم لهم النصر بعد قتال عنيف تضاعفت فيه خسائر الفريقين وسقط فى ميدانه القائد الخلجى المحنك ظفر خان .

وظهر فى الميدان على أثر هذه الواقعة جيش جديد من المغول بقيادة زعيمهم تارجى ، لكن الأمير نظام الدين تصدى له وشتت شمله .

ولئن كانت حدة الخطر المغولى قد انكسرت على أثر هذه الهزائم المتلاحقة التى نزلت بهم ، إلا أن غزواتهم طفقت مع ذلك تتوالى على مناطق الهند الغربية حتى تمكن غازى ملك تغلق ، بفضل حنكته الحربية وشدة مراسه وما أنزله بهم من ضربات شديدة ، من أن يبعد خطرهم عن سلطنة دهلى تماما .

وإذ ساد الاستقرار والأمن سلطنة دهلى من جديد ، انصرف تفكير علاء الدين إلى الغزو والفتوح . فأخذ يمهد لذلك بالعناية البالغة بأمر الجيش وتقويته مع تهيئة ما يحتاج إليه من مصانع للسلاح وعمال لها، إلى جانب إنشاء الحصون لاسيما بمناطق الحدود عند سمانه وديبالبور بالبنجاب . وكان يعاونه فى ذلك كله نخبة من قواده الممتازين الذين كادت فتوحاتهم تشمل شبه القارة الهندية بأ كملها .

ولقد بعثت فتوحات هؤلاء القادة وما جلبوه من كنوز طائلة ، نشوة مشوبة بقدر من الغرور فى نفس علاء الدين حتى تراءى له أن يسير بهم إلى

فتح الدنيا بأسرها على غرار ما فعل الإسكندرية المقدونى من قبل . بل لقد ذهب به الحال إلى أبعد من ذلك ، فغدا يصرح بأن قادته هم منه بمنزلة الخلفاء الراشدين من النبى الأكرم ، فهو قادر بهم على تنظيم الدعوة لدين جديد يخرجون للتبشير به فى أركان المعمورة وسيوفهم مشهرة .

وهنا يقول المؤرخ ضيابارانى صاحب تاريخ فيروزشاهى ، وكان معاصرا له ، إن القاضى علاء الملك عم السلطان بادر باعتراضه على علاء الدين فى قوة وحزم حين سأله النصيحة فى هذا الأمر . فقال له بأن الدين إنما هو وحى من عند الله وليس بأمر وضعى من صنع البشر ، وأن النبوة لم يختص بها الملوك أبدا أو كانت من نصيبهم عموما وإن كان بعض الرسل قد أوتى من الملك نصيبا . وهذا خان المغول جنكيز ، برغم ما أهرق من دماء فى بلاد المسلمين ، لم يمكنه حمل المقهورين على الدخـــول فى ملته ، بل إن ما حدث هـو العـكس ، فقد أقبل المغول الفاتحون أنفسهم يدخلون فى دين الله أفواجاً .

أما عن مسألة فتح العالم فقد أبان القاضى للسلطان بأن العصر يغاير تمام المغايرة زمان الإسكندر فلا يقاس عليه ، هذا فضلا عن أنه كان للمقدونى وزير ناصح حكيم هو أرسطو وهو ما لانظير له عند علاء الدين .

وختم القاضى نصيحته للسلطان بأن أوصاه بقصر جهوده وتركيزها فى إخضاع الهندستان كلها لحكمه ، وإقرار الأمور فيها بالقضاء على الثورات والفتن وتأمين الحدود فى وجه المغول .

ولقى كلام القاضى أذنا مصغية من علاء الدين فبعث بقائديه ألغ خان

ونصرت خان عام ٦٩٩ هـ/١٢٩٩ م للاستيلاء على حصن رنتنبهور فنفذا إليه فى قوات كبيرة عبر صحراء الراجبوتانا بعد أن استوليا فى طريقهما على حصن جهاين .

وفيما كان يحاصران هذه القلعة ، أصابت إحدى قذائف المدافعين الحجرية نصرت خان إصابة قاتلة جرته إلى حتفه فى مدى يومين . ومالبث رانا همير صاحب الحصن أن خرج إلى المسلمين فى مائتى ألف من الجند اجتمعوا له ، فأرغم بهم ألغ بك على الارتداد إلى قلعة جهاين بعد خسائر كثيرة .

هنالك بادر السلطان بالخروج بنفسه إلى هذا الحصن ، ولكنه فوجىء فى الطريق بتآمر ابن أخيه سليمان شاه اتكخان على حياته ، ومعه أتباعه من المسلمين الجدد ، قصد انتزاع العرش منه على غرار ما فعله هو نفسه بعمه جلال الدين من قبل . على أن علاء الدين ، برغم ما أصابه من جروح شديدة ، أفلح آخر الأمر بالقضاء على المتآمرين جميعاً .

وتابع الأمير الخلجى سيره إلى غايته فاكتسح فى طريقه مالوه ودهار . حتى إذا ماوصل حصن رنتنبهور قابله أصحابه بمقاومة عنيفة أطال من أمدها جنوح بعض رجال الدولة بدهلى إلى التآمر على السلطان فى غيبته وإشاعتهم الفوضى فى المدينة .

وأصر السلطان على ألا ينصرف عن الحصن قبل الاستيلاء عليه فبعث بقائده ألغ خان إلى دهلى فأقر الأمور فيها بعد عناء شديد .

واستماتت المنادكة فى الدفاع عن قلعتهم فى شجاعة خارقة وثبات عظيم فلم

تسقط فى أيدى علاء الدين إلا بعد عام من المقاومة الجيدة ومن ثم آب السلطان إلى عاصمته فى نهاية عام ٧٠٠ هـ / ١٣٠١م بعد أن أمر بالحصن فهدم وسويت أسواره بالأرض . وصارت الإمارة كلها لألفخان .

وأغرى هذا الانتصار الكبير علاء الدين على التطلع إلى اقتحام موار أمنع إمارات الراجبو تانا وأعظمها . ولم يفت فى عضده ما حصنت به الطبيعة هذا الإقليم من جبال شاهقة ودروب وعرة وغابات كثيفة موحشة ، إلى جانب حصونه الكثيرة وفيها حصن جيتور الذى قد من الصخر على قمة جبل وعر كفلت له مناعته رد كل فاتح أو غاز عنه، فلم يفكر أحد من قوادالمسلمين بالهند من قبل فى محاولة النفاذ إليه .

على أن علاء الدين ما عتم يدبر لرانا بهيم صاحب جيتور ما يُدبّر حتى أفلح فى استدراجه إلى خارج حصونه ثم أوقعه فى أسره . وهنا تقول الرواية أن السلطان عرض على أسيره أن يرده إلى مقامة إن سير إليه ابنته بدمنى . وكانت هذه الأميرة الهندوكية على جمال رائع وفتنة ذاع أمرها فى كافـــة أرجاء الهند .

وأجمع رجال الحصن ، حين بلغهم الخبر ، على أن يبعثوا إلى سيدهم سراً بقدر من السم يضع به حداً لعذابه فى الأسر وينقذ معه بذلك شرف قومه ، فإذا بالأميرة الجميلة ، وكانت ذات عقل راجح وتدبير سديد ،تنبرى لهم معارضة فتعلن إليهم عزمها على المسير إلى مقام السلطان على خطة محكمة ، أسرّتها إليهم ، فيها الخلاص والسلامة لأبيها ولها معاً .

وبلغ ركب الأميرة معسكر السلطان ومعها أحمالها فى الهوادج . فما إن

توسطت القافلة مضارب علاء الدين حتى انشقت هوادجها عن سبعمائة من فدائى المنادكة الأشداء الذين أفلحوا بعد قتال مرير فى إنقاذ أميرهم وردوا ابنته إلى حصنه بسلام .

ولم يكن علاء الدين ليسكت عن هذا الحادث ، فاقتحم الحصن بنفسه فى الغداة وأعمل ورجاله السيف فى حاميته فى عنف بالغ، وإن لم يستطع على كل حال أن يظفر بالأمير المندوكى وابنته أحياء ، إذا آووا مع جملة من الأعيان إلى بعض الكهوف حيث أهلكوا أنفسهم (١) .

وتبع سقوط هذا الحصن استيلاء قوات السلطان على ما لوه ثم ماندو ويوجين ودهرا نجرى وجندرى . وهكذا لم ينصرم عام ٧٠٦ هـ/ ١٣٠٥م حتى كانت مملكة علاء الدين الخلجى تمتد من البنجاب إلى البنغال ومن جبال الهملايا إلى تلال الوندهايا ، وهى الرقعة التى اصطلح المؤرخون على إطلاق اسم الهندستان عليها .

واتجهت أنظار صاحب دهلى من بعد ذلك إلى الدكن . وكان هذا الإقليم إلى جانب بعده عن العاصمة ، يقوم على حراسته عصبـــــة من أمراء الهند الأقوياء .

وخرج جيش المسلمين من حاضرتهم وعليه القائد كافور . وكان مملوكا حبشيا قديراً جلبه القائد نصرت خان إلى سيده من منطقة خليج كمباى .

---

(١) تاريخ فرشته ص ١١٥ — هذا وتذكر بعض المصادر المندوكية على أن الأميرة كانت زوجة لصاحب الحصن لا ابنة له .

واخترق الجند مالوه ثم الكجرات أعظم أقاليم الهند التجارية وأغناها وأطيبها مناخا ، ثم هاجموا راى كران الذى ما عتم أن فر مع ابنته إلى صاحب ديوكر .

وهنالك انضم ألغ خان ورجاله إلى قوات كافور فساروا جميعاً إلى ملجئ غريمهما ، فما لبثا أن ظفرا به وبحجيره بعد قتال عنيف . على أن السلطان ، بعد أن زف ابنة راى كران إلى خضرخان ولى عهده ، ما لبث أن رد صاحب ديوكر وابنه إلى بلادهما مكرمين ، فضمن بصنيعه هذا دوام ولاء هذا الأمير الهندوكى ووفاءه له .

وعلى أى ، فقد بعثت إنتصارات كافور الرعب فى قلوب بقية أمراء الدكن وما يليها جنوبا ، فما عتمت تلنجانا قاعدة إقليم أورانكل أن فتحت أبوابها للغزاة المسلمين عام ٧٠٩/١٣٠٩م ، وافتدى أميرها ، براتاب رودرا ديوا كاكاتيا ، قومه وعشيرته بكنوز طائلة حملها إلى دهلى ألف بعير كادت تنوء بها ، عدا مئات من الفيلة وألوف من رءوس الخيل .

وشجع ما وصل دهلى من أسلاب وغنائم حكومتها على المضى فى الفتح طلبا للمزيد من الأرض والكنوز . فغادر كافور بجنده العاصمة من جديد فى جمادى الآخرة من عام ٧١٠هـ/١٣١٠ م فبلغ إقليم معبر ، فى الجنوب الشرقى من الدكن ، ليخرج له صاحبه ، فير بلال ، من أكداس الجواهر والأموال ما لم يقل من ضخامتها ما وهبه السلطان منها لرجاله وجنوده فى سخاء بالغ .

ولم يرجع المحارب الحبشى الجسور عن الدكن حتى تم له إخضاع الجنوب

الهندى كله فلم يهل عام ٧١٢ هـ/١٣١٢ م حتى كان سلطان الخلجيين يظل شبه القارة الهندية بأكلها .

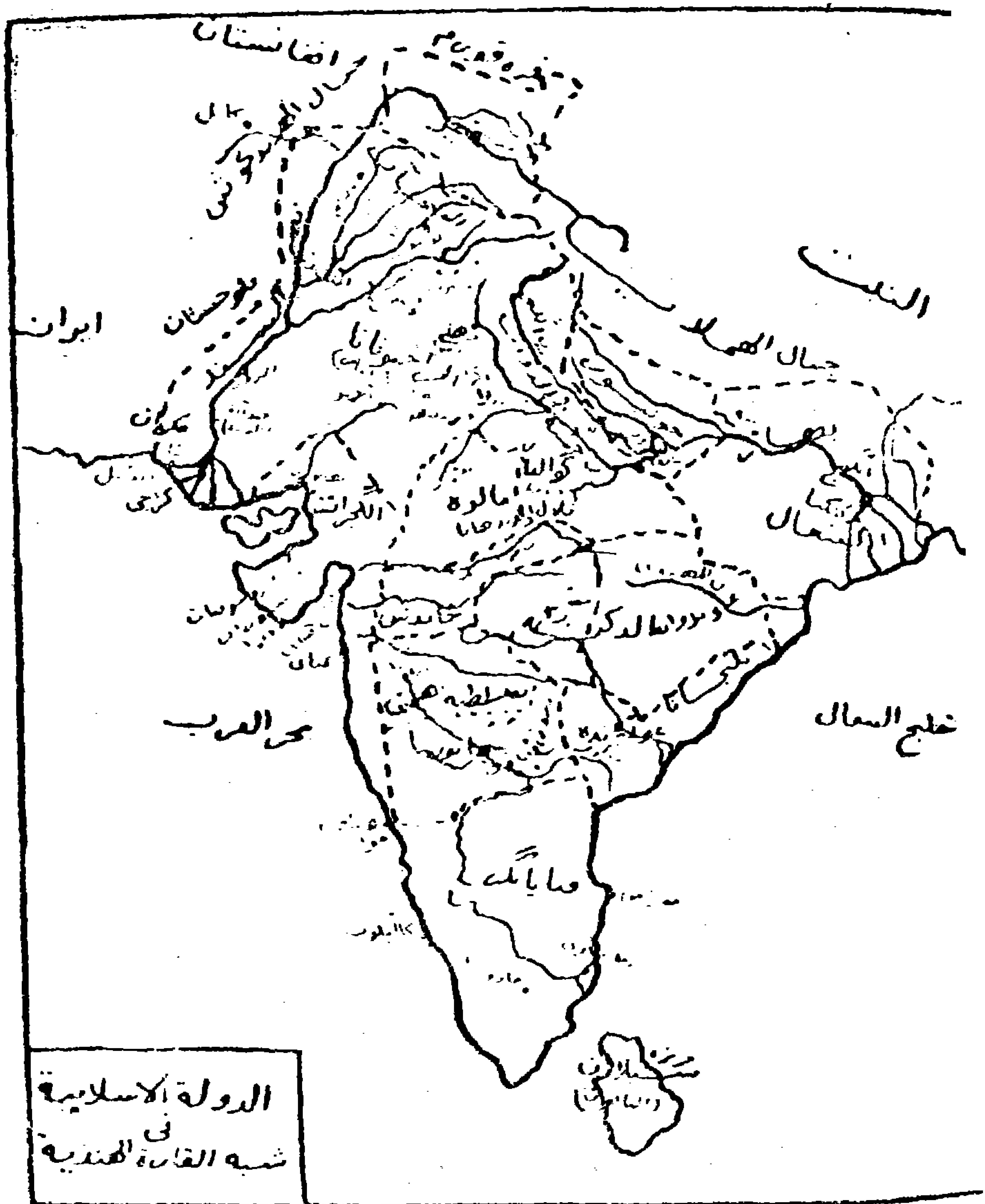
واتجه علاء الدين من بعد ذلك إلى تنظيم شئون ملكه الواسع وتدعيم سلطانه بعد أن تحققت آماله فى الفتح ، وقد صار له جيش قوى غدت به البلاد فى مأمن تام من الغزو المغولى ، من جهة ، وساعد على كسر شوكة الأمراء والنبلاء من جهة أخرى .

ولقد قامت سياسة هذا الأمير الخلجى الداخلية على قدر غير قليل من الشدة والعنف إذ وضع يده على جميع الملكيات الزراعية وأثقل كاهل الهنادكة خصوصاً بالضرائب . كما نهج نهج سلفه بلبن فى إقامة شبكة قوية من الجواسيس لتنقل إليه أخبار الناس خاصتهم وعامتهم على السواء .

وتعرض هذا السلطان لنقد رجال الدين الشديد حين راح يستأثر لنفسه ، دون بيت المال ، بأموال الدولة وما حمله جنوده إليه من كنوز الهند الوفيرة ، إلى جانب مغالاته فى فرض الضرائب بما يتنافى مع قواعد الشرع الشريف . وقد اعتذر لشيوخه هؤلاء بضرورة ماذهب إليه طلبا لاستتباب الأمن فى بلاده الواسعة وللقضاء على ما ينشب فيها من فتن واضطرابات .

وبهذا كان علاء الدين أول سلطان مسلم بالهند جعل من إرادته المطلقة وحدها دستور الحكم ، فقلده فيها كثيرون ممن جاءوا بعده .

وتشدد هذا الأمير فى تحريم الشراب ببلاده ، وجعل من نفسه القدوة لقومه فحطم كل ما كان ببلاطه من أدواته . على أنه اشتط فى معاملة الهنادكة فمنعهم من اتخاذ المراكب أو التزين بثمين الثياب أو السلاح .



افغانستان
ايران
بلوجستان
مكران
كراجى
الكجرات
مالوة
بحر العرب
خليج البنغال
البنغال
جبال الهملايا
التبت
مابالة
الدولة الاسلامية
فى
شبه القارة الهندية

وصادفت النظم الإدارية والمالية التي وضعها علاء الدين قدراً كبيرا من التوفيق والنجاح · وأدت رقابته على الأسوق والأسعار مع تشدده فى معاقبة مدلسّى التجار إلى أن عم اليسر والرخاء البلاد[1] . وهنا تقول الرواية بأنه كان يأمر بالمطفف فيُستكمل للميزان بقطعة تقدُّ من لحمه حيا ، عظة لغيره وعبرة .

كذلك لم يهمل علاء الدين تعمير بلاده فأقام بها كثيرا من المنشآت النافعة ، كما عنى بنشر الثقافة وأسبغ رعايته على علماء زمانه وشعرائهم من أمثال الشيخ نظام الدين أوليا والعالم الفقيه ركن الدين والشاعر خسرو الدهلوى .

ومن البديهى أن أمراء المسلمين والهنادكة على السواء ، الذين سلبهم السلطان كل ما كان لهم من نفوذ وامتيازات ، ومعهم التجار الذين غدت أرباحهم لا تعدو القدر الضئيل الذى تحدده الدولة لهم وتراقب تنفيذه فى صرامة بالغة حرصا منها على رخاء الشعب ؟ ـ هؤلاء جميعا كانت نفوسهم تختزن الغضب وتفيض بالسخط ، فلم يكن يمنعهم من الجهر به إلا ما يعلمونه ، علم اليقين ، من عظم بطش الأمير الخلجى وشدة بأسه .

على أن علاء الدين حين تقدمت به السن ذهب فى كثير من شئونه ينقاد إلى آراء قائدة كافور الحبشى وعصبته من حثالة القوم الذين كان قد أتى بهم ليقوموا على خدمته مكان الأمراء الذين أبعدهم عن بلاطه ، فما عتموا أن بلغوا أعلى المناصب . وبلغ من تأثيرهم عليه أن أهمل تعليم أبنائه بتحريض من قائده هذا .

---

(1) Prasad, India p 210

وما إن مات علاء الدين فى عام ٧١٥ هـ / ١٣١٦ م حتى ولى الأمر كافور وصيا على العرش بعد أن أجلس عليه حدثا صغيرا من أولاد سيده ، يدعى شهاب الدين عمر خان ، كان قد حمل السلطان قبل وفاته على البيعة له .

وعلى أىٍّ ، فإن علاء الدين الخلجى يُعد بحق من أعظم ملوك المسلمين فى عصره . فقد توفرت له صفات الجندى الطموح الجسور والإدارى الحازم الموفق ، فقاد جنده حتى دانت له شبه القارة الهندية كلها ، كما دفع عن حدوده الخطر المغولى الرهيب ، وأقر الأمن فى كافة ربوع بلاده ، ونظم الجهاز الحكومى تنظيما شاملا مكينا كان من أبرز مظاهره توفير الأقوات لسكان الهند جميعا بأسعار فى متناول أدنى طبقاتها ، وهو صنيع انفرد به علاء الدين دون حكام عصره جميعا .

وساق كافور البلاد إلى ما يشبه الحرب الأهلية ، إذ طفق يعمل على إزاحة الأمراء الكبار من طريقه ، إما بالقتل أو بسمل الأعين ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا . فلم يسلم من بطشه أحد حتى ملكه جهان[1] ، زوجة علاء الدين نفسه ، إذ جردها من أملاكها وأموالها وألقى بها فى الحبس . وكُتبت النجاة من هذه المحنة للأمير مبارك خان ، الذى ولى العرش من بعد ، إذ اكتفى كافور بزجه فى السجن .

كذلك أقصى المغتصب كل من بقى من رجال علاء الدين القدامى بالبلاط وعهد بوظائفهم إلى رجال من أتباعه وبطانته . حتى وفق فريق من مماليك علاء الدين آخر الأمر ، بمعاونة أمير يُدعى ملك شير ، فى الفتك بكافور

---

(١) تعرف بهذه التسمية الزوجة الأولى لكل سلطان ومعناها « ملكة الدنيا »

وتخليص البلاد من شروره وعصبته فمهدوا بالملك إلى الأمير الخلجي مبارك خان[1] .

وارتقى قطب الدين مبارك شاه عرش الهند عام ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م فبدأ حكمه بداية طيبة ، فأطلق سراح المعتقلين ورد الأراضي والأملاك المغتصبة إلى أصحابها ورفع كثيرا من الضرائب عن كاهل التجار .

ثم وجه قائدة خسرو إلى الكجرات والدكن للقضاء على الثورات التي نشبت هناك ، فهزم راجا هربال دبوا في ديوكر ثم سار إلى تلنجانا فباغت في ثلاثمائة من رجاله أورانكل ، وكان يحميها عشرة آلاف من الفرسان مع عدد كبير من المشاة ، فأنزل بهم مذبحة قاسية غنم من ورائها كثيرا من الأموال والكنوز . ومالبث أميرها أن خرج على أثر ذلك من حصنه فأعلن استسلامه له على جزية سنوية طائلة وأموال كثيرة .

على أن السلطان الجديد ما عتم بعد قليل أن انقلب ينغمس في الشهوات والمباذل إلى درجة بشعة حتى اتخذ لباس النساء وخرج به في الطرقات قاصدا دور الأمراء ليواصل مجونه بها . بل لقد كان كثيرا ما يُحرض من في صحبته من بنات الهوى على معابثة كبار الأمراء الذين كانوا يُرغمون على مجالسته بالبلاط .

ووثب عليه آخر الأمر قائده خسرو فقتله وجملة من الأمراء الخلجيين وبموت هذا السلطان انتهى حكم الخلجيين بدهلي .

وجلس خسرو من بعده على عرش الهند ، عام ٧٢٠ هـ / ١٣٢١ وتلقب

---

(١) يختص الأمراء عادة بلقب خان في حين يلقب السلطان بالشاه .

بناصر الدين ، وكان من أصل هندوكى وضيع بالكجرات . فما لبث أن أطلق أيدى أتباعه فى البلاد يعيثون فيها فسادا ، فنهبوا الناس وانتهكوا الحرمات وأشاعوا الظلم . ولم يترك هو نفسه أى أميرة من زوجات علاء الدين وقطب الدين وبناتهما إلا وقد استحياها ثم خلعها على بعض أصحابه . هذا كما اغتصب أموال الدولة وراح يبذل منها لبعض كبارها بغية شراء تعضيدهم له وتأييدهم .

وهدف خسرو إلى إحياء الهندوكية من جديد واسترجاع مجد الهنادكة القديم وسلطانهم بالتالى ، فجمع حوله عصبة من مواطنيه عاهدوه على المضى معه فى هذا الأمر ، فراحوا يحطون من قيم الإسلام فى استهتار وجرأة بالغة حتى اقتحموا المساجد[1] فأقاموا أصنامهم وأوثانهم بها وجعلوا من المصاحف قاعدة لها . ولو لم يُشغل الأمراء الهنادكة فى هذه المحنة الجامحة بتحقيق أطماعهم ومآربهم الخاصة عن الاستجابة التامة لدعوة خسرو هذه ، لنزل بالحكم الإسلامى وأصحابه بالهند ضربات قاصمة دون شك .

وأثار سلوك خسرو وقومه ثائرة الأمراء العلائيين وأتباعهم فبعثوا من فورهم بأمير منهم يدعى فخر الدين جونه إلى أبيه غازى ملك تُغلق مستنجدين بهذا القائد الحازم صاحب الفضل الأكبر فى دفع المغول عن سلطنة دهلى .

وخرج تُغلق من ديبالبور فسارع جميع الأمراء بالانضمام بجنودهم إليه فى زحفه صوب العاصمة .

---

(١) تاريخ فرشته أول ص ١٢٨

ودفعت الكبرياء بغو ثستكن أمير الملتان إلى التقاعس عن نصرة السلطين إذ كان يرى فى نفسه ندا لتغلق فلا ينطوى تحت إمرته ، فبادر القائد بيرم خان بالقضاء عليه وضم قواته إلى الجيش الزاحف .

ولم ينفع خسرو مابذله من أموال كثيرة لشراء الجند والقادة إلى صفوفه ، فأصيب بهزيمة حاسمة انطلق على أثرها هائما على وجهه ليختفى فى مقبرة وهو فى طريقه إلى جليت ، ولكن مطارديه ما لبثوا أن قبضوا عليه وعلى أخيه فأوردا مورد الردى فى آخر رجب من عام ٧٢١ هـ / ١٣٢١ م .

وهكذا أنقذ غازى ملك تغلق مرة أخرى مُلك السلطين بالهند من محنة قاسية قاصمة ، كما أنقذه من هول المغول من قبل .

واستقبلت المدينة منقذها استقبالا منقطع النظير ثم راحت تعرض عليه عرشها فلم يقبله إلا بعد أن تأكد لديه عدم وجود وريث شرعى له من صلب السلطان علاء الدين الخلجى ولى نعمته .

آل تغلق

ارتقى غازى ملك تغلق عرش دهلى فى شعبان من عام ٧٢٠ هـ / ١٣٢١ م باسم السلطان غياث الدين تغلق. وهو تركى الأب من قوم جغتاى زطى الأم من البنجاب، بدأ حياته جنديا [1] بسيطا فظل يرتقى بجده واجتهاده حتى بلغ مرتبة القيادة. وما لبث أن لمع نجمه إبان حكم السلطان علاء الدين الخلجى حين ساهم بجهود بارزة فى دفع المغول عن الحدود الغربية، ثم طفق ينزل بهم من بعد ذلك مزيداً من الهزائم حتى انجاب خطرهم عن البلاد.

وجهد تغلق فى تدعيم ملكه واستعادة سلطنة دهلى سابق هيبتها ونفوذها، فبدأ بإحياء تعاليم الإسلام فى حكومته، ورد للأمراء والأعيان ما اغتصب من أملاكهم وامتيازاتهم، كما أحاط بالإكرام والعناية كل من بالبلاد من الأمراء الخلجيين.

كذلك نجح غياث الدين فى استرداد الأقاليم الدكنية والشرقية التى كانت قد ضاعت من حوزة دهلى. فبعث بابنه ألغ خان إلى الجنوب فانتزع تلنجانا من أيدى براتاب ديو الثانى راجا أورنكل وضمها إلى ملكه. ذلك أن هذا الأمير الهندوكى كان قد انتهز فرصة ضعف الدولة أيام مبارك شاه الخلجى فنفض عنه طاعة السلطان ورفض إرسال الجزية إليه. وبأسره ختم دور هام لعبته هذه الإمارة فى تاريخ جنوب الهند. وسار هو بنفسه إلى الأقاليم الشرقية حتى

(١) تاريخ فرشته أول ص ١٣٠

بلغ البنغال فأقر له بالطاعة أميرها ناصر الدين حميد بغراخان بن بلبن .

ونهج هذا السلطان نهج علاء الدين الخلجي في الاحتفاظ بجيش نظامى قوى تقوم الدولة بالإنفاق عليه كما نظم الأداة الحكومية وطهرها مما لحق بها من فساد أيام مبارك شاه الخلجي وقائده خسرو ، وحرص على إشاعة العدل بين الناس جميعاً .

كذلك أنشأ غياث الدين نظاماً محكما للبريد لم تعرف الهند له ضريبا من قبل في دقته وسرعته ، حتى بلغت العاصمة أخبار الرحالة العربى ابن بطوطة بعد وصوله مصب السند بأيام خمسة قطع فيها البريديون ما يزيد على تسعمائة ميل ، هى المسافة بين المكانين ، فى طريق آمن معبد . وقد أشاد هذا الرحالة بما كانت عليه الهند من تقدم ومدنية فى عهد هذا السلطان وخلفائه . وسنشير إلى ذلك كله فى موضعه بقدر من التفصيل .

وشجع تغلق الناس على تعمير الأرض وفلاحتها فأصلح من طرائق الرى ، وشق كثيرا من الترع والقنوات وخفض من خراج الأرض .

ولقى هذا السلطان حتفه فى ربيع الأول من عام ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥م على أثر إنهيار أحد قصوره به . وينسب بعض المؤرخين تدبير هذا الأمر لابنه وولى عهده فخر الدين جونه ألغ خان مع الشيخ نظام الدين أوليا الذى كان على خلاف كبير معه ، فى حين يقول آخرون بانقضاض صاعقة على البناء فهدمته .

وخلف الأمير فخر الدين أباه وتسمى بمحمد تغلق ، فاستهل حكمه ببذل المال والعطايا لرجاله ورعاياه فى سخاء بالغ ، حتى قيل إنه حين وفد العاصمة قادما

من تغلق آباد كان في ركابه جملة من الفيلة المحملة بالذهب والفضة راح فيالوها ينثرون أحمالها على الناس . وترامت أخبار هبات السلطان وكرمه إلى خارج حدود الهند فوفد إلى بلاطه جموع من أهل العراق وخراسان وفارس وبلاد ما وراء النهر طمعا في نواله وعطائه .

وكان من بين الوافدين عليه كذلك طائفة من المشتغلين بالعلوم والفنون والآداب . ذلك أن محمد تغلق لم يكن من رعاة العلوم والفنون فحسب بل كان هو نفسه من بين طليعة المشتغلين بها والضليعين فيها في عصره . فمنثوراته ومنظوماته الفارسية والعربية على السواء ، تشهد له بالذوق الأدبي الرفيع مع حسن السبك وجمال الصورة . هذا إلى جانب عنايته الفائقة بتجويد فن الخط والنقش ، وتمكنه المكين في علوم الفلسفة والحكمة والمنطق حتى نبغ في تشخيص الأمراض وقام على علاج الناس بنفسه . ولعل تعمقه في دراساته وأبحاثه الطبية إنما كان استجابة وصداً لإنسانيته الرقيقة التي دفعته إلى إقامة الكثير من دور الشفاء وملاجيء العجزة وموالاة الإشراف عليها بنفسه .

وقد تحدث ابن بطوطة حديثا طويلا عن هذا السلطان فذكر له كثيراً من الفضل والعلم ، ولم ينكر ما عرف عنده من غرائب الأطوار الطباع التي كانت تدفعه في بعض الأحيان إلى أن يأتي بأي شحاذ يصادفه على بابه فيرفعه بسخائه للذهل إلى مصاف الأثرياء المعدودين ، أو يسقط على أحد سراة قومه فيذيقه ألوان الفاقة والحرمان .

وقد عاش الرحالة العربي بالهند سنوات ثمانية ، فولى قضاء دهلى كما سفر لها بالصين ، وغادرها عام ١٣٤٢/٨٧٤٣ م بعد أن سجل في مذكراته الكثير

عن عادات السلمين والمنادكة هناك فى دقة يؤيدها مؤرخوا الهند أنفسهم عن ذلك العصر[1].

وعلى أى ، فقد كان هذا السلطان صاحب مثل فى تفكيره وخططه. ولو أن الظروف كانت قد واتته فى تحقيق مشروعاته العمرانية والإجتماعية التى رسمها لأفادت الهند منها خيراً كثيراً.

وتعرض محمد تغلق بدوره لخطر الغزو المغولى ولما تستقر بعد أمور الدولة عقب وفاة أبيه. ذلك أن ترمشيرين خان بن داود خان زعيم قبائل الأولوس الجغتائيين ، وكان ذا شهرة ذائعة بين المغول لعدله وشجاعته ، اقتحم حدود الهندستان عام ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م على رأس جيش كبير بنية فتح هذه البلاد ، فاستولى على لمغان والملتان عند الحدود الشمالية الغربية ثم اتخذ طريقه إلى دهلى نفسها.

وبدا لمحمد تغلق أن يتجنب الإلتحام بهذا العدو القوى ، فاحتال لذلك بأن بعث من فوره بوفد من رجاله حملوا معهم قدراً كبيراً من الأموال والهدايا إلى الزعيم المغولى ، وطفقوا يخطبون وده ويبالغون فى تملقه حتى ارتضى آخر الأمر الرجوع عن بلادهم ، فانسحب منها عبر السند والكجرات بعد أن انتهبها وأسر كثيرا من أهلها.

وحين انجابت هذه المحنة ، راح السلطان يدبر الأموال اللازمة لتحقيق مشروعاته الإصلاحية ، فتغالى فى فرض الضرائب بإقليم الدوآب ، أخصب مناطق الهند وأغناها ، حتى هجر الأرض أصحابها إلى الغابات فرارا مما ألزموا

(١) رحلة ابن بطوطة طبع باريس ثالث ص ٢١١ - ٢١٧ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦

به من أموال عجزوا عن أدائها ، فعم الإقليم الخراب واجتاحته المجاعة . ويرد فريق من المؤرخين مسلك محمد تغلق هذا إلى ما عُرف من ميل أعيان هذا الإقليم إلى الجنوح للثورات وإشاعة الاضطرابات على الدوام ، حتى نهج علاء الدين الخلجي معهم مثل ذلك من قبل ، وإن كان احتباس الأمطار الموسمية عنهم فى بعض السنوات قد زاد من خطورة الحال هناك .

وأعجب السلطان بموقع مدينة ديوكر الطبيعى الحصين ، وكان قد سار إلى جوارها للقضاء على ثورة ابن أخية بهاء الدين كُشْتاسب بالدكن ، فعزم على أن يتخذ منها حاضرة له ، أطلق عليها اسم دولت آباد فيما بعد ، ليبتعد بذلك عن مواطن الخطر المغولى من جهة ، ويتوسط ، من جهة أخرى ، دولته الواسعة التى كانت تمتد من الهملايا إلى جنوب الدكن ومن البنغال إلى أرض كابل .

ولو كانت خطة السلطان هذه قد اقتصرت على البدء بنقل دولاب الحكومة إلى العاصمة الجديدة ثم إجراء هجرة السكان إليها بالتدريج لهان الأمر وأمكن تحقيقه فى شىء من اليسر . لكنه شرع من فوره يشق الطرق من الشمال إلى الجنوب ، ثم زوّد سكان دهلى بالمؤن وأعد لهم وسائل النقل ، وأمرهم جملة بالرحيل إلى العاصمة الجديدة مع متاعهم . ولقد كان من الطبيعى أن يعم السخط أولئك الذى أرغموا على ترك عاصمتهم ، التى عاشوا فيها أجيالا ، إلى بلد آخر لا يدرون من أمره شيئا ، هذا فضلا عما تعرضوا له من متاعب لا قبل لهم بها فى طريق يبلغ طوله سبعمائة ميل ، فنزلت بهم الأمراض وفتكت بهم الأوبئة فتكا ذريعا حتى هلك منهم خلق كثير . وأما الذين

كتبت لهم النجاة فبلغوا العاصمة الجديدة سالمين ، فقد انتابهم شعور من أرسل بهم إلى المنفى[1] .

ويبالغ بعض المؤرخين فى وصف ما ارتكبه محمد تغلق من ضروب القهر لحمل الناس على الهجرة إلى حاضرته الجديدة ، فيروُون أنه لم يتردد فى إعدام رجل مكفوف وآخر كسيح تخلفا بدهلى عن الركب . ولئن كان هذا السلطان قد حرص حرصا بالغا على تنفيذ مشاريعه الإصلاحية حتى استقدم إليه فى سبيل ذلك جملة من الخبراء وأجزل لهم العطاء فى كرم زائد أثار ثائرة من حوله ، هذا كما كان يقسو مع كل من كان يحاول معارضة خططه أو عرقلة تنفيذها . إلا أنه حين استبان له مدى الكارثة التى حلت بالناس فى هجرتهم هذه ، أباح لهم من فوره العودة إلى دهلى من جديد لمن يرغب فيها . ولم يكتف بذلك فحسب بل شرع يقيم لهم على مقربة منها مدينة جديدة هيأ لهم فيها كثيرا من أسباب الراحة والاستقرار . ذلك أن العاصمة القديمة التى كانت تضارع لوقتها القاهرة وبغداد كان الخراب قد دهمها بدورها على أثر هجرة أهلها منها .

واستبان لمحمد تغلق حاجته الشديدة لجيش كبير يستطيع به إقرار الأمن فى ربوع ملكه الواسع ، فتفتق ذهنه ، بسبيل تدبير الأموال لهذه القوات ، عن خطة انتهى فشلها إلى تصدع كيان البلاد الإقتصادى تصدعا شديدا . فقد أمر بضرب عملة نحاسية تقوم فى التعامل بين الناس مقام الذهب والفضة بضمان بيت المال ، فنتج عن ذلك أن انقلبت أغلب الدور الخاصة إلى مسابك لضرب هذه العملة الجديدة طلبا للثراء . وإن هى إلا فترة قصيرة حتى أخذ التجار المحليون

(١) ابن بطوطه ثالث ص ٩٥ — ٩٧

يرفضون التعامل بها إلا على أساس قيمة معدنها ، فى حين طفق غرباء التجار لا يبيعون وارداتهم إلا بالذهب ، ويشترون صادراتهم بالنحاس .

وحين أدركت الحكومة مدى ماعم البلاد من الخراب من جراء ذلك فأعلنت رفع هذه العملة من الأسواق ورد قيمتها إلى أصحابها ذهبا وفضة ، أقبل الناس على بيت المال ومعهم ما كانوا قد زيفوه من الأكداس الطائلة النحاسية ، فاستنزفوا الكثير من أموال الدولة .

ولم يكن محمد تغلق على كل حال هو أول من لجأ إلى استعمال العملة المعدنية بضمان الذهب ، فقد كانت هذه الطريقة معروفة بفارس وكذلك بالصين التى كانت تتداول العملة الورقية أيضا قبل أن يعرفها العالم بزمن طويل ، بضمان خاتم الإمبراطور . فما أعوز هذا السلطان إنما كان تمام الضبط والحيطة .

واستجاب محمد تُغلق لتحريض المماليك المصريين له على غزو خراسان والعراقَين . وشجعه على هذا الأمر ما كان من تحقيق أحد أحلامه الكبرى بالحصول على تأييد الخليفة العباسى بمصر له وخلعه عليه ، فأعد لهذا الغرض جيشاً قوامه ثلاثمائة وسبعين ألفاً من الجند ، ولكنه ماغدا أن سرحهم بعد أن ظل يؤدى لهم نفقاتهم من بيت المال عاماً كاملا ، وذلك حين عدل المصريون عن ذلك إلى محالفة أبى سعيد ميرزا صاحب بلاد ما وراء النهر وإطلاقهم ليده فى بلاد الفرس والتركمان .

هذا كما بعث محمد تغلق كذلك بحملة قوية إلى ولايات الهملايا العليا فدهمتها الثلوج فقضت على أكثر أفرادها . وقد ادعى بعض المؤرخين بأن سلطان دهلى إنما سير هذه الحملة لغزو الصين طمعاً فى كنوزها ، فى حين أنه لم

يرم من ورائها فى الغالب إلا إلى نشر الإسلام فى هذه المناطق وتأمين الدروب إلى خراسان .

وانتهى ماجره فشل السلطان فى مشروعاته ، وما نتج عن ذلك من محن قاسية إلى أن اجتاحت البلاد موجة قوية من الاضطرابات والثورات التى زاد من حدتها جنوح حكومة دهلى إلى مصادرة الكثير من أموال الأعيان والتجار حين ألحت عليها الحاجة اليها .

وكان أول من رفع لواء العصيان فى وجه محمد تغلق هو الأمير جلال الدين إحسان شاه الذى أعلن استقلاله بمبر فى الدكن فضرب السكة باسمه عام ٧٣٥هـ/١٣٣٥م . ورغم ما كانت تعانيه دهلى من مجاعة قاسية فقد خرج السلطان بنفسه لقمع هذه الفتنة ، لكنه لم يبلغ تلنجانا حتى أخذ وباء الهيضة (الكوليرا) يفتك بجنده فرجع عن خصمه .

وعمت الاضطرابات البنغال بدورها على نطاق واسع . ذلك أن قائدا هناك يدعى فخر الدين سقط عام ٧٣٧ هـ على أميره قدرخان صاحب لكنهاوتى فقتله وجلس مكانه ، ثم مالبث أن جهر مطمئناً باستقلاله ، إذ كان على علم تام بما يعانيه سلطان دهلى من متاعب لايستطيع معها أن يزحف اليه .

وارتدت الدكن إلى الثورة من جديد ، فطلب السلطان من قائده عين الملك صاحب أوده وظفر آباد أن يتوجه بقواته إلى دولت آباد ويشرف منها على إقرار الأمور هناك .

على أن هذا القائد الذى كان له وإخوته جهود كبيرة فى معاونة السلطان

على تخفيف وطأة المجاعات والمحن التى اجتاحت البلاد ، ترامى إلى خاطره أن السلطان إنما يرمى من وراء ندبه لهذا الأمر ، إلى الاستيلاء على أملاكه وأراضيه فاعتصم وجنده بإقطاعه حتى أقبل عليه محمد تغلق بنفسه فباغته فى مضاربه وأسره ثم ألقى به فى الحبس ، وإن عفا عنه بعد قليل لسابق خدماته وإخلاصه .

وبلغ السلطان من بعد ذلك خبر انقضاض بعض زعماء الزط على لاهور وقتلهم لتاتار خان نائبه هناك ، فسير إليهم من فوره قائده خواجه جهان فأسر كثيراً منهم وساقهم إلى العاصمة حيث أعلنوا إسلامهم بها .

والتفت محمد تغلق إلى الدكن من جديد بعد أن أقر الأمور فى الشمال . ذلك أن استقلال الأمير جلال الدين إحسان شاه بإمارة معبر قد أغرى بعض الأمراء الآخرين على أن يحذوا حذوه . وكان من بين هؤلاء الأمير الهندوكى هارى هار الذى أسس هو وأخوه إمارة فيا يانكر فيما بعد . وما لبث هندوكيو الجنوب بزعامة كرشانا ياك أن شدّوا من أزر هذه الإمارة التى اتسعت رقعتها وازدادت قوتها حتى قامت على حماية الجنوب كله من أى غزو إسلامى يفد إليه من الشمال .

ومرت الاضطرابات بدورها إلى الكجرات وديوكر التى غدت تعرف بدولت آباد ، فلم يكد السلطان يغادرها ، بعد أن خُيل إليه استتباب الأمور فيها ، حتى نهض عام ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧م أمير أفغانى شاب يدعى حسن كانكوى فوضع يده على الإقليم كله . ويعرف هذا الأمير فى التاريخ باسم علاء الدين أبى المظفر صاحب سلطنة بهمنى الدكنية التى لعبت دوراً هاما فى تاريخ المسلمين بشبه القارة الهندية .

ووافى محمد تُغلق أجله عام ٧٥٢ هـ / ١٣٥١م إبان إحدى حملاته فى السند، وقد انفرط عقد سلطنته ذات الولايات الثلاث والعشرين إلى عدد من الإمارات القوية المستقلة ، فلم يبق تابعاً لدهلى من الولايات الكبيرة إلا الكجرات .

هذا وينسب بعض المؤرخين ما صادف هذا السلطان من الفشل فى مشاريعه الكثيرة إلى سوء طالعه وما كان حوله من مستشارين تنقصهم الخبرة والإخلاص . ويذكر ابن بطوطة لهذا الملك كثيراً من الفضائل ، كما يثنى المؤرخ ضياء الدين باراني ، معاصره ، على تمسكه بأهداب السنة وحرصه على إقامة العدل بين الناس . ويشير أغلب مؤرخى الهنادكة المحدثين إلى تسامحه حتى قرّب إليه كثيراً من الهنادكة وولاهم عدة مناصب فى الدولة ، وينفون عنه ما أشيع من ميله لسفك الدماء وتعطشه لارتكاب العنف والقسوة ، ويقولون بأن تشنيع بعض المؤرخين عليه بهذه التهم لم يكن إلا لقتله بعض الدراويش والفقهاء . ولعل قياس هذه الحوادث جميعاً على ضوء مجتمع القرون الوسطى وتقاليده قد يربأ بهذا السلطان عن أن يحشر فى زمرة جلادى عصره[1] .

ولم يكن لمحمد تغلق ولد فعهد بالملك من بعده إلى ابن عمه فيروز تغلق ، وكانت أمه السلطانة كدبانوا هندوكية الأصل ، فأبوها هورانا محل بهاتى. وقد قبلت هذه الأميرة الجميلة أن تتزوج من والد فيروز أخى غازى تُغلق دفعاً للضُّر عن أسرتها[2] .

---

(١) Prasad, India.227,8

(٢) كان آل تغلق قد وفدوا إلى الهند قادمين من خراسان أيام علاء الدين الخلجى حيث ولى غازى تغلق إمارة ديبالبور . هذا ويرد ابن بول فى كتابه عن الهند فى العصر الوسيط Lane-poole. Medieval India pp.298. أسباب ضعف المسلمين إلى مصاهرتهم للهنادكة مع أن كثيراً من سلاطين المسلمين العظام بالهند كانت أمهاتهم من الهندوكيات .

وعُرف السلطان الجديد بميله إلى المسالمة وبعده عن إراقة الدماء مع شغفه الشديد بمخالطة رجال الدين وأهل التصوف . بل لقد قيل إنه أبدى كثيراً من التردد فى قبول الحكم ، إذ كان يؤثر عليه الخروج إلى الأراضى المقدسة طلباً للحج والاعتكاف بها متعبداً إلى آخر عمره .

وأيا ما كان القول . فقد أدى قبول هذا الأمير لمنصبه إلى القضاء على النزاع الذى قام بين قادة الجيش حول ولاية العرش . هذا وكان خواجه جهان أحد الأمراء الكبار ، قد بادر بتنصيب طفل بدهلى نسبه إلى محمد تغلق ، لكنه ما إن علم بقدوم فيروز تغلق إلى العاصمة حتى سعى إليه معتذراً يطلب الصفح .

وهكذا جلس على عرش دهلى فى رجب من عام ٧٥٢/١٣٥١ م سلطان جديد اكتسب فى عهد سلفه دراية كبيرة بشئون الحكم وتمرس بأساليبه .

ونتج عن الاضطرابات التى شغلت بها الدولة عقب وفاة محمد تغلق أن انتهز حاجى إلياس هذه الفرصة فأعلن استقلاله بالبنغال ولقب نفسه بالسلطان شمس الدين ، ثم مابرح ينشر قواته فى إقليم بهار حتى بلغت بنارس .

هنالك عزم فيروز على الخروج لرد هذا المغتصب عما استولى عليه من أرضين ، فسبق حملته بمنشور ، أذاعه فى أهل البنغال وما حولها ، أعلن فيه أنه إنما يتولى السلطنة بتفويض من الخليفة العباسى أمير المؤمنين ، فمن خرج عليه فقد خرج بالتالى على إجماع أهل السُّنة . كذلك دعا الأهلين إلى الانضمام إلى صفوفه والخروج على عدوه واعداً إياهم بإعفائهم ، مسلمين وهنادكة ، من دفع الضرائب عاماً بأكمله مع بذل الأمان لهم .

وأفلح سلطان دهلى الجديد آخر الأمر فى أن يستدرج خصمه من حصن

إ كداله الذى كان يعتصم فيه إلى ضفاف الـكنج حيث نشب بين الفريقين قتال عنيف دارت فيه الدائرة على الثوار فارتدوا ثانية إلى حصونهم.

ووجدت ضراعة النساء فى حصون العدو طريقها إلى قلب السلطان، فأعرض عن نصح رجاله بالتوغل فى البنغال محتجاً ببدء الأمطار الموسمية، وآب إلى عاصمته قانعاً بالصلح مع خصمه.

وبُعثت الآمال فى النفوس من جديد لاسترداد البنغال حين استنجد الأمير ظفر خان بالسلطان من عسف ختنه شمس الدين. فخرج فيروزشاه عام ٧٦٠هـ/١٣٥٩م كرة أخرى إلى هذا الإمارة ليجد أميرها الجديد إسكندر شاه يحذو حذو أبيه فى الاعتصام بإ كداله ثم يبعث إليه بالهدايا الـكثيرة مشفوعة بتوسلاته التى رق لها قلب السلطان المسالم مرة أخرى، فرجع عن البنغال للمرة الثانيـة مكتفياً باصطحاب الأمير ظفر خان معه، وقد كان فى مقدوره ضمها إلى ملـكه فى غير عناء كبير.

ونزل فيروزشاه عند أوبته من البنغال بمدينة جونبور التى كان قد أمر بتشييدها تذكاراً لابن عمه فخر الدين جونه[1]، ومن ثم اتجه إلى إقليم ججنكر (أوريسه الحالية) الذى يشتهر بخصبه ووفرة الأرزاق فيه من الحبوب والفاكهة والماشية، فانطلق جنده ينتهبونه ويحطمون معابده حتى أقبل أميره الهندوكى راجا أديساران آخر الأمر يعلن ولاءه للسلطان على جزية كبيرة. وما لبث أن حذا حذوه جملة من الأمراء المناد كة المتاخمين لحدوده.

كذلك وفق سلطان دهلى فى العام التالى فى إخضاع حصن نـگركتُ،

(١) وهو السلطان محمد تغلق سالف الذكر.

وكان صاحبه قد جنح أواخر أيام محمد تغلق إلى خلع نيردلهي عن كاهله . وصار هذا الحصن يعرف فيما بعد باسم محمد آباد تخليداً لذكرى السلطان الراحل .

ولعل أكبر حملة خرج فيها السلطان فيروز هي تلك التي قصد بها إلى إخضاع المنادكة من الزط وغيرهم، وكانوا قد جنحوا بدورهم عندئذ بعصب السند إلى العصيان أواخر عهد محمد تغلق . ونجم عن سد الأمطار الغزيرة للطرق وإتلافها ، شح الأقوات بين القوات حتى اضطر فيروز إلى الارتداد بجنده إلى الكجرات . على أن قائده ووزيره خان جهان مقبول ، وكان من مسلمي المنادكة ، مالبث ، مع إمدادات وفدت إليه من الدوآب وبهار ، أن خاض مع الثوار معركة حاسمة انتهت بأسر زعيمهم جام بابينيا ، ليعفو السلطان آخر الأمر عنه ويجرى عليه معاشاً مجزياً بدهلى ، ويقيم أخاه مكانه .

وأدى إهمال السلطان لشأن الدكن أن أمكن لامارتى بهمنى وفيايانكر أن يرسخا أقدامهما ويوسعا من رقعتيهما هناك على حساب سلطنة دهلى التي انحسرت حدودها الجنوبية إلى الشمال من تلال الوندهايا .

ولئن أدى ميل فيروز تغلق للسلم وتجنب الحروب إلى ضياع مساحات واسعة من أراضيه ، إلا أنه هيء له على كل حال الفرصة للانصراف إلى شئون الدولة الداخلية والتفرغ لرسم خطط الإصلاح والتنظيم التي أتاحت للأهلين قدراً من الحياة الطيبة المستقرة . وقد طفق كبار سلاطين الهند المصلحين يترسمون مناهج هذا السلطان الإنشائية ونظمه من بعده قروناً عدة ، وكان من بين هؤلاء السلطان أكبر المغولى أعظم حكام العالم في عصره على الإطلاق.

ذلك أن هذا الحاكم المصلح قسم أراضى الدولة إلى إمارات عهد بإدارتها

إلى جملة من الرجال الأكفاء ، كما عنى بأمر الزراعة فعمل على استصلاح مساحات واسعة من الأراضي البور ، وأحكم نظام الري ، وجد في حفر الآبار والقنوات حتى توافرت الأرزاق وعم الرخاء إلى درجة كاد الناس معها أن ينسوا قسوة المجاعات الجارفة التي ألمت بهم من قبل .

كذلك التفت فيروز تغلق إلى الضرائب فأحكم نظامها ، ورفع الكثير منها عن كاهل الأهلين ، وأمر ألا تعدو جبايتها حدود الشرع ، وراقب ذلك كله بنفسه في حزم وشدة .

أما غنائم الحرب فقد خص بيت المال بنصيبه الشرعي منها وأطلق الباقي لرجاله وفقراء شعبه .

وأدى تمسك السلطان بقواعد الشرع إلى توفير العدالة لرعاياه وإبطال الكثير من العقوبات والعادات غير الإنسانية التي كان يمارسها الهنادكة على الخصوص ومنها عادة الساتي حيث تقبل الأيم التي ليس لها ولد على حرق نفسها مع جثمان زوجها .

ولم تقف جهود فيروز تغلق عند هذا الحد حيث شاع اليسر والرخاء والعدل بين أوساط الناس وعامتهم خاصة ، حتي ذهب في سبيل إصلاحه الإجتماعي ، يأمر بإحصاء العاطلين في بلاده وحصرهم ، فمن كان منهم يجيد القراءة والكتابة ألحقه بخدمة الديوان ، ومن كان منهم على دراية بحرفة أو صنعة هيأ له ما يناسبه منها سواء بمنشآت الدولة أو بغيرها من المنشآت الأهلية ، ومن بقي منهم من بعد ذلك ألحقه بخدمة الأمراء ورجال الدولة .

وإلى جانب ذلك كله أنشأ السلطان ديوانا يعرف بديوان الخيرات ليعين عماله على تزويج الفتيات الفقيرات ، ويرعى المرضى والضعفاء والشيوخ بما يجريه عليهم من أموال وما يقيمه لهم من دور للشفاء ورباطات .

وبلغت دور الشفاء عند فيروز تغلق المائة ، وكان الدواء والغذاء يقدمان فيها للناس بالمجان . وإلى جانبها أقيم دور للعلم عديدة كان من بينها ثلاثون مدرسة جامعة لدراسة العلوم الشرعية والنقلية على السواء .

وأدى شغف هذا السلطان بالعلم إلى قدوم طائفة من علماء المسلمين بلاده ليضطلعوا بالتدريس فى مدارسه . وقد دون هذا السلطان سيرته بنفسه فى كتابه المعروف « فتوحات فيروز شاهى » .

وعمل فيروز كذلك على إحياء الدراسات الهندية القديمة ، وحض البراهمة على حل نقوش أعمدة آزوكا القديمة ، وكان قد استخدم جملة منها فى منشآته . كما أمر بترجمة جملة من أمهات الكتب السنسكريتية ، التى وقعت بأيديه فى حصن نسكركت ، إلى الفارسية[1] .

ومنشآت هذا السلطان التى بلغت التسعمائة ما بين مدارس ومساجد ودور للشفاء ورباطات وقصور وحمامات ، وإلى جانبها مدن ثلاث كبيرة بالقرب من دهلى ، وهى فيروز آباد وفتح آباد وجونبور ، عدا الحدائق الكثيرة التى بلغت الألف عدا ، استلزمت هذه كلها استخدام عدد كبير من الأيدى العاملة مما ساعد على تخفيف أزمة البطالة بين العمال[2] .

(١) Prasad, India pp 266,67,,91,2

(٢) تاريخ فرشته ص ١٥٠

وركبت الملك السلطان الشيخ على كر السنين وتوالى الحدثان ، فما عدا أن أطلق يد وزيره خان جهان ظفر خان فى تصريف شئون الدولة .

وتراءى لهذا الوزير ، فى سبيل تثبيت سلطانه للطاق ، أن يزيح من طريقه ولى العهد الأمير محمد فاتهمه عند أبيه بتآمره على العرش هو وجلة من الأمراء الذين عرفوا بكراهية فيروز تغلق لهم .

على أن الأمير حين وقف على ما كان يبيت له طفق يصطنع الحيلة حتى لقى أباه ، فمازال به حتى أقنعه بخبث طوية وزيره فعزله وولاه مكانه .

وحين اطمأن محمد إلى إمساكه بزمام الدولة كلها حتى دُعى له فى الخطبة مع أبيه ، انصرف إلى مآربه الخاصة ومتعه لا يلقى بالا إلى مشورة رجال البلاط وكبار الأمراء الذين حدا بهم حرصهم على سلامة الدولة إلى الالتفاف حول ابنى أخى السلطان الأميرين بهاء الدين وكمال .

وأدى هذا الانقسام آخر الأمر إلى الصدام الحربى بين الفريقين ، فشهدت شوارع دهلى التحامات بشعة سقط فيها الكثير من رجال الفريقين . ولم يوقف سير هذه المجازر العنيفة إلا ظهور السلطان الشيخ على محفته فى الميدان ، فإذا الجند تبادر إلى الالتفاف حوله والانضمام إلى صفوفه مكبرة مهللة ، فى حين بادر الأمير محمد إلى الهرب فتحصن فى تلال سَرْوَر .

وعهد فيروز بالملك على أثر هذه الفتنة إلى حفيده غياث الدين ابن فتح خان . وإن هو إلا زمن يسير حتى قضى السلطان الشيخ فى رمضان من عام ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م وكان قد جاوز التسعين من عمره .

وبعث السلطان الشاب فور ارتقائه العرش برجاله يطاردون الأمير محمد الذى استطاع آخر الأمر التحصن فى قلعة نـكركت التى امتنعت على المهاجمين .

وما غدا غياث الدين تغلق الثانى هذا أن غلبته فتنة الشباب على أمره فانصرف عن شئون الدولة إلى متعه الخاصة وملاهيه ، حتى إذا ما ركب الشطط فى معاملة ذوى قرباه من الأمراء ورجال الدولة فسلك معهم سبيل العنف ، اجتمع عليه ابن عمه أبو بكر ونفر من أفراد أسرته فأطبقوا عليه فى قصره .

ولئن أفلح الأمير فى الخروج من باب جهته ووزيره سالين ، إلا أن الثوار سرعان ما لحقوا بهما عند النهر فقتلوهما لوقتهما ، ولم يكن قد مضى على السلطان الجديد فى الحـكم إلا شهور خمسة وبضعة أيام .

ولم ترض عصبة الأمير محمد بن فيروز عن جلوس الأمير أبى بكر على العرش فتربصوا لوزيره شاه خو شدل عند سمانه وهو فى طريقه لقتال زعيمهم ، فقتلوه وبعثوا برأسه إلى أميرهم فى حصنه وحرضوه على القدوم إليهم والدفاع عن حقوقه الشرعية فى الحـكم .

وبرغم ما جمعه الأمير محمد من قوات الدوآب فقد توالت هزائمه أمام ابن عمه بظاهر دهلى . حتى إذا ما ضاق الناس فى العاصمة ذرعا بشـدة وطأة أبى بكر عليهم وعنفه معهم ؛ — بعثوا يحرضون ابن عمه على الزحف إليهم من جديد ، فلم يملك أميرهم إلا الهرب وقلة من أنصاره إلى بهادر نهبر صاحب ميوات لاجئين .

وما إن جلس السلطان الجديد ناصر الدين محمد تغلق الثانى على عرش دهلى فى رمضان من عام ٧٩٣ هـ / ١٣٩١ م حتى عهد بالوزارة إلى إسلام خان ، ثم

أمره وولى عهده هما يون بالخروج فى طلب أبى بكر ، فمازا لا به حتى أوقعاه ومضيفه فى الأسر ، ليعفو السلطان من بعد ذلك عن صاحب موات ويلقى بابن عمه فى الحبس فيقضى بعد قليل .

كذلك أنفذ ناصر الدين إلى الـكجرات قائده ظفر خان ، وهو الذى استقل بها فى أوائل القرن التاسع الهجرى وأسس بها أسرة مالـكة . وحذا حذوه فيما بعد أمراء مالوه وخاندش فلم تسترد دهلى نفوذها هناك إلا أيام الدولة المغولية .

وأفلح إسلام خان فى القضاء على ثورات بعض الأمراء الراجپوتيين فى الدوآب ، فى حين سار السلطان بنفسه إلى أتاوه فهدم حصونها . وكان الثوار يتعرضون منها لقوافل الحجاج والمسافرين .

وفيما كان محمد تغلق الثانى فى طريقه إلى العاصمة بلغه تآمر إسلام خان للاستحواذ على لاهور والملتان لنفسه حتى راح ، فى سبيل تحقيق مأربه هذا ، يهيىء لقيام الاضطرابات بها ، فساقه حال وصوله إلى حتفه .

وخرج السلطان عام ٧٩٥ هـ / ١٣٩٣ م بنفسه إلى ميوات ، برغم مرضه ، للحد من طغيان صاحبها بهادر نهير الذى غره عفو صاحب دهلى عنه فأقدم على انتهاب ما حول العاصمة من أماكن ، فهزمه وأرغمه على الفرار .

وما إن بلغ السلطان حصن محمد آباد بظاهر دهلى حتى أودت به العلة . ولم يجلس ابنه همايون الملقب بسكندر إلا أياما قليلة على عرش دهلى حتى فارق الدنيا بدوره .

ورقى العرش من بعده أخوه ناصر الدين محمود فخلع على وزيره خواجه جهان لقب وكيل السلطنة فى حين ولى سارنك خان إقليم ديپالپور .

وأدى تنافس أمراء ورجال الدولة فيما بينهم على مظاهر النفوذ وانقسامهم شيعا وأحزابا ، مع ضعف السلطان ، إلى أن جنح كثيرون من حكام الولايات وأمراء المناطق إلى نبذ سيادة دهلى والاستقلال بما بأيديهم من إمارات وحصون. بل إن الوزير خواجه جهان نفسه أعلن استقلاله بجونبور وأسس فيها أسرة حاكمة هى التى تعرف فى التاريخ باسم أسرة ملوك الشرق (شاه شرق) . وقد امتد نفوذها فى أوقات كثيرة إلى البنغال جارتها الشرقية . هذا فى حين لم يكتف سارنك خان باستقلاله بديبالبور حتى سقط على الملتان فهزم السكهكر ودخل لاهور .

ولم يقف الحال بالدولة عند هذا القدر من التفكك . فقد خرج السلطان عام ٧٩٦ هـ / ١٣٩٤ م إلى بيانه وكواليار وفى صحبته جملة من الأمراء وفيهم سادات خان ، فما إن أحس هذا الأخير بتآمر بعض زملائه عليه حتى سقط على بعض منهم فقتلهم ، ثم قفل راجعا إلى العاصمة ليجد مُقرّب خان نائب السلطان قد سبقه إليها فقفل أبوابها فى وجهه .

هنالك بعث هذا الأمير الثائر يستدعى أحد أحفاد فيروز شاه ، فنادى به بمدينة فيروز آباد سلطانا على الهند باسم نُصرت شاه . ولئن كان سادات خان قد لاقى حتفه بعد قليل على أيدى أعدائه إلا أن صنيعه هذا قد أدى إلى قيام شيعة قوية ، التفت حول السلطان الجديد ، تناهض حزب صاحب دهلى . وصار همّ كل فريق منهم القضاء على غريمه دون أدنى التفات إلى مصالح البلاد أو إشفاق عليها حذر الهاوية التى كانت تتردى فيها . فها قد أقبل تاتار خان ابن ظفر خان صاحب الكجرات ومعه قتلغ خان بجنودهما لشد أزر نصرة خان ، فى حين تقدم راجاموات ومعه ملو إقبال خان أخى سارنك خان صاحب ديبالبور والملتان فنزلا بقواتهما بظاهر المدينة متربصين بالفريقين اللذين ظلا

يقتتلان طوال أعوام ثلاثة هلك فيها خلق كثير حتى كان يجاوز عدد الا تلى بضعة آلاف فى اليوم الواحد .

وجاءت الأنباء فى هذه الأثناء بعبور بير محمد جهانكير ، حفيد تيمور السند فى مستهل عام ٧٩٩ هـ/١٣٩٧ م واستيلائه على حصن أوكا وتوغله فى الملتان ؛ والأحزاب المتقاتلة سادرة فى غيّها .

فهذا إقبال خان يبادر بالانضمام إلى نُصرت خان الذى ما يلبث بعد قليل أن يقف على ما يدبر له من كيد فيتركه إلى بانى بت ؛ فى حين ما يزال السلطان محمود يتحصن مع مقرّب خان وبهادُر نهير بدهلى القديمة .

وتمكن إقبال خان آخر الأمر من أن يقضى على مقرب خان ، وبهذا غدا السلطان محمود فى قبضته يوجهه كيف يشاء .

ولئن كانت الفتنة قد تكسرت حدتها وطفق إقبال خان يبذل الجهود لتنظيم شئون الدولة وأمورها من جديد ، فإن الأوان كان قد فاته على كل حال . ذلك أن تيمور كان قد أقبل بنفسه على الهندستان فما برح يسوى حصونها بالأرض ويحرق مدنها ويهلك الجموع الغفيرة من أهلها حتى بلغ دهلى التى استعصت من قبل على المغول وغيرهم من الغزاة قرونا أربعة[1] .

الغزو التيمورى وآثاره :

تروى « ملفوظات تيمور »[2] أن هذا المحارب الجبار حين حدثته نفسه

---

(١) Lane - Poole India, p 159

(٢) وتعرف أيضا باسم توزك تيمورى ، وهى سيرته التى أملاها بنفسة (وهى بالجغتائية) انظر ص ٣٩٤ ـ ٣٩٦ من الترجمة الانكليزية لها فى Elliot and Dowson, History of India. London 1871. vol 3

بالخروج للغزو والجهاد استشار رجاله إلى أى البلدين يخرج ، الصين أو الهند . فبينوا له أن من يقصد الهند عليه أن يواجه عقبات أربعا كبيرة ، إن اجتازها وتغلب عليها دانت له هذه البلاد بكنوزها وثرواتها التى يخطؤها الحصر ولا يحصيها العد . أما أولى هذه العقبات فنهر السند بفروعه الخمسة التى لا يتسنى اجتيازها إلا بالسفن والجسور ، والثانية آجام الهند وغاباتها كثيفة الأشجار متشابكة الأغصان وعرة المسالك ، والثالثة أمراء هذه البلاد من مسلمين وهنادكة ، وكلهم على دراية تامة بدروب السير فى هذه الآجام والعيش فيها ، والرابعة فيول الحرب المدربة التى يستخدمها أهل هذه البلاد فى مهارة فائقة ، حتى لتنتشر مسرعة خفيفة فى حومة الوغى فتطوى الفارس وفرسه بخرطومها ثم ترفعهما فى الهواء ، وما تلبث تضرب بهما الأرض حتى يقضيا نحبهما . وهذا هو السلطان محمود الغزنوى ، وكان فى قلة من الجند لا تصل إلى ما فى ركاب تيمور ، قد تغلب على ذلك كله من قبل وآب من هناك بأكداس طائلة من الذهب والفضة والجواهر .

وانبرى من بين الحاضرين شاه رخ ، أحد أبناء تيمور ، يحرض أباه بدوره على فتح هذه البلاد حتى يصير سيد الأقاليم السبعة بلا منازع ، فقال له : « إذا كان صاحب الروم يكنى بالقيصر وسلطان التتر بالخاقان وإمبراطور الصين بالفغفور ، وملك إيران وطوران بالشاهنشاه ، أى ملك الملوك ، وذلك لخضوع أمراء الهند وراجواتها له ، وقد صرت ، والمنة لله شاهنشاها على إيران وطوران فمن المؤسف ألا تمد سلطانك إلى الهندستان » .

هذا وقد نبه تيمور رجاله بأن عليه عند فتح هذه البلاد ألا يطيل وجنده الإقامة بها . ذلك أن البيئة الهندية من شأنها أن تبعث الخور والضعف فى

النفوس ، فتفتر همم الجند على مر الزمن ويفقدوا بالتدريج صفات الشجاعة ومستلزمات البطولة .

وفيما كان تيمور يعد العدة لغزو الهندستان وافاه بريد حفيده بير محمد جها نكير ينبئه فيه بأنه ، بعد أن دانت له بلاد كابل وغزنة وما حولها ، استطلع أحوال الهندستان فوجدها بعد وفاة فيروز شاه قد استبد بالأمر فيها اثنان من أمرائها أخوان ، فأقام أكبرهما ، ويدعى ملو إقبال خان ، بدهلى إلى جانب سلطانها محمود ، فى حين استقر الثانى ، وهو سارنك خان ، بالملتان [1] .

وتقدمت طلائع تيمور وعليها حفيده هذا فعبرت السند فى مستهل عام ٧٩٩ هـ / ١٣٩٧ م واستولت على حصن أوكا ثم اتجهت إلى الملتان كما ذكرنا من قبل .

وحاول سارنك خان أن ينقذ هذه المدينة ، لكن القائد التركى [2] فاجأ قوات هذا الأمير الكثيرة وهى تعبر السند فضاع أغلبها . وكان من غرق من رجالها أكثر ممن سقط تحت ضربات السيوف .

وسقطت المدينة نفسها بأيدى جهانكير بعد حصار دام ستة أشهر استطاع سارنك خان إبانه أن ينجو بنفسه منه .

وأقبل تيمور لذلك بنفسه على الهندستان فعبر السند بقواته فى المحرم من

(١) يوحى هذا الحديث كله بأن تيمور لم يكن يقبل على غزو بلد ما قبل الوقوف على أحواله
(٢) تيمور وأولاده هم من عروق الترك لا المغول وسنبين ذلك تفصيلا فى القسم الثانى من هذا الكتاب فى حديثنا عن الدولة المغولية إن شاء الله .

عام ٨٠١هـ/ ١٣٩٧م فالتقى بقوات شهاب الدين مبارك، أمير بهيت، وكان قد خضع أول الأمر لبير محمد ثم انتقض عليه. وقضى تيمور على أول قوات اعترضت سبيله ليمبر جيناب، رافد السند الكبير، من بعد ذلك إلى حصن توابه عند ملتقى هذا الرافد بأخيه راوى حيث انتشر جنده ينتهبون ماحوله من أرضين طلباً للمؤن، ويجمعون الأموال التى لم يعف من أدائها إلا العلماء والشيوخ: ولم يبرح الغزاة المكان إلا بعد أن أعملوا سيوفهم فى حماة هذا الحصن وكانوا يزيدون على الألفين من السكهكر.

وبلغ تيمور من بعد ذلك ديبالبور، وكان أهلها قد فتكوا بمظفر كابلى نائب جهانكير عليها، فوجد أكثرهم قد نزحوا عنها فرقا فاعتصموا بحصن بهتنير القوى المنيع. على أن دفاع راى دل جند ورجاله الأشداء عن هذه القلعة لم يغنهم فتيلا أمام بأس الغزاة الذين اقتحموها عليهم فأعملوا سيوفهم بمن كان فيها من هنادكة ومسلمين ثم سووا البناء بالأرض. وأعجب تيمور ببسالة الأمير الهندوكى وشدة مراسه فى القتال فعفا عنه وخلع عليه.

وانطلق الغزاة من بعد ذلك إلى سرسوتى فلم يغنهم استسلام أهلها لهم بعد مقاومة قصيرة — وكان أغلبهم من المنادكة — من أن يعملوا سيوفهم فيهم، فلم ينج منهم من القتل إلا من نطق بكلمة الإخلاص طلباً للخلاص.

ونزل تيمور من بعد ذلك بمدينة فتح آباد لينفذ منها فريقاً من جنده يتعقب — فى مناطق التلال والغابات القريبة — قبائل الزط التى دأبت على قطع الطريق على المسافرين والتجار والحجاج وإلحاق الأذى بهم.

ووافى الغازى التركى عند كيتل، على مقربة من سمانه، بجيوشه التى

كانت تنتشر فى المُلتان ولاهور فانضمت إلى قواته فأخذ يعد العدة بهما جميعاً لاقتحام دهلى .

وسارت جموع الغزاة إلى حاضرة الهند فإذا بالبلدان والقرى على طول الطريق قد هجرها أغلب أهلها هرباً من وجه الغزاة ، فلم يتركوا بها من الأرزاق والمتاع ما قد يجد العدو فيه نفعاً له أو مدداً .

وبلغ تيمور بانى بُتْ فنزل فى جهانه ، إحدى منشآت فيروز تغلق الفخمة ، لينتقل منها بعد قليل ، عبر جمنه ، إلى الدوآب فيستقر بقلمة لونى بعد أن أفنى حاميتها على بكرة أبيها . وقد توفر له فى مقامه الجديد هذا تموين قواته بما تحتاجه من مؤن وأرزاق .

وندب تيمور من فوره ، قائديه سليمان خان وجهان خان لاستكشاف الأرض عند مشارف دهلى الجنوبية والجنوبية الشرقية ، فى حين عبر هو النهر فى نفس اليوم فى سبعمائة فارس ليدرس موقع المدينة عامة .

هنالك أراد سلطان دهلى ومعه وزيره ملو إقبال أن يباغتا عدوهما وهو فى قلة من جنده فسيروا إليه خمسة آلاف من الفرسان ومعهم سبعة وعشرون من الفيلة لكنهم باءوا بالفشل وقُتل قائدهم محمود سيف .

وآب تيمور إلى معسكره ليأمر قواته بالتحرك فى الصباح التالى صوب الشرق من مواقفهم . حتى إذا ما أنهى إليه بعض رجاله بشيوع الفرح والسرور بين الأسرى فى معسكره حين علموا بمباغتة قوات دهلى له فى حملته الاستكشافية ـ خشى أن يركنوا ، والمعركة دائرة ، إلى تهديد مؤخرته وتخريب معسكره ، فأمر من فوره بقتل كل من كان منهم فوق الخامسة عشرة ، وتوعد كل من

قد يتوانى من رجاله فى تنفيذ ذلك بضرب عنقه ؛ فكان من بين مرافقيه من العلماء من اضطرُ إلى ارتكاب إثم القتل لأول مرة فى حياته إبقاء على نفسه. وناف عدد من سقط من الأسرى فى هذا اليوم على المائة ألف[1].

وعبرت القوات الغازية النهر فى مستهل جمادى الأولى من عام ٨٠١ هـ، وكان تيمور على قلب الجيش، فى حين قاد الجناح الأيمن بير محمد جهانكير ويادكر برلاس، وقاد الجناح الأيسر سلطان حسين والأمير خليل وجهان شاه.

وبرز محمود تغلق سلطان دهلى ومعه وزيره إقبال خان على رأس عشرة آلاف من الفرسان وأربعين ألفا من المشاة ومعهم مائة وخمسة وعشرون من فيول الحرب المدربة. على أن بعض قوات تيمور سرعان ماأفلحت فى التسرب خلف مقدمة عدوّهم مباغتة، فقتلت منهم سمائة فى هجمة واحدة، فى حين نجح بير محمد فى تشتيت شمال جناح جيش دهلى المواجه له حتى اضطر رجاله إلى الفرار من الميدان.

ورغم مانزل بجند دهلى من ضربات شديدة، فقد استمات السلطان ووزيره فى القتال بشجاعة واستبسال، فاندفعا يهاجمان بقواتهما قلب الجيش الغازى فى بأس شديد. حتى إذا ماتصدعت الصفوف أمام شدة وطأة العدو، انسحبا من الميدان عجلين فنزلا بحصن جهانباه، ثم مالبثا أن غادراه فى اليوم التالى إلى منطقة الجبال، فلم تصل إليهما أيدى المطاردين. واستقر المقام آخر الأمر بالوزير فى بَيْرَن فى حين سار السلطان إلى الكجرات.

وفى الثامن من جمادى الآخرة كانت بنود تيمور ترفرف بأعلى أسوار دهلى

---

١ ــ ملفوظات تيمور ص ٤٣٦

وقد وقف العلماء والأعيان تحتها فى انتظار قدوم الخاقان الفاتح ليقدموا له فروض الولاء ويسألوه العفو والأمان .

ودخل تيمور المدينة بعد أن تم له انتهاب مضارب أعدائه فأجريت الخطبة له ودُعى له على المنابر[1] .

ولم يكن ماأنزله تيمور بأعدائه من خسائر فادحة فى ساحة الوغى ليقاس بما ارتكبه رجاله فى دهلى — ولمّا يمض عليهم أيام قلائل بها — من مذابح رهيبة ونهب وسلب ندر وقوع مثله فى التاريخ .

ومجمل الأمر كما يذكره تيمور نفسه فى سيرته ، هو أن فريقا من جنده الأتراك كان قد نزل المدينة قصد الترفيه ، فما غدا أن استهوت رجاله معروضات التجار فراحوا ينتهبونها . وما لبث الجند الذين بعث بهم تيمور لكف أيدى هؤلاء الناهبين أن انضموا بدورهم إليهم ، هذا فى الوقت الذى انطلق فيه جند آخرون من الغزاة يجمعون مافُرض على أهل المدينة من غرم مالى ، فى حين كانت هناك فرقة رابعة تجمع التموين للجيش من زيت وحب وسكر ودقيق . وفيما كانت المدينة تغص بهؤلاء جميعا ، بلغ تيمور تحصن التجار والأعيان فى دورهم وامتناعهم عن دفع مافرض عليهم من غرم ، كما بلغه أيضا نزول جمع كبير من المنادكة المدينة ومعهم أسراتهم وبضائعهم وأحمالهم قادمين من المناطق المجاورة ، فأنفذ قوة أخرى من الجند لتأتيه بهم جميعا من فورهم .

هكذا غدت العاصمة تغص بما لايقل عن خمسة عشر ألف جندى كان

---

(١) ظفر نامه لشرف الدين يزدى طبع كلكتا ١٨٨٥ — ١٨٨٧ مجلد ٢ ص ١١٥ وما بعدها.

أغلبهم من المشاغبين باعتراف تيمور نفسه ، فاتخذوا من مقاومة الأهلين لهم ذريعة للفتك بهم ونهب أموالهم ومتاعهم .

وإذا رأى المناذكة أموالهم تنتهب ونساءهم تسبى ، بادروا بإغلاق أبواب المدينة وذبحوا نساءهم وأطفالهم بأيديهم ، ثم برزوا مع الأهلين لقتال جند تيمور الذين توالت عليهم الإمدادات بدورهم ، فجرت في المدينة مذبحة شنيعة مدمرة بلغ من هولها أن سدت جثث القتلى لكثرتها المسالك والطرق . ولم يمنع استسلام الأهلين الغزاة من متابعة التقتيل في قسوة بالغة . حتى إذا ما كلت سيوفهم ، سلكوا في أسرهم من كتبت لهم الحياة من السكان ، فكان من الجند من ضمت قيوده الخمسين منهم ، ولم يكن فيهم من قل أسراه عن العشرين فضلا عما حملوه معهم من الذهب والفضة و كل ثمين وغال من المتاع . ويقدر المؤرخون عدد ضحاياهم من القتلى بهذه المدينة وحدها بما يزيد على المائة ألف .

ويحاول تيمور في سيرته أن يبرىء نفسه من إثم هذه المجازر البشعة فيعتذر برد الأمر كله إلى المقدور وفق المشيئة الإلهية . وإذا كان هو حقا جاداً في أسفه على فعلة جنده هذه ، فما باله إذن لم يأمر بإطلاق سراح الأسرى على الأقل وردهم إلى دورهم تكفيراً له ضعيفا عما ارتكبه رجاله من إثم وأى إثم . ذلك أنه حين دخل المدينة من بعد ذلك فأتى له بكنوزها وغنائمها ، أمر بأصحاب المهن والحرف من بين الأسرى نخص بهم عماله وأمراءه ، بعد أن احتجز لنفسه منهم البنائين ورجال المعمار وفيهم أولئك الذين أقاموا لفيروز تغلق مسجده الذى سجل سيرته على جدرانه . وهؤلاء أنفسهم هم الذين بنوا من بعد ذلك للخاقان التركى مسجده الكبير بسمرقند على نمط مسجد فيروز ، كما صوروه

مشاهد وقائعه الهندية كذلك على جدران قصوره ، إلى جانب منشآت أخرى كثيرة أقاموها له[1] .

وأزمع تيمور لذلك الإياب إلى بلاده ، فغادر دهلى غاية جمادى الآخرة بعد أن قضى بها خمسة عشر يوماً ، فما إن بلغ فيروز آباد حتى أقبل عليه بهادر نهر صاحب ميوات ومعه خضر خان مستسلمين .

وسار تيمور من بعد ذلك إلى بانى بت فبعث منها بعشرة آلاف من رجاله إلى حصن ميرات (ميروت) لكن حسن دفاع أصحابه عنه ، وكان فيهم الياس أفغان وابنه مولانا أحمد تنيسرى ، منعه عليهم ، حتى خرج إليه الخاقان بنفسه فاقتحمه على حماته وانتهب أموالهم ، ثم أمر بالبناء كعادته فسوى بالأرض ومن ثم صعد المنتصرون فى تلال سواليك بالبنجاب حتى بلغوا حصن جامو فاستولوا عليه ، لينطلق فريق منهم من بعد ذلك فى أثر شيخا ككهر ، وهو أمير هندوكى كان قد استسلم لتيمور عند قدومه الهندستان فقربه إليه ثم مالبث أن انتهز فرصة ابتعاد قوات الغزاة عنه فطرد رجالهم من لاهور والملتان واستقل بهما . وما لبث رجال تيمور أن استردوا لاهور بعد حصار قصير وجاءوا بالثائر الهندوكى نفسه إلى سيدهم عند جامو فأمر به فأعدم . وفى جامو عهد تيمور لنائبه خضر خان بالملتان ولاهور وديبالبور ثم تابع سيره إلى سمرقند عاصمته عبر طريق كابل[2] .

وكان من أثر الغزو التيمورى ، وما أشاعه فى البلاد من خراب ودمار ، أن اجتاحت الفوضى والاضطراب كافة الأقاليم التى دخلها الغزاة . وبدأ أخطر

---

(1) بابرنامه نشر السيدة بفريدج . ليدن ١٩٠٥ . ورقة ٤٤

(2) ظفرنامه ص١٤٨

مظهر لهذا كله فى العاصمة التى عانت من هذه المحنة مالا يبلغ وصفه بنان أو بيان فقد هلك أغلب أهلها ونهبت دورها ومتاجرها وتفشت فيها المجاعات الطاحنة والأوبئة الفاتكة . وظل زمام الأمور فيها منفلتا حتى أطبق عليها الأمير نصرت شاه قادما من مخبئه من ميروت بالدوآب فى ألفين من الفرسان .

على أن إقبال خان ، وكان ينزل فى بَرْن غير بعيد من دهلى ، مالبث أن استخلص العاصمة لنفسه وأرغم هذا الأمير على الارتداد إلى مخبئه من جديد . وما إن انصرم عام ٨٠٣ هـ/ ١٤٠٠ م حتى كان هذا القائد قد بسط نفوذه على منطقة الدوآب فيما بين لكهناوتى وبيانه.

واستقدم إليه من بعد ذلك السلطان محمود تغلق ، وكان قد غادره بدوره ملجأه بالكجرات إلى مالوه على أثر مالاحظه من فتور صاحبها ظفر خان نحوه، فأجرى عليه رزقا حسنا قنع به عن التطلع إلى الحكم .

وبلغ إقبال خان خبر وفاة مبارك شاه شرقى صاحب جونبور ،فبرز بقواته إلى قنوج وفى صحبته محمود تغلق ، وكان إبراهيم شاه شرقى أخى سلطان جونبور الراحل قد شخص إليها بدوره .

وانفلت السلطان محمود إلى معسكر خصمه وقد أمل أن يستعين به على استرداد نفوذه ، لكنه رده عنه خائبا حسيرا . وتغاضى إقبال خان عن فعلته هذه ، وقد نصبه آخر الأمر على قنوج ثم عاد إلى دهلى .

وغزا صاحب دهلى من بعد ذلك كواليار وأتاوه ، وكانتا فى حوزة عصبة من الأمراء المنادكة فألزمهم بدفع جزية سنوية له . ثم تطلع لاسترداد الملتان فزحف إليه مع أمراء سمانه وما حولها ، لكن خضر خان نائب تيمور هناك

ألحق بهم جميعاً هزيمة حاسمة فى جمادى الأولى عام ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م ، سقط فيها إقبال خان نفسه صريعاً ، فما إن بلغ الخبر دولت خان لودهى حاكم دهلى حتى بادر من فوره باستدعاء السلطان محمود تغلق وأجلسه على العرش .

ولم يلتفت محمود تغلق إلى الخطر الجديد الذى بدا على أثر قضاء خضر خان على قوات إقبال خان وحلفائه ، فبعث بقائده دولت خان لودهى لإخضاع بيرم خان فى سمانه فى حين سار هو إلى قنوج فالتحم مع إبراهيم شاه شرقى الذى رده عنها .

وأدى سوء معاملة السلطان لجنده أن انصرف أغلبهم عنه ، حتى كاد إبراهيم شاه شرقى أن يدخل دهلى نفسها فلم يثنها عنه إلا ما بلغه من استيلاء مظفر خان صاحب الكجرات على مالوه ومتابعته الزحف إلى جونبور .

وأقبل خضر خان نائب تيمور بدوره آخر الأمر على العاصمة فضرب عليها الحصار فى عامين متتاليين فلم يكن برده عنها فى كل مرة إلا نفاذ مؤنه .

ووافى السلطان محمود تغلق أجله بعد ذلك بقليل فى ذى القعدة عام ٨١٤ هـ / ١٤١٢ م فخلفه دولت خان لودهى .

ولئن كان هذا الزعيم الأفغانى قد أفلح فى ضم بعض أمراء البلاد المجاورة للعاصمة إلى صفه فإنه آخر الأمر لم يقو على الوقوف فى وجه خضر خان الذى أقبل هذه المرة فى ستين ألف فارس دخل بهم دهلى فى ذى الحجة من عام ٨١٦ هـ / ١٤١٤ م بعد حصار دام أشهر أربعة .

ملوك الطوائف

لئن كان الضعف قد بدأ يتسرب إلى كيان الدولة الإسلامية بالهندستان منذ أواخر عهد محمد تغلق و بداية حكم خلفه فيروز[1]، إلا أن الغزو التيموري كان هو بلا مراء العامل الأكبر الذي أدى إلى تفكك هذه الدولة . ذلك أن أغلب ولاياتها الكبرى الهندية كالوة والكجرات وجونبور والبنغال والدكن ، ما لبثت على أثر هذا الغزو أن انفصلت عنها إنفصالا تاما وأعلن أصحابها استقلالهم بها ، فلم يفلح سلاطين دهلي في بسط نفوذهم على هذه الولايات عموما من جديد ، إلا في عصر الدولة المغولية التي أقامها أحفاد تيمور لنك نفسه بالهندستان في القرن العاشر الهجري فعمرت قرون ثلاثة شهدت فيها شبه القارة الهندية على أيديهم حضارة رائعة قوية ومدنية مزدهرة بزت ، بإجماع الثقات من المؤرخين ، نظائرها عند أرقى الدول لذلك الوقت

على أن أغلب سلاطين هذه الولايات المستقلة التي سنتحدث عنها فيما يلي ، وهم في غمرة كفاحهم لتوسيع رقعة ملكهم أو دفع من عساه يطمع في أراضيهم ، قد حرصوا كثيراً على العمل على رقي بلادهم والنهضة بها :

• الكجرات : تعد هذه الإمارة ثاني إمارات الهند الإسلامية بعد دهلي ذلك أنه فضلا عن خصب تربتها وما تحويه من ثروات طبيعية هي أولا وقبل

---

(١) الواقع أن فيروز تغلق بإصلاحاته ومشروعاته العمرانية المفيدة وميله إلى ما فيه خير رعاياه قد أفلح في حمل الناس على التعلق به والركون إلى الهدوء ، ولكنه لم يصل بذلك إلى تدعيم هيبة الملك إذ غلبت طيبته ومسالمته على حزمه .

كل شيء ، باب التجارة الهندية الغربي منذ القدم ومنفذها إلى إفريقية وآسيا . فمن شاطئها عند سورات وخليجها كمباى كانت تبحر السفن بمنتجات الهند من توابل وثمار وعطور وسيوف ومنسوجات حريرية وقطنية وأحجار كريمة إلى بلاد العرب والبحر الأحمر فتنقل من بعد ذلك براً إلى موانىء البحر الأبيض المتوسط لتحملها فلك أخرى من هناك إلى ثغور أوربا . لهذا كان هذا الإقليم محط أنظار أغلب غزاة الهند حتى قبل عصر الإسكندر .

وكان أول من اقتحم الكجرات من أمراء المسلمين محمود الغزنوى ليحطم معبد سومنات أحد مقدسات الهنادكة العظمى . على أن سلطان المسلمين لم يرسخ فيها إلا على أيدى علاء الدين الخلجى عام ٦٩٧هـ/١٢٩٧م . وقد أعلن مظفر خان ، حاكم هذا الإقليم من قبل سلطنة دهلى ، استقلاله به عام ٨٠٤هـ/١٤٠١م وذلك على أثر الغزو التيمورى للهندستان .

وخلف هذا الأمير حفيده أحمد شاه الذى قضى أغلب حكمه فى حروب متواصلة أتاحت له توسيع رقعة ملكه . وعنى هذا الأمير بتنظيم شئون الحكومة ، كما أقام كثيراً من المنشآت وبنى مدينة أحمد آباد وحض التجار والصناع على النزوح إليها والإقامة بها . هذا كما بذل نشاطاً كبيراً فى نشر الدين الإسلامى بين السكان والقضاء على الشرك وعبادة الأوثان وقد هدم فى سبيل دعوته هذه كثيراً من معابد الهندوكيين هناك .

ويُعد السلطان محمود بيكر ، حفيد أحمد شاه ، أعظم حكام الكجرات طراً . وكان مما ساعد على ذيوع صيته وانتشار شهرته ما عقده من عزم فى أواخر حكمه على طرد البرتغاليين من سواحل الهند الغربية وإبعاد خطرهم عنها . وكان

هؤلاء المستعمرون قد نزلوا على مقربة من بمباى وأخذوا يقطعون الطريق على سفن التجارة والحجيج .

وعاون المماليك المصريون والسلاطين العثمانيون محمود بيكر وخلفاءه على محاربة هؤلاء الدخلاء[1] . وبرغم حسن بلاء أساطيل المسلمين فقد انتهى الأمر بالبرتغاليين إلى تثبيت أقدامهم فى بضع مواطىء بالشاطىء الغربى للهند ، من بينها مقاطعة جوا البحرية التى ارغموا أخيرا على الجلاء عنها .

وقضى هذا السلطان بعد أن حكم اثنين وخمسين عاماً بلغ فيها صيته محافل أوروبا لما كان عليه بلاطه من أبهة بالغة وتقاليد رفيعة ، إلى جانب ما أثر عنه نفسه من ميل إلى العدل واتصاف بالحزم والشجاعة .

ولم يأل بهادر خان ، آخر حكام الكجرات الكبار ، جهداً فى توسيع رقعة ملكه فاستولى على أغلب مالوه واقتحم قلعه چتور بالراجبوتانا . وبرغم هزيمته أمام همايون ثانى سلاطين الدولة المغولية بالهند ، فقد أفلح من بعد ذلك فى استرداد جزء كبير من أراضيه ، وذلك حين أخرج شير شاه ، همايون من الهند . وقدبذل هذا السلطان جهوداً صادقة لطرد البرتغاليين من جزيرة ديو التى

---

(١) امتد خطر البرتغاليين إلى مدخل البحر الأحمر فبلغ مياه الأراضى المقدسة حتى سارع المصريون إلى تحصين موانىء الحجاز . كذلك لبى قنصوة الغورى سلطان مصر دعوة سلطان الكجرات فبعث بسفنه لمحاربة البرتغاليين الذين أضروا بتجارة البحر الأحمر وكانت من مصادر ثروة المماليك ، كما أتت سفن سليمان القانونى سلطان العثمانيين بدورها لمساعدة الكجراتيين. وتبادل الفريقان الانتصارات مرات عدة حتى كتبت الغلبة آخر الأمر فيما بعد للبرتغاليين . حقائق الأخبار لإسماعيل سرهنك أول ص ٥٤٨ وثان ص ١٨٨
Cambridge Hist . of India Vol 3 pp : 212 16 . 536 , 7 .

كانوا يتحصنون بها ، وكادت جهوده تكلل بالنجاح لو أن دبّر أعداؤه أمر مقتله غرقاً وهو فى طريقه للمفاوضة معهم .

وصار أمر الكجرات إلى أن ضمها أكبر ، ثالث سلاطين المغول وأعظمهم ، إلى ملكه عام ٩٨٠ هـ / ١٥٧٢ م .

مالْوَه : وإلى الشرق من إقليم الكجرات تقع إمارة مالوه . وكان علاء الدين الخلجى هو كذلك أول سلطان مسلم ضمها إلى ملكه .

وانتهز أميرها دلاور خان الغورى ، وكان من رجال فيروز تغلق ، فرصة الفوضى التى عمت عقب الغزو التيمورى فأعلن عام ٨٠٣/١٤٩١ م استقلاله بها ، واتخذ من مدينة دهر حاضرة له . وخلفه ابنه ألب خان الملقب بهوشنك شاه عام ٨٠٧ هـ فنقل حكومته إلى ماندو التى زخرت بجملة من المنشآت الفخمة فى عصره .

وجر خصب أراضى هذا الإقليم عليه أطماع حكام دهـــلى وجونبور والكجرات وكانت جميعاً تجاوره . حتى إذا ما منى هوشنك شاه بهزيمة شديدة فى حروبه مع الكجرات خلفه على العرش ابنه غازى خان الذى غلبه محمود الخلجى على أمره فقتله واتخذ مكانه .

وأعلى السلطان الجديد من شأن مالوه بما أحرزه من انتصارات كثيرة فى حروبه العديدة مع أمراء الراجپوتانا ومملكة بهمنى الدكية حتى امتدت حدوده شمالا إلى مواْر وجنوبا إلى ساتبورا وشرقا إلى بند لخند وغربا إلى الكجرات ، ولم تقعد به همته حتى كاد يدخل دهلى نفسها لولا صمود بهلول لودهى قائد سلطانها محمد شاه إذ ذاك فى وجهه[1]

(١) تاريخ فرشته ص ٢٣٦ .

وقد عرف هذا السلطان إلى جانب حروبه الكثيرة باشتغاله بالعلوم والفنون والآداب مع حرصه البالغ على إشاعة العدل بين رعاياه جميعاً هنادكة ومسلمين على السواء .

وهان شأن خلفاء محمود الخلجي من بعده بانصرافهم عن الاهتمام بشئون الدولة من جهة ، واستوزارهم للهنادكة الراجبوتيين من جهة أخرى ، حتى انتزع البلاد منهم آخر الأمر بهادرخان صاحب الكجرات عام ٩٣٧هـ/١٥٣١م ليستخلصها همايون ، ثانى سلاطين المغول ، لنفسه منه بعد ذلك بسنوات أربع .

خاندش : كذلك كانت هذه الإمارة واحدة من بين الإمارات الهامة التى انسلخت عن دهلى . وموقعها إلى الجنوب من مالوه فيما بين تلال الوندهايا والدكن ، ويحدها ، إقليم برار فى الشرق ثم الكجرات فى الغرب . وقد شجع ثراء الإقليم وخصب أراضيه حاكمه ملك راجافاروقى على الاستقلال به اقتداء بدلاور خان الغورى أمير مالوه . ودخل هذا الأمير ، على سنة عصره ، فى حروب كثيرة مع جيرانه لا سيما مع مظفر شاه صاحب الكجرات فكسر فيها ، ليركن إلى السلم من بعدها وينصرف إلى العناية بشئون بلاده . وأفلح ابنه ناصر شاه فى انتزاع بعض الحصون من أيدى جيرانه الهنادكة كان أهمها حصن أسيركاه ، لكن خلفاءه من بعده غلبهم الضعف فصاروا فى الغالب خاضعين لنفوذ سلاطين الكجرات لا سيما فى عهد السلطان محمود بيكر الكجراتى ، حتى ضم السلطان أكبر المغولى هذه الإمارة إلى ملكه عام ١٠١٠هـ/١٦٠١م .

جونبور : هو اقليم واسع كبير يقع إلى الجنوب الشرقى من دهلى ويجرى فى أراضيه جمنه وكوكرا أكبر روافد الكنج . وعاصمته ، التى يعرف باسمها

الإقليم كله ، تقع عند شاطىء جمنة على مقربة من ظفر آباد . وقد أنشأها فيروز تغلق عام ٧٦٠هـ/١٣٥٩م عند عودته من حملته الثانية بالبنغال . ذلك أن هذا السلطان رأى ، فى سبيل ضمان إقرار الأمن فى هذه الولاية البعيدة ، أن ينشىء على مقربة من حدودها مركزاً حربياً تقيم فيه قوات كبيرة كافية تبادر من فورها إلى القضاء على كل ما قد يقوم من اضطرابات فى هذه النواحى ، وبهذا يتفادى ماتتعرض له جيوشه فى سيرها من دهلى من مصاعب طريقها الطويل لا سيما إبان فصل الأمطار الموسمية ، فوقع اختياره على هذا المكان الذى أطلق عليه هذا الاسم تمجيداً لذكرى ابن عمه الأمير فخر الدين محمد جونه ، ثم لم يأل جهداً من بعد ذلك فى تعمير هـذه المدينة وتجميلها بالمنشآت الفخمة الكثيرة .

وأراد محمود تغلق أن يكافىء وزيره وقائده خواجه جهان سرور على ما بذل له من همة فى القضاء على فتن الخارجين على سلطانه فأنعم عليه عام ٧٩٧ هـ / ١٣٩٤ م بلقب شاه شرق (ملك الشرق) وعهد إليه بحكومة كافة الأراضى الواقعة فيما بين قنوج وبهار .

وما لبث هذا الحاكم أن بسط نفوذه على الدوآب واتخذ لنفسه مقاما فى جونبور . ولم يمض إلا القليل حتى أعلن أصحاب لكهناوتى وجاجنكر خضوعهم له بدورهم ، فصاروا يبعثون إليه بالجزية التى جروا على إرسالها إلى دهلى من قبل .

وانتهز هذا الأمير فرصة تعرض الهندستان للغزو التمورى فأعلن استقلاله بما فى يده من أرضين . حتى إذا ما أنقلب الفاتح المخرب عائداً إلى بلاده فسار إقبال خان فى قوات كبيرة إلى جونبور ، دفعه أميرها عنها ولم يمكنه منها .

كذلك لجأ محمود تغلق بدوره إلى إبراهيم شاه شرق خليفة مبارك شاه ، على أمل أن يعينه على استرداده لعرشه من أيدى إقبال خان ، لكن صاحب جونبور كان أحذر من أن يزج نفسه فى متاعب هو فى غنى عنها .

وأفلح إبراهيم شاه شرق فى استرداد إقليم قنوج على أثر هزيمة اقبال خان ومقتله فى الملتان ، ثم تابع سيره إلى دهلى ، حتى إذا علم بزحف مظفر خان صاحب الكجرات بدوره إليه ، بادر بالتراجع إلى موطنه ،

وركن سلطان جونبور إلى السلم من بعد ذلك خمسة عشر عاما انصرف فيها إلى تنظيم حكومة بلاده والاشتغال بمختلف فنون المعرفة حتى غدت جونبور من أعظم مراكزها الإسلامية فى زمنه . وساعد على قيام هذه النهضة طائفة كبيرة من العلماء كانوا قد لجئوا إلى البلاد هرباً من وجه الغزو التيمورى فلقوا بها كل ترحيب وإكرام[1].

هذا ولا تزال بهذه الإمارة حتى اليوم جملة من العمائر والمنشآت الفخمة التى أقامها هذا السلطان هناك .

وظل ملوك الشرق هؤلاء يحكمون فى جونبور فترة طويلة تعرضوا فيها لغزوات اللودهيين الأفغان أصحاب دهلى حتى انتزعوها منهم.

. البنغال : ذكرنا من قبل أن فيروز تغلق قد أضاع بتردده وضعفه هذا الإقليم الذى يعد أخصب مناطق الهندستان الشرقية وأغناها ، وإن لبث أمراء هذا الإقليم يبعثون من حين لآخر بهداياهم إلى سلاطين دهلى .

Lane- Poole, Medieval India P 199 (١)

وقد صار هذا الاقليم فى أواخر القرن التاسع الهجرى وأوائل العاشر من أقوى الإمارات الهندية وأعزها جانبا [1].

ويشتهر من بين حكام البنغال حسين شاه أول من استقل به. ويذاع عنه ابتكاره لدين جديد يجمع بين عقائد الهنادكة ومذاهب المسلمين، وهو نفس الأمر الذى نسب إلى أكبر أعظم سلاطين الدولة المغولية من بعد. كذلك عنى نصرت شاه بن هذا الأمير بتوسيع رقعة ملكه وإقامة جملة من العمائر الفخمة ببلاده، إلى جانب حرصه الشديد على رواج الحياة الثقافية فى عهده. وهذا الحاكم الذى ظل ممسكا بزمام أمور البنغال من عام ٩٢١ هـ إلى عام ٩٣٩ م قد وصفه ظهير الدين بابر مؤسس الدولة المغولية فى سيرته بأنه أحد الأمراء الخمسة الكبار فى الهندستان.

وخلف الأمراء الأفغان هذه الأسرة الحسينية بهذه الإمارة حتى انتزعها السلطان أكبر من أيديهم أواخر القرن العاشر الهجرى.

الدكن: لم يتيسر لأحد من سلاطين دهلى منذ وفاة محمد تغلق أن يبسط نفوذه فى الواقع إلى ماوراء تلال الوندهايا جنوبا، فقدراح أمير يدعى علاء الدين كانكوى (جنجو) ظفر خان يتزعم حركة اضطرابات واسعة فى الدكن، فأعلن خروجه على سلطان دهلى عام ٧٤٣ هـ ثم راح يبسط نفوذه على كافة الأقاليم الدكنية التى كان كل من علاء الدين الخلجى ومحمد تغلق قد انتزعاها من الأمراء الهنادكة فى الهضبة الهندية الوسطى والسهل الجنوبى. وصارت بلاده تعرف

(١) تحدث ابن بطوطة حديثا طويلا عما شاهده بهذا الاقليم من رواج وتقدم فى رحلته راجع ص ٢١١، ١٢

بسلطنة بهمنى نسبة إلى جد له كان يدعيه هو بهمن ابن اسفنديار أحد ملوك الفرس الأقدمين . وموقعها اليوم هو إقليم بمباى وولاية حيدرآباد الدكنيه (١) .

وحارب سلاطين هذه الأسرة راجا تلنجانا وضموا إلى ملكهم إقليم غولكونده وأورانكل وأجزاءا من أوريسه فى شرق بلادهم . وبلغت بلادهم أوج قوتها بفضل وزيرهم محمود جوان الذى كان أول من أنزل هزيمة ساحقة براجا إمارة فيايانكر الهندية ، واستولى على أجزاء من بلاده التى ظلت مدى قرنين من الزمان مصدر متاعب لما كان يجاورها من الإمارات الإسلامية . وبجهود هذا الوزير ازدهرت كذلك الحركة العلمية هناك ، فظهرت مؤلفات قيمة فى الرياضيات والطب والأدب . واشتهرت مكتبة هذا الوزير بمدرسته فى مدينة بِدَر بما كانت تحويه من نفائس المخطوطات الكثيرة (٢) .

ولقد أجمع جمهرة من المؤرخين على الإشادة بحسن تدبير هذا الوزير وشجاعته وحدبه على تدعيم أركان السلطنة وتوسيع رقعتها . هذا مع حرصه البالغ على قيام العدل بين الأهلين ، وشدة ورعه وزهده إذ كان لا ينام إلا على حشيه بسيطه خشنه ، ولا يتناول طعامه إلا فى آنية رخيصة من الفخار ، مع بره الشديد بالفقراء حتى كان يخرج أغلب دخله لهم . على أن عنفه البالغ فى معاملته لمنافسيه وأعدائه من أمراء الهنادكة والمسلمين على السواء ، قد دفعهم آخر الأمر إلى التآمر عليه بهتانا عند السلطان محمد الثالث الذى أورده حتفه بأيدى جلاده الحبشى جوهر (٣) ؛ فجاء مقتله إيذانا بانهيار هذه الدولة الدكنية الكبرى .

---

(١) تاريخ فرشته ص ٢٧٨

(٢) Prasad. Medieval India p 373

(٣) تاريخ فرشته ص ٣٥٧

وبلغ عدد سلاطين بهمنى أربعة عشر حاكما ، كانوا فى الغالب على غلظة شديدة وميل بالغ إلى سفك الدماء ، وإن لم يمنعهم ذلك من العناية بشئون بلادهم ، فأمنوا الطريق وشقوا الترع والقنوات ، واهتموا بالزراعة والصناعة والتجارة ، ورعوا العلوم والفنون . كما أقاموا كثيرا من المنشآت والمدارس والمساجد ، وإن لم تبلغ العمارة عندهم من الروعة ما بلغتها عندهم من الأمراء المسلمين بالهند : ولقد هال جوّابوا هذه البلاد ما رأوه عندهم وعند رجالهم من الثراء الفاحش والبذخ البالغ ، إلى جانب البؤس الذى كان يقيم فيه أغلب العامة ، وهى سُنة من أسوء سنن العصور الوسطى التى كانت شائعة فى كل بلد على كل حال .

ولم يمض عامان على مقتل الوزير محمود جوان حتى طفق عقد سلطنة بهمنى ينفرط بالتدريج . حتى إذا ما أهل عام ٩٣٢ هـ / ١٥٢٥ م أسدل الستار نهائيا على هذه الدولة التى عمرت قرابة قرنين من الزمان ، فقسمت أراضيها إلى خمس ممالك إسلامية مستقلة متحاربة على الدوام هى برار وبيجاپور وأحمد نكَر وغولكونده وبِدَرْ .

وكانت بِرار هى أول إمارة انسلخت عن أسرة بهمنى ، ليستقل بها عام ٨٩٠ هـ / ١٤٨٤ م فتح الله عماد شاه ، وكان فى أصله هندوكيا اعتنق الإسلام . ولبثت أسرة عماد شاه هذه تحكم تلك الإمارة حتى عام ٩٨٢ هـ / ١٥٧٤ م ليضمها أمراء نظام شاهى أصحاب إمارة أحمد نكر من بعد ذلك إلى ملكهم .

أما سلطنة بيجاپور فيقال إن يوسف عادل شاه ، أول سلاطينها ، كان

فى الواقع من أبناء السلطان العثمانى مراد الثانى ، وكانت أمه قد فرت به من وجه أخيه محمد الفاتح حين بلغها ما انتواه من قتل جميع إخوانه الذكور صونا لعرشه ، فاحتالت على تقديم ولد آخر بدل أبنها الذى عهدت به إلى تاجر فارسى . ولم يطل المقام بالأمير العثمانى بإيران ، فقصد إلى الدكن مع قوافل الفرس والأتراك الذين كان يجتذبهم صيت بلاط بهمنى الذائع ، فالتحق بخدمة الوزير محمود جوان الذى أنزله فى نفسه منزلة ولده .

وحين بدأ الضعف يدب فى سلطنة بهمنى عمد يوسف هذا عام ٨٩٥هـ/١٤٨٩م إلى إعلان استقلاله بهذه الإمارة .

وتعرض هذا السلطان لهجوم هنادكة فيايانكر مع فريق من جيرانه بتحريض من قاسم بريد وزير سلطنة بدر ، فأدى ما أنزله بهم من هزائم ، مع استيلائه على معسكراتهم ، إلى توطيد أقدامه وذيوع صيته .

وخان هذا السلطان التوفيق بعد قليل حين أعلن اعتناقه لمذهب الشيعة وراح يحمل قومه على الدخول فيه قسرا ، حتى تألب جميع جيرانه عليه ، واضطروه إلى الخروج من بلاده . وحين لجأ إلى عماد الملك صاحب برار ، نصحه بإعلان رجوعه إلى مذهب أهل السنة والإقامة بخاندش حتى تهدأ الأحوال .

وآب يوسف عادل إلى بلاده من جديد ، فاتجه عام ٩١٧هـ/١٥١٠م على رأس قوة من الجند استرد بهم جوا من أيد البرتغاليين .

ولم يمض أشهر قلائل على موت هذا السلطان حتى استعاد المستعمرون

هذا المرفأ الهام فبقى بأيديهم حتى استردته الهند منهم بعد التقسيم بسنوات طويلة.

ويثنى المؤرخون على هذا السلطان الذى عرف عنه تمسكه بالفضائل وميله إلى العلماء والأدباء ، حتى دعى إليه جملة منهم من التركستان وفارس والدولة العثمانية ، كما لم يتنكب طريق الحسنى فى معاملته لرعاياه من الهنادكة أو يبخل بمناصب الدولة على الاكفاء منهم [1].

وحافظ أبناء هذا السلطان على تراثهم سنين طويلة ، حتى إذا ولى الملك على عادل شاه فى منتصف القرن العاشر الهجرى بادر بدوره إلى إعلان تشيعه . وأردف ذلك بتحالفه على جيرانه مع هنادكه فيايانكر الذين اجتاحوا إمارة أحمد نكر فأنزلوا بأهلها مذبحه شنيعة نبهت السلطان إلى مدى الخطر الذى يتهدد المسلمين على أيدى هؤلاء الهنادكة فنفض يده منهم .

وقد انتظم أمراء الدكن المسلمون من بعد ذلك فى جبهة واحدة متماسكة استطاعت أن تنزل بهذه الإمارة الهندوكية ضربات متلاحقة كان أشدها موقعه تاليكوتا عام ٩٧٣ هـ / ١٥٦٥ م .

وآخر سلاطين بيجابور هو إبراهيم عادل شاه الثانى الذى قضى على إمارة أحمد نكر وضمها إلى ملكة . وقد ذاع صيت زوجته چند بيبى لدفاعها الباسل عن هذا الإمارة فى وجه قوات الدولة المغولية عام ١٠٠٣ هـ / ١٥٩٤ م .

أما ولاية أحمد نَكَر فرأس أسرة نظام شاهى التى استقلت بها هو نظام الملك بحرى الذى وزر لسلاطين بهمنى عقب مقتل الوزير محمود جوان ، وكان له

Prasad - India P 382 (١)

فيه مشاركة . وقضى على هذا الوزير أطاعه بعد قليل ، فما لبث ابنه أحمد أن أعلن استقلاله بما فى أيديه من أراضى چونير عام ٩٠٤ هـ/١٤٩٨ م ، ثم انتقل من بعد ذلك إلى مدينة أحمد نكر الجديدة فجعلها قصبة للملك . وجهد هذا الأمير من بعد ذلك فى الاستيلاء على دولت آبادو توابعها فبلغ غايته فى العام التالى .

ودخل خلفاء هذا السلطان فى حروب متصلة مع جيرانهم حتى انتهى أمر هذه الولاية إلى الدخول فى حوزة الدولة المغولية عام ١٠٠٩ هـ/١٦٠٠ م

هذا وكان قطب الملك ، مؤسس أسرة قطب شاهى بغولكونده ، فى أول أمره من رجال السلطان محمود بهمنى المقربين . وأعلن هذا الأمير استقلاله بهذه الإمارة عام ٩٢٧ هـ/١٥١٨ م ، وظل يحكمها حتى اغتاله ابنه جمشيد عام ٩٧٣ هـ/١٥٦٥ م وكان قد بلغ التسعين من عمره .

وليس لسلاطين هذه الإمارة ما يُذكر إلا مشاركتهم جيرانهم فى محاربة إمارة فيايانكر الهندوكية ، حتى صارت بلادهم أوائل القرن الحادى عشر الهجرى من أملاك السلطان المغولى أورنكزيب .

كذلك استبد بالأمر كله فى إماره بِدَر الوزير قاسم بريد ، وذلك فى عهد السلطان الضعيف محمود شاه بهمنى ، ثم خلفه فى الوزارة ابنه الأمير بريد فظل يتمتع بنفوذه الواسع هناك . حتى إذا مافر كليم الله آخر سلاطين بهمنى إلى بيجابور ، أعلن هذا الوزير عام ٩٣٥ هـ/١٥٢٦ م استقلاله بهذه الإمارة . وظل أمراء بريد شاهى يحكمون فى بِدْر حتى عام ١٠١٨ هـ/١٦٠٩ م ليضمها أمراء عادل شاهى أصحاب بيجابور من بعد ذلك إلى ملكهم .

ومنع أمراء الدكن الإسلامية الأربعة سالفة الذكر هذه من التوسع فى جنوب الهند ما كان من اقتتالها مما سهل على هذه الأراضى الهندوكية الواسعة المحافظه على استقلالها .

ولقد ذكرنا من قبل أن قوات علاء الدين الخلجى كانت قد اجتاحت الجنوب الهندى كله على أيدى قائده كافور . لكن اضطراب الأمور فى سلطنة دهلى ، أواخر أيام محمد تغلق ، أضعف من سلطان المسلمين فى الدكن وما وراءها مما مهد لقيام إمارة فيايانكر القوية التى شغلت رقعة واسعة من الأرض بأدنى سلطنه بهمنى .

وأمراء فيايانكر الهنادكة هؤلاء هم خلفاء الكوليين الذين ورد ذكرهم فى مراسيم آشوكا والذين ورثوا ملك بنديا فى الجنوب ، تلك المملكة التى ذاع صيتها فى القرن الأول الميلادى والتى كانت عاصمتها مادورا تعد من أجمل بلدان الهند .

ومؤسسا هذه الإمارة هما هارى هارا وأخوه بوكا اللذان ينحدران من صلب أمراء يادافا أصحاب دواكر .

ووزر هذان الأخوان أول أمرهما لراجا أنا غوندى بالملبار ، ووقعا معه فى أسر سلطان دهلى محمد تغلق الذى ارتأى أن يبعث بهما نائبين عنه بهذه الإمارة فيعاون وجودهما بها على الحد من ثورات الهنادكة هناك .

لكن الوزيرين الهندوكيين مالبثا أن عملا بنصيحة حكيم هندى يدعى فيديارانيا فنزعا إلى الاستقلال بما فى أيديهما من أقاليم ، وبادرا من فورهم

إلى إقامة مدينة فيايانكر الحصينة على شاطىء تنجبهاردا لتكون لهم من غزوات المسلمين ردءا ، فأطلق اسمها من بعد ذلك على الإمارة كلها .

وانفرد هارى هارا بالملك بعد قليل فعمل على توسيع رقعة إمارته ، فلم ينصرم عام ١٣٤٠ م حتى كان ساطانه يظل وادى تونجبهاردا إلى الجنوب من بيجابور مع أجزاء من كونكان وساحل الملبار

واشتبك هذا الأمير وخلفاؤه فى حروب طويلة مع جيرانهم ، وفيهم سلاطين بهمنى الأقوياء ، مما عرض إمارتهم الناشئة إلى خسائر فادحة .

وكان أعظم حكام ڤيايانكر هو كرشناديو الذى حكم فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى . وفى عهده ازدهرت عبادة وشنا ولقيت الآداب السنسكريتية والتلنجو رعاية كبيرة وراجت العمارة والنحت[1] .

ووسع هذا الأمير رقعة ملكه على أثر انتصاراته المتكررة على حكام الدكن ، فضم أوريسه إلى بلاده مع منطقة مدراس وميسورى الحالية .

وسعى إليه البرتغاليون يخطبون وده فأقاموا معه علاقات اقتصادية وسياسية هدفوا من ورائها كسبه لصفوفهم فى حروبهم مع الإمارات الإسلامية عند ساحل الهند الغربى . وحين بلغ هذا الأمير سقوط جوا بأيدى هؤلاء المستعمرين لم يكتف بإيفاد رسله يحملون إليهم التهنئة فحسب ، بل سمح لهم كذلك بإقامة حصون لهم عند بها تكال بشواطىء بلاده الغربية .

على أن خلفاء هذا الأمير القدير لم يستطيعوا الوقوف فى وجه جبهة أمراء

---

(1) Prasad Medieval India d 408

الدكن المسلمين الذين اقتحموا عليهم بلادهم فأعملوا فيها التخريب والتدمير . ولم تنته انتصارات تليكوتا عام ١٥٦٥ م إلى إضعاف سلطان الهنادكة فى الجنوب فحسب ، بل أدت كذلك إلى القضاء على نفوذ البرتغال الاقتصادى هناك .

وأضاع من ثمار هذه الإنتصارات الإسلاميه ما كان من قيام النزاع والخلاف بين الفاتحين على الأسلاب . حتى بدأت قوات الدولة المغولية ، منذ أيام السلطان أكبر ، تتوغل فى الدكن ، فلم ينته عهد أورنكزيب حتى كانت رايتهم تظل شبه القارة الهندية كلها ، إلى أن ظهر المراهتها فنازعوا المسلمين الجنوب من جديد .

أسرة السادات بدهلى

تلك كانت هى حال الهند - على ما قدمناه عن انفراط عقد الدولة الإسلامية بها - حين استخلص خضر خان نائب التيموريين لنفسه عرش دهلى من أيدى فلول التغلقيين عام ٨١٧ هـ / ١٤١٤ م ، فأسس أسرة حاكمة عرفت فى التاريخ باسم أسرة السادات ، إذ كان يقول بامتداد نسبه إلى النبى الأكرم[1] .

ولم يكن خضر خان فى الواقع غريبا عن الهندستان أو فى أصله رجلا من رجالات تيمور ، فقد نشأ عند ناصر الملك مردان دولت أمير الملتان ، ثم مالبث فيروز تغلق أن أقامه عليها بعد موت سيده .

وحين شاع الاضطراب فى الدولة عقب موت فيروز تغلق ، سقطت

(١) تاريخ فرشته ص ١٦١

الملتان وأميرها فى أيدى سارنك خان أخى مالو إقبال خان . لكن خضر خان احتال على الهرب من آسريه ثم اتصل من بعد ذلك بتيمورلنك حين غزا هذه البلاد ، فرضى عنه ونصبه عند رحيله نائبا له هناك .

ولئن كان خضر خان قد غدا صاحب دهلى دون منازع ، فإن سلطنته الجديدة لم تكن إلا كذلك فى بحر لجى تحيط به الأمواج العاتية من كل جانب . فالدوآب مافتئ منذ أيام بابن مقيم على الاضطرابات ، وهذه هى أتاوه وقنوج وبداون وكاتيهر قد ضؤل شأن دهلى فى أعين أصحابها ، من مسلمين وهنادكة ، فكفوا أيديهم عن مدها بالخراج ، وهؤلاء أمراء الكجرات ومالوه وجونبور ، الذين استقلوا ببلادهم ، لم يمنعهم اقتتالهم من مهاجمة سلطنة دهلى والتطلع إلى الاستيلاء عليها ما سنحت لهم الفرصة واستطاعوا إلى ذلك سبيلا . وإلى جانب هؤلاء جميعا كانت قبائل الككر لا تنفك تثير الاضطرابات العنيفة عند الملتان ولا هور .

وبقى صاحب دهلى الجديد على ولائه الإسمى لتيمور وأولاده من بعده ، فكان يجرى الخطبة باسمهم ثم باسمه ، وكذلك فعل بالسكة . كما لم يفته كذلك أن يبعث بين الفينة والفينة بقدر من المال والهدايا إلى أصحاب سمرقند .

وبادر هذا الأمير من فوره إلى إعادة تنظيم شئون حكومته مستعينا فى ذلك بطائفة من الرجال الأكفاء ، حتى أتيح له أن يخفف كثيرا من آلام الفقراء والمعوزين الذين كانت تموج بهم العاصمة من أثر الاضطرابات والأحداث السياسية الطويلة التى اجتاحت الدولة .

ثم اتجهت همته من بعد ذلك إلى العمل على استعادة هيبة الدولة السابقة

ومحاولة استرداد ما ضاع منها من أرضين ، فبعث بقوانه ، وعلى رأسها وزيره تاج الملك تحفة ، إلى الدوآب وكواليار وجندوان وأتاوه وبارن وجاليسر وكهور وتنبل ، فمازالوا بأصحابها حتى ردوهم إلى طاعة دهلى ومسالمتها . وكذلك صار حال الملتان والسند .

وحين مات خضر خان عام ٨٢٤ هـ / ١٤٢٢ م بكاه الناس فى العاصمة إذ كان بهم بارا ورفيقا(١) .

ونهج نهجه ابنه السلطان معز الدين أبو الفتح مبارك شاه فى تثبيت الأمراء على إقطاعاتهم وولاياتهم غشاه بضمن بذلك ولاءهم ومؤازرتهم له فى القضاء على الفتن والاضطرابات التى مافتئت تجتاح البلاد . فهذا هو جسرت كهكر ومعه طغاى ترك ما زالا يعيثان فى المناطق الشمالية الغربية فسادا ، حتى سولت للأول أطماعه بالزحف على دهلى نفسها فعبر رافد ستلج السندى واستولى على حصن سرهند ، فلم يمنعه عن التقدم إلى العاصمة إلا خروج السلطان إليه بنفسه فاسترد منه أغلب الأراضى التى كانت فى حوزته وأقر الأمور فى لاهور وما حولها . على أنه لم يكد يعود إلى حاضرته حتى انحدر هذا الثائر إلى لاهور من جديد ، فلم يفلح حاكمها فى رده عنها إلا بعد أن وصلته إمدادات السلطان لتنزل بالعدو هزائم قوية أرغمته على الاعتصام بالمناطق الجبلية هناك .

والتفت السلطان من بعد ذلك إلى الاضطرابات التى نشبت فى الدوآب وكتيهر وأوده وكواليار وبيانه وجندوار وكالبى فقضى عليها جميعا ، كما هزم

---

(١) تاريخ فرشته ص ١٦٣

قوات إبراهيم شاه شرقى أمير جونبور ليتحول كرة أخرى إلى المناطق الشمالية الغربية حيث انضم أصحاب كابل هذه المرة إلى الكهكر فاجتاحوا البنجاب كله والملتان ونهبوا أراضيه .

ولئن كان السلطان قد خرج من هذه المعارك جميعا ظافرا منصورا إلا أنه لم يفلت آخر الأمر من سيوف فريق من رجاله الذين كانوا ينفسون على وزيره كمال الملك نفوذه البالغ .

وعادت عجلة الثورات ، على سُنة العصر ، إلى الدوران من جديد ، إذ كفّ إبراهيم شاه شرقى وراى كواليار ومعهم طائفة من أمراء المناطق عن دفع ما لدهلى عندهم من خراج وأتاوات . وشجع هذا الإجراء محمود الخلجى صاحب مالوه ، فخرج بجنده زاحفا إلى دهلى ، فلم يرجع عنها إلا حين برز أحمد شاه صاحب الكجرات يهدد عاصمته ماندو . وقد تعقبه فى ارتداده بهلول خان لودهى ، حاكم لاهور وسرهند ، الذى كان قد أسرع لنجدة السلطان ، فانتهب مؤنه وأسلحته .

وكان مما دفع هؤلاء الأمراء إلى الخروج على سلطان دهلى من جديد ، هو عودة الوزير كمال الملك إلى منصبه كرة أخرى . ذلك أن سرور الملك الذى كان قد خلفه فى الوزارة راح ، عقب تولى السلطان الجديد محمد شاه حفيد خضر خان الملك ، ينمم على أولئك الذين تآمروا على حياة السلطان السابق وفيهم سيدهو بال الهندوكى ويجزل العطاء لهم مما أثار عليه ثائرة كمال الملك وعصبته فبادروا بالقضاء عليهم جميعا .

واستمع بهلول لودهى ، على أثر ما أحرزه من نصر ، إلى تحريض

الـكهكر الذين زينوا له وبعض الأمراء الأفغان الزحف على دهلى وانتزاعها من أصحابها[1] .

ولم يكن صد دهلى للقائد اللودهى على كل حال إلا إلى حين . فما إن ولى العرش عام ٨٤٩ هـ / ١٤٤٥ م علاء الدين علم شاه ، وكان أميرا ضعيفا ، حتى انتقل ببلاطه إلى بيانه ليدفعه قصر نظره بعد قليل إلى محاولة التنكيل بوزيره حُميد خان الذى سارع من فوره إلى الاستنجاد ببهلول لودهى ، وكان هذا الأخير قد بسط نفوذه على البنجاب الشمالية كلها من لاهور وديبالبور وسرهند إلى هانسى وحصار وبانى بت .

وهكذا واتت الأمير اللودهى الفرصة المرتقبة سريعة ميسرة للجلوس على عرش دهلى ، فلم يلق من آخر سلاطين السادات أدنى مقاومة ، اللهم إلا رجاء بتأمين إقامته ورزقه فى بداون ، فبقى بها إلى آخر أيام حياته حتى قضى عام ٨٥٣ هـ / ١٤٤٨ م .

---

(١) نظام الدين أحمد بخشى : طبقات أكبرى كلكتا ١٩٢٣ . ص ١٤٨

اللودهيـون الأفغان

لقد أمل الحكام السادات حين صار لهم عرش دهلى أن يستعيدوا السلطان المسلمين بالهندستان سابق وحدته ويستردوا للحكومة المركزية ما ضاع منها من نفوذ وأرضين، فبذلوا فى ذلك جهوداً مضنية ذهبت كلها أدراج الرياح، فانتكس الحال فى أواخر أيامهم إلى أسوأ مما كان عليه أول عهدهم بالحكم . فالدكن والكجرات ومالوه وجونبور والبنغال ما برحت فى أيدى أمرائها الذين كانوا قد استقلوا بها ، وأغلب البنجاب قد صار بأيدى القائد الأفغانى الثائر بهلول لودهى ، كما غدت مهروالى وما حولها حتى سراى لادو القريبة من دهلى فى حوزة أحمد خان مواتى . أما سنبهل حتى ضواحى العاصمة فكان يسيطر عليها دريا خان لودهى ، فى حين كان يقتسم النفوذ فى الدوآب جملة من الأمراء الآخرين منهم قطب خان وعيسى خان ترك . هذا كما كانت بيانه من نصيب داود خان لودهى يشاركه فيها أمير هندوكى ، فى الوقت الذى كان فيه راجا برانات سنغ يبسط نفوذه على باتيالى وبكمبيله وما وراءهما .

وهؤلاء الأمراء اللودهيون ، الذين نراهم مع فريق من الأمراء المعاصرين قد انتشروا حكاما فى شمال الهند على أراض غير بعيدة عن العاصمة ، ينتمون إلى إحدى القبائل الأفغانية التى كانت تضطلع بالمتاجرة ونقل السلع بين فارس وأواسط آسيا والهندستان .

وفى أيام فيروز تغلق التحق جد هؤلاء الأمراء الأكبر ، ويدعى بيرم

لودهى وكان من الأثرياء ، بخدمة مردان دولت الذى سرعان ما عهد إليه بحكم الملتان .

وحين صار أمر هذا الإقليم إلى خضر خان ، عهد بقيادة جنده الأفغان إلى ملك سلطان بن بيرم لودهى . حتى إذا ما تمكن هذا القائد من القضاء على حاكم دهلى إقبال خان كافأه سيده بتقليده ولاية سرهند وأنعم عليه بلقب إسلام خان . وعهد هذا الأمير اللودهى ، حين شعر بدنو أجله، بقواته وأملاكه إلى ابن أخيه وختنه الفتى اليافع بهلول لودهى وكان أثيراً عنده لشجاعته وحزمه رغم صغر سنه .

ولئن كان الأمراء اللودهيون قد انقسموا على أثر وفاة إسلام خان إلى شيع ثلاثة متعادية ، إلا أن بهلول لودهى أفلح آخر الأمر ، بحسن تدبيره ، فى لم شملهم فى جبهة موحدة ثبتت مراكزهم ودفعت عنهم أخطار الكهكر فى البنجاب وأخطار دهلى معاً .

وكان أن استنجد محمد شاه سلطان دهلى بالأمير اللودهى لدفع خطر السلطان محمود الخلجى صاحب مالوه عن عاصمته ، فأمده بعشرين ألفاً من الفرسان الذين أشاعوا الفوضى فى صفوف العدو ونهبوا معسكراته . وانطلق بهلول لودهى ، بعد هذا النصر الذى أحرزه، يطوى تحت نفوذه أراض واسعة كثيرة بالبنجاب ثم استدار من بعد ذلك يهاجم دهلى نفسها حتى سقطت فى يده على ما فصلناه فى موضعه[1] .

ولم يكن بهلول لودهى ، وهو المحارب الطموح ، يرى فى استيلائه على

(١) تاريخ فرشته ص ١٧٣ ـ ١٧٥

العاصمة إلا وسيلة إلى غايته الكبرى فى تحقيق حلمه وحلم كل سلطان سبقه باستعادة مجد دهلى على الصورة التى كانت لها أيام الغزنويين والخلجيين من قبل .

ولم يتردد زعيم اللودهيين فى سبيل تثبيت أقدامه وتدعيم سلطانه عن سلوك كل سبيل إلى غايته ، فتآمر ورجاله على التخلص من الوزير القوى حميدخان ، وهو الذى كان قد مكنه بتدبيره من دخول دهلى وتسلمه لمقاليد الأمور بها .

وتفصيل ذلك أن بهلولا عمد ، أول الأمر ، إلى توفير ضروب التبجيل والتوقير لهذا الوزير . حتى إذا ما قصد هذا الأخير إلى مقر الأمير الجديد فى إحدى زيارته له أوعز بهلول إلى بعض رجاله أن يصدروا عنهم من الإشارات مايوحى إلى من يراهم بترجيح بلاهتهم وسذاجتهم ، مما أشاع السرور والبهجة فى نفس زائره . وخرج الأمير اللودهى يرد الزيارة بدوره للوزير وفى صحبته فريق كبير من هؤلاء الرجال . حتى إذا مابلغت أسماع حميدخان ما أثاروه من ضوضاء وضجيج عند أسوار داره ، أمر حراسه من فوره بفتح الأبواب لهم مبتهجاً ، فما كادوا يستوون بمجلسه حتى رفعوا سيوفهم فى وجهه ، وقد قام زعيمهم يعتذر إليه عن قسوة هذا الإجراء بضرورات السياسة ، وتُرك له حرية اختيار المكان الذى يرغب فى لزومه بعيداً عن العاصمة ، فقد أعفى من القتل اعترافاً بسابق أياديه على بهلول .

وقصد المتآمرون من بعد ذلك إلى السلطان علاء الدين بمقامه فى بيانه يعلنون ولاءهم له ، ولكنه كان فيه من الزاهدين .

وطفق بهلول لودهى يغدق بدووه على الجند وقادتهم الهبات والعطايا .

لكن طائفة كبيرة من الأمراء الذين لم يرضوا عن سلوك هذا الزعيم الأفغانى وعصبته ، ماغدوا أن انتهزوا فرصة خروجه إلى الولايات الشمالية الغربية فاتصلوا بالسلطان محمود شاه شرقى صاحب جونبور وتعجلوا زحفه إلى العاصمة .

وما إن أحيط بهلول بالخبر حتى بعث برسله ترحب بالسلطان الزاحف الذى كان على معرفة تامة بأساليب هذا الأمير الأفغانى وحيله الماكرة ، فلم يلق بالا إلى سفرائه وضرب الحصار على دهلى فى مائة وسبعين ألفاً من الجند ومعهم أربعمائة من الفيلة .

على أن انسحاب الأمراء الأفغان المفاجىء مع قواتهم من جيش الشرق ، أرغم السلطان محمود على النكوص عجلا إلى جونبور مع من بقى معه من قوات قليلة . ونتج عن هذا الفوز الباهر الذى أحرزه الأمير اللودهى ، أن اشتدت هيبته بين أعدائه وأصدقائه على السواء ، فخفتت أصوات معارضيه فى بلاده ، فى حين سارع كثير من أمراء الأقاليم المجاورة يعلنون ولاءهم له ودخولهم فى طاعته .

ولئن كان الأمر قد استتب كذلك للسلطان اللودهى فى إقليم الدوآب ، فإن أصحاب جونبور من ملوك الشرق ، فيما وراء هذا الإقليم ، لبثوا يرون فى بهلول ، رغم ماقام بينه وبينهم من مواثيق وعهود ، مغتصباً لعرش دهلى غير جدير به على كل حال . فتوالت المعارك بينهم وبينه حتى كاد السلطان القدير حسين شاه شرقى أن يوقع بالزعيم الأفغانى ، لولا ماعمد إليه هذا الأخير من الحيلة المشوبة بالغدر على أثر إحدى مرات التصالح والهدنة ، إذ سقط على مقام

ملكه جهان ، زوجة ملك الشرق ، فأخذها فى أسره ، وإن ردها من بعد ذلك مكرّمة إلى بلادها .

وبلغ بهلول بغيته آخر الأمر على كل حال بالاستيلاء على إقليم جونبور فأقام ابنه باربك عليه ، كما بسط سلطانه كذلك على كالبى ودُهابور وبارى وموار وموات .

وفيما كان السلطان اللودهى فى طريقه إلى عاصمته ، بعد استيلائه على كواليار ، دهمته الحمى فلقى حتفه عام ٨٩٣ هـ / ١٤٨٨ م .

ولئن لم تترك الحروب المتواصلة التى خاضها بهلول اودهى وقتاً كافياً له للالتفات إلى تنظيم شئون حكومته ، فقد أدت انتصاراته إلى استرداد الكثير من هيبة الحكم الإسلامى الضائعة بالهندستان . وقد عرف هذا الجندى الموهوب بإجراء العدل فى بلاده مع الكرم والعطف الكثير على الفقراء ، وتقدير العلماء ، وفرط الزهد والتقوى حتى قيل بأنه أمر برفع اليواقيت والأحجار الكريمة عن العرش .

واختلف الأمراء فيما بينهم حول من يجلسونه على عرش بهلول ، فمنهم من رشح له همايون حفيد السلطان الراحل ، ومنهم من انتصر لباربك خان أكبر أولاده . حتى أفلحت السلطانة زينة آخر الأمر ، — بحسن تدبيرها ومعونة خان جهان لوحانى وخان خانه فرمل ، — فى تغليب الرأى القائل بإلقاء مقاليد الحكم إلى الأمير نظام خان ، وهو الذى رقى العرش باسم سكندر شاه[1] .

---

(١) طبقات أكبر ص ١٥٩ .

وسار السلطان الجديد سيرة أبيه فى تدعيم ملكه ، فبرز من فوره للقضاء على أولئك الذين أعلنوا الخروج عليه من جديد — وهى ظاهرة إقطاعية كانت تلازم كل سلطان جديد على الحكم ، فإن أنس الأمراء فى أميرهم الجديد القوة والحزم بادروا بإعلان ولائهم له ودخولهم فى طاعته ، وإلا فهم يتمادون فى طغيانهم ، وربما كيهم فى ذلك غيرهم من جيرانهم إلى حدّ أنهم قد لا يترددون فى تهديد العاصمة نفسها بقواتهم .

وانتزع سكندر شاه قلعة ربرى ومعها حصن جندوار من أخيه الثائر عالم خان ، وما زال يطارده من بعد ذلك حتى استسلم له عند أتاوه ، كما استسلم له بدوره ابن عمه عيسى خان عند باتيالى .

وسار السلطان اللودهى من بعد ذلك إلى جونبور ، وكان بها أخوه باربك الذى رفض الإقرار له بالولاء . وقد أدى إلى انهيار مقاومة هذا الأمير الثائر انضمام قائده محمد خان فرملى المعروف بكالا بهار إلى صفوف صاحب دهلى . على أن سكندر شاه ما لبث أن رد أخاه إلى إمارته ، وسير معه فريق من القادة الأفغان لتدعيم تلك الجبهة الشرقية التى كان يكمن فيما وراءها ببهار السلطان حسين شاه شرقى فى انتظار الفرصة المواتية لاسترداد أراضيه .

ولم يرجع سكندر شاه إلى عاصمته فى عام ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م حتى كانت كالبى وكواليار وبيانه قد دخلت جميعها فى طاعته بدورها[١] .

ونزع أصحاب الأراضى فى جونبور إلى الثورة من جديد بتحريض من أميرهم السابق ، حتى اضطر باربك خان للفرار إلى محمد خان فرملى فى كالبى .

---

(١) مخزن أفغانه وتاريخ جهان لودى لنعمت الله ترجمة برنهارد ص ٥٦ .

وأدى تفاقم أمر العصاة المناذكة هناك إلى خروج السلطان بنفسه إليهم ، حتى بلغ جفار فأنزل بهم هزيمة شديدة . لكن خسائره الكثيرة فى هذه المعارك وانتشار الأمراض والمجاعة فى صفوف جيشه ما لبثت أن أيقظت الآمال كرة أخرى فى صفوف الثوار ، فبعثوا يحرضون السلطان حسين شرقى على القدوم إليهم . وقد أفلح خانه خان فرملى أن ينزل بقوات هذا السلطان الشرقى الكبيرة ، ومعها قوات جيرانه من المناذكة ، هزيمة حاسمة على كل حال عند بنارس ، فر حسين شاة على أثرها إلى بهار ، فما برحت قوات دهلى تطارده هناك حتى لجأ آخر الأمر إلى كلجام من أعمال لكهناوتى فقضى بقية عمره فى ضيافة صاحب البنغال .

وشجع سقوط بهار فى أيدى قوات دهلى عام ٩٠٠ هـ / ١٤٩٥ م السلطان سكندر على الزحف إلى البنغال ، فبلغ حدودها بعد أن دخل ترهوت وأخذ الولاء من أميرها المندوكى . وبرغم مسير دانيل خان فى قوات كبيرة لمدافعة الغزاة بأمر من أبيه علاء الدين أمير البنغال ، فقد تحاشى الطرفان آخر الأمر النزال الجدى على تعهد من علاء الدين بعدم إيواء الخارجين على سلطان دهلى ببلاده .

ورجع السلطان اللودهى عن هذه الأقاليم الشرقية بعد أن عهد إلى دريا خان لودهى بإقليم بهار على أن تكون شئون الخراج فى ترهوت وما حولها لأعظم همايون بن خان جهان فرملى .

وضاق سكندر شاه ذرعا بمضايقات أمرائه الأفغان الإقطاعيين ، بعد أن كشف عن تآمرهم على قتله ، فلم يكتف بما أنزله بهم من عقوبات صارمة حتى استقر رأيه آخر الأمر ، فى سبيل إحكام رقابته عليهم ، إلى اتخاذ مقام حصين

يتيسر له منه تضييق الخناق عليهم فى أتاوه وبيانة وكول وكواليار ودهلبور ، فأنشأ مدينة آكرا الحالية على نهر جمنه إلى الجنوب من دهلى عام ٩١٠ هـ/١٥٠٤م . ومن أسف أن هذه المدينة التى زخرت بكثير من المنشآت الجميلة فى وقت قصير ، مالبث أن اجتاحها فى العام التالى زلزال مدمر خرب أغلبها .

وقضى سكندر شاه بقية أيامه ، حتى لقى ربه عام ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م ، فى مواجهة عصيان أمرائه الأفغان بأغلب نواحى بلاده ، ذلك العصيان الذى دفع بالأمراء المناذكة فيما بعد إلى الجنوح للثورة بدورهم واقتطاع كثير من أراضى الدولة لأنفسهم .

وبموت هذا السلطان فقدت دهلى أقدر حاكم عرفته من بين اللودهيين وأعدلهم . فقد راقب سلوك عماله نحو رعاياه فى حزم ويقظة أعانه فيها شبكة قوية من العيون كانت منتشرة فى أنحاء سلطنته[1]. وبلغ من بره وعدله كذلك أنه كان يجلس للاستماع إلى شكاوى الأهلين بنفسه ، كما عمل على توفير الأقوات لهم ، وضبط أسعارها ضبطا محكما . هذا كما كان يأمر من حين لآخر بإحصاء الفقراء والمعوزين ومنح كل واحد منهم من المؤن ما يكفيه لأشهر ستة .

وكان من أثر شدة شغف هذا السلطان بالمعرفة أن أنقلت فى عهده إلى اللغة الفارسية — لسان العصر الملى بالهندستان إذا ذاك — جملة من المؤلفات السنسكريتية المهمة خصوصا فى الطب .

---

(١) طبقات أكبرى ١٧

هذا كا قضى كذلك على عصابات اللصوص وأمن الدروب والطرق .
وعنى عناية فائقة برواج التجارة ، وشجع الحرف والصناعات ، والتفت التفاتا كبيراً إلى إشتغال الجند ورؤسائهم بها فى أوقات السلم والفراغ .

ولئن أدى اهتمام هذا السلطان البالغ بنشر الإسلام فى ربوع بلاده ، إلى هدمه لبعض المعابد الهندوكية وإقامة مساجد المسلمين مكانها ، أو قتله بعض من رفض اعتناق الإسلام من الهنادكة، فإن مثل هذا الصنيع، وإن كنا لا نقره اليوم ، لم يكن إلا ظاهرة ظواهر العصر العامة التى كانت تنتشر فى أوربا بدورها كذلك[1] .

وخلف سكندر ابنه إبراهيم على عرش الهند ، ولكنه لم يكن له من حزم أبيه وشدة بأسه نصيب . فانطلق الأمراء الأفغان من عقالهم يجهرون بالعصيان حتى أخذ بناء السلطة يتصدع لينتهى به الأمر إلى الانهيار التام على يد الأمير التيمورى ظهير الدين محمد بابر حين دخل الهند غازيا .

ولقد حاول هذا السلطان اللودهى الجديد أن يخطب ود الأمراء الأفغانيين أول الأمر بالرفق والصلات وحسن المودة ، ولكنهم ، وقد كانوا يعتقدون أن إقطاعاتهم و إماراتهم لم تصر إليهم إلا بقوة سيوفهم ، ما كانوا ليركنوا إلى السلم إلا إذا استشعروا فوق رقابهم يداً قوية مثل يد سكندر شاه .

وإلى جانب هؤلاء الأمراء الأفغان ، كان الأمراء الهنادكة بالراجبوتانا تفيض نفوسهم بالكراهية لبيت اللودهيين ، تلك الكراهية التى زاد من رسوخها عندهم سياسة سكندر لودهى الدينية التى أشرنا إليها من قبل .

---

(1) Prasad Medieval India P. 482.

وما لبث فريق من هؤلاء الأفغان المتآمرين ، أن أجمعوا أمرهم على المناداة بجلال الدين بن سكندرشاه سلطاناً على جونپور ، على أن يقتصر سلطان إبراهيم على دهلى وما حولها .

ولئن أفلح خان جهان لوحانى ، أحد كبار رجال السلطان سكندر ، فى حمل طائفة من المتآمرين على الرجوع إلى صفوف سلطان دهلى ، إلا أن ذلك لم يثن جلال الدين وطائفة أخرى معه عن المضى فيما كانوا قد اعتزموه من الأمر.

هنالك لم ير إبراهيم اللودهى مناصاً من الخروج لقتال أخيه ، فحبس إخوته الآخرين بحصن هانسى فبقوا به إلى آخر حياتهم ، ثم ما زال بجلال الدين حتى انفض عنه فريق كبير من جنده وقادته وفيهم أعظمها يون شيروانى ، واضطر هو نفسه للفرار إلى كواليار .

ولم يطل بالأمير الثائر المقام فى هذا الإقليم ، إذ سير إليه أخوه قائده أعظم همايون لودهى ، فقصد إلى مالوه التى غادرها بدورها بعد قليل لما لحظه من فتور سلطانها محمود الخلجى نحوه . وفيما كان فى طريقه إلى راجا كرَّقته وقع فى أيدى عمال غوند فسيروه فى الأغلال إلى أخيه ، ليلاقى مصرعه وهو فى طريقه إلى حصن هانسى(١) .

وضاق السلطان ذرعاً بأمرائه آخر الأمر فانقلب يشتط فى معاملتهم ويمعن فى إنزال ألوان التعذيب والهوان بمن تصل يده إليه منهم .

وجاء زجه فى الحبس بقائده أعظم همايون شيروانى وابنه فتلغخان بعد استدعائهما من كواليار ، بمثابة إلقاء الزيت على النار . فما لبث فريق من القواد

---

(١) تاريخ فرشته أول ص ١٩٠

الناقين على مسلكه الغاشم ، أن التفوا حول أعظم هما يوان لودهى وإسلام خان بن أعظم هما يون شيروانى ، فالتحموا بقواتهم ، التى كانت تنوف على أربعين ألفا من الفرسان وخمسمائه من الفيلة ، مع جند إبراهيم اللودهى فى قتال عنيف عند أوده ، كاد يكتب لهم الظفر فيه لولا سقوط إسلام خان وأسر قائد كبير آخر هو سيد خان .

وضاعف هذا النصر من قسوة هـذا السلطان الذى ذهب يطيح برءوس أعدائه فى تهور بالغ فـكان من بين قتلاه أعظم همايون شيروانى وحسين خان فرمُـلى ثم ميان بهوره وزير والده سكندر .

وسار إبراهيم من بعد ذلك بقواته إلى ميوات فأنزل بجموع الأمير الهندى كى رانا سنكا ، أعظم أمراء الراجبوتانا ، ضربات قوية برغم استبسالها الشديد ، فلم يُـكتب للرانا نفسه ، وقد أثخنته جراحه ، الهرب من الميدان إلا بمشقة بالغة .

وكثر عدد الخارجين على هذا السلطان السفاك نتيجة لعنفه هذا ، حتى نادى بها درخان لوحانى بنفسه سلطانا على بهار باسم محمد شاه ؛ وانضم إليه كثير من الأمراء فى الأقاليم المجاورة له فاستقام له قوة عسكرية كبيرة بلغت مائة ألف من الفرسان ، زحف بهم حتى سنبهول حيث أوقع بجيش دهلى هزائم متكررة .

ولم يدر السلطان اللودهى حين أرسل يستدعى إليه دولت خان لودهى أمير البنجاب ــ وكان قائدا قديرا قوى الشكيمة مرهوب الجانب ــ أن افتنته هذه ستنتهى إلى القضاء الشامل على مُلك اللودهيين كله بالهندستان .

ذلك أن هذا الأمير حين استدعى إلى آكرا ، مقر اللودهيين الجديد لزم داره فطنا ، حذرا ، وبعث بابنه دولار خان إلى هناك بدلا منه ، معتذرا باشتغاله بجمع الخراج . وعاد الولد إلى أبيه ليروى له ما أطلعه عليه السلطان إبراهيم بنفسه من كبار الضحايا العديدين الذين ما زالت جثثهم معلقة على الأسوار جزاء العصيان .

هنالك رحل دولار خان من عند أبيه كرة أخرى ، ولكن كانت وجهته هذه المرة كابل ليحرض صاحبها السلطان ظهير الدين محمد بابر باسم أبيه على غزو سلطنة اللودهيين . وكذلك فعل علاء الدين علم خان عم صاحب دهلى[1] .

ولم يكن الأميران اللودهيان يرميان من وراء دعوتهما هذه إلا القضاء على إبراهيم اللودهى وخلاص الأمر لهما من بعد ذلك بالهندستان . لكن أمير كابل مضى يفتح الهند حتى جلس هو نفسه وأولاده من بعده على عرشها ، وذلك بعد أن قضى على السلطان اللودهى فى موقعة پانى پت الشهيرة عام ٩٣٢/١٥٢٦ م . وبهذا انتقل حكم الهندستان من أيدى الأفغان اللودهيين إلى أيدى الأتراك الجغتائيين .

---

(١) تاريخ فرشته ١٩١ .

الدولة الإسلامية

في دورها الأول بشبه القارة الهندية

كان الفتح الإسلامي للهند بداية عهد جديد مزدهر تجلت آثاره الأولى أيام الحكم العربي في السند بإعادة الاتصال الثقافي بين هذه البلاد ومهاد الحضارة في أرض الفراتين .

وكان الغزاة الأول لهذه البلاد من العرب أشد تمسكا في الغالب بمبادىء الإسلام الرحيمة من الأتراك والأفغان الذين وفدوا على الهند من بعدهم ومعهم كثرة من الفرس ، فبسطوا نفوذهم على شبه القارة الهندية ودفعوا بعجلة الحضارة الهندية إلى السير من جديد .

ذلك أن هؤلاء الغزاة كانوا كذلك قد صحبوا معهم جملة من علماء المسلمين وحملة الثقافة الإسلامية التي كانت قد بلغت بدورها خارج الهند إذ ذاك درجة كبيرة من الكمال ، فكان لهم أياد وآثار بارزة لا تنكر في رقي الهند وتقدمها وازدهار المدنية والحضارة بها .

هذا وكانت الهند بدورها ، على الرغم من تفككها السياسي ، ما تزال للحياة العقلية بها سوق رائجة ، حتى دهش المسلمون لما وجدوه بها من صنوف المعرفة وضروب المدنية والحضارة . وفيما كتبه أبو الريحان البيروني ثبت قيم لما رآه بها وشاهده في أغلب هذه النواحي (١) .

وبرغم اختلاط هذه الثقافات المختلفة وامتزاجها وتأثر المسلمين والهنادكة ،

---

(١) وأشهرها كتابه « ذكر ما للهند من مقولة العقل أو مرذولة » وقد نقل إلى لغات أوروبية عدة .

كل بنصيب من عادات الآخر وتقاليده ، مما رد عادة إلى إدمان الجوار فى البيئة الواحدة المشتركة ، فقد ظل كل فريق منهم على كل حال محتفظا بصفات جوهرية ، تميزه عن الفريق الآخر تميزا ملحوظا ، منشؤها اختلاف العقائد وأسسها الإجتماعية من جهة ، وتباين أصول الثقافات المنبنية عليها من جهة أخرى .

ولم يكن سيف الفتح هو الذى ساعد فى الغالب على انتشار الإسلام بالهند ، أو ميل بعض القوم إلى تقليد حكامهم والتقرب منهم ، أو حتى طموح فريق من أهل البلاد إلى تقلد بعض المناصب الكبرى التى كانت وقفا على للسلمين فى الدولة ، إنما كان العامل الأول فى دخول كثرة من الهنادكة فى الدين الإسلامى هو مالمسوه من قيام المساواة التامة بين أصحابه وانعدام نظام الطبقات عندهم ، ثم الهروب من استبداد البراهمة والتخلص مما كان يلزم به غير المسلمين عادة من الجزية .

ولقد قامت الدولة الإسلامية فى الهند على أيدى رجال الحرب فى الغالب ومن ورائهم رجال الدين يذكون فيهم روح الجهاد لنشر الإسلام فى هذه البلاد دون إكراه فيه ، فمن دخله صار له مالأهله من الحقوق ، ومن أعرض عنه فرض عليه ما يفرض عادة على غير المسلمين من جزية دون عنت أو إرهاق

وشهد المسلمين عما سبق عدول من مؤرخى الهنادكة أنفسهم [1] ومعهم طائفة من المؤرخين الأوربيين ، فذكروا أن أهل البلاد كانوا يعيشون فى

(١) Prasad Medieval India 509,10, Havell P. 257

أمان بكنف المسلمين ، فلم يكن ما تعرضوا له من مضايقات فى بعض العهود إلا حالات فردية عارضة لا تمت إلى تعاليم الإسلام نفسه بسبب (١) .

ولئن كان بعض السلاطين من أمثال سكندرلودهى قد حدوا من حرية المناداة الدينية فحرموا عليهم إقامة معابد جديدة أو حتى ترميم القديم منها ، فهناك كثيرون غيرهم من أمثال محمد تغلق ضربوا صفحاً عن احتجاج فريق من رجال الدين المسلمين ، فأظهروا تسامحاً مطلقاً نحو هؤلاء الذين لم ينعموا بحرية العبادة كاملة فى أيامهم فحسب ، بل وشاركوا مشاركة فعالة كذلك فى أداة الحكم ومناصب الدولة (٢) .

هذا وكان سلاطين الهند المسلمين عموماً مستقلين تمام الاستقلال عن الخلافة العباسية ، فلم يكن ما سعى إليه فريق منهم ، مثل التمش وآل تغلق ، من خطب ود الخليفة إلا من باب التشريف الدينى طلباً لمزيد النفوذ بين بنى قومهم ، فقد ضربوا السكة باسمهم وأجروا الخطبة بالدعاء لهم وحدهم فى الغالب.

ولقد بهرت كنوز الهند الطائلة أنظار غزاتها الأولين فشغلوا بها وبالفتوح عن الالتفات الجدى لتنظيم شئون الحكم وإرساء قواعده ، حتى جاء السلطان بلبن فطفق يعمل على إقرار الأمن فى البلاد وبذل غاية الجهد فى القضاء على قطاع الطرق وعصابات اللصوص فى رقعة بلاده الواسعة ، فانتعشت بذلك تجارة الهند وزراعتها .

---

(١) Arnold, The, The Preaching of Islam p. 420.

(٢) يقول لين بول أن الإسلام يلائم ، ببساطته ، العقلية الهندية أكثر من المسيحية ، وأن الحكومة الإسلامية ، مهما يكن من عيوبها ، كانت أفضل حكومة عرفها الهنود ، ويجعل ذلك من الأسباب التى أدت بالأهلين فى الغالب إلى الدخول فى هذا الدين وطاعة أصحابه Med, Indiap 4

وواصل الذين جاءوا من بعده عنايتهم بالحالة الاقتصادية ، فوضع علاء الدين الخلجى نظاماً ثابتاً للضرائب وعنى بالزراعة عناية فائقة حتى توفرت الأقوات فى البلاد وعم اليسر والرخاء وكان هذا السلطان هو كذلك أول من أحكم ضبط الأسعار فى بلاده الواسعة . وقد شاهد ابن بطوطة بنفسه أهراء الحبوب التى كان علاء الدين قد أقامها بدهلى .

وما برحت هذه المخازن السلطانية أمداً طويلا تمد السكان بالأرزاق والحبوب إبان المجاعات العنيفة التى كانت تجتاح الهند عادة حين تنحبس الأمطار الموسمية عنها . هذا كما كانت الخانقاهات والمطابخ السلطانية ، المنتشرة فى أنحاء البلاد ، تقوم يومياً بإطعام حشود الأهلين فى هذه الأزمات المخيفة .

ويعرض علينا الرحالة العربى ابن بطوطة صوراً مفصلة لألوان الحياة فى الهند التى زارها فى القرن الثامن الهجرى ، ويشيد بقيام العدل وشيوعه ، وانتشار الأمن والطمأنينة بالبلاد .

كذلك يتحدث ابن بطوطة عن انتشار الرقيق فى الهند ، وقد كانوا على كل حال ينعمون فى ظل سادتهم بالكثير من الرعاية حتى رأينا الكثيرين منهم يبلغون مراتب القيادة والوزارة ، بل لقد حكمت الهند يوماً ما أسرة كلها من المماليك (١) .

هذا ويذكر الرحالة العربى أيضاً أن الخوانق والحمامات والبيمارستانات (دور الشفاء) كانت منتشرة فى طول البلاد وعرضها ، وكان يقدم فى الأخيرة منها الغذاء والدواء للفقراء بالمجان .

---

(١) ابن بطوطة ثالث ص ١٢٧ — ١٩٣ ، ٢٣٦

واعل من أهم ما يلفت النظر فيما ذكره ابن بطوطة عن الهند ، أنه وجد بمدينة هناور ثلاث عشرة مدرسة للبنات وثلاث وعشرين مدوسة للصبية ، مما يقوم دليلا على عناية الدولة بتنشئة أبنائها تنشئة صالحة ، وعدم إهمالها لشأن المرأة بصفة خاصة (١) .

كما يشير كذلك إلى منع الحكام المسلمين ممارسة الهنادكة لعادة الساتى البشعة ، فلم يبيحوها لهم إلا فى أحوال قليلة نادرة وبإذن من السلطان نفسه (٢) .

كذلك تحدث ابن بطوطة عن رواج الحركة التجارية بالهند ، وقد رأى بنفسه التجار الأجانب يزحمون موانيها الغربية ، لاسيما بروج وكاليكوت ، لشراء منتجات هذه البلاد الوفيرة ، أو بيع ما كانوا يأتون به من منتجات فارس وخراسان والعراق ومصر (٣) .

وكان إقليم الكجرات ، أهم مراكز الهند التجارية منذ القدم ، ينعم أهله بصفة خاصة بقدر وافر من الثراء ، وكانت أرضه تنبت أجود أنواع الكروم والقطن .

ومن مينائه كباى كانت تصدر البهارات والنيلة فيقايضها التجار بالذهب والفضة والنحاس .

هذا كما كانت الصناعات تقوم فى أنحاء متفرقة به ، ومنها النسيج على

---

(١) ابن بطوطة رابع ص ٦٧
(٢) عادة الساتى هى إقبال المرأة الهندية على حرق نفسها حية مع جثة زوجها ما لم يكن لها ولد فى الغالب .
(٣) ابن بطوطة ثالث ص ٤٠٥ ورابع ص ٨٦

مختلف أنواع . واشتهرت الكجرات كذلك بضرب من المصنوعات الجلدية عليها نقوش الطير والحيوان ومكفته بأسلاك الذهب والفضة (١) .

على أن اقتصاديات البلاد ما عتمت على أثر الغزو التيموري أن أخذت فى الانهيار . ذلك أن هذا الغزو ، فضلا عن استنزافه لثروات البلاد وتخريبه لكثير من المدن الهندية ، قد أدى إلى انفراط عقد الدولة الإسلامية فى الهند وتفككها إلى ولايات صغيرة كثيرة حتى اقتصر سلطان دهلى على ولاية صغيرة كانت أقل الولايات الهندية جميعاً دخلا وثروة .

وقد نعمت الولايات التى لم تتعرض لهذا الغزو وآثاره ، فى نفس الوقت بكثير ، من الرخاء إذ أوقفت بدورها دخلها ومواردها على نفسها . وكانت البنغال أوفر الأقاليم الهندية جميعاً حظاً فى هذه النواحى .

وبلغ فن العمارة والنقش فى عهد الحكم الإسلامى بالهند درجة رفيعة من الروعة والرقى يدل عليها مسجد آجمير ومسجد القطب بدهلى ومنارته ، التى ترتفع إلى ٢٤٢ قدم ويتوجها المرمر فى أجزائها العليا ، وكثير من المدارس والبيمارستانات التى نجت من تخريب الحروب .

وهذا ابن بطوطة لا يفوته فى كتاب رحلته أن يشيد بما كان عليه قصر محمد تغلق ، ذو الألف عمود بدهلى من الروعة والبهاء (٢) .

وكان من الطبيعى أن يستخدم الحكام المسلمون رجال المعمار من أبناء الهند فى إقامة منشآتهم هناك ، فقد كان للعمارة فى الهند القديمة سوق رائجة

---

(١) Marco Polo Vol 2 pp 328,33—

(٢) ابن بطوطة ثالث ٢١٧ — ٢٢٠

تدل عليها آثارها القديمة الخالدة ، فجاءت الأنماط هندية فى نواتها ، وللبقاع تأثير فى الطباع كما يقول المقدسى الجغرافى . على أن هؤلاء الفنانين حرصوا فى تصميماتهم ، بتوجيه من حكامهم ، على أن توائم النهج الإسلامى وتساير التطور الفنى فى البلاد الإسلامية ، دون أن يطغى شىء من ذلك كله على طابعها الأصيل ، فأضيفت النقوش والزخارف العربية والفارسية إليها ، كما اقتبست بعض الطرز بدورها منها (1) .

ولقد رأينا كيف بهرت العمارة الهندية السلطان محمود الغزنوى ثم الغازى تيمورلنك من بعده حتى صحب معه إلى بلاده مئات من رجال المعمار الهنود الذين عهد إليهم بإقامة منشآت كثيرة بعاصمته سمرقند ، من بينها مسجدها الجامع « مزار شاه » الذى بناه حول مقام الصحابى قثم بن العباس فاتح المدينة ، كما سجلوا له كذلك فتوحاته وحروبه الهندية بنقوشهم على جدران قلعته هناك (2) .

وحين استقر بالهند سلاطين المسلمين ، من بعد الغزنويين ، طفقوا يستخدمون فى الغالب أطلال المعابد الهندوكية ومخلفاتها فى إقامة منشآتهم هناك .

وصادفت العمارة الإسلامية بالهندستان رواجا كبيرا على أيدى السلطان علاء الدين الخلجى ، الذى أنشأ كثيرا من القصور والحصون والخزانات . ويُروى أن كل عمود من عُمد قصره الألف بأساسه رأس مغولى من الذين أسرهم

(1) Arderry, Legacy of Persia. P 64

(2) بابرنامة ورقة 45 ب وما بعدها .

فى حروبه معهم . وقد أطلق هذا السلطان يد البذخ فى الإنفاق على منشآته بفضل كنوز الدكن والجنوب التى أتى له بها قائده كافور :

وحين تفككت عُرى سلطنة دهلى أعقاب الغزو التيمورى ، رأينا ملوك الطوائف بدورهم يبذلون عناية كبيرة بالعمارة التى اختلط فيها عندهم الطراز الهندى بالطرز الإسلامية التى كانت شائعة خارج الهند ، وهى التى أتى لهم بها فريق من رجال المعمار الفرس والترك الذين وفدوا إليهم فيمن وفد من رجال الفنون والعلوم . ولا يزال كثير من هذه الآثار قائما حتى اليوم فى جونبور والكجرات ومالوه وبلاد بهمنى الدكنية وبيجابور وأحمد نكر وفيانا نسكر .

ولقد رأينا كيف كان يعج بلاط محمود الغزنوى بالشعراء والعلماء والمؤرخين وفيهم البيهقى صاحب تاريخ آل سبكتكين والعُتبى الوزير صاحب تاريخ اليمينى (يمين الدولة محمود الغزنوى) ، ثم العلاّمة أبو الريحان البيرونى صاحب التآليف المشهورة عن الهند والمعارف بلغاتها وعلومها وعوائدها[1] .

ولم يكن الذين خلفوا محمود فى الهندستان دونه فى رعاية العلوم والآداب والفنون ، إذ كانوا قد وفدوا إلى هذه البلاد من أماكن راجت فيها أنواع المعارف والثقافات الإسلامية ، فرحبوا على الدوام بالعلماء والأدباء المسلمين الذين لم ينقطع قدومهم إلى بلاط دهلى وغيرها من الإمارات الإسلامية بشبه القارة .

---

(١) أجمع المؤرخون على أن البيرونى كان يجيد السنسكريتية ، وأنه أفاد من الحكماء الهنود فى التاريخ والرياضة والعلوم الطبيعية . وقد أخذ كثيرا من معلوماته التى قيدها فى كتبه التى أربت على المائة ، من أفواه العلماء لا من بطون الأسفار . (تعليقات القزوينى على كتاب جهار مقاله لنظامى السمرقندى ترجمة عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب . ص ٥٣٠)

هذا وكانت لغة التأليف والكتابة عند علماء المسلمين بالهند هى الفارسية . وقد نبغ فريق منهم فى الكتابة بالسنسكريتية نفسها كذلك ، وفيهم الشاعر خسرو الدهلوى « غرّة يد الهند » الذى تتجلى فى أشعاره دقة الأحاسيس والعواطف وسمو الغزل والوصف فى الحرب والحب على السواء . وقد عاش هذا الشاعر حقبة طويلة من عمره ببلاط السلطان محمد تغلق كتب فيها ديوانه (غُرة الكمال) وترجم للولى الزاهد الشيخ نظام الدين أوليا . ويشهد على وفرة محصول خسرو هذا فى كافة نواحى المعرفة ما تركه من منثورات ومنظومات بالفارسية والسنسكريتية والعربية تجدها فى أشهر كتابين له وهما « إعجاز خسروى » و« خزانة الفتوح » . وعاصر الدهلوى ، من شعراء القرن الثامن الهجرى بالهند ، بدر الدين المعروف ببدر شاخ (نسبة إلى مدينة طشقند) ، والقاضى عبد المقتدر الشانهى صاحب المنظومات العربية والفارسية ثم فقيه آل تُغلق معين الدين عمرانى .

أما كُتاب النثر فمنهم مولانا خواججى ، وأحمد تنيسرى صاحب أخبار الأخيار ، والقاضى الشانهى بليغ العربية ، وعين الملك الملتانى صاحب ديوان الرسائل عند الخلجيين ثم آل تغلق من بعدهم . وقد ترك هذا الكاتب مجموعة من الرسائل الديوانية تعرف باسم « إنشاء ماهرى » تُعد ثبتاً لأحوال الهندستان الاجتماعية والسياسية فى زمانه .

أما المؤرخون فنذكر منهم أبا عمرو عثمان منهاج السراج صاحب « طبقات ناصرى » ، وضياء الدين بارنى صاحب تاريخ فيروز شاه الذى سجل فيه كثيرا من فنون المعرفة فى عصره ، وقد أكمله من بعده شمس السراج عفيف فى عناية بالغة . وأخيراً غلام يحيى بن أحمد صاحب تاريخ مبارك شاه .

هذا إلى كثير غيرهم من المشتغلين بعلوم الحكمة والفلسفة[1] والفقه ، ومنهم أولئك الذين ذاع صيتهم فى إقليم جونبور ، على الخصوص ، من علماء دهلى الذين كانوا قد لجئوا إلى هناك هربا من وجه الغزو المغولى ، ومعهم فقهاء اللودهيين من أمثال القاضى شهاب الدين الدولتابادى صاحب حواشى الكافية والإرشاد ، والفقيه إلّه داد شارح الهداية ، والفيلسوف مُغيث حسنوى .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن حركة النقل من السنسكريتية التى كان العرب قد بدءوها فى القرن الثانى الهجرى لم تتوقف ، وإنما صارت ببلاط دهلى إلى الفارسية بدلا عن العربية . وكان المسلمون فى الهند هم الذين يقومون على ذلك بأنفسهم فى الغالب ، فقد رأينا فيروز تغلق ، حين ظفر بمكتبة سنسكريتية فى حصن نسكركت، يعهد إلى مولانا عز الدين خالد خانى بأن ينقل إلى الفارسية جملة من كتبها فى الفلسفة والفلك ، وتعرف هذه المجموعة باسم دلائل فيروزشاه . كما نقلت كتب طبية سنسكريتية أخرى إلى الفارسية كذلك أيام سكندر لودهى، هى وأقسام من المهابهارتا وغيرها من كتب الهند الدينية والتاريخية القديمة والملاحم.

وكما أطلق الحكام المسلمون للهنادكة الحرية الدينية فى أغلب الأحيان ، فكذلك تركوهم يمارسون الكتابة والتأليف بلغتهم فى حرية تامة حتى فى المذاهب الدينية والفلسفية الخاصة بهم .

ولقد أشرنا من قبل إلى أن اختلاط المسلمين بالهنادكة فى بيئة جامعة قد نشأ عنه تبادل كثير من التقاليد والعادات . ويظهر أثر تعاليم الإسلام قويا بادى الوضوح عند بعض للصلحين من الهنادكة أمثال نامديوا كبير ونانك اللذين

---

(1) Prasad. Indiap569-72 .

أنكرا عبادة الأوثان والقول بتعدد الآلهة وتحريم زواج الأرامل وممارسة عادة الساتي وقيام نظام الطبقات بين الناس . وقد نادى هؤلاء جميعاً بالتوحيد وقالوا بأن الله هو رب الناس جميعا من مسلمين وهنادكة وغيرهم . بل لقد صرح نانك، مؤسس السك ، باحترام شيعته وتقديسهم لرسل الله وأنبيائه كافة ، مع الإشادة بذكر النبي الأكرم والقرآن الكريم خاصة .

هكذا كان الحكم الإسلامي في الهند عهد ازدهار قوي ومصدر خير وبركة لهذه البلاد وإن عد من وجهة نظر الهنادكة، بداهة ، كارثة قضت على استقلالهم وهدمت الكثير من معابدهم ؛ اذ اغتصب الغزاة المسلمون بلادهم وراحوا يعلنون العداء لمعتقداتهم باسم القضاء على الشرك والوثنية .

على أن هؤلاء الفاتحين المسلمين ما غدوا بعد قليل أن استوطنوا شبه القارة الهندية واستقروا بها ، فلم تعد الكنوز والأموال والثروات التي انتقلت إلى أيديهم تتسرب بدورها إلى خارج الهند ، ذلك التسرب الذي ينتهي دائماً إلى تعرض البلاد المفتوحة إلى هزات اقتصادية عنيفة .

ولقد بهر أنظار الهنادكة أصحاب التراث القديم ، ما استجلبه المسلمون من ألوان الحضارة والمدنية الإسلامية التي تميزت فنونها على الأخص ببعدها عن التجسيم الذي كان شائعا في كافة نواحي الحياة الفنية الهندية ، هذا فضلا عن التقاليد الاجتماعية الرفيعة التي اعترف مؤرخوا الهنادكة أنفسهم بسمو أصولها الإسلامية الأولى . وإلى جانب ذلك كله شهدت الهند جملة من الحكام الأكفاء من أمثال علاء الدين الخلجي وآل تغلق الذين عملوا في إخلاص على النهوض ببلادهم وترقية الزراعة والصناعة والتجارة حتى توفرت الأقوات والأرزاق ونعم الناس قرونا عدة باليسر والرخاء . وإلى جانب هؤلاء

السلاطين العظام ظهرت طائفة من القواد الأفذاذ الذين دفعوا عن هذه البلاد أخطار الغزو المغولى المدمر مرات عديدة .

وكانت النهضات العلمية والأدبية والفنية التى عرفتها الهند على أيدى هؤلاء الحكام فسادت هناك قرونا عدة ، هى بمثابة حجر الأساس لحضارة أكبر دولة عرفتها هذه البلاد ، وهى الدولة المغولية التى أرسى دعائمها الأمير التيمورى ظهير الدين محمد بابر فى النصف الأول من القــــرن العاشر الهجرى (٩٣٢هـ/١٥٢٦) فعمرت قرونا ثلاثة اتسعت فيها رقعتها حتى شملت شبه القارة الهندية بأكملها، وهى موضوع القسم الثانى من هذا الكتاب بإذن الله ...

القسم الثانى

الدولة المغولية

الترك والمغول

سلاطين الدولة المغولية الذين حكموا الهند قرابة قرون ثلاثة . فشهدت هذه البلاد على عهدهم أعظم نهضة وحضارة عرفتها فى تاريخها ، تمتزج فى عروقهم دماء الترك والمغول . فأبوهم ظهير الدين محمد بابر ، فاتح الهندستان ومؤسس هذه الدولة ، ينتهى نسبه من ناحية أبيه إلى الخاقان التركى تيمور لنك و يمتد عرقه من ناحية أمه إلى خان المغول الأعظم جنكيز .

والمغول والترك كلاهما قد سبق إلى غزو شبه القارة الهندية، وكان لهما شأن خطير ودور هام فى تاريخ آسيا الوسطى بعامة ، وبلاد الشرق الإسلامى بخاصة مما يقتضى أن نتحدث عنهم وعن تاريخهم فى قدر من الإجمال قبل أن نفصل فى تاريخ الدولة المغولية نفسها .

فكم من مدن إسلامية زاهرة انتهبها برابرة الترك والمغول ثم دمروها ، وكم من حصون وقلاع أفنوا حامياتها ذبحاً ، ثم لم يتركوها حتى سووا أبنيتها بالأرض ، وكم من ألوف كثيرة من السكان المسلمين نهبوا متاعهم ثم ساقوهم فى الغالب إلى حتوفهم ، وناهيك بالعدد الوفير من أصحاب الحرف الذين كانوا يسوقونهم من بعد ذلك للعمل عندهم .

على أن هؤلاء المخربين ، حين دخلوا فى دين الله أفوجاً وتمكن اتصالهم بالحضارة والثقافة الإسلامية ، ما غدوا أن انقلبوا فى الغالب إلى حماة للعلوم والفنون والآداب، وإن لم يتخلوا أبداً عن ميلهم إلى سفك الدماء و إعمال

السلب والنهب . فكنت تراهم فى الغالب يكدسون هامات ضحاياهم على هيئة للنائر والأهرامات ثم ينصرفون من بعد ذلك إلى تعمير المنشآت النافعة الكثيرة و يبذلون المال والتشجيع للعلماء والأدباء وأرباب الفنون ، حتى كان منهم من شارك أهل المعرفة نشاطهم ودروسهم ، لتشهد من بعد ذلك على أيديهم جملة من المدن ، التى خربتها أجدادهم من قبل ، نهضة ثقافية وحضارية فذة[1] .

إن سلسلة الجبال الآسيوية الرئيسية العظمى التى تمتد من الصين شرقاً إلى شاطىء البحر الأبيض المتوسط غرباً ، والتى تبلغ غايتها من الإرتفاع فى منطقة التبت ، و بجبال الهملايا التى تعرف بسقف الدنيا على وجه التحديد ، هى فى تشعبها وتفريعاتها ، كانت تعد بحق ، فى القديم ، حاجزاً بين الشعوب المتحضرة والقبائل التى لا تزال بآسيا على البداوة فى الغالب . فما من شعب سكن إلى الجنوب من هذه الجبال إلا وكان له فى التاريخ دور هام وفى الحضارة والثقافة نتاج قوى وإسهام كبير . ولدينا فى الهند القديمة وعلومها وفلسفتها ، وفارس وما كان لها من ملك عتيد وماض تليد، ما يؤيد هذه الدعوى و يقوم دليلا عليها .

وفى حين كانت الأراضى الواقعة إلى الجنوب من سلسلة الجبال الآسيوية تعج بالمدن الكبيرة والوديان الخصبة ، كانت المناطق الواقعة إلى ما وراءها شمالا — باستثناء الصين وبلاد ما وراء النهر وما حول نهرى سيحون وجيحون — ما تزال تتجول فى أغلب مناطقها مجموعات عديدة من قبائل البدو ، ثروتها قطعان الأنعام ، ومدنها وديارها صفوف من الخيام ، ودستورها العرف القبلي البدائى المتوارث .

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٩٥ — ٩٨

وعُرفت هذه المناطق الشمالية عند القدماء بإسم بلاد السيث ثم أطلق عليها أهل الصين من بعد ذلك إسم بلاد التتار .

وظل لفظ التتار يطلق على كافة القبائل التى تجاور الصين وتقطن الأقاليم الممتدة فى أواسط آسيا إلى الجنوب الشرق من أوروبا حتى ظهور جنكيزخان فى القرن الثانى عشر الميلادى[1] . وبرغم اشتهار أمر المغول من بعد جنكيزخان فقد ظل صيت التتار القديم غالبا ، وصار إسمهم ساريا على المغول أنفسهم فى بعض بلاد أواسط آسيا وفى سوريا ومصر[2] .

هذا ؛ وقد سلك كثير من المؤرخين سكان هذه المناطق الشمالية فى عروق ثلاثة هى : العرق المنشورى أو المنغورى أو المنشورى ، ثم العرق المنغولى أو المغولى[3] ، ثم العرق التركى .

أما المنشوريون فهم أغلب سكان الصين، وإلى الغرب منهم منازل المغول، ثم مواطن الأتراك الذين يجاورون الصينيين فى بعض المناطق .

وإلى الجنسين الأخيرين ينتمى سلاطين الدولة المغولية وكثير من القادة والجند الذين دخلوا معهم الهند واستقروا بها .

---

(١) التتار عند الصينيين هم الغرباء والشعوب البعيدة والنور من الجماعات غير المتمدينة واللصوص . أنظر : هارولد لامب : جنكيز خان ص ٢٤ .
ثم المقدمة الإنجليزية لترجمة تاريخ رشيد لكاتبها H. Elias p. 83.

(٢) تاريخ الكامل لابن الأثير مجلد ١٢ — المختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء . م ٣ ، ٤ هذا وأصل تعريف المغول بالتتار ، وقد كانوا فى مبدىء أمرهم على بداوة وتأخر تام ، إنما هو من إطلاق التجار المسلمين نقلا عن جيرانهم من الصينيين والأتراك .

(٣) نقصد بالعرق هنا الجنس . هذا ؛ والتسمية الصحيحة الواجبة هى منغول لامغول، واللفظ الأخير هو خطأ مشهور شائع .

منازل الترك :

جاء إسم الترك صراحة ، أول مرة ، فى نقوش أورخون التى اكتشفها الأثريون فى منتصف القرن الماضى ، والتى يرجع تاريخها إلى القرن الثامن الميلادى . وتذكر هذه النقوش أن سلطان الأتراك كان فى القرن السادس الميلادى يمتد بين حدود الصين وحدود إيران وبيزنطة ، وكانت قبائلهم تنتشر فى هذه المنطقة كلها[1] .

وأدى اختلاط الأتراك بجيرانهم من أمم العالم القديم العريقة فى المدنية إلى وصول قدر غير قليل من حضارات هذه الأمم إليهم ، وناهيك بما أتاحه هذا الجوار من تسجيل الكثير من رسوم الترك ووقائعهم التى أغفلت الصين جارتهم الأولى ذكر أغلبها ، فلم يكن حديثها عنهم ليعدو ذكر قبائلهم .

ومما ترويه أخبار الصينيين القدماء أن قبائل « هونج نو » كانت تجاور بلادهم قبل ميلاد المسيح بعدة قرون . حتى إذا ما اشتد خطرها وتفاقم عداؤها عمدت أسرة تسن الحاكمة إلى بناء سور الصين العظيم لحماية بلادهم منهم ، فولوا وجوههم من بعد ذلك صوب الغرب ونزلوا فى ولاية كانسوه إلى جوار تل على هيئة الخوذة ، وهى « دوركاى » بالصينية ، فنسبوا إليها[2] .

---

(١) ويؤكد الأستاذ بارتولد كذلك أن هؤلاء الأتراك هم أحفاد الهون
Barthold-Donskies : Hist. des Turcs d'Asie centrale. pp 6,16

(٢) هذه التسمية التى أوردها باركر (Engl Hist Rev. 1898 p 431-45) يجب أن تقابل بالحذر هى وما جاء من أشارات للترك عند هيرودوت ، وما ذكره الأستاذ بلوشيه من اشتقاق اسمهم من كلمة توره الواردة فى الأبستاق القديمة RAS 1915 p 305-8

وتم لهذه القبائل التركية فى القرن الثانى قبل الميلاد ، السيطرة على مناطق متسعة الأرجاء فى أواسط آسيا[1] ، فكان الأويغور ينتشرون فيما بين نهر تانو والنهر الأصفر ، وتيان شان والتاريم ، كما كانت مضارب القرغيز فى منطقة ينى سى ، ومنازل القُرلق والتوكوى فى التاى ، والياقوت عند الجنوب من سيبريا ، فى حين انتشرت قبائل تركية أخرى حول بحيرة بيكال وبحيرة بلكاش وعند سيحون وجيحون حتى بحر الخزر .

ومناطق الأتراك هذه ، فضلا عن ترامى رقعتها ، كان يتخللها صحراوات كثيرة متشعبة ، حتى لتبدو المناطق الزراعية بها أشبه بالواحات فى مواقعها ، مما أحال استمرار قيام دولة معمرة بها تعتمد على الزراعة ويتيسر لها فى نفس الوقت إحكام الرقابة على قبائل البدو التى ظلت أبداً مصدر تهديد دائم لأى أرض تُزرع أو مدن تقوم فى هذه النواحى .

ويُستثنى من هذا التعميم بلاد ما وراء النهر التى تُعرف أيضاً باسم بخارى الكبرى . فهى برغم وقوعها إلى الشمال من سلسلة الجبال الآسيوية، قد يسرت لها طبيعة أرضها ، وما بها من مجار للمياه عديدة ، مقومات الحضر ، فازدهرت فى الغالب ما أفلح حكامها فى ضبط أمورها ورد غائلة كل عدوان خارجى عنها .

وعن طريق هذه البلاد ، التى تُعد باب آسيا الوسطى والجنوبية نفذ الأتراك والمغول إلى العالم المتحضر وأفلحوا فى إحداث تغييرات كثيرة خطيرة به .

Czaplicka, M. The Turke of Central Asia p 61. (١)

وقبائل « هونج نو » هذه التى تشتهر أيضاً باسم الهون ، تدفقت موجاتها مرات عدة على بلاد ما وراء النهر وفارس والهند، كما عبرت الفولجا إلى الدانوب، واكتسحت ولايات الامبراطورية الرومانية ، وأنزلت ، بقيادة أتيلا ، ضربات عنيفة بأوروبا كما هو معروف مشهور[1] .

ونتج عن اختلاط هؤلاء الأتراك بالفرس ، جيرانهم بأواسط آسيا ، أن نفذت إليهم ثقافة الساسانيين وحضارتهم الذين كانوا يسيطرون على كافة مسالك التجارة ودروبها فى العالم القديم .

وبزغ نجم الأويغور من بين الأتراك فى القرن الثامن الميلادى فحكموا فى أواسط آسيا ومنغوليا الحالية فى مكان الترك أو غوز « الغز » ، الذين اضطروا بدورهم إلى النزوح غرباً ، ليتألق نجمهم فى القرن الرابع الهجرى الموافق الحادى عشر الميلادى ، فيشمل نفوذهم من بعد ذلك بلاد التركستان وقشغر ، ويرثون جزءاً من ملك السامانيين ببلاد ما وراء النهر ويعرفون فى التاريخ باسم القره خانيين ، وكانت عاصمتهم أوزكند إلى الشرق من فرغانه .

وإلى جانب هؤلاء كانت منازل القبجاق الترك تمتد حتى الفولجا ، وقد نشأت بينهم وبين بلاد خوارزم الإسلامية علاقات قوية .

وغزا القرغيز عام ٨٤٠م منازل الأويغور الذى آثروا الهجرة إلى حوض التاريم والواحات القريبة منه على معاشرة هؤلاء الذين كانوا على درجة كبيرة من التأخر ، وطفقوا هناك يمارسون التجارة والزراعة[2] .

واتجه القره خطاى وهم مغول فى الغالب ، صوب الغرب بدورهم ، بعد

---

(١) يرجح بعض المؤرخين أن الهون لم يكونوا فى زحفهم أتراكا خلصا إذ كان معهم كثير من المغول Degiugnes Hist. Gen. des Huns Vol I p 212 ولعل المؤلف يقيس فى هذا على ما كان فى جيوش جنكيز وأبنائه من الأتراك .

(٢) Grousset, R. L,Empire mongol. p 11

أن طردتهم أسرة كين الصينية فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى من منازلهم بالصين الشمالية وصحراء جوبى ، فاقتحموا منغوليا على القرغيز ، ودخلوا إقليم خطان وهزموا خان قشغر القره خانى والسلطان سنجر السلجوقى ، وصالحوا أتسزشاه خوارزم على جزية قدرها ثلاثون ألف درهم يؤديها إليهم فى كل عام[1] ، وبلغوا بلخ بعد أن بسطوا سلطانهم على التركستان و بلاد ما وراء النهر كلها .

ولئن أدى زحف القره ختاى إلى فتح أبواب منغوليا لهجرات من المغول ، فقد ابثت القبائل التركية ، وغالبيتها من الأويغور والغز وبطونهما ، هى صاحبة النفوذ فيما بين منغوليا وبحر الخزر . والأويغور هم أغلب الأتراك الذين وجدهم الغزاة المسلمون من العرب ببلاد ما وراء النهر حين دخلوها فى أواخر القرن الأول الهجرى .

حضارة الترك وإسلامهم :

تجمع كافة المصادر على أن الأويغور كانو أرقى قبائل الترك قاطبة . وقد اجتمعت لهم مقومات الدولة بعد أن ارتقت الزراعة عندهم واتسعت رقعتها ، واستقرت حياتهم فى كثير من المدن التى أقاموها ، حتى بعثوا بسفرائهم إلى خارج بلادهم وعقدوا المعاهدات مع غيرهم من الدول . وبلغ ارتقاء الوعى القومى عندهم إلى أن ثاروا على بعض حكامهم لإمعانهم فى تقليد الصينيين أعدائهم .

وأثر هؤلاء الأويغور فى الغالب حضارة الصغد على حضارة الصين ، فاتخذ ملوكهم لأنفسهم لقب « شاد » مقابل لقب « شاه » الفارسى ، واستخدموا

(١) جرى القره ختاى أو الكورخانيون فى تقدير الجزية وفق النظام الصينية ، ففرضوا على كل بناء ديناراً واحداً . Barthold-Donskies p 98 .

أبجدية ترد إلى أصول صغدية ، فكانت بذلك تتلاقى مع الأبجدية الفارسية الساسانية فى النسب، وكتبوا بها قبل تدوين نقوش أورخون بزمن طويل[1].

وانتشرت الكتابة الأويغورية بين شعوب آسيا الوسطى انتشاراً ...عا[2] بعد سقوط دولتهم[3] ، إذا لبثوا ، برغم أفول نجمهم السياسى ، كدولة ، يلعبون ، كأفراد ، دوراً سياسيا وثقافيا كبيراً عند دول الترك والمغول . فقاموا على تنشئة أولاد جنكيز خان واضطلعوا بالعمل فى دواوينهم، وأرخوا لهم كما أرخوا لتيمورلنك من بعد .

واستخدام خوانين فارس من المغول ، الأويغورية فى تراسلهم مع بعض أمراء أوروبا فى القرن الثالث عشر الميلادى، فكتبوا بها إلى بابا روما وفيليب ملك فرنسا وإدوارد ملك إنجلترا لغرض قيام حلف بينهم لحرب المماليك المصريين (٤).

وما تزال بدار الكتب الأهلية بمدينة فينا نماذج من هذه الكتابة ، كما كان بحاضرة الأتراك العثمانيين فى القرن العاشر الهجرى من هم على دراية تامة بهذه اللغة التى تعد الأساس الذى قامت عليه الجغتائية لغة الترك التقليدية[5]

هذا وكانت الديانات السائدة فى الأوساط التركية ، قبل اعتناقهم الإسلام ، هى الشامانية التى تقضى بعبادة الأسلاف وتعترف بالإله المعظم ولكنها لا تؤدى له الصلوات ، وإنما تقوم بها لآلهة الشر اتقاء لخطرها ، ثم البوذية والزرادشتية الفارسية التى كان لها نفوذ راجح ببلاد الصغد فى الغالب .

---

(١) Czaplicka p 24

(٢) فى بلاد الأويغور هذه عرف العرب المدون ورق الكتابة لأول مرة ، ليطلعوا العالم القديم عليه بدورهم من بعد ذلك. وكان الصينيون كذلك يستخدمونه منذ زمن طويل.

(٣) Grousset. R. Hist de L'extreme Orient. T11 p 407

(٤) Czapilcka p 27

(٥) تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ص ١٠٠ - ١٠١ — ولا تزال هذه اللغة لغة كذلك فى التركستان الروسية .

وجاور المسلمون قبائل الترك ببلاد أواسط آسيا ابتداء من أواخر القرن الأول الهجرى ، وكان الإسلام قد اكتسح مراكز الزراد شتية ببلادفارس .

وطفقت قوافل التجار المسلمين تتوغل فى مسالك آسيا الوسطى حتى بلغت الصين شرقا وحوض الفولجا غربا ، فكان هؤلاء التجار من أنشط الوسطاء فى نشر تعاليم الدين الإسلامى .

وغنى عن البيان أن المسلمين لم يلجأوا عموما إلى العنف لحمل الناس على الدخول فى ملتهم ، كما كانوا يكفلون لغيرهم فى الغالب ممارسة عقائدهم فى حرية تامة كذلك ، حتى رأينا المعتصم العباسى يتشدد فى عقاب بعض المسلمين الذين اعتدوا على بعض معابد للفرس ببلاد الصغد(١) .

ولئن غدا الإسلام ينتشر ببـــلاد ما وراء النهر منذ أيام قُتيبة بن مسلم أواخر القرن الأول الهجرى ، فإن إسلام الترك الجماعى لم يبدأ فى صورة واضحة إلا أيام السامانيين فى القرن الرابع الهجرى ، فأسلم خان قشغر ساتوك بغراخان أمير القره خانيين ، وتسمى باسم هرون بن سليمان ، ودخل معه فى دين الله أهل بلاده(٢) وفريق كبير من سكان التركستان الشرقية وإقليم خطان .

كذلك اعتنق السلاجقة — وهم من غز الخزر — الإسلام فى القرن الرابع الهجرى ، وكانوا يشتهرون بتمسكهم الشديد بتعاليمه وحدبهم على نصرة أهل السنة . وقد شمل سلطانهم بلاد ما وراء النهر وفارس والقوقاز ، ونفذت عروق منهم ومن جيرانهم إلى آسيا الصغرى فقضوا على الدولة البيزنطية الشرقية بها(٣) .

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ص ٨٦ .

(٢) تاريخ رشيدى ص٢٨٦ .

(٣) الأتراك العثمانيون هم كذلك من الغز «الأوغوز» ، والتغزغز هم أيضا من الغز «توقوز أوغوز = قبائل الغز التسع» . هذا وتخلط بعض المصادر العربية بين الأويغور والأوغوز وتعتبرهم قبيلة واحدة ، وإن كانوا جميعا من الترك .

ومهد انتشار الإسلام حتى الفولجا وتكاثر جموع الأتراك عند بحر آرال وما حوله ، لقيام الدولة الخوارزمية التي صار لها شأن كبير في القرنين الخامس والسادس الهجري . وروج من أحوالها أن بلادها كانت من أبواب التجارة التي تصل مابين أواسط آسيا والأقاليم الإسلامية المتحضرة. وكان الخوارزميون يعقدون آمالا كثيرة لمد نفوذهم حتى حدود الصين ، ومعهم حلفاؤهم من القبجاق الذين أسلموا على أيديهم بدورهم في القرن الخامس الهجري ، لولا ظهور جنكيزخان .

ونفذت الثقافة الإسلامية إلى الشعوب التركية بأواسط آسيا ، على أيدي شيوخ الفرس المسلمين في الغالب ، فنقلوا عنهم كثيراً من الألفاظ والمصطلحات العربية والفارسية إلى لغتهم . وماغدوا أن شغفوا بالآداب الفارسية شغفاً كبيراً حتى ازدحمت قصور حكامهم بشعرائها وكتابها ، وكادت العربية لا تجد لها سوقاً رائجة إلا عند بعض المشتغلين بعلوم القرآن والسنة .

المغول في مواطنهم :

فيما كانت العناصر التركية توثق من علاقاتها وصلاتها بالعالم الإسلامي لتبلغ من بعد ذلك بنفوذها وسطوتها إلى إقامة دول قوية لها مقسمة الرقعة عظيمة الثراء كانت قبائل المغول ، عند كريولين وخنجان وفي مناطق الأنون وتولا ممايلي أطراف الصين غربا ، تعيش عيشة بدائية صرفة ، في مجموعات من الخيام الحقيرة المتناثرة بين السهول والغابات ، لا يدري العالم المتحضر من أمرها شيئا مذكوراً حتى ظهور جنكيز خان في القرن الثالث عشر الميلادي .

ولم تهتم الصين ، جارتهم الكبرى نفسها ، بأمر هذه القبائل التي كانت تعرفها باسم منغ وا / ومنغكوتاتا ، حتى رأى أحد أباطرة أسرة كين ، التي كانت تحكم بالصين الشمالية في القرن الثاني عشر الميلادي ، أن يستعين بهم وبالقره خطاي في القضاء على بعض أعدائه من القبائل التي كانت تنزل حول بحيرة بوير نور .

وعلا شأن فتى من المغول يدعى تيموجين في هذه المعارك وذاع صيته حتى اختارته قبيلته خاناً عاليا ، فلقب بجنكيز ، وأحيا اسم المغول من جديد بأن أعلن نفسه خليفة للبطل المغولي الأسطوري قتلق خان الذي كان يمسك بالرجل فيشطره شطرين كما يكسر عود من قصب ، والذي كان يبيت في العراء ، صيف شتاء ، لا يأبه بالزمهرير ولا يخشى الثلوج ، حتى كانت لفحات اللهب لا تعدو عنده لسع بعوضة(١) .

واعتز خلفاء جنكيز ورهطه بهذه التسمية ، التي كانت في أول أمرها من صنع جيرانهم(٢) ، حتى رأينا رجال البلاط ، المغولي يحذرون الرحالة الأوروبي جون ببرك ، حين زار بلادهم في منتصف القرن الثالث عشر ، من أن يتحدث عن أميرهم حفيد الخان الأكبر بأنه تترى ، بل عليه أن يذكره بوصفه ملك المغول .(٣)

---

(١) Howorth, H, History of the Mongols I p 382

(٢) Barthold, W, Turkestan p 382

(٣) برغم التفات فريق من كتاب الفرس إلى التفرقة بين المغول والأتراك حتى قبل ظهور دراسات الأجناس — فوصفوا الأولين بالقبح وتغنوا بجمال الآخرين ، فقد اختلط الأمر على بعض من المؤرخين المسلمين بفعل الجوار في البيئة فعدوهم عرقا واحداً . وساعد على هذا

ولم تمض سنوات قليلة على بدء القرن الثالث عشر الميلادى حتى انطوت قبائل المغول ، والأتراك ، فى صحراء جوبى ، تحت راية الخان الجديد ليتجه بها من بعد ذلك إلى الصين فيقضى على أسرة سى هاى ، فى إقليم كانسو ، وأسرة كين ، فى الصين الشمالية ويدخل بكين ، ثم يستدير هناك ليبلغ منغوليا ، فكان أرسلان خان ، أمير القرلق هناك أول حاكم يستسلم له .

وما غدا أن أقبل عليه فريق من زعماء الترك فى أواسط آسيا يخطبون وده ، وفيهم نفر من القبجاق ، حلفاء شاه خوارزم وأصهاره ، ومعهم فريق من التجار المسلمين الذين عاونوا الخان المغولى ، فيما بعد ، على فتح كثير من البلاد الإسلامية وتنظيم شئونها .

وحدث أن انتهب عامل شاه خوارزم على أترار بالتركستان قافلة قادمة من بلاد المغول وقتل رجالها ، وكانوا جميعا من المسلمين ، ظنا منه أنهم من عيون الخان المغولى ، لتنطلق الحرب بذلك فيجتاح المغول[1] بلاد

= الخطأ ، أن المسلمين الأوائل كانوا يطلقون اسم بلاد الترك على كافة المناطق التى تقع بين آخر حدودهم ، عند بلاد ما وراء النهر ، والصين .

وبرغم تقرير مؤرخى الأتراك المحدثين بالتفرقة بين العنصرين ، فإن دعاة التورانية من العثمانيين فى القرن العشرين كانوا يقولون بأن الأتراك والمغول جنس واحد ينتهى الى الأصل التورانى ، فيتغنون بمدائح جنكيز ولا ينكرون من أعماله شيئا ، فما خربه ودمره هو عندهم دون ما يتخلف عن الحروب الحديثة بكثير . « تعليقات الأمير شكيب أرسلان على كتاب حاضر العالم الإسلامى م ١ ص ١٥٩ » .

(١) كانت قوات المغول تضم جنداً كثيراً من الترك . بل إن كثيراً من الأتراك ومن أسرى المسلمين وأغلب من عاشر المغول واختلط بهم ، كانوا يدعون نسبتهم للمغول جرأ ألمغانم

D'Obsson Hist des Mongols T, I pp 423,9

ما وراء النهر كلها ويخربوا جرجان وبخارى وسمرقند أعظم مدنها تخريباً تاماً ويفنون حامياتها بعد أن استسلمت إليهم بخداعهم ، ثم يسوقوا الأهلين أمامهم قسراً ليكونوا لهم من سهام أعدائهم درءاً .

ولم يواف جنكيز خان أجله عام ١٢٢٧ م حتى كان له ، إلى جانب خوارزم وبلاد ما وراء النهر ، خراســـان وأجزاء من بلاد فارس والهند ثم آذربيجان وأرض كبيرة فى الجنوب الروسى ، لينطلق أبناؤه من بعده فيتوغلوا فى كوريا والصين وإيران ، ويبلغ قوادهم القارة الأوروبية فينفذوا فيهـا حتى البحر الأدرياتى وأبواب فينا ، ويفر من أمامهم ملوك بولنده والمجر ، وتقضى سهامهم على دوق روسـيا ودوق سليزيا وفرسانه التوتونيين .

ولولا أن اضطروا للعودة إلى بلادهم على أثر ما بلغهم من موت أوكتاى ابن جنكيز خان المغول الأعظم فى قراقورم ، ونشوب الفتن بالصين ، لأوقعوا بأوروبا من الخراب نظير ما أحلوه ببلاد الشرق الإسلامى التى صادفتهم ، إذ قضوا على قواتها العسكرية ودمروا أهم مراكز الثقافة بها . ولقد كادوا يأتون على تراث المسلمين الفكرى كله ، الذى قام على رعايته الخلفاء وزاد فى كنوزه الصفوة من العلماء جيلا بعد جيل وقرناً بعد قرن ، لولا أن تصدى لهم المصريون عند عين جالوت بفلسطين فيما بعد ، فأنزلوا بهم أول هزيمة قاصمة عرفوها وردوهم على أعقابهم[1] .

---

(١) عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م — كان يقود المصريين سلطانهم المظفر قطز ويعلق المؤرخ أبو الفدا على هذا الوقعة « ٣ ص ٢٠٥ » فيقول « ... وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم ، فإن القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتار لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ، ولأنهم ما قصدوا إقليما إلا فتحوه ولا عسكراً إلا هزموه » .

وإذ كان جوجى خان ، الإبن الأكبر لجنكيز ، قد مات في حياة أبية ، فقد خلفه ابنه باتوخان على البلاد التى كان يتولاها عند سهول القبجاق والأقاليم الواقعة فيما بين مجرى آرال والخزر ، وعند وادى الدون والبحر الأسود ، هذا فى حين عقد لأوكتاى ، أصغر أبناء جنكيز ، زعامة المغول فى قراقورم .

أما جغتاى ، ثانى الأبناء ، فقد صار له بلاد ماوراء النهر وخوارزم وخراسان والتركستان ومغولستان . وهى مناطق يتباين سكانها فى أجناسهم ، من ترك ومغول وفرس وعرب ، كما تتباين طبيعتها كذلك ، ففيها صحراوات واسعة جرداء وبجوارها مراع وسهول فسيحة خصبة نشأت بها مدن كثيرة وقامت بها حضارات .

وكان جغتاى يعد فى حياة أبيه أقدر فقيه فى الياصا[1] ، حتى منعه قومه من المشاركة فى الحروب بعد وفاة خانهم الأعظم . وبوصفه أكبر أبناء جنكيز ، الذين بقوا على قيد الحياة وأقدرهم ، عهدوا إليه كذلك برآسه مجلس الأمراء المغولى لتثبيت أوكتاى أصغر أبناء جنكيز على مقام أبيه وزعامته فى قراقورم .

واتخذ الأمير جغتاى من المالق فى الوادى الأعلى لنهر إلى قصبة لملكه دون بخارى أو سمرقند أعظم مدائن بلاده ، إذ كان حولها تنزل قبائله وعشائره التى كان يعتمد عليها فى حروبه ؛ وكان رجالها بدورهم يفضلون حياة السهول

(١) أصلها دزا صاق ، فذكرها الفرس والعرب « ياصا » ترخيما . وهى دستور المغول الذى دونه له الأويغور أصحاب ديوانه . وهى مزيج من القوانين الموضوعة على إرادة جنكيز وأنفع العادات القبلية ، ومما تدعو إليه : الاعتقاد بإله واحد والطاعة التامة للخان الأعظم :

تاريخ جهان كشا لعطا ملك الجوينى ص ٧٧ وما بعدها .

والوديان الفسيحة على سكنى المدن ومخالطة أهلها الذين كانوا يرون فيهم وفى أهل الزراعة أجناسا منحطة وعبيداً للأرض .

وأُطلق اسم هذا الأمير ، دون أبناء جنكيز جميعاً ، على بلاده وعلى أهلها ، فعرفت هذه المناطق جميعها باسم بلاد جغتاى ، وعُرف الأتراك فيها بخاصة ، وكانوا غالبية كبيرة بها ، باسم الأتراك الجغتائيين .

ورغم بقاء جغتاى على دين آبائه وكراهية قومه عموما للمسلمين ، فقد اتخذ منهم وزراء ومستشارين ، وبُنيت فى عهده جملة من المدارس والمساجد ببلاد ما وراء النهر وغيرها كذلك(١) .

ووافت جغتاى وأخاه أوكتاى المنية عام ١٢٤١م ، وابن أخيهما ، باتوخان ، يتوغل إذ ذاك فى أوربا مع نفر من أبنائهم ، ليتسع نطاق المذابح والفتن بين أمراء المغول من بعد ذلك ، ويظل أمرها متصلا حقبة من الزمن كانت بمثابة المدنة للعالم الإسلامى وأوروبا ، حتى قبض على زمام الأمور هولاكو بن تولى خان فعاود السير بقافلة التخريب المغولية من جديد . فعبر بلاد ما وراء النهر إلى فارس حتى بلغ العراق ودمّر بغداد حاضرة الخلافة العباسية تدميراً ، وقتل الخليفة العباسى نفسه شر قتلة ، ولولا صد المصريين له بأرض فلسطين ، كما هو معروف مشهور ، لقُضى على تراث المسلمين كله وخُرّبت ديارهم جميعاً فى الغالب .

---

(١) كان المغول فى الغالب على الشامانية والبوذية حتى اختلطوا بالترك وغيرهم من المسلمين فى فتوحاتهم فأسلم فريق منهم . وكان أول من أسلم من أمرائهم هو بركه خان حفيد باتو خان وزعيم القبيلة الذهبية وذلك فى القرن السابع الهجرى ، وتبعه أحمد تكودرى الإيلخانى حفيد هولاكو بفارس ، حتى جاء غازان خان وأخوه الجايتو محمد خدابنده فاتخذا الإسلام ديناً رسميا لدولتهما . أما الجغتائيون فلم يبدأ إسلامهم الجماعى إلا فى القرن الثامن الهجرى . توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٨٩ وما بعدها : بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٨٩ وما بعدها .

وبموت هولاكو بدأ نجم المغول فى الأفول التام. وأتاحت الاضطرابات، التى غدت تعم أملاكهم، الفرصة لكثير من الأقاليم لتنسلخ عن سلطانهم.

وما لبث الأتراك ببلاد ما وراء النهر، وكانوا غالبية كبيرة، أن استعادوا كثيراً من نفوذهم القديم حتى غدا تنصيب أمرائهم من الجغتائيين يجرى على هواهم.

ولم يعد لأمراء المغول، من بيت جغتاى، من النفوذ والسلطان إلا فى قشغر وبرقند وآلا طاغ ومغولستان، وبقى خوانينهم يحكمون هناك حتى اقتحم الأوزبك أغلب منازلهم فيما بعد.

تيمور لنك وخلفاؤه:

كان ظهور تيمور لنك ببلاد ما وراء النهر فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى بداية تحول جديد فى تاريخ آسيا الوسطى، إذ انتقلت مقاليد الأمور هناك من أيدى المغول الجنكيزيين إلى أيدى الأتراك الجغتائيين، حتى انتهى الحال بحفيد هذا الخان التركى، ظهير الدين محمد بابر، إلى بسط سلطانه على الهندستان. وقد والى أبناؤه من بعده فتوحاتهم هناك، حتى أظلت رايتهم شبه القارة الهندية كلها.

ولقد وصل تيمور فى شبابه بجده وذكائه وشجاعته إلى أن استوزره الأمير الجغتائى إلياس بن تغلق تيمور صاحب سمرقند إذ ذاك، فما غدا الوزير أن انقلب على أميره، حتى اتخذ مكانه على عرش سمرقند عام ٧٧١ هـ ١٣٧٠ م، بعد أن استولى على بلخ ونشر سلطانه على القسم الغربى من بلاد جغتاى، وإن ترك لأمراء المغول به بعض امتيازاتهم وحفظ عليهم مراسم الأمارة [(١)].

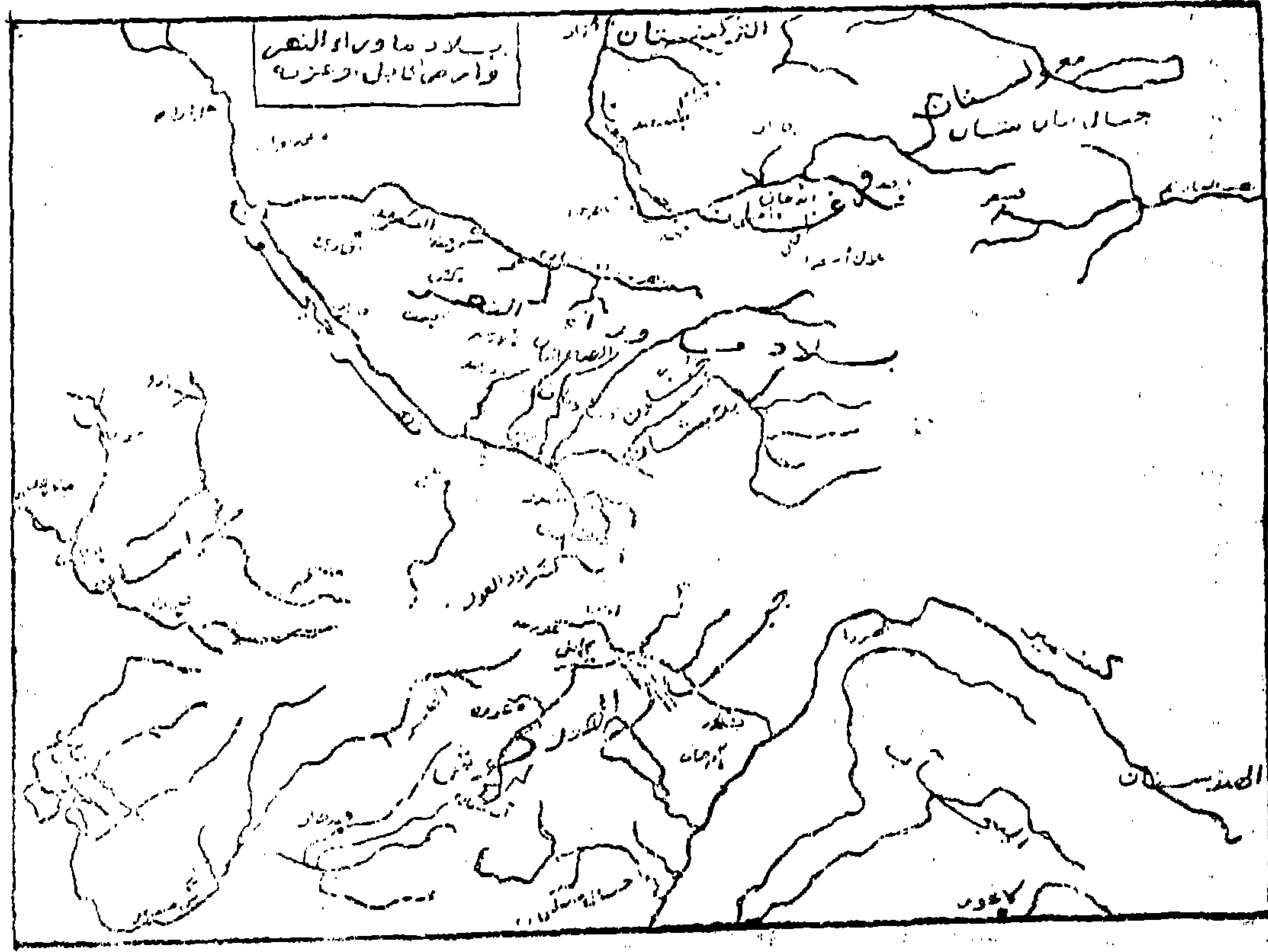
---

(١) ما تذكره بعض المراجع من نسبة تيمور إلى المغول هو من وضع بعض كتاب الأويغور الذين ذهبوا إلى حد جمع أسلاف جنكيز وتيمور عند جد معين، أرادوا بذلك أن يضفوا على تيمور عراقة النسب تقربا منه وتملقا.

Hammer : Hist de l'Empire Ottoman T. II p96-121

(٢) الأوزبك نسبة إلى أوزبك خان حفيد جنكيز من فرع توشى خان.

D,Ohsson : Hist d. Mongol T. II 108,9



بلاد ما وراء النهر
وأرض كابل وغزنة
التركستان
الهندستان
لاهور

وتملكته شهوة الفتوح ، فضم إلى ملكه مغولستان وخوارزم ، كما أقتحم حدود الهند فبلغ دهلى التى استعصت على المغول من قبل ، فلم يرجع عنها حتى دمرها وساق معه كثيراً من أهلها أسارى ، وفيهم خير أصحاب الحرف والمهن ليقيموا له منشآته ببلاده .

كذلك استولى على فارس ثم نفذ من العراق إلى بلاد الكرج والشام ، ولم يرجع عن آسيا الصغرى حتى أوقع فى أسره بايزيد سلطان العثمانيين [1] . وإن هى إلا بضع سنين من بعد ذلك حتى كانت بنوده تخفق فيما بين موسكو والكنج .

هذا ؛ وكان تيمور ، على جهله بالقراءة والكتابة ، حفيا وأولاده بأهل العلم وأصحاب الآداب والمعارف ، حتى بلغت عاصمتهم سمرقند مركزاً فذاً بين مراكز الثقافة الإسلامية .

وما غدت هذه المدينة ، التى تأنق الخاقان التركى فى تجميلها بمنشآته الكثيرة الفخمة ، والتى شق إليها طرقا برية جديدة تصلها بفارس والهند ، أن أنقلبت إلى سوق للتجارة هامة ومركز من أهم مراكز الإتصال بين الصين وبلاد آسيا الوسطى وإيران وآسيا الصغرى ، تعرض بها صنوف السلع وتعج بمختلف الأجناس .

ومات تيمور عام ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م فى إحدى حروبه مع جيوش الصين عند اترار ، فاقتسم ملكه من بعده ولداه جلال الدين شاهرخ ومعين الدين ميرانشاه. حتى إذا ماقتل الأوزبك [2] ثانى الأميرين التيموريين واستولوا على

---

(١) تذكر بعض الكتب الحديثة أن تيمور قد حل غريمه فى قفص ، وهو خطأ تاريخى نتج عن سوء فهم بعض الكتاب لمدلول هذا اللفظ فى التركية ، فهو يطلق أيضا عن الهوادج والأكشاك التى لها نوافذ تتخللها أشباح من حديد .

أجزاء من بلاده ، طفق الأول يصطنع الحيلة معهم حتى أبعد خطرهم عنه ، ليعيد أغلب بلاد أبيه إلى حظيرته من جديد فيما عدا الشام وجنوب فارس[1].

وخلف الغ بك أباه شاهرخ عام ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦م ، فدخل فى منازعات وحروب متواصلة مع أهل بيته من الأمراء ، ولم يقف الأمر عند ضياع الكثير من أراضيه حتى قضى عليه ابنه عبد اللطيف ميرزا بنفسه ليقتل هو بدوره بعد قليل .

ولئن خبت عند ألغ بك ملكته الحربية فقد تلألأ عنده نور المعرفة ، حتى هدته بصيرته إلى أن يقيم مدرستيه الجامعتين ، فى سمرقند وبخارى ، التى كتب على أبوابهما «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة[2]»

وأدى اشتغال هذا الأمير بالعلم وشغفه به إلى أن وفد إليه كثير من علماء فارس وطلابها ، فكان يشاركهم فى الدرس بنفسه ويدرس معهم حركات الكواكب فى مرصده الكبير الذى أقامه بسمرقند .

وقد نظمت باسمه جداول للهيئة كانت آخر كلمة لهذا العلم فى وقته .

وبرغم اعتزاز هذا الأمير بتركيته فقد كان شديد التعلق بكل ما يرجى فيه رقى الإنسانية والفكر البشرى عامة .

وجلس على عرش سمرقند من بعده الأمير التيمورى أبو سعيد ميرزا ، بعون من الأوزبك ، ليقيم له من بعد ذلك ملكا واسعا ضم أجزاء من السند

---

(١) تاريخ عمومى إيران لعباس إقبال ص ٢٣٢ — ٢٤١ .

(٢) ا — تاريخ الحضارة الإسلامية ١٠٨ — ١٠٩

ب — Barthold-Donskies. p 181 - 2.

وخراسان وسيستان وامتد إلى العراق . حتى إذا ما هزم التركمان فاقتحم آذربيجان لينحدر منها إلى العراق ، استطاع أوزون حسن زعيم التركمان أن يتسلل إلى جبال آذربيجان فيقطع عنه الإمدادات ، لتتفشى المجاعة فى الجيش من بعد ذلك وينفرط عقد الجند وينتهى الأمر بالسلطان أبى سعيد نفسه إلى الوقوع فى الأسر ، ثم القتل .

وترك أبو سعيد عشرة من الأولاد ، ولكن لم يخلفه فى ملكه الواسع ، الذى كان يمتد من العراق إلى السند ، سوى أربعة منهم . فولى أحمد ميرزا إقليم سمرقند وبخارى ، وولى الغ بك إقليم كابل وغزنه ، وولى محمود ميرزا استراباد وهرات ، ليغتصبهما منه ابن عمه السلطان حسين بيقرا ، فيستقر من بعد ذلك فى الصاغانيان وبدخشان (١) .

أما رابع هؤلاء الأربعة فهو عمر شيخ ميرزا الذى ولى إمارة فرغانة ، فأدى به طموحه إلى أن يدخل مع جيرانه من المغول أصهاره والأتراك إخوته ، فى حروب متواصلة ابتغاء توسيع رقعة ملكه ، ليمضى عام ٨٩٩ هـ ، على أثر سقوطه من أعلى حصن له ، فيحمل عبء خصوماته من بعده ابنه الصبى ظهير الدين محمد بابر الذى قيض له أن يقيم أعظم دولة عرفتها شبه القارة الهندية فى تاريخها .

البيئة فى بلاد ماوراء النهر

فى بلاد ما وراء النهر ورث ظهير الدين محمد بابر الملك عن آبائه صبيا وقضى بها سنين غير قصيرة فى كفاح متواصل قبل أن يولى وجهه قبل المشرق ، لينتهى به المطاف والسعى من بعد ذلك إلى إرساء أسس الدولة المغولية فى الهند .

(١) تاريخ فرشته أول ١٩١

او عن طريق هذا الإقليم ، أعنى أرض سيحون وجيحون ، نفذ الأتراك والمغول إلى بلاد العالم الإسلامى ليغيروا وجه التاريخ بها فى الغالب .

تتوسط جبال أسفرا ، المتفرعة من السلسلة الآسيوية العظمى ، هذا الإقليم فيقع إلى الجنوب منها وادى جيحون وإلى الشمال منها وادى سيحون .

وأم أقاليم جيحون الجنوبية هى بدخشان وبلخ وخوارزم وتعد بلخ أقدم هذه الأقاليم الثلاثة وأعرقها ، وتعرف عاصمتها ، التى تحمل اسم الإقليم كذلك عند مؤرخى العرب باسم «أم البلاد» ، وبظاهرها كان يقوم معبد النوبهار الذى اضطلع آل برمك بالخدمة فيه (١) .

هذا ؛ كما تشتهر خوارزم بقيام أسرة حاكمة قوية لعبت دوراً مهما فى تاريخ هذه المنطقة فى القرنين السادس والسابع الهجرى، وهى الأسرة الخوارزمية أما بدخشان فهى مفتاح الطريق إلى الهند .

والقسم الشمالى من وادى جيحون جبلى فى الغالب تكسو قمته الثلوج شهوراً عدة فى السنة . وبه أقاليم ختلان وحصار ، الذى يعرف أيضا باسم جغانيان أو الصاغانيان . ثم ولاية كش مسقط رأس تيمور .

وإلى الشمال من كش وإلى الشرق من صحراء خوارزم يقع وادى الصغد المعروف بخصب أراضيه ووفرة مغانيه . وتقوم به المدينتان المشهورتان سمرقند وبخارى .

وسمرقند هى التى اتخذ منها تيمور وأولاده حاضرة للحكم ، وبها عرف المسلمون صناعة الورق لأول مرة . أما بخارى فقد اتخذها السامانيون قاعدة لهم ، وبنى بها مسلم بن قتيبة ، من قبل ، أول مسجد بالمنطقة كلها .

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٨/٤٩

وتعد المدينتان من أهم مراكز الثقافة الإسلامية فى القديم على كل حال .

والأقاليم التى تقع فى حوض سيحون هى فى أهميتها دون سابقتها بكثير . وأهم هذه الأقاليم ولاية فرغانة التى تعرف أيضاً باسم خجند ، وإلى الشرق منها تقع قشغر ، كما تقع طشقند عند حدودها الشمالية الغربية ، فى حين ينحصر إقليم أشروسنة بين فرغانة والصاغانيان .

هذا ، وكانت أرض التركستان تمتد إلى الشمال من فرغانة وطشقند فيما بين سيرام رافد سيحون وبحر آرال . وقد اتخذ منها الأوزبك ، أيام زعيمهم شيبانى خان ، قاعدة لغاراتهم الكثيرة على جيرانهم .

وإذا ما نظرنا إلى وجه الأرض بإقليم بلاد ما وراء النهر ، وجدنا الخصب يتوفر فى أغلب فرغانة وخوارزم وبلخ وبدخشان وكش والصاغانيان[1] . وفيما عدا ذلك فقد كان الجدب يغلب على أرضه .

لذلك كانت الحياة هناك فى الغالب متنقلة منحطة حيث الجدب والصحراء ، مستقرة راقية حيث الخصب والنماء الذى يمهد عادة لقيام المدن والدول .

وأول من سكن هذا الأقليم ، فيما يرجح كثير من المؤرخين ، عناصر تركية من السيث والتورانيين الذين كانوا مصدر تهديد دائم لبلاد فارس[2] .

---

(١) معجم البلدان لياقوت الحموى سابع ص ٣٧٠ — ٣٧٢

(٢) مما يحتج به بعض الباحثين فى ذلك هو شيوع لفظ «قند» فى أسماء المدن هناك كسمرقند وأزقند وطشقند الخ، وهو تركى قديم بمعنى مدينة .
Barthold. Turkestan pp. 96-97.

وظلت موجاتهم لا تنحسر عن هذه البلاد منذ غارات الهون على أواسط آسيا في القرون السابقة الميلاد حتى الغزو المغولي في القرن الثالث عشر الميلادي .

ولم يمنع وفود السيث والهون بلاد فارس من مد نفوذها في هـذا الإقليم حتى اتخذ بعض ملوكها من مدينة بلخ قصبة لهم ، ونزح إليه كثير من الفرس فمارسوا الزراعة بوديانه الخصبة ، كما لاذ به جمهرة من سراتهم حين اقتحم العرب المسلمون بلادهم عليهم في القرن الأول الهجري .

وما غدا العرب أن طووا أغلب هذه البلاد تحت رايتهم بعد قليل ، فإذا بفريق من أبنائها من فرس وترك يصيبوا بالدولة الإسلامية حظاً وافراً فيبلغوا أرقى المناصب بها[1] .

ولم تـكتف العناصر الفارسية الإسلامية ، حين عظم نفـوذهم في الدولة الإسلامية ، بإقامة دول لهم شبه مستقلة في أجزاء من هذا الإقليم ، حتى راحت تعمل لإحياء تراث الفرس القديم والنهضة بالآداب الفارسية من جديد .

وكان السامانيون الذين عمرت دولتهم في القرنين الثالث والرابع الهجري ، هم أصحاب اليد الطولى في هذا الميدان ، ليأتي سلاطين الترك ، من بعدهم ، من الغزنويين والسلاجقة وغيرهم ، فيسيروا على نهجهم في العناية بالثقافة الفارسية ويزيدوا عليه[2] ، فلم يمض إلا قليل حتى استردت الفارسية مناطق انتشارها القديم ببلاد ما وراء النهر ، لتتسرب من بعد ذلك إلى مجتمعات الهنـد كذلك وتبلغ بذلك كله إلى أن تصبح بحق ثاني لغات العالم الإسلامي انتشاراً بعد العربية .

---

(١) كانت بلخ من أكثر الاقاليم القديمة مساهمة في بناء الحضارة الإسلامية ، ومنها خرج البرامكة ، وزراء العباسيين ، وكثير من العلماء الـكبار . تاريخ الحضارة الإسلامية ص٦٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٨ ، ٧٢ ، ٨٥ .

وكان مما ساعد على رواج هذه اللغة بين العناصر التركية ببلاد ما وراء النهر، تصدى شيوخ الفرس فى الغالب لتلقين الترك تعاليم الدين الإسلامى ومبادئه، فكانوا يلقنونهم إياها بالعربية ويحببون إليهم آدابهم الفارسية معها.

وطغى نفوذ الترك على سلطان الفرس بأغلب بلاد ماوراء النهر، حتى كان الأولون هم أصحاب السيادة الفعلية هناك قبل مجىء المغول فى الغالب.

واستقر قسم من القبائل المغولية الوافدة مع جنكيز خان ببلاد ماوراء النهر جنباً إلى جنب مع القبائل التركية التى كانت — خصوصاً فى الشمال وأكثر الوسط — تمثل الغالبية الفعلية للسكان.

وكان من الطبيعى أن تتأثر القلة المغولية الحاكمة، لبداوتها، بالكثرة التركية المحكومة، التى كانت تعيش فى محيط الحضارة والمدنية الإسلامية وتتجاوب معها[1]، فأخذت عنها لغتها وامتزجت بها، ليزداد بذلك نفوذ الترك ويعظم شأنهم ويدعم كيانهم السياسى.

وبهذا كان قيام دولة المغول أكثر أهمية فى نظر الترك مما هو فى نظر المغول أنفسهم؛ فلم يقف الأمر عند حد تفوق الترك الثقافى حتى انتهى بهم المطاف إلى استيلائهم على مقاليد الحكم فى هذه البلاد وإخضاع غزاتهم لسلطانهم.

وساعد على انتشار اللغة التركية بين القبائل المختلفة التى كانت تسكن بلاد جغتاى، خضوعها جميعاً لحكومة واحدة.

(١) Ameer Ali : The Spirit of Islam pp. 382,3

وتسرب إلى هذه اللغة قدر غير قليل من الألفاظ والمصطلحات العربيـة والفارسية ودرجت فى مدارج الرقى ، حتى إذا ماجاء القرن السابع الهجرى رأينا التركية الجغتائيه تحتل المكان الثالث ، بعد العربية والفارسية ، بأواسط آسيا . وما تزال هذه اللغة تسمع إلى اليوم فى المدن التى تقع فى نطاق جغتاى القديمـــة .

هذا ؛ وتعد أيام الأمراء التيموريين ببلاد ماوراء النهر بمثابة العصر الذهبى للأدب الجغتائى الذى تتمثل أحسن نماذجه فى أشعار على شيرنوائى ومنثورات ظهير الدين بابر حتى لتعد الكتابة التقليدية الأدبية للترك جميعاً[1] .

كانت الحياة بهذه البلاد تميل فى الغالب إلى الاستقرار وتنعم بمظاهر الحضارة والمدنية ماخضع الإقليم كله لحاكم واحد قوى يقر الأمور فيه ويدفع أخطار الغزو عن حدوده .

على أن تيمورلنك ، آخر أصحاب هذا الإقليم الكبار ، لم يكد يمضى حتى حتى غدت الفتن والاضطرابات تعم هذه الأرض كلها ، لينتهى بها الأمر إلى تمزيقها إلى ولايات عديدة ، أصحابها متقاتلون متعادون على الدوام ، برغم ما كان يربط بينهم من وشائج القربى وروابط الدم ، ومن حولهم الأوزبك والمغول والتركمان يتربصون بهم الدوائر ولا ينفكون عن مهاجمتهم وتخطف أراضيهم .

ونتج عن تمزيق الإقليم بعد تيمور إلى ولايات عــدة وما يستتبع ذلك عادة من ضآلة عدد السكان بالتالى ، أن غدت قوات كل أمير لاتعدو أن

(١) تاريخ الحضارة ص ١٠٢ – ١٠٦ ، ١١١ .

تكون مجموعات من العصابات الإقطاعية التى تعتمد فى انتصاراتها على عنصرى المفاجأة وسرعة الحركة ، فتوقع بعدوها قبل أن يمتنع فى حصونه .

وغالباً ما كانت الهدنة تعقد بين الخصمين بنفس السرعة التى اشتعلت بها نيران الحرب .

وفنون الحرب بهذه البلاد كان معظمها بدائياً يقوم على المبارزة بالسيوف والتراشق بالسهام ، وتسلق الأسوار بسلالم الحبال .

ولم يكن البارود والألغام غريباً عليهم فقد كانوا يستخدمونه أيام السلم فى مناجم الياقوت ومواطن العقيق ببدخشان .

ورغم استخدام بعض الأمراء لعدد قليل من بنادق العصر ذات الزناد وبعض المدافع ، التى عرفوها عن طريق الفرس نقلا عن العثمانيين فى الغالب ، فقد بقيت السيوف والسهام وهجمات الفرسان هى الفيصل فى المعارك .

هذا ولم يغفل أحد من هؤلاء الأمراء ، حين كان يتاح له تجهيز جيش كبير ، عن إحياء تشكيلات تيمور الحربية وتقاليده العسكرية فى تقسيم الجيش إلى قلب وجناحين وإقامة فِرَقٍ للمناوشة بأقصى الجناحين .

أما التشريع الغالب عند هؤلاء الأمراء جميعاً فكان الفقه الإسلامى ، دون إغفال أمر العُرف القبلى المتوارث وتقاليد الياصا المغولية .

ورغم ما كان من اشتغال الأمراء التيموريين بنزاعهم والتحاماتهم المتواصلة فى الحروب ، فما يسترعى الانتباه أنهم لم يتخلوا أبداً عن العناية بالآداب والعلوم

والفنون والاشتغال بها ، حرصوا دواماً على الظهور بمظهر رعاة الثقافة والمدنية.
وكان من أبرزهم فى هذا الميدان وأعلام كعباً ، بعد الغ بك ، السلطان حسين بيقرا الذى جمع ببلاطه فى خراسان أساطين الفنون وشيوخ العلم والمعرفة فى عصره وبهذا الأمير خُتمت صفحة كبار التيموريين ببلاد ما وراء النهر بعد ما كان من إرغام الأوزبك لبابر على الخروج من هذه الديار .

بابر

فى السادس عشر من شهر المحرم عام ٨٨٨هـ / ١٤ فبراير ١٤٨٣ بعث عمر شيخ ميرزا صاحب فرغانة برسله إلى مغولستان لتزف إلى صهره يونس، خان المغول ، بشرى مولد حفيد له من ابنته قتلق نكار خانم (١)

وأطلق الزاهد الولى ، مولانا منير مرغينانى ، على الوليد اسم ظهير الدين محمد ، حتى إذا ما صعب التلفظ بهذا الاسم على عشيرته من الأتراك والمغول الجغتائيين ، وكانت عامتهم ما تزال على عجمتها ، أطلقوا عليه من عندهم لقب بابر ، وهو الذى اشتهر به فى التاريخ وعرفه الناس به .

وفى عروق بابر امتزجت دماء الأتراك بدماء المغول ، فأبوه عمر شيخ ميرزا حفيد تيمورلنك التركى ، وأمه هى ابنة يونس خان مغولستان وحفيد جغتاى ثانى أبناء جنكيزخان (٢) .

---

(١) بابرنامه ورقة ١ . هذا واقب خانم معناه ابنة الخان أو زوجته . وقد حرف هذا اللفظ إلى كلمة «هانم» الشائعة فى الشرق . ونظيره لقب بيكم أى حرم الامير «البك» أو ابنته؛ ولفظ بيجوم الشائع بالهند هو تحريف له .

(٢) ينفر بابر من ذكر المغول نفوراً شديداً أثبته بأكثر من موضع بسيرته التى كتبها بنفسه (بابرنامه ورقة ٩٠)، ويعتز بتركيته اعتزازا شديدا ، ومع هذا فقد نسبت دولته الهندية إلى المغول ، إذ كان الهنود قد درجوا منذ قدوم جنكيزخان إليهم على إطلاق اسم المغول على كل الغزاة الذين وفدوا إليهم من بلاد ماوراء النهر من بعد ، كما صار هذا اللفظ بذاته مدلولا على الأبهة وضخامة الأجسام بصرف النظر عن الجنس .

ولقد أدت بصاحب فرغانة أطماعه إلى قضاء أغلب عمره فى محاربة جيرانه، حتى انتهى الأمر إلى تحالف أخيه أحمد ميرزا صاحب سمرقند، مع صهره محمود خان طشقند على غزوه فى فى فرغانة نفسها .

وحدث أن هوى عمر شيخ ميرزا إلى الأرض من أعلى حصن له بأخشى حيث كان يتفقد حمائم له هناك، فلم يصرف موته المفاجىء هذا خصومه عن فرغانة حيث خلفه بها ابنه الصبى بابر الذى لم يكن يتجاوز الثانية عشرة من عمره، فاستيقنوها فرصة مواتية لانتهاب الميراث كله .

ولم ينفع الفتى الصغير ما بذل رجاله من جهود لحمل خصوم من ذوى قرباه على الرجوع عن بلاده ، لكن الأقدار أسعفته من بعد ذلك إذ غرق كثير من دواب صاحب سمرقند بانهيار أحد جسور نهر قبا وتفشى الوباء فى خيوله فقنع بالمدنة مع ابن أخيه وآب إلى دياره . وكذلك فعل خاله صاحب طشقند حين حاصر مدينة أخشى فاستعصت عليه ، واعتلت صحته فقرر بدوره الرحيل إلى بلاده .

ودفع جند فرغانة عن أراضيهم كذلك الأمير أبا بكر ، صاحب قشغر وخُتَن ، وكان قد قدم بدوره ينشد غنما .

ومات السلطان أحمد ميرزا بعد قليل فخلفه على عرش سمرقند أخوه محمود ميرزا الذى كان قد وسّع من رقعة أراضيه بإقليم حصار حتى بلغت حدوده الهندكوش وضمت الصاغانيان وبلاد الخُتّل وبدخشان .

وبرغم أن الحياة لم تطل بسلطان سمرقند الجديد ، فإن الأهلين عانوا كثيراً فى حكمه لما اتسم به من الظلم وما ذهب إليه جنده من انتهاب الدور وسلب الأموال وانتهاك الحرمات .

انقشع عن السلطان الفتى بابر أكبر خطر كان يتهدده بموت عميه أحمد ميرزا ومحمود ميرزا ، فلم يكد يسترد جانباً كبيرا من أملاك أبيه الضائعة حول فرغانة حتى ضم إليه كذلك سمرقند ، خاضرة جده تيمورلنك القديمة ، بعد أن انتزعها من أيدى بايسنغر ميرزا ابن عمه محمود فى مستهل عام ٩٠٣هـ .

وبقى بابر مائة يوم بسمرقند أعظم مدن بلاد ما وراء النهر التى تزخر بآثار التيموريين الفخمة ، ومنها مسجد مزار شاه الذى أقيم حول مقام الصحابى قثم بن عباس ، فاتح المدينة فى خلافة عثمان بن عفان ، والذى جلب له خيرة الصناع ومواد البناء من فارس والهند ، والقلعة التى تزدان بتصاوير حروب تيمور فى الهند ، ثم مدرسة الغ بك ومرصده اللذان ذاع صيتهما فى العالم الإسلامى[1] .

ثم خرج بابر من سمرقند ليقضى على ما أثاره أخوه جهانكير ورجاله من الفتن بفرغانة ، فانتهز على ميرزا صاحب بخارى هذه الفرصة وزحف إلى سمرقند فهزم حاميتها واستولى عليها .

ولئن أتيح لبابر أن يستولى على سمرقند من جديد ، وكانت وقتذاك فى حوزة الأوزبك الذين كانوا قد دخلوها بعد أن غرروا بسلطانها وأمه ، فإن شيبانى خان الأوزبك لم يسكت عنه حتى أخرجه منها بعد شهور قليلة .

(١) يصف بابر فى سيرته إقليم سمرقند وصفا دقيقا مفصلا ، فيتحدث عن موقعه الجغرافى وما يتخلله من حاصلات وما به من صناعات ، ويشير إلى تاريخه وأول دخول الإسلام فيه ومن ظهر به من العلماء ومشاهير الرجال ومن حكمه من آل تيمور . بابرنامه ورقة ٤٤ به وما بعدها .

وتمكن من بابر اليأس حين رأى أغلب جنده ينفض عنه وذوى قرباه يعرضون عنه حين استنجد بهم ، فعقد العزم على الهجرة إلى إقليم خطان عند الصين الشمالية ، مبتعدا عن بلاد ما وراء النهر كلها وما أصابه بها من أهوال ومتاعب .

ولم يُغن بابر فتيلا ما أمدّه به خالاه المغوليان ، أحمد ، خان مغولستان ، ومحمود ، خان طشقند ، من جند ، حتى قدم إليه كل منهما بنفسه . ذلك أن خان الأوزبك لم يكتف بما أنزله من هزيمة بهذا الجند عند الجنوب من طشقند ، حتى أوقع الخانين المغوليين [1] فى أسره ثم انطلق من بعد ذلك يطارد بابر فى عنف متواصل حتى حمله على النزوح من بلاد ما وراء النهر كلها آخر الأمر .

في أرض كابل وغزنة : ظل بابر بعد ، أن أفلت من أيدى شيبانى خان الأوزبك ، يضرب مدة على غير هدى فى منطقة تلال أسفرا ، التى تفصل فرغانة عن إقليم حصار ، حتى تغلب طموحه على نوازع اليأس فى نفسه فخزم أمره على المسير إلى خراسان لعله يصيب حظا طيبا عند ابن عمه السلطان حسين بيقرا . لذا غادر فرغانة فى المحرم من عام ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م وهو فى مستهل العام الثالث والعشرين من عمره ، ورجاله دون الثلاثمائة ، فما إن بلغ إقليم حصار وتخطاه صوب الجنوب حتى أقبل عليه خسرو شاه صاحب حصار بقواته وجموع من عشائر الإبل والأولوس الهاربين من وجه الأوزبك فانضموا جميعاً إليه .

ورأى بابر القوم من حوله فى رعب وهلع خوف الأوزبك ، وتردد

(١) تاريخ رشيدى ١٢٣ ، ١٥٩ – ١٦١ .

شديد في المسير إليهم ، فآثر أن لا يغامر بما اجتمع له من الجند والمال بالاشتباك مع عدوه من جديد .

ولئن غدت بلاد ماوراء النهر كلها بأيدى الأوزبك ، وهذى خراسان يحكمها سلطان قوى هو حسين بيقرا ، وهو محط أنظار شيبانى، خان الأوزبك، وهدفه التالى فى الغالب ، فإن أرض كابل وغزنه — فضلا عن بعدها عن مواطن العراك وقتذاك — قد أخذت الفوضى تعمها حين توفى سلطانهما ألغ بك بن السلطان أبى سعيد ميرزا. ويسر اضطراب الأحوال فى هذه البلاد لبابر امتلاكها عام ٩١٠ هـ، دون إراقة دماء ، بعد أن ضمن لآل أرغون ، أولى الأمر فيها إذ ذاك ، الأمان فى قندهار [١] .

وهذان الإقليمان ، أى كابل وغزنه ، كانا يشغلان مساحة كبيرة من بلاد الأفغان الحالية [٢] . وتقوم مدينة كابل به وسط حدائق ومروج خضراء ، وإقليمها صعب المسالك والدروب ، إلا أن توسطه بين الهند وخراسان قد ساعد على رواج مركزه التجارى .

ويشتهر الإقليمان بوفرة الفواكه والحاصلات ، وطيب المناخ فى المنخفضات

---

(١) حبيب السير رابع ٣٠٨

(٢) هذه التسمية من مصطلحات العصور الحديثة فسكان هذه البلاد كانوا ينتمون فى الواقع إلى قبائل وأجناس مختلفة من فرس ومغول وترك وعرب ، ومن هذا القبائل الهزرا والتكودرى ، ثم الأفغان، ومنهم يوسف زى والأفريدى والبطهان الذين كانت مواطنهم بمنطقة التلال فيما بين كابل وبشاور . والمعروف من تاريخ هذه البلاد ، على غموض ماضيها ، أن السلوقيين الأغريق والهون والهنود والفرس ثم العرب والصفاريين والسامانيين والغزنويين والغوريين تداولوا الحكم فيها ،كما استولى عليها تيمورلنك فلبثت فى حوزة أبنائه عدة قرون.
Sirdar Ikbal. Afghanstan pp.22-29.

فى الوقت الذى يكسو الثلج فيه مرتفعاتهما شتاءا ، وفيهما قامت دول إسلامية قوية مهمة مثل الغزنويين والغوريين . وأدت ضآلة رقعته بالنسبة لأراضى جيرانه الفسيحة إلى طمع أصحابه فى الغالب فيما يجاورهم من أرضين ، فانحدروا إلى سهول الهندستان ومراعى خراسان وفارس مرات متكررة فى التاريخ .

خيل لبابر أن الأمر قد استقر له فى مقامه الجديد حتى انطلق، بعد أن فرغ من تنظيم شئون دولته الجديدة ، فى غزوات خفيفة لمشارف الهندستان ومنازل الخلجيين لينتهى من بعد ذلك إلى الإستيلاء على قندهار .

على أن الأخبار وافته بخروج شيبانى خان من سمرقند فى خمسين ألف من الجند أواخر عام ٩١٢ هـ / ١٠٥٧ م ، اقتحم بهم خراسان على أبناء السلطان حسين بيقرا فأعمل السيف فى نفر منهم وسبى نساءهم. وأطلق جنده بلادهم كلها فانتهبوها وقتلوا كثيرا من أهلها وفيهم صفوة من العلماء والوجوه (١) ، ثم استدار بهم من بعد ذلك فطاردهم من مرو حتى بلغ قندهار وأخذ يطرق على بابر أبواب ملجئه بأرض كابل طرقا عنيفا حتى ظن أن لا عاصم له منه إلا أن يلوذ بالهند ، فأجمع ورجاله أمرهم بينهم على الالتجاء إليها .

فهاهم الأمراء التيموريون قد أخرجوا جميعاً من بلاد ماوراء النهر ، وهاهم الأتراك الجغتائيون قد صاروا جميعاً فى نطاق دولة الأوزبك خوفا أو طمعاً . ولئن كان بابر قد قُدِّر له أن يفلت من براثن الخان الأوزبكى ، فإنه وهو فى عزلته بكابل أضعف شأنا وأقل جندا من أن يواجه هذا العدو القوى الذى لا يرتضى مهادنة أو يقبل مسالمة .

---

(١) Vambery : Hist. of Bokhara pp. 261-63.

وشاءت الأقدار أن تهدئ من روع بابر ، إذا اضطر الأمير الأوزبكى شيبانى إلى الارتداد عن قندهار سريعاً ، على أثر ما بلغه من مباغتة بعض الثوار فى خراسان لحصن نيره توعند هرات وكان فيه نساؤه وأمواله[1] ، ليشتبك من بعد ذلك فى صراع عنيف مع شاه الفرس .

ذلك أن شيبانى خان كان قد بعث فى عام ٩١٤ هـ/١٥٠٨ م إلى الشاه إسماعيل الصفوى يهدده باجتياح بلاده إن هو لم يعدل عن مذهب التشيع ويمسك عن حمل الناس عليه قهراً .

حتى إذا ما بعث إسماعيل صاحب فارس إلى خان الأوزبك يسأله فى لطف أن يمنع جنده من التسرب إلى أراضيه عند الجنوب من خراسان وكرمان ويوقف اعتداءاتهم وما يمارسونه من أعمال السلب والنهب ، فرد عليه الأخير برسالة ملأها بالتعريض به حتى سخر منه فى ادعائه ملكا لم يرثه ، وطواها على عكازة وطبق كبير من البوص هما عدة الدراويش[2] ، فكانت الحرب .

وتوغل الشاه الصفوى فى خراسان ودخل مشهد واقتحم هرات ، حتى إذا بلغ مرو فامتنع بها شيبانى خان عليه ، عمد إلى خدعة كان فيها هلاك الخان الأوزبكى وقواته . فقد استدار بجيشه فى اتجاه العراق حتى ظن أنه الرحيل

---

(١) لم يمض بابر إلا القليل بسكابل بعد عودته إليها حتى رزق بابنه همايون فى أواخر عام ٩١٣هـ / ١٥٠٨م . وفى هذه الأثناء اتخذ لنفسه لقب البادشاه الذى لم يحمله أحد من الأمراء التيموريين من قبله إذ كانوا لا يعرفون إلا لقب ميرزا . بابر نامه ورقة ٢١٥ .

(٢) أراد بذلك أن يعرض بابن إسماعيل إذ كان درويشا ، وقد رد عليه الشاه الصفوى الذى كان يعتز بانتسابه إلى أبناء فاطمة البتول ، بأن الرفعة لا تورث وأن الملك لا ينتقل كذلك بالوراثة فى اطراد ، وإلا لما صار من البيشداديين إلى الكيانيين ولما أوتيه جنكيز . . تاريخ فرشته أول ص ٢٠٠

والجلاء ، فكمن على مسيرة عشرة أميال من المدينة ، وحين خرج فى أثره شيبانى خان فى عشرين ألفاً من الجند ، مطارداً ، وقع فى الكمين الفارسى ولقى وقواده حتفهم فيه .

ولم يرجع إسماعيل الصفوى عن قتال أعدائه حتى خضعت له جميع خراسان وصار نهر جيحون هو الحد الفاصل بينه وبينهم .

عود إلى سمرقند : بعثت هزيمة الأوزبك واندحارهم على أيدى الفرس الآمال العريضة فى نفس بابر ، وبات يمنى النفس باسترداد بلاد آبائه والعودة إليها . وقوى من عزيمته دعوة البدخشانيين له بالمسير إليهم ، وقدوم سفراء الشاه الصفوى إليه ومعهم رسالة ودّ من سيدهم وفى صحبتهم خانزاده بيكم أخت بابر ، وكانت قد وقعت فى يد شيبانى خان بسمرقند . وأمد شاه فارس نفسه من بعد ذلك بابر بجيش قوى فتوغل به فى بلاد ما وراء النهر حتى سقطت بأيديه بخارى ودخل سمرقند نُخطِبَ له من منابرها فى منتصف رجب من عام ٩١٧ هـ / ١٥١١ م .

على أن بابر لم يكد يمضى أشهر قلائل بسمرقند ، بعد أن صرف عنه جند الفرس ، حتى تمكن محمود تيمور بن شيبانى خان من استرداد بخارى وإنزاله هزيمة قاصمة بجنده بظاهر سمرقند ، فاستصرخ من بعد ذلك الشاه إسماعيل الصفوى من جديد ، فبعث إليه بقائده أميريار أحمد أصفهانى الذى بلغ من عنقه أن أمر بإنزال مذبحة مروعة بسكان مدينة قرشى ، حين وقعت بأيديه ، فقتل منهم خمسة عشر ألفاً فيهم نخبة من علماء السُّنة والأعيان .

---

(١) تاريخ فرشته أول ص ٢٠١

هنالك تراءى للأوزبك ومعهم الأهالي مدى ما يتهددهم من الخطر في توغل جند القزلباش (أصحاب القلانس الحمراء) للفرس، فجمعوا جموعهم عند غجديوان واشتبكوا مع أعدائهم في قتال مرير انتهى في رمضان من عام ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م بهزيمة الفرس ومقتل قائدهم أحمد أصفهاني المعروف بنجم ثاني [1].

وبرغم أن ارتداد بابر إلى إقليم حصار من بعد ذلك دون خسارة تذكر، إذ كانت الصدمة كلها من نصيب الفرس، فقد رأى أن سكان هذه البلاد الذين رحبوا به بالأمس، حتى أمكن له استرداد أكثر أراضيه السابقة، وفيها بخارى وسمرقند، قد انقلبوا اليوم فأصبحوا له جد كارهون لارتمائه في أحضان الفرس الذين لم يتورعوا، في سبيل نشر مذهبهم وحمل الناس عليه قسراً، عن إنزال المذابح بالسكان والقضاء على فريق كبير من الفقهاء والعلماء السُنيين في قرشي على الخصوص، [2] فانهارت آماله ببلاد ما وراء النهر كلها، وقفل راجعاً إلى كابل، ليولي وجهه بعد قليل صوب البنجاب والهندستان التي سار إليها أجداده من قبل، والتي غدت مسرحاً للاضطرابات والفوضى في ظل حكومة

---

(١) مآثر الأمراء أول ٤٠٩

(٢) يشيد مؤرخو الفرس عموماً بالشاه الصفوي ولكنهم ينكرون عليه عنفه في سبيل نشر مذهب التشيع. (تاريخ عمومي إيران ص٢٥٨). والمعروف أن بابر حاول جهده أن يحمل القائد الفارسي على العدول عن هذه المذابح ولكنه لم يوفق. وكان مما أخذه الناس على بابر ارتدائه لزي الفرس العسكري.

هذا وقد بلغ الأوزبك من النفوذ وسعة الرقعة أن صار دوق موسكو لا يمين إلا برأيهم ويلزم بدفع الجزية لهم، فلولا قتال أمراء المسلمين فيما بينهم إذ ذاك — من الفرس والعثمانيين والأوزبك والمصريين — لتأخر قيام روسيا التي أدى ظهورها إلى إضعاف قوة المسلمين في الدولة العثمانية وفارس، وانتهى بضياع بلاد الأوزبك كلها وفيها بخارى وسمرقند والتركستان، وخضوع أربعين مليونا من المسلمين لجبروت القياصرة الروس واستبدادهم.

ضيقة مقطعة الأوصال ، وهي بثرواتها واتساع رقعتها أصلح مكان لتحقيق حلمه الكبير في إقامة دولة كبيرة له على كل حال .

فتح الهندستان :

لم يكن للهندستان حين أقبل عليها بابر غازياً أوائل القرن العاشر الهجري شيء من تلك الوحدة المتماسكة التي شهدتها أيام كبار الغزنويين ومن خلفهم عليها من أمثال شهاب الدين الغوري وقواده وعلاء الدين الخلجي وغياث الدين تغلق .

ولقد حاول السلاطين اللودهيون الأفغان ، في أعقاب الغزو التيموري ، أن يستعيدوا لهذه البلاد سابق مجدها فصادف نفراً منهم التوفيق ، فأتيح لبهلول لودهي — مثلا — أن يسترد حدود سلطنة دهلي القديمة ويبسط نفوذه على كافة الرقعة الممتدة بين إقليم بهار في الشرق وأقصى البنجاب في الغرب ثم خلفه إبنه سكندر من بعده فأضاف إلى بلاده منطقة الدوآب وأخضع لسلطانه أغلب الراجبوتانا ووثق من علاقاته بحكام البنغال .

وكان عمال دهلي على ولاياتها ، عند اللودهيين ، من الأمراء الأفغان من قبائل لودهي وفرمولي ولوحاني . وكانوا جميعاً يدركون أن الدولة إنما قامت بسيوفهم ورجالهم ، فمناصبهم ، والحالة هذه ، ليست بمنحة من سلطان دهلي أو هبة منه ، فهي حقهم الثابت الطبيعي معه في الحقوق والواجبات .

وحين خلف السلطان إبراهيم أباه سكندر مال إلى امتهان أمرائه والانتقاص من حقوقهم حتى ركب طريق العنف معهم ، فجمعوا أمرهم على

فيترجع عن بلاطه إلى ولاياتهم ليثيروا فتنا عارمة عليه بأوده وجونبور وبهار ويصرحوا بخروجهم على سلطانه.

وما غدت البنغال ومالوة والكنجرات أن قطعت بدورها علاقاتها مع العاصمة، وراح رانا سنكا، صاحب أدايبور، وأقوى أمراء المنادكة فى زمنه يتزعم أمراء الراجبوتانا على حلف عقدوه فيما بينهم بغية القضاء على سلطان المسلمين فى الهند كلها واستعادة أمجاد أجدادهم الغابرة [1].

وانتهى استبداد إبراهيم اللودهى بأمرائه إلى أن انطلق فريق من كبارهم، وفيهم دولتخان لودهى أمير البنجاب وعلاء الدين علم خان عم السلطان يستنجدون ببابر فى كابل ويحرضونه على دخول الهند ومعاونتهم فى إزال سلطان دهلى عن عرشه.

مايفتأ ظهير الدين محمد بابر يردد القول، فى سيرته، أنه منذ أن استقر به المقام فى كابل كان يعتزم التوجه إلى الهندستان، وذلك قبل أن يشرع فى فتحه الحقيقى لها، ففضلا عما كان لجده السلطان أبى سعيد من أملاك عند أطراف البنجاب والسند، كان يرى نفسه الوريث الشرعى لها حتى بعث إلى السلطان اللودهى إبراهيم صاحب دهلى يطالبه بها، فقد تحقق لديه استحالة استرداد بلاد ما وراء النهر عليه بعد أن ثبت الأوزبك أقدامهم بها، وبات الصفويون أصدقاؤه وحلفاؤه يسيطرون على خراسان وما حولها.

---

(١) كانت أمارات الدكن الإسلامية بدورها مستقلة عن نفوذ دهلى، فى حين استطاع آل أرغون، بعد أن أخرجهم بابر من قندهار، أن يضعوا أيديهم على ولاية السند والملتان وينتزعوها من أيدى أصحابها الخلجيين. Prasad. Muslim Rule. pp. 258-60.

ولقد أتيح لبابر أن ينحدر من الهندكوش إلى مشارف البنجاب وسهولة القريبة فى غزوتين ناجحتين بلغ بهما بهيرة وآب منهما بكثير من الأسلاب والغنائم وبقدر طيب من المعلومات المفيدة عن الهند وأهلها ومحاربيها ، وأحوال حكومتها قبل كل شيء ، حتى إذا ما استدعاه بعض أمرائها على سلطانهم خرج إليها فى غزوتين أخرتين بلغ فى أولاهما لاهور قصبة البنجاب ودخل فى الثانية آكرا فجلس على عرش الهند وأقام بها دولة [1] .

غزو بهيرة : خرج بابر من حاضرته كابل فى المحرم من عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م فسلك طريق بشاور فاجتاح حصن بجور على حاميته برغم استبسالها الذى كلفها ثلاثة آلاف من الأرواح [2] حتى إذا ماعبر نيلاآب وتجهلم من روافد السند أقبل عليه زعماء القبائل هناك يعلنون ولاءهم له ، فبسط بذلك نفوذه على مناطق جيناآب وخوشاآب وجينوت ، وكانت جميعها من أملاك التيموريين السابقة ، ثم عبر الحاجز الملحى إلى بهيرة فاستسلم له أهلها على جزية كبيرة دون قتال .

هنالك نصح له رجاله أن يصالح سلطان دهلى على رد جميع أملاك التيموريين بالبنجاب إليه ويعود إلى بلاده .

وحمل بابر على قبول هذا الرأى ما لاحظه من ضيق رجاله بحر الهند اللافح ، وإن كان أمير البنجاب قد حبس رسوله إلى دهلى عنده فلا هو أطلقه إلى غايته ولاهو رده إلى بلاده .

---

(١) يقدر بعض المؤرخين غزوات بابر الهندية بخمس ، فنهم من يدخل فى حسابه تجوله عند مشارف البنجاب الاستطلاعى عام ٩١٠ هـ ومنهم من يضيف إليهم خروجه إلى بشاور لتأديب القبائل الخارجة عليه .

(٢) رأى رجال هذا الحصن البنادق لأول مرة فراحوا يسخرون من أعدائهم وهم يحملونها ، حتى إذا ما انطلقت فأصابت الكثيرين منهم بلغ الخوف منهم مبلغه . بابرنامه ورقة ٢١٧ .

على أن بابر لم يكد يمضى بكابل شهرا واحدا ، بعد أن عاد إليها ، حتى ارتد إليه نائبة على « بهيرة » وما حولها لخروج الهنود[1] والأفغان عليه وعجزه فى قواته القابلة عن القضاء على عصيانهم .

وأدى إلى تعويق خروج البادشاه إلى البنجاب من جديد ما كان من خروج بعض قبائل الأفغان عليه ببلاده حتى انتهى إلى تعزيز حصون بشاور بحاميات قوية تستطيع السيطرة على منازل الأفريدى والوزيرى[2] وخضرخيل فيما حولها. على أنه لم يكد يبلغ مشارف بهيرة من جديد عام ٩٢٦ / ١٥٢٠م حتى بلغه انقضاض شاه بيك أرغون على قندهار وإعماله السلب والنهب فيما حولها من أرضين ، فارتد إليه من فوره فأخرجه منها ونصب عليها ثانى أبنائه كامران ، كما تم له كذلك الاستيلاء على بدخشان فأقام عليها ابنه الأكبر همايون .

حتى إذا ما تم له ذلك كله وتوطد الأمن فى ربوع بلاده فوفد إليه رسل بعض الأمراء الأفغان اللودهيين يستنجدون به من طغيان سلطانهم صاحب دهلى[3] طفق يعد العدة لغزوة هندية كبرى انتهت باستيلائه على أجزاء كبيرة من البنجاب ودخول عاصمته لاهور .

البادشاه فى لاهور : لم يكن بابر ليتردد عن السير إلى أرض الهند من جديد وقد تكشف له فى غزواته السابقة مدى ما عليه هذه البلاد من الثراء

(١) نطلق لفظ الهنود فى هذا الكتاب على المسلمين من أهل البلاد . غير الهنادكة الذين بقوا على ملة آبائهم .

(٢) لهذه القبائل صفحات بطولة مشهودة حين ردت البريطانيين عن دخول بلادهم بطريق الهند . حاضر العالم الإسلامى ثان ص ١٩٨ — ٢١٤

(٣) منتخب التواريخ لبداونى ص ٣٣ .

الكثير وما يتيحه له ترامى رقعتها وضعف حكومتها من فرصة مواتية لإقامة دولة كبيرة له ، وهام بعض أهلها يدعونه إليهم ويحالفونه على سلطانهم .

هكذا خرج بابر من كابل فى مستهل عام ٩٣٠هـ-١٥٢٤م . فما إن أشرف على لاهور حتى التقى بجيش قوى لدهلى فهزمه ودخل المدينة الكبيرة من بعد ذلك فأباحها لجنده أربعة أيام وأشعل النيران فى أبنيتها وأسواقها(١) ، ثم اتجه من بعد ذلك إلى دبالبور فاستولى عليها بعد أن أنزل بحاميتها مذبحة بشعة .

ولحق بالبادشاه فى دبالبور دولتخان أمير البنجاب، الذى كان قد استنصره على السلطان اللودهى من قبل ، فهاله ما استبان له من سعيه لتثبيت أقدامه فيما استولى عليه من من أرضين حتى أقام فريقا من رجاله على شئونها ، وكان الظن أنه ما يلبث حين يتم له دحر عدوه أن يؤوب إلى بلاده ويترك الهند لحلفائه من أهلها . فما غدا حين لمس إهمال بابر أن له انطاق وأولاده يتآمرون بصاحب كابل وقواته حتى كادوا يوقعون بهم . وقد انتهى أمر المتآمرين جميعاً إلى الحبس بعد أن انكشف أمرهم .

واتخذ بابر من بعد ذلك طريقه إلى دهلى . حتى إذا ما انتهى إليه خبر فرار دولتخان وإبنه غازى من محبسهما ، بادر من فوره بالارتداد إلى لاهور خوفاً من قطع خط الرجعة عليه وعلى قواته . ليرغمه ظهور الأوزبك عند بلخ من بعد ذلك على العودة إلى كابل ، وإن ترك بالبنجاب حامية قوية من رجاله كفلت له إقرار الأمور هناك ودفعت عن عاصمة الإقليم قوات دولتخان وأنزلت بها هزيمة شديدة .

وغاظ دولتخان ما رآه من حفاوة بابر بعلاء الدين علم خان عم سلطان

(١) Lane-Poole. India p. 209

دهلى حتى ولاه دبالبور ، حتى أمده بالجند الكثير حين قصد إليه فى مقامه بكابل وأمر قواده بلاهور أن يسيروا معه إلى دهلى فإذا دخلوها أجلسوه على عرشها . فما زال يحتال على الأمير اللودهى حتى انقاد له وقبل صحبته فى زحفه إلى عاصمة الهند ضاربا عرض الحائط بتحذير قادة البادشاه فى لاهور له منه . وقد تصدى لهم السلطان اللودهى عند ظاهر دهلى وأنزل بهم فى الليل هزيمة حاسمة تشتت على أثرها شملهم حتى التمس فريق كبير من القادة مخابىء لهم فى الجبال فى حين آثر فريق آخر المبادرة بالانضمام إلى قوات دهلى .

واقعة بانى بُت :

لم يكد بابر يؤمّن مؤخرته عند بلخ من خطر الأوزبك ، حتى طفق يعد العدّة ليتم ما بدأه من فتوحه الهندية معتمداً على قواته وحدها هذه المرة ليس غير .

فخرج من كابل فى صفر من عام ٩٣٢ هـ / ١٥٢٥ م فى غزوة الفتح آخر غزواته الهندية وأعظمها ، فقد تم له فيها القضاء على ملك اللودهيين والجلوس على عرشهم فى آكرا ليبسط نفوذه من بعد ذلك على الشمال الهندى ويمارس حكمه حتى توافيه المنية به .

واجتمع لبادشاه كابل اثنا عشر ألفاً من الجند عبرَ بهم السند ، حتى إذا بلغ شاطىء جهلم بعث إلى قواته بلاهور ليوافوه بمقامه ، بعد ما بلغه من أمر دولتخان مع الأمير اللودهى علاء الدين علم خان وزحفهما معاً إلى دهلى وهزيمتهما من بعد ذلك .

ولم يشأ بابر أن يواصل زحفه إلى غايته قبل أن يؤمّن خطوطه من أى غدر قد تتعرض له . فهمت بفريق من قواته ، فما زالت بدولتخان وأولاده حتى

أوقعتهم فى الأسر ، ليدخل بابر من بعد ذلك معقل عدوه فى حصن « ملوت » ويستولى على ماله به من أموال وذخائر [1] .

وما غدا أمير البنجاب السابق أن قضى فى محبسه بقلعة بهيرة بعد قليل .

وحين اطمأن الجيش الفاتح إلى تأمين خطوطه فى البنجاب واصل به قائده السير حتى بلغوا نهر جمنة فنزلوا فى مواجهة بلدة « سرساوه » وبعثوا بكشافيهم ليستطلعوا لهم مواقع العدو ويتسقطوا أخباره .

هنالك استقر الرأى بين القادة البابريين على دخول المعركة الفاصلة مع عدوهم ، فعبأوا قواتهم وفق تشكيلات العثمانيين [2] . فرُبطت عربات الحرب بالسلاسل وأربطة الجلد جنباً إلى جنب تتخللها التورات [3] ، واصطف حملة البنادق من ورائها ، ثم زحف الجمع إلى بانى بت حيث معسكر السلطان إبراهيم اللودهى فنزلوا بظاهرها فى آخر جمادى الثانية من عام ٩٣٢ هـ ، فجعلوا المدينة إلى يمينهم وألقوا بعربات الحرب فى الجبهة ومن ورائها المدفع وحملة البنادق والفرسان ، فى حين حُفرت الخنادق وأقيمت المتاريس إلى ميسرة الجبهة وقد تُركت بها ثغرات تسمح لمائة من الجند ، أو ما يزيد عليهم ، بالبروز للقتال منها .

وهكذا كان على بابر وقواته ، التى لم تكن تعدوا اثنى عشر ألفاً ، أن

---

(١) استولى بابر هذا الحصن على مجموعة كتب قيمة ، كبيرة ، فاحتفظ لنفسه بقسم منها وأهدى الباقى ابنه همايون . أكبر ناه ورقة ٣٩ ب

(٢) بابر نامه ، (٢٦٤ أ) .

(٣) التورة هى جنة دروع تصنع على هيئة نسيج السلال من الحسك والغصون لتقى رجال البنادق من السهام

تنازل ، فى هذا الميدان الذى طالما تقرر فيه مصير الهند قبل ، جيش السلطان اللودهى الذى كان يصل إلى المائة ألف من الجند عداً ومعها ألف من الأفيال .

ولم يمض على هذه القوات بهذا المكان أيام ثمانية حتى التحمت معاً فى قتال عنيف أفلحت فيه فرق المناوشة عند جناحى الجيش المهاجم ، آخر الأمر ، فى أن تفصل مؤخرة عدوها عن ساقته ، ثم ما زالت تقذفها بوابل من سهامها حتى أخرجتها من الميدان ، فى حين أطبق رجال الجبهة الوسطى ومعهم حملة البنادق وأصحاب المدافع[1] على قلب جيش دهلى ، فلم ينته اليوم حتى قضى البادشاه على قوات عدوه قضاء مبرماً ، وسقط فى الميدان خمسون ألف قتيل توسطهم السلطان إبراهيم اللودهى صريعاً[2] .

هنالك بادر البادشاه المنتصر بتسيير فريق من رجاله إلى دهلى ومعهم قاضيه الشيخ زين الخوافى فدعوا له على منابرها فى منتصف رجب من عام ٩٣٢ هـ — ١٥٢٦ م ووصلوا فقراءها بقدر من المال هبة منه إليهم ، فى حين وجه ابنه همايون مع نفر آخر من قادته إلى آكرا مقر اللودهيين ومثابة أموالهم وكنوزهم .

<u>على عرش آكرا</u> : دخل بابر قلعة آكرا وجلس على عرش الودهيين بها فى التاسع والعشرين من شهر رجب عام ٩٣٢ هـ ، فكان ثالث غاز مسلم يتوغل فى أرض الهند ويعد من بين أعظم سلاطينها .

---

(١) لم يكن عند بابر أول أمره إلا مدفع واحد وكان لايطلق إلا مرات قليلة فى اليوم الواحد ، ويستغرق تعبئته مدة طويلة . بابر نامه ٣٣٧ .

(٢) تاريخ فرشته أول ص ٢٢٥

وأول هؤلاء السلاطين الغزاة هو « محمود الغزنوى » ، وثانيهم هو « شهاب الدين الغورى » . ولم يكن الحكام المسلمون الذين خلفوا هذين العاهلين فى حكم هذه البلاد إلا من أبنائهم وقوادهم ومواليهم فى الغالب .

ويتميز بابر عن سلفيه بفرط الجرأة والإقدام . ذلك أن محمود الغزنوى ، حين أقبل على الهند غازيا ، كان له ملك سمرقند وبلاد ماوراء النهر كلها وخراسان وفارس ، كما كان له من الجند مايتجاوز عددهم المائة ألف بكثير ، ومن الهيبة ماضمن له تأمين مؤخرته كحدوده وأوقع الرعب فى قلوب أعدائه قبل لقائه .

كذلك كان السلطان الغورى فى زحفه على الهند مائة وعشرون ألفا من الجند ، كما كان حكم خراسان كذلك فى أسرته .

فى حين لم يتيسر لبابر فى غزوة الفتح الهندية إلا أثنا عشر ألفا من الجند ، وموارده ضئيلة ، وأرضه ضيقة الرقعة ، والأوزبك مايزالون ببلاد ماوراء النهر عند مؤخرته يتربصون به . فواجه جموع الهند الكثيفة ذات الثراء العريض فى طموح وإصرار وعزم ، سجل بانتصاره عليها ، من بعد ذلك ، صفحة من أروع صفحات المغامرات فى التاريخ .

وإلى جانب سلطنة دهلى التى تربع بابر على عرشها فى آكرا ، والتى كانت تمتد من البنجاب إلى بهار ، تضم معها إقليم جونبور ، كان بالهند أربع إمارات كبرى إسلامية وأخرتان هندوكيتان ، عدا إمارات عدة أخرى صغيرة متناثرة هنا وهناك .

وأول هذه الإمارات هى الكجرات ، باب التجارة الهندية الأكبر، وكان يحكمها بيت مظفر شاه ، ويليها إمارة بهمنى الدكنية وهى التى أنشأها الأمير حسن كنكوى بهمن شاه ، ثم إمارة مالوه أوماندو وكان عليها أمراء من بيت الخلجيين ، والبنغال وقد حكمها نصرت شاه وأولاده [1] .

أما الإمارات الهندوكية فكان أكبرها اثنتان هما : فيايانكر وموار . وكان يحكم الأولى راجا كرشنادوا . فى حين كان يقوم على الثانية رانا سنكا أعظم الأمراء الراجبوتيين بالهند فى وقته وأعلاهم قدرا وأوسعهم نفوذاً .

أخذ البادشاه فى آكرا يغدق على رجاله مما وقع فى أيديه من أموال اللودهيين الطائلة وكنوز الهند ، فلم يكتف بأن جعل لكل جندى سار معه قدرا وافرا من العطاء حتى بعث بهبات مالية وفيرة إلى عماله وذوى قرباه فيما وراء حدود الهند ، ووصل العلماء والفقراء فى كافة المزارات الإسلامية بخراسان وبلاد ماوراء النهر والعراق والحجاز [2] .

وأبى فاتح الهندستان الجديد إلا أن يكون للمدينة التى بزغ فيها نجمه وعلا بها طالع سعده من العطاء نصيبا فأرسل بقطعة من العملة الفضية (شاهرخية) إلى كل قاطن بكابل ، رجلا أو امرأة ، طفلا أو حدثا ، عبداً أو حراً .

---

(١) فصلنا الكلام عن هذه الإمارات فى القسم الأول من هذا الكتاب .

(٢) تاريخ فرسته أول، ص ٢٠٦ .

ولم ينس ، وهو فى غمرة توزيع هذه الكنوز الطائلة ، أن يلتفت إلى أسرة غريمه السابق السلطان إبراهيم فأجرى على أمه وزوجاته وأولاده رزقاً حسنا وأوصى رجاله بالسهر على راحتهم [1] .

وكان مما عُرض على بابر من جواهر الهند بآكرا ماسة « كوهينور » الشهيرة وكانت التى تزن ثمانية مثاقيل وقد قدر البادشاه قيمتها فى سيرته بما يوازى نصف نفقات الدنيا فى عصره . وكان قد أهدى هذه الماسة لهمايون بن بابر أسرة بكر ماجيت راجا كواليار لحسن رعايته لها بآكرا بعد أن هلك وليها مع السلطان إبراهيم فى حرب بانى بت .

ورد بابر هذه الماسة على إبنه حين قدمها له فما زالت أيدى السلاطين المغول بالهند تتداولها حتى سقطت بأيدى البريطانيين حين دخلوا الهند فزينوا بها تاج ملكتهم فكتوريا [2] .

على أن استيلاء بابر على هذه الكنوز الكثيرة وجلوسه على عرش آكرا لم يكن ليعنى خضوع سلطنة دهلى لحكمه برغم قضائه على السلطان اللودهى وجيوشه. ذلك أن الأمراء الأفغان من حكام الولايات اللودهية أدركوا تماما أن البادشاه إنما قد قدم إليهم ليغتصب بلادهم لنفسه وأنه لن يسكت حتى يقضى على جميع نفوذهم وسلطانهم . فإذا كانوا بالأمس قد دفعهم اعتدادهم إلى

---

(١) برغم ذلك فقد احتالت أم السلطان اللودهى على دس السم لبابر فى طعامه، بابر نامه ورقة ٣٠٥ ، ٣٠٦

(٢) Lane-Poole 204.

الوقوف في وجه السلطان اللودهي ، وهو كبيرهم وابن جلدتهم على كل حال ، فكيف يرضون اليوم بالخضوع لقادم غريب عليهم . فمنهم من شايع أمير بهار جلال الدين بن دريا خان فالتفوا حوله ونادوا به سلطانا عليهم ، ومنهم من سار إلى الراجبوتانا فانضم إلى جبهة الأمراء الهنادكة بها . وسهل لهؤلاء الثائرين تحصين مراكزهم ما تهيأ لهم من وقت كاف كان فاتح الهند مشتغلا فيه بتقسيم ما وقع بأيديه من الأموال والأسلاب . حتى إذا ما فرغ من أمر غنائمه ، وجد ما حول آكرا من دساكر وقرى قد هجرها أغلب أهلها وتوكرها خرابا يبابا حتى كاد لا يجد الطعام الكافي لجنوده والعلف لدوابه .

وأشاعت قسوة الصيف الهندي روح القلق والتذمر بين صفوف القوات الغازية فقد حسبوا ، بعد أن أصابوا من الغنائم والأموال فوق ما كانوا يأملون ، أن أميرهم ما يلبث أن يعود بهم إلى ديارهم بعد أن تم له هزيمة عدوه والاستيلاء على ما وجده عنده من أموال طائلة وكنوز .

ولم يكن بابر ليخضع لرأي رجاله فيرتد عن أرض الهند ، كما ارتد الإسكندر ومحمود الغزنوي وتيمور عنها من قبل ، والفرصة موانية له لإقامة دولة كبيرة قوية له هناك . فما زال بقواده وأمراء جيشه يذكرهم بمبلغ ما صادفوم من متاعب وصعاب تغلبوا عليها آخر الأمر فجنوا ثمار جهودهم بالفوز والغلبة . كما بين لهم أن الدول لا تقوم إلا على ركوب الأخطار ومواجهتها ، وأن الممالك لا يكون إلا بالرعية المخلصة والأقطار المفتوحة ، وهاهم ، بعد كفاح طويل وجهاد شاق ، قدم لهم الاستحواذ على بلاد عريضة ، فليس المتاعب والصعاب ، مهما كان من شأنها أن تغلبهم اليوم على أمرهم فينكصوا عن الهدف الذي غزوا على

قاب قوسين أو أدنى من تحقيقه وبلوغه ويرتدوا على أعقابهم وكأنهم جند منهزم طحنته الإنكسار[1] وأذله .

وهكذا تم لبابر بشجاعته وقوة عزيمته وإصراره القضاء على روح التمرد والتذمر بين جنوده ايوجه فريقا كبيرا منهم، بإمرة ابنه همايون، إلى الولايات الهندية الشرقية ويتجه هو بنفسه من بعد ذلك إلى بيانه وكواليار التى تجارر عاصمته فيضمها إلى ملكه .

ذلك أنه برغم قدوم كثير من شيوخ القبائل الأفغانية فى الدوآب إلى السلطان الجديد ومعهم قواتهم وانضمامهم إلى صفوفه ، فقد ذهب أميران من كبار الأفغان هما نصير لوحانى ومعروف فرملى ، يجمعان الجند حتى صار لهما أربعون ألفا منهم فاستوليا بهم على قنوج ثم اتخذا طريقهما إلى آكرا. وطفق همايون يطارد قوات الثوار فانتزع منهم جونبور وغازيبور وكالى وخير آباد . حتى إذا ما شرع يتعقبهم بإقليم خريد ، عند حدود البنغال ، بعث إليه أبوه يأمره بالعودة إليه على عجل ليعاونه بقواته على دفع خطر الراجبوتين الذى كان قد استشرى حتى امتد إلى كافة المناطق القريبة من دهلى .

معركة خانوه : انتهز الأمر الراجبوتيون فرصة الضعف الذى أصاب الدولة ايام السلطان إبراهيم اللودهى فعقدوا بينهم حلفا لمناهضة الحكم الإسلامى فى الهند تزعمه رانا سنكرام سنك المعروف برانا سنكا صاحب موار وراجا أدايبور . وكان نجم هذا الأمير الهندوكى قد بدأ يعلو أيام السلطان سكندر لودهى حين فر

---

(١) تاريخ فرشته ص ٢٠٦ .

من أنامه صاحبا مالوه والـكجرات وبلغت قواته مشارف دهلى . وما تزال القصص بالمنديروى عن بطولته حتى اليوم .

وعظم شأن هذا الأمير أواخر أيام الدولة اللودهية حتى اتسعت رقعة أراضيه ودخل فى نطاقها بهيلسة وسرنكبور وجندرى ورنتنبهور ، وحتى صار له من الجند مائه وعشرون ألفا ومعهم خمسمائة من الأفيال[1] .

وانتهز رانا سنكا فرصة اشتغال صاحب آ كرا الجديد بالقضاء على الفتن فى المناطق الشرقية وفيما حول عاصمته ، فاستولى على حصن كهندار وراح يهاجم بيانه ودهلبور وكالبى من جديد ، ثم شرع يؤلب الأمراء الأفغان على فاتح الهندستان ويدعوهم للانضمام إلى جبهته ، حتى استجاب له فريق منهم ، وفيهم حسن خان صاحب موات ومحمود خان أخو إبراهيم اللودهى الذى نودى به سلطانا على قومه ، فأخذوا جميعاً يعدون العدّة للزحف على آ كرا[2] .

ولم يكن بابر ليسكت عن هذا الخطر الداهم الذى قد ينتهى بالقضاء على كل ماجنى من فتوح ، فبرز من عاصمته فى جمادى الأول من عام ٩٣٣ هـ حتى بلغ سكرى فأقام بها معسكرة ، وأخذ يحصن مواقعه ، فهيئت عربات الحرب والمدفعية وحفرت الخنادق وأقيمت المتاريس .

وفى هذا المكان أذاع البادشاه فى قومه وكافة أنحاء بلاده منشوراً أعلن فيه عزمه على الجهاد فى سبيل الله بمحاربة الهنادكة ، ورفعة ضريبة التمغة

---

(١) Prasad Muslim Rule, pp. 258, 7.74p.272. هـذا وقد سبق لهذا الراجا الاتصال ببابر بدوره فى كابل قبل زحفه على الهند وتعهد له بمسانده .

(٢) منتخب التواريخ أول ص ٣٢٨

عن كاهل رعاياه ، وإقلاعه عن مقاربة الشراب توبة إلى الله وتقربا إليه منه ، وأهرق ما بالدنان من النبيذ على الأرض وحُطمت أدوات الشراب من ذهب وفضة إلى قطع صغيرة كانت من نصيب الفقراء والمساكين صدقة [1] :

« نحمد توابا يحب التوابين والمتطهرين ونشكر ديانا يهدى المذنبين والمستغفرين . . . وبعد فإن طبيعة الإنسان على مقتضى الفطرة تميل إلى لذات النفس البشرية . فهى ليست بمنجاة عن ارتكاب الآثام « وما أبرّئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربى إن ربى غفور رحيم [2] » .

» وهاهى التوبة عن الشراب قد آن أوانها فى هذه الأوقات المباركة التى نمُدّ المدة فيها للجهاد فى سبيل الله ، وقد اجتمع عساكر الإسلام لحرب الكفار . . . « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » [3] فاقتلعنا أسباب المعصية بقرع أبواب الإنابة — ومن قرع بابا وجّ ولجّ ولج — وافتتحنا هذا الجهاد بالجهاد الأكبر وهو مجاهدة النفس « ربنا ظلمنا أنفسنا » [4] « وإنى تبت إليك وإنى من المسلمين » [5] فأعلنا جميعاً توبتنا عن الشراب وأمرنا بأدواته من كؤوس الفضة والذهب — زينة مجلس الضلالة — فألقيت إلى الفقراء والمساكين والمعوزين صدقة . . .

---

(١) بابرنامه ٣١٢ — ٣١٤ وقد أذيع هذا المنشور فى سيرة بابر الجغتائية باللغة الفارسية لأنها كانت اللغة الغالية فى هذه البلاد .

(٢) سورة — ٥٣/١٢

(٣) سورة — ١٦/٥٧

(٤) سورة — ٢٣/٨

(٥) سورة — ١٥/٤٦

وغايتنا من هذا الفرمان أن يقابل بالطاعة والخضوع ، وينفذ ما نص عليه من تحريم الشراب وصناعته فى كافة أنحاء البلاد ... ورفع التمغة (المكوس) عن كاهل المسلمين ، والجرى على ضوابط شريعة سيد المرسلين ... « فمن بدّلة من بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدّلونه »[1] .

ورأى بابر الخوف يشيع فى رجاله من قتال المنادكة ولم يكن لهم بلقائهم عهد من قبل ، وقد تصدى لقيادتهم راناسكا أعظم أبطالهم ، وتشهد على جرأته وبطولته عين فقأتها السهام وذراع بترتها السيوف وثمانون طعنة تناثرت آثارها فى جسده ، وها هو فريق من أمراء الأفغان المسلمين أنفسهم يؤثر الانضمام إليه على جانب سلطانهم ، فى حين طفق فريق منهم بـ «الدوآب» وما حولها يرتد إلى حصونه القديمة فينتزعها عنوة من أيدى حماتها الجدد .

هنالك أخذ البادشاه يستنهض همم رجاله ويقوّى من روحهم المعنوية فخطبهم قائلا بأن المرء مهما طال به الأجل فمصيره إلى الفناء ، فما أشرف له أن يستشهد فى ميدان الجهاد فيخلد ذكره عن أن يموت خاملا حتف أنفه :

« ولقد أراد الله القدير أن يمتحننا بهذه المحنة ، فإن نسقط فى ميدان الجهاد فقد كُتبت لنا الشهادة وإن ننتصر فقد أعلينا كلمته تعالى » .

وجىء بالكتاب فأقسم كل فرد منهم على ألا يلوى وجهه عن القتال أو يتخلى عن أصحابه طالما كان فيه نفس يتردد بين جنبيه[2] .

---

(١) سورة ٢/١٨١ . هذا وبعدهذا المنشور من الشواهد القوية على تمكن بابر ورجاله من الآداب العربية والفارسية والتركية .

(٢) منتخب التواريخ لبداونى أول ص ٣٤٠

لم يفتّ في عضد الجند البابري ماراوه من انسحاب كثير من أمراء البلاد من صفوفهم ، ومابلغهم من مهاجمة المنادكة لسكواليار ، ونشوب الفتن في « الدوآب » ، فزحفوا إلى أرض خانوه عند مشارف الراجبوتانا يتقدمهم أصحاب آلاتهم الحربية من رجال المدفعية وحملة البنادق حتى يقيموا من نيرانهم، إذا لزم الأمر ، ستاراً يهيء لهم الفرصة لتشكيل صفوهم للقتال في اطمئنان .

والتقى الجمعان قبيل ضحى يوم السبت الموافق ١٣ جمادى الآخر ٩٣٣ هـ / ١٦ مارس ١٥٢٧ م ليخوضوا غمار حرب تعد من أهم الوقائع الحاسمة في تاريخ الهند كلها .

وتحوى سيرة بابر وصفا دقيقاً قيّما لهذه الواقعة ننقل عنه مايلي [١] :

« الحمد لله الذى صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده . . . وصلى الله على خير خلقه محمد سيد الغزاة والمجاهدين . . . وبعد ؛ فما من نعمة تستوجب الشكر أعظم من النصر على الكفار ، فهى فى نظر أهل البصيرة أعلى درجات السعادة . والمنّة لله وحده الذى حقق لنا ، من مكنونات نعمه ، النصر والغلبة ، فكتبنا عنده فى سجل المجاهدين لإعلاء كلمته . . . » .

« وتفصيل الأمر فى مصدر هذه السعادة وظهور هذه الدولة ، أنه لما أضاءت ومضات سيوف فرسان الإسلام من جنودنا بلمعات أنوار الفتح والظفر ، وأعانت أيادى التوفيق الربانى على رفع رايات النصر فى ممالك

(١) بابرنامه ٣١٧ب — ٣٢٤ب وهو المنشور الذى عهد بابر بصياغته إلى قاضيه زين الدين خواق ، فحوى بالفارسية أدق تفاصيل القتال وخططه ونتائجه، ليذاع فى كافة أنحاء المملكة .

دهلي وآكرا وجونبور وخريد وبهار وغيرها من البلدان بما سبق تفصيله ، سارع بالانضواء تحت لوائنا والخضوع لسلطاننا كثير من طوائف القوم من أصحاب الكفر وأرباب الإسلام على السواء .

«أما رانا سنكا فقد تظاهر بطاعتنا بادىء الأمر ثم مالبث أن أظهر ما بطن ، فأبى واستكبر ورفع رأس الفتنة وقاد جيوشها ، واجتمع حوله طوائف فيها من تمنطق بالزنار وفيها من ارتدى ثياب الكفر والارتداد [1] .

وهذا وكان سلطان ذلك الكافر اللعين قد اتسع بالهند قبل أن تبزغ شمس دولة البادشاه بها ، ولكن لم يحدث قبل هذه الحرب أن شاركه أحد من الراجاوات والحكام حروبه أو خرج معه فيها » .

« أما السلاطين الأقوياء من أمثال أصحاب دهلي والكجرات ومالوه ومن إليهم ، فمن كانوا فى حالة تسمح لهم بمعارضته والوقوف فى وجهه ، فقد عجزوا عن أن يتكتلوا ضده دون اتفاق الكفار وإياهم ، فغدوا لذلك يداهنونه بدورهم ويدارونه اتقاء لخطره ودفعاً لشره .

« وهكذا باتت بنود الكفر ترفرف على قرابة مائتى مدينة من مدن الإسلام التى خرب مابها من مساجد وسبى مابها من نساء المسلمين وقتل أطفالهم فيها :

« أما مدى قوته ومبلغ عدته ، فعلى حساب أهل الهند وجريا على

(١) أصحاب الزنار هم المناذكه، أما المرتدون فهم الأمراء المسلمون الذين ظهروا فى صفوف المناذكه .

قواعدهم ، فإن كل إقليم خراجه لكا (أى مائة ألف) يستطيع أن يقدم مائة فارس ، ومايكون خراجه كروا (عشرة ملايين) يقدم عشرة آلاف فارس . ولما كان خراج ولاياته جميعاً يصل إلى عشر كرور فقد كان فى وسعه أن يجتمع له مائة ألف من الفرسان » .

« هذا وقد أقبل عدد من أمراء الكفار يقدمون العون له لأول مرة ، بدافع من أعدائهم المسلمين . وكان لهؤلاء إقطاعات واسعة ؛ فهذا صلاح الدين أمير بهيلسه ورايزن وسارنكبور ، كان له ثلاثون ألفاً من الفرسان ، وهذا راول أودى سنك ، صاحب دُنكر پور كان له اثنا عشر ألفا ، ثم حسن خان ميواتى وكان له اثنا عشر ألفاً ، وبارمل عدرى وكان له أربعة آلاف ، ونربت هاره ، وكان له سبعة آلاف ، ومندنى راى ، وكان له اثنا عشر ألفا ، وسترى كجى ، وله ستة آلاف ، وهرم دوى ، وله أربعة آلاف ، وبرسنك دوى وله مثلهم ، وأخيراً « محمود خان بن السلطان سكندر خان » فبرغم أنه لم يكن له من الملك نصيب فقد تم له جمع عشرة آلاف فارس أمل أن يصل بهم إلى العرش (١) .

« هكذا إنطلقت جموع أولئك الكفار معاً ، كظلمات بعضها فوق بعض ، فى حرب أهل الإسلام والعمل على هدم شريعة سيد الأنام ، لكن المجاهدين انقضوا عليهم طلباً للشهادة فى جهاد الكفار والمنافقين » .

---

(١) لم تزد عدد قوات هؤلاء الحلفاء فى هذه الواقعة على مائة وعشرين ألف فارس Prasad 274 فى حين لم تكن قوات بابر تزيد على ما اشترك به فى واقعة پانى پت . هذا وقد أشرنا فى القسم الأول من هذا الكتاب إلى السر الغالب فى انهزام جموع الهنادكة على كثرتهم أمام الغزاة المسلمين على قلتهم ، وإن زاد على ذلك استخدام بابر المدفعية والبنادق التى لم تكن الهند تعرفها من قبل .

« وفى يوم السبت المبارك الثالث عشر من جمادى الثانى من عام ٩٣٣ هـ أقام جيش الإسلام المظفر مضارب خيامه على تل بجوار خانوه إحدى مناطق بيانه . حتى إذا ما قدم الكفار بأفيالهم — كأصحاب الفيل — برز لهم عساكر ..مين — رياحين الجنة — يقاتلون فى سبيله صفاً صفاً كالبنيان المرصوص .

« أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون »[1] .

« هنالك أجمع أهل الخبرة على تغطية موضع حملة البنادق وستر مكانهم ، وكانوا فى الجبهة ، فنهجوا فى ذلك نهج مجاهدى الروم[2] ، فصفت العربات أمامهم وقد شُدَّ بعضها إلى البعض الآخر بالسلاسل » .

« وكانت جيوش الإسلام تنتظم فى إحكام تام ، والحرس الشاهانى قد توسط الجناحين منها ، وقامت فرق المناوشة بأقصى الجناحين » .

« وحين تقابل الجيشان ، وكأنهما الليل والنهار ، بدأ الاشتباك عند الجناحين ، واشتد أوار الحرب حتى كأنما الأرض قد زلزلت زلزالها ، وبلغ ضجيج قعقعة السلاح عنان السماء . حتى إذا ما اقتحم جناح الأشقياء الأيسر ميمنة المسلمين ، سارعت نجداتنا إليهم ، فلم تكتف بردهم حتى ظلت تطاردهم إلى قلب جيشهم » .

« وألهم بالتوفيق ، نادرة عصره « مصطفى الرومى » وكان فى القلب فى إمرة إبننا « محمد همايون » فتقـــــدم بمدفعه وبنادقه وقذائفه ، فحطم صفوف الكفار » .

(١) سورة ٢ / ٥

(٢) أى العثمانيون

« حتى إذا ما زحفت أفواجهم من جديد تترى انجدة رجالهم فكروا على جناح المسلمين الأيسر فى عنف وشدة ، طفق الغزاة ذووا النجاة يستقبلوهم فى كل مرة بالسهام فيبعثون بهم إلى دار البوار ، أو يرغموهم على الفرار ، وهم يرددون قوله تعالى : « قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين » [1] .

« وحين حمى وطيس الحرب صدرت الأوامر إلى رجال الحرس الشاهانى بالبروز للقتال ، وكانوا فى مواقعهم من وراء المدفعية كالأسود فى أقفاصها ، فاندفعوا من يمين القلب ويساره كطلعة صبح صادق أطل من وراء الأفق ، فضرجوا الكفار فى دماء بلون الشفق وأطاحوا برءوس الكثيرين منهم » .

« هذا كما طفق ، نادرة العصر ، الأستاذ عليقلى بقذفهم [2] وأتباعه ، من وسط الجبهة ؛ بقذائف تحيل الجبال الراسيات كالعهن المنفوش . ولو كوفىء الواحد منها بثقلها أعمالا طيبة لثقلت موازينه ؛ فهو فى عيشة راضية، لحصد بها الكثير من الكفار حصداً »...

« كذلك سقى حملة البنادق — من وراء المدفعية — كثيراً من الأعداء كأس الحمام فى الميدان ، وأظهر المشاة من ضروب المخاطرة ما يخلد أسماءهم مع أسد الغاب الصيد والأبطال الصناديد » .

« وفيما الحال يجرى على هذا المنوال ، صدرت الأوامر بتقدم المدفعية من مواقعها إلى الأمام ، وبدأت الحضرة الخاقانية بدورها فى تقدمها ، والفتح فى ركابها والظفر واليمن . فزحفت على فرقة الكفار » .

(١) سورة ٩ / ٥٢

(٢) كان لبابر إلى جانب مدفعه قطع صغيرة أخرى يسميها فرنكية عدا بنادقه التى تعرف باسمها التركى «تفك» . هذا وكانت عرباته الحربية تصل إلى ثمانمائة .
Elliot & Dowson. India vol Vi. p 468,

« واختلط الضارب بالمضروب ، والغالب بالمغلوب ، وانعقدت سحب الغبار فوق الرءوس وقد حجبت الشمس عنهم حتى توارت المرئيات، فلم يكن يضيء هذا الليل إلا لمعات السيوف وومضاتها ، وما ينبعث من الشرر حين تضرب الخيل الأرض بحوافرها فى الكر والفر » .

« وهتف الهاتف بالغزاة المجاهدين أن « لا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون »[1] وأنه « نصر من الله وفتح قريب »[2] . فأقبلوا فرحين مستبشرين يقاتلون فى طلب الشهادة . وبلغت المعركة أوجها بين الصلاة الأولى والثانية ، ليفلح المسلمون من بعد ذلك فى تطويق جيوش الكفار وحصرهم بمكان واحد » .

« حتى إذا ما رأى هؤلاء الأشرار الملحدون أنه قد أحيط بهم ، انطلقوا مستيئسين يهاجمون من جديد على طول الجبهة حتى كاد النصر يواتيهم عند الجناح الأيسر ، لولا أن أطبق المجاهدون عليهم فاقتلعوهم من أماكنهم وألزموهم طريق الفرار قسراً » .

« هنالك أقبلت نسايم النصر على بستان حظنا ومعها مدد من قوله تعالى: « إن فتحنا لك فتحاً مبيناً »[3] . وتجلى لأعيننا الإقبال والسعادة فى كلامه عز وجل : « وينصرك الله نصراً عزيزاً »[4] .

« وهكذا انفرط عقد الهنادكة فتناثروا كالعهن المنفوش ، فمنهم من سقط فى حومة الوغى ، ومنهم من هلك فى تيه الخراب فصار طعاماً لجوارح الطير ،

(١) سورة ٣/١٣٩
(٢) سورة ٦١/١٣
(٣) سورة ٤٨/١
(٤) سورة ٤٨/٣

حتى تكدست أجسادهم بعضها فوق بعض كالهضبة الرابية وتكومت رءوسهم كالمنائر العالية.[1] »

« وكان من بين القتلى حسن خان ميواتى وكثيرون من أمراء الكفار وأصحاب الشوكة والأعيان الذين بعثت بهم السهام ونيران البنادق إلى سقر ».

« أما دار الحرب فقد غصت بالجرحى منهم، فكانت كجهنم حين يتلقى خزنتها المنافقين فتمتلىء بهم، كما لم يكن هناك موطىء لقدم إلا وفيه صرعى من علياتهم . « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم »[2] .....

هكذا استمرت معركة خانوه من الضحى حتى الغروب لتنتهى بهزيمة عصبة الراجبوتيين هزيمة حاسمة، وهروب راناسنكا زعيمهم إلى أحد حصونه بالجبال مثقلا بجراحه، فلم يمتد به الأجل إلا عاما وبعض عام[3] .

وبهذا أتيح للغازى[4] التيمورى أن ينزل بأعدائه بالهند ضربتين حاسمتين فى مدى عام واحد، ضعضعتا من كيانهم وقضتا على قواتهم .

ولئن مكن للبادشاه انتصاره عند بانى بت من الجلوس على عرش آكرا، فقد تم له فى وقعة خانوه القضاء التام على الخطر الراجبوتى الذى ظل يتهدد

---

(١) من تقاليد التيموريين أنهم كانوا على أثر كل نصر، يقيمون من رءوس القتلى من أعدائهم على هيئة أهرامات ومنائر .

(٢) — سورة ٣ / ١٢٦ . حافظنا فى نقل هذا الوصف إلى العربية على أسلوب الأصل وصورته الأدبية ما وسعنا ذلك، ولم نرفع منه إلا أسماء القواد الكثيرة .

(٣) — Havell, p 425

(٤) اتخذ بابر لنفسه هذا اللقب على أثر انتصاره فى الوقعة . تاريخ رشيدى ٤٠٩

سلطان المسلمين بالهند قروناً كثيرة فلم تقم لهم قائمة من بعد ذلك أبداً[1] .

وبهذا النصر ، الذى لم يؤته أحد من سلاطين الهند المسلمين منذ أيام محمود الغزنوى ومحمد الغورى ، طار صيت بابر ؛ وازدادت هيبته بين المسلمين فى الهند ، وتوطد مركزه على عرش آكرا ، وأرسخ الأساس الذى قامت عليه الدولة المغولية ، فلم يعد يحارب دفاعا عن عرشه وتثبيتاً له ، فصار خروجه لتوسيع رقعة ملكه وبسط نفوذه وسلطانه فى الغالب .

القلاقل الشرقية :

كان على بابر لكى يغدو سيد الهندستان كله ، بعد أن تم له القضاء على عصبة الراجبوتيين وأمنت أراضيه حول دهلى وآكرا ، أن يستولى على بعض الحصون الكبرى التى ما يزال يعتصم بها أمراء من المنادكة ، ويقضى على نفوذ الأمراء الأفغان فى المناطق الشرقية ، ويخمد ما يثيرونه من فتن هناك ، فقد كان يعلم أنه لا سبيل إلى مهادنتهم فى الغالب ، وهم الذين أدى بهم كبرياؤهم إلى تقويض عرش السلطان اللودهى ، زعيمهم وابن جلدتهم ، من قبل .

وسارت جند آكرا صوب الشرق بطريق قنوج ، فى حين قصد البادشاه ، على رأس فريق آخر من قواته ، حصن جندرى عند أقصى الجنوب من كواليار وكان عليه أمير هندوكى قوى هو ميدنى راو .

وبرغم امتناع أسوار الحصن على مدفعية المسلمين ، إذ كانت من الحجر الصلب ، فضلا عن موقعها بأعلى التلال ، فإن الجند استطاعوا تسلق هـذه

Lane - Poole 210 (١)

الأسوار والتسرب إلى داخلها ليشتركوا مع الحامية فى قتال وحشى عنيف ردَّ فيه فريق منهم عن أماكنه .

ذلك أن رجال الحصن حين أيقنوا بضياع قلعتهم من أيديهم ، قتلوا نساءهم بأيديهم ، ثم انطلقوا يعرضون أنفسهم على سيوف الغزاة مقاتلين فى ضراوة وشدة بأس ، فى حين كان أميرهم ونفر من خاصائه يتبادلون فيما بينهم الطعنات حتى فنى أولئك وهؤلاء جميعاً عن آخرهم[1] .

وكان فى خطة بابر ، بعد الفراغ من الاستيلاء على هذا الحصن ، أن يخضع بعض حصون أخرى بمالوه ثم يسير إلى الراجبوتانا من جديد ليقتحم جتور عاصمة موار ومقر خصمه المهزوم رانا سنكا ، لولا ما بلغه من ارتداد قواته فى الشرق إلى قنوج بعد أن أرغمت على إخـــــلاء لكناو ، فسارع إليها بنفسه .

وبلغ بابر قنوج ليعبر رجاله جمنه تحت ستار من نيران المدفعية والبنادق فيلتحموا فى قتال عنيف مع ثوار بهار الذين قد عاد إلى تزعمهم السلطان محمود ابن سكندر لودهى بعد هزيمته فى خانوه . ولولا تريث البادشاه فى مطاردتهم لأمكن له من فوره القضاء عليهم قضاء تاما ،

وعوق حلول فصل الأمطار القوات الغازية من الاستيلاء على إقليم بهار كله بعد ما بلغت أوده ، مما أتاح الفرصة للثوار ليعودوا إلى إشعال نيران فتنة عارمة فى العام التالى استنفد القضاء عليها كثيراً من جهود بابر وكادت تفضى إلى اشتباكه فى الحرب مع البنغال .

---

(١) تاريخ فرشتة ٢٠٩ ، ٢٢٠

ذلك أن محمود لودهى كان قد اجتمع له مائة ألف من الجند استخلص بهم إقليم بهار كله ، وبعض الأراضى المحيطة به ؛ حتى إذا ما سير إليه البادشاه ابنه « عسكرى » أول الأمر ثم لحق به من بعد ذلك بنفسه فدخل «الله آباد» وجنار وبنارس فأقبل عليه الأمراء الأفغان مستسلمين بعد أن انفضوا من حول الثائر اللودهى ، رابه التجاء بقية الثوار إلى إقليم خريد برغم تأكيد نصرت خان صاحب البنغال له بنزوعه إلى المسالمة وحرصه على الولاء[1].

هنالك رأى بابر أن يحزم أمره مع قوات البنغال التى شدت من أزر الثوار إذ كانت فى مواقعها عند التقاء الكنج برافده ككرا ، تعوق من تحركات جند آكرا فى مطاردتها للثوار .

وتيسر « لعسكرى » أن يعبر ببعض قواته الملتقى الأعلى لككر والكنج فطفق يناوش البنغاليين ويشاغلهم ، حتى تم عبور للدفعية ورجال البنادق مع بقية الجيش عند الملتقى الأدنى للنهرين ، فوقع العدو بذلك بين فكى الكماشة ، فلم يغنهم فتيلا تفوقهم العددى وإحكامهم فى التصويب ومهارتهم فى استخدام الأسلحة النارية إذ دارت الدائرة عليهم فركنوا إلى الفرار ،

وهكذا انتهت معركة ككرا إلى القضاء التام على الثوار الأفغان وإعلان صاحب البنغال ولائه للبادشاه .

وبهذه الوقعة التى تعد ثالث معركة حاسمة خاضها بابر فى الهند ، بعد معركتى بانى بت وخانوه ، غدا ذلك الأمير التيمورى صاحب السلطان المطلق فى

(١) أكبر شاه ورقة ٣٩ ب .

الهندستان ، وغدت دولته تمتد فى رقعتها المترامية الأطراف من جيحون إلى البنغال ومن الهملايا إلى جندرى وكواليار[1] .

وآب بابر إلى عاصمته فى شوال من عام ٩٣٥ هـ فلبث بها قليلا ، ليخرج منها من بعد ذلك إلى البنجاب وفى نيته أن يواصل سيره إلى بدخشان، فيدفع عنها الأوزبك الذين استفحل خطرهم من جديد برغم ما أنزله بهم طهماسب ، شاه الفرس ، من ضربات قاصمة .

ولعل خوفه من قيام القلاقل بالهند فى غيبته وبداية انهيار صحته نتيجة للجهود المضنية المتواصلة التى بذلها فى حروبه ، قد منعاه حتى من الشخوص إلى كابل ، وكان غير بعيد منها ، وهى التى طالما ردد اعتزازه بها وشوقه إليها.

وقدم على بابر ، بلاهور ، ولده الأكبر همايون فصحبه إلى آكرا ، وكأن القدر قد استجاب للبادشاه حين اشتد الداء بابنه هذا ، فتمنى على الله أن يجعله فداءه ، فلم يبرأ همايون من علته حتى رقد بابر مكانه فلم يغادر فراشه من بعد ذلك إلا إلى لحده[2] .

حين شعر بابر بدنو أجله دعا إليه رجال دولته فأخذ منهم البيعة لولده همايون بعد أن أوصاه بهم وبأهل بيته وإخوته ونصحه باصطناع الحلم والتذرع بالحزم فى حكمه .

وحاول بعض رجال الدولة ، والبادشاه يعانى سكرات الموت ، أن يعدلوا عن وصية أميرهم فيعهدوا بالملك إلى أحد أنسباء بابر ، وكان يدعى سيدمهدى

---

(١) Grenard, Baber pp. 156—58.

(٢) كان مما عجل فى نهاية فى الغالب إدمانه كذلك على تعاطى المعجون (الأفيون) وإن أقلع عن تناول الشراب تماما عند حربه مع رانا سنكا فى معركة خانوه. تاريخ رشيدى ٤٦٩

خواجة ، لتكشف لهم المصادقات عندئذ ما كان ينتويه لهم مرشحهم هذا من أذى وشر فيعودوا إلى سيرتهم الأولى .

ومضى بابر فى السادس من جمادى الأولى من عام ٩٣٧هـ / ١٥٣٠ م وهو فى الخمسين من عمره ، والعام الثامن والثلاثين من حكمه ، فثوى فى بستان نور أفشان على جمنه . ثم نقل جثمانه من بعد ذلك إلى كابل فدفن بربوة تطل على هذه المدينة التى كانت أحب بقاع الدنيا إلى قلبه ، والتى خرج منها فتم له إقامة ملك عريض شمل الشمال الهندى ، وما غدا أولاده يزيدون فيه حتى خضعت لهم شبه القارة الهندية كلها .

شخصية بابر : لا يعد ظهير الدين محمد بابر أعظم حكام المسلمين فحسب وفيهم إسماعيل الصفوى شاه الفرس وسليم الأول سلطان العثمانيين ، بل هو كذلك من أقدر الرجال الذين عرفتهم العروش فى مختلف العصور ، وأحد أعاجيب الزمان همة وطموحا وصبرا على المكاره .

وَلِيَ عرش فرغانة، تلك الأرض الصغيرة عند سيحون، وهو فى الثانية عشرة من عمره ، وليس له من بين جيرانه أو ذوى قرباه ناصح أو صديق ، إذ كانوا جميعا بين طامع فى ملكه أو على عداء سابق مع أبيه . فلولا بقية نفر من خلصاء أبيه القدماء لقضى عليه من بادىء الأمر وضاع ماورثه من الملك .

تعرض بابر منذ شبابه لمحن ومتاعب جارفة عنيفة ، فلم يعرف اليأس إلى قلبه سبيلا أبداً ، فكم من مرة انفض عنه أنصاره وأغلب رجاله حتى وقف وحيداً شريداً لا أرض له ولا مال ولا رجال ، فعاود جهاده من جديد ومضى فى مغامراته . حتى رأيناه يذكر فى سيرته أنه منذ ولى العرش عام ٨٩٩ هـ حتى عام ٩٣٣ هـ ، أى فى مدى خمسة وثلاثين عاما ، لم يقض شهر رمضان عامين

متتاليين بمكان واحد[1] .

ولى بابر عرش فرغانة ، كما جلس على عرش جده الأكبر تيمورلنك فى سمرقند . فإذا الدوائر تدور عليه فيفقد جميع أملاكه ببلاد ماوراء النهر ويغدو شريداً طريداً يسير أغلب ليله ويختفى معظم نهاره ، ولا يأمن أن يبيت بمكان واحد ليلتين متعاقبين حذر الوقوع فى يد غريمه شيبانى خان الأوزبك الذى أخذ على نفسه القضاء على البيت التيمورى الذى آواه وآباءه من قبل[1] .

ويظل بابر يضرب فى الصحراوات والجبال عاما وبعض عام حتى يلتقى ، وهو فى طريقه إلى الخروج من بلاده ، بجموع من عشائر المغـول والأتراك ببدخشان فتسير فى ركابه هربا من وجه الأوزبك ومعها الكثير من أموال حصار وبدخشان فيدخل بها أرض كابل وغزنة ويجلس على عرشها وكان فى حوزة التيموريين لسنين طويلة خلت .

ويكسر إسماعيل الصفوى ، شاه الفرس ، شوكة الأوزبك ويقضى على زعيمهم شيبانى خان . فتتجدد الآمال عند بابر لاسترداد بلاده وبلاد آبائه بماوراء النهر بمعونة الشاه الفارسى؛ حتى إذا مارد عنها بعد توغله فيها حين نقض السكان عهدهم معه ، لما أذاقهم حلفاؤه من ويلات لإرغامهم على اعتناق المذهب الشيعى ، ولى وجهه قبل الهندستان التى سبقه إليها آباؤه من قبل ، فى عزم وقوة أتيح له بهما أن يقيم بها دولته التى خلدت ذكره فى التاريخ .

وكان لضآلة قواته فى بدء حياته ، ثم تدرجها فى الزيادة ، بعد ذلك ، أثر

---

(١) بابر نامه ٢٣٠ .

(٢) تاريخ رشيدى ١١٦ — ١٢٠ ، ١٦٦ ، ١٦٧ .

كبير فيما تمرس به من خبرة عسكرية واسعة أفاد منها فوائد جمة في حروبه الكبرى بالهندستان .

هذا كما مكنته خبرته الطويلة المكينة بنفسية جنده ، على اختلاف أجناسهم من مغول وترك وأفغان وغور ، من أن يسيطر عليهم سيطرة تامة ويشد كل تذمر أو فتن تشيع بينهم في مهدها ، حتى قضى بقوة شخصيته على تمردهم حين ضاقوا بحر الهند وفاض بهم الحنين إلى ديارهم بعد ماأصابوا الكثير من غنائم الفتح في أكرا عقب دخولهم فيها ، وأستنهض هممهم فأعاد الثقة إلى نفوسهم حين شاع فيهم الخوف قبيل لقاء الراجبوتيين في معركة خانوه .

على أن بابر ورث عن أجداده ، من المغول والأتراك على السواء ، إلى جانب صفات الجندية ، ميلهم إلى الأمعان في تقتيل أعدائهم وتفاخرهم بعظام الأكداس التي كانوا يقيمونها من رءوس القتلى على هيئة المنائر والأهرامات ، وانتهابهم لديار أعدائهم وإشعال النار فيها مالم يبادروا إلى الاستسلام لهم والاعتراف بسلطانهم .

وثمة خصال غير حميدة ورثها بابر عن آبائه وورثها أبناءه من بعده ، كالإدمان على تناول الشراب الذي لم يقلع عنه عند حربه مع راناسنكا إلا ليدمن تعاطي للمعجون ذلك المخدر القوي الذي عجل في الغالب في نهايته ولما يبلغ الخمسين من عمره ، برغم مااشتهر عنه في شبابه من قوة جسدية خارقة حتى كان يطوي ذراعيه على الرجلين ويتخطى بهما الخنادق قفزا في تتابع سريع ، ورغم ممارسته كافة ضروب الرياضة المعروفة في عصره ، حتى ليذكر في سيرته أنه سبح في كل نهر صادفه في حياته ، وقطع نهر الكنج في أعرض مواضعه في

ثلاثة وثلاثين ضربة ، وهو مالم يتيسر لغيرة من رجاله[1] .

وعرف هذا السلطان التيموري ببغضه للتعصب الديني وبعده عنه ، ونهج أبناؤه في الهند نهجه فمارس الهنادكة طقوسهم الدينية في حرية تامة إبان حكم الدولة المغولية في الغالب[2] .

وبلغ من تسامح هذا الجندي الموهوب أنه تغاضى عما أنزله به بعض رجاله وأقاربه من أضرار سالفه ، بل لقد عفى عن هؤلاء ، حين وفدوا عليه بالهند ، برغم أن منهم من أبى أن يضيفه وأمه حين ضاق به الحال ببلاد ماوراء النهر ، فقد كان يهدف أبدا إلى كسب عدد كبير من الأصدقاء إلى صفوفه .

وكان من قبيل هذه المرونة السياسية إقباله وجنده على ارتداء لباس القزلباش الفرس مجاملة منه لحليفه إسماعيل الصفوي واستزادة لعونه ومساعدته ، وإن لم يمنعه ذلك من معارضة قواد الفرس لما كانوا يقترفونه من مذابح بالأهالين بأرض بلاد ما وراء النهر تعصبا منهم لمذهب الشيعة .

هذا كما أفلح بدهائه أن يحول الأمراء الأفغان بالهندستان من عدائهم له مجتمعين إلى معاداة بعضهم البعض الآخر ، ومن ثم فتح أبواب بلاطه لكل من قدم إليه مستسلما في الوقت الذي كانت جيوشه تطارده فيه من أصر منهم على عصيانه ، حتى دانت له الهندستان كلها في أقل من سنوات خمسة .

حكومة الهندستان : لم يمض بابر بالهندستان ، منذ أن دخلها فجلس على عرش آكرا حتى وافاه الأجل بها سوى سنوات ستة قضى أغلبها في حروب متواصلة لإرساء قواعد دولته ، فلم ينعم بالسلام إلا عاما وبعض العام ، وهو

---

١ - بابرنامه ٣٦٣ ب

أمد قصير لا يتأتى معه لأى حاكم ، مهما أوتى من المقدرة والكفاءة ، أن ينظم شئون بلاد مترامية الأطراف كثيفة السكان ، متعددة الأجناس والأديان كالهندستان .

ولئن أبقى البادشاه على هيكل الإدارة الهندية فقد أدخل عليه ، على كل حال ، بعض النظم التيمورية ، فجعل على كل إقليم نائبين له ، يقود أحدهما الجند ويراقب جمع الضرائب ويرعى مصالح السكان ، ويتولى الآخر الإشراف على الإيرادات والمصروفات ويوازن بينهما ، ويدفع للجند والعمال أجورهم[1] .

وكذلك كان من مبادىء التيموريين التى ساروا عليها بالهند ألا يتراخى العمال فى جمع الخراج والمكوس ، دون إلحاق الأذى بالناس ، وحض نوابهم على إجراء العدل بين السكان جميعا لا يفرقون فى ذلك بين مسلم وهندوكى[2] .

على أن بعثرة بابر لما وقع بأيديه من أموال طائلة وكنوز بآكراء وماذهب إليه من بذخ فى العطاء والبذل حتى أطلق عليه أصحابه لفظ « قلندرى »[3] ثم رفعه التمغة عن رعاياه قبيل حرب رانا سنكا ، أدى ذلك كله إلى اضطراب ماليته فذهب يفرض على الناس الضرائب من جديد .

هذا ، كما أمر بمسح كثير من الأراضى وشق كثير من الطرق ليربط بها بين مختلف أجزاء بلاده ، وكان أعظمها تعبيد الطريق الطويل فيما بين كابل وآكرا ، وإقامة منائر به ليهتدى بها السابلة ، ومنازل للمسافرين والدواب[3] .

---

١ — يقدر بابر فى سيرته دخل الهندستان بما يوازى المليونين ونصف المليون من الجنيهات بابرنامه ٢٩٢ — ٢٩٣

٢ — The Indian Moslems pp 23 . 24

٢ — تاريخ فرشته أول ٢٠٦ . وقيل إن « قلندر » كان صاحب طريقة تدعو إلى الزهد فى المال والنساء ، والقلندرى هو الزاهد فى حطام الدنيا حتى ليجود بكل ما تصل إليه يده

٣ — بابرنامه ٥٣١

ولقد زار بابر بكو اليار أفخم دور الهند فى عصره وهى قصر بكرماجيت وابنه ما نسنكث . ورغم ما ذكره عن التأنق فى بنائهما ونقوشهما ، فقد ضاق ببعدهما عن التناسق مع سوء التهوية وتوزيع الضوء بهما .

ونسى بابر ، وهو يظهر امتعاضه من هيئة مبانى الهند ، ما أنزله على الأخص جده تيمور من تخريب ودمار بهذه البلاد أدى إلى انهيار كثير من منشآت الغزنويين والغوريين وآثار خلفائهم الفخمة ، وما ساقه كذلك معه من صفوة رجال المعمار الهنود ليقيموا له منشآته الفخمة ببلاده ، تلك المنشآت التى طالما أشاد بذكرها فى سيرته وعظّم من شأنها .

وبلغ من ولع بابر بالعمارة أنه كان يستخدم بضع ألوف[1] من مهرة النحاتين والبنائين ليقيموا له منشآته من قصور ومساجد وحمامات ونافورات وخزانات للمياه ، فى آكرا وسيكرى وبيانه ودهولبور وكواليار وكول .

ومنشآت بابر الباقية حتى اليوم بالهندستان هى مساجده الثلاثة فى بانى بت وسنبل وحصن اللودهيين بآكرا .

ويقال أن شغفه بالعمارة ، مع ضيقه بمعماريى الهند ، قد دفعه إلى أن يسأل سنان ، معمار العثمانيين الشهير ، أن يمده ببعض تلاميذه . والغالب أنه لم يجبه إلى طلبه ، وآية ذلك عدم ظهور أى أثر لطابع المدرسة السنانية هناك.

وأدى كلف بابر بالطبيعة وما تبدعه إلى إقامة طائفة من البساتين والحدائق حاكى ببعضها مغانى كابل التى طالما ترنم بذكرها ، ومنها بستان جار باغ

---

(١) بابرنامه ٢٩١ب

بظاهرآ كرا الذى جعله نظير سميه الكابلى ، وقد جلب إلى رياضه هذه كثيرا من النباتات وأشجار الفاكهة التى لم تكن تعرفها الهند من قبل [1] .

ونهج أبناؤه من بعده نهجه الفنى هذا وزادوا عليه ، حتى لترى اليوم نمط الحدائق المغولية الهندية تقوم بطائفة من مدن إيطاليا وبريطانيا على الأخص [2] ، كما تزخر متاحف العالم الكبرى بروائع نقوش الهند وتراثها الفنى لعهدهم .

وصف بابر للهندستان : وصف بابر هذه البلاد فى سيرته التى كتبها بنفسه وصفاً دقيقا مفصلا استوعب كل ماوقع عليه نظره فيها . فقال عنها إنها عالم قائم بذاته يختلف اختلافا تاما عن كل الأقاليم التى عرفها ، سواء فى طبيعة أرضه أو مناخه وزرعه وأنواع الحيوان فيه وعروق السكان وطباعهم وعاداتهم وألسنتهم وعقائدهم [3] :

« إن الإنسان مايكاد يعبر حدود الهندستان فى ناحية الغرب حتى يرى معالم هذه البلاد واضحة قوية توحى من فورها بعظم تباينها عما عند جيرانها » .

« وتعتمد أراضيها وزراعتها فى السقى على الأنهار وروافدها ، فلا قنوات عندهم أو ترعا أو مصارف . وقد صدهم عن إنشائها هطول الأمطار التى تأتى بها الرياح الموسمية ، فهى عماد سقيهم فى أماكن شتى ، وهم يختزنون من مائها الكثير . »

---

(١) المصدر السابق

(١) Garratt. Legacy of India pp 299 - 802

(٣) بابر نامه ٢٧٢ — ٢٩٣

ولم يرق بابر هيئة مدن الهند ومظهر ريفهـا ، ولا حدائقها « التى لا تنسيق فيهـا ولا أسوار لها ، فلا وجه لقياسها ببساتين كابل ورياض وفرغانة والمـاء ينساب بين خمائلها » .

ولاحظ بابر كذلك وجود آثار كثيرة لقرى ومدائن مهجورة ، ذلك أنه كان من عادة أهل الهند ، حين يفد الغزاة على أرضهم ، أن يفروا من وجههم ويهجروا بلدانهم .

كذلك وصف بابر صنوف الحيوان والطير وأنواع الثمار والفاكهة بالهنـد فى دقة وتفصيل ، ليتحدث من بعد ذلك عن التقويم الشائع بها وأسماء الشهور وأيام الأسبوع وأقسام الليل والنهـار هناك :

« إن حساب الليل والنهار عند الهنود يختلف عن نظيره عند غيرهم من بقية الأمم ، فالشعوب ، فيما عداهم ، يقسمون الليل والنهار إلى أربع وعشرين قسما ، أما هم فيقسمونهما إلى ستين قسما ، يـدعى كل واحد منهـا « غرى » وفترته أربعة وعشرون دقيقة . كذلك يقسمون اليوم إلى أقسام أربعـة يعرف كل قسم منها باسم « پهر » وهو الساعة الزمنية الهندوستانية . »

« وفى كل مدينة من مدن الهند الكبرى طائفة تدعى « غريالى » وهم الميقاتيون ، وعدتهم صفحة من النحاس ومطرقة من الخشب . وهم يلازمون ساعة مائية بمكان عال مخصوص ، فيقرعون غريالهم ، كلما امتلأ كأس الساعة أو فرغ قرعا سريعا متتابعا تنبيها للناس ، ثم يردفون ذلك بدقات بطيئة تبين الوقت لهم » .

« ووحدة الوزن فى الهندستان هى « الماشة » ، وكل خمس منها تعادله

مثقالا واحدا . أما معيار الجواهر والأحجار الكريمة فهو « نانك » ويعادله أربع ماشات » .

« وملكة الحساب عند أهل الهندستان قوية واضحة . فكل مائة ألف هى « لك » ، وكل مائه « لك » هى « كرور » ، وكل مائة « كرور » هى « أرب » ، وكل مائة « أرب » هى « كرب » ، وكل مائه « كرب » هى « نيل » ، وكل مائة « نيل » هى « بدم » وكل مائه « بدم » هى سنك . وضخامة هذه الأرقام تقوم فى الغالب دليلا على ضخامة ثرواتهم » .

« وأهل الهندستان تنفر النفس منهم ولا تطيب إلى معاشرتهم ، ولا تقوم فيما بينهم صداقة أو يضمهم مجتمع . وهم ليسوا على شىء من صفاء العقل أو حميد العادات والخصال ، فلا إنسانية عندهم ولا أثارة من عبقرية أو ميل للاختراع أو مهارة فى المهن والحرف أو خبرة بالمعمار والنقش والزخرفة » .

« كذلك تراهم لا يعرفون الخيل المطهمة ، والطعام الطيب والفواكه الجيدة والماء المثلج ، وليس لديهم حمامات أو مغاسل أو مدارس . ولا يعرفون الشموع ، فيستضيئون بمسارج الزيت القذرة فتعج بيوت كبرائهم وسراتهم بمئات منها » .

« أما أبنيتهم ، ففضلا عن رداءة تصميمها وتجردها من الجمال ، فهى لا تتوائم مع بيئتها أبداً . وهم لا يمدون الماء إلى دورهم فى القنوات ولا يجرونه كذلك إلى الحدائق ، نخلت قصورهم وبساتينهم من ذلك كله » .

« ويسير عامة الفلاحين ورجال الطبقة العاملة شبه عراة ، إلا عما يستر عوراتهم ، وهو « لنكوتى » يشدونه حول وسطهم . ويعلو عند النساء حتى يستر الصدر فيدعى « لنكى » . »

« وفيما عدا ذلك فميزة الهندستان الكبرى أنها بلاد مترامية الأطراف ، يتوفر الذهب والفضة فيها بكثرة »

« ومناخ الهندستان فى فصل الأمطار لطيف . وأما أمطارها فغزيرة جداً ، حتى لتفيض سيولها كالأنهار وتجرى فى الأراضى التى ليس بهـا الماء عيون أو بحار . وتتكثف الرطوبة فى هذا الفصل فتصيب كل ما تصادفه بالتلف ، سواء فى ذلك الأبنية أو الأثاث والملابس والأوراق » .

« ويتخلل فصل الأمطار هبوب شديد محمل بالأتربة يسمونه « آندهى » ، وتؤدى شدته فى بعض الأحيان إلى تعذر الرؤيا » .

« ولا يخلو الشتاء والصيف من أوقات لطيفة . إلا أن حر الصيف الهندى ، حين يشتد ، لا يطاق ، ولا يقارن بغيره فى البلاد المجاورة » .

« والأيدى العاملة العادية متوافرة فى كل مهنة وحرفة إلى درجة بعيدة ، وهم يتوارثون الحرف والمهن عن آبائهم ويورثونها أبناءهم بدورهم .

وقد استخدم تيمور لنك فئة كبيرة من النحاتين الهنود فى بناء مسجده الكبير بمدينة سمرقند » .

كذلك تحدث بابر عن حدود الهندستان وموقعها الجغرافى ، وما بها من ولايات ، فذكر ما هو منها بأيدى المسلمين وما هو بأيدى الهنادكة ، ، كما فصل خراج كل ولاية ونصيب صاحب دهلى منه .

والغالب أن الأجل لو كان قد امتد بفطالت حياته بالهندستان ، لعدل كثيراً فيما كتب عنها ، ولم يقصر ميزاتها على أنها إقليم كبير فيه فضة وذهب كثير[1]

---

١ — ذكر بابر نفسه فى ختام حديثه عن الهندستان أنه لا يبخل أن يثبت من جديد ما قد سمعه أو يلاحظه من أمور هذه البلاد .

بابرنامه : خلف بابر وراءه ثروة أدبية فى الشعر والنثر ضمنت له شهرة لأديب المطبوع ، إلى جانب صيت الجندى الموهوب[1] .

وفضلا عما حوته سيرته بين دفتيها من شعر تركى كثير ، كان ينشده فى حياته ، فقد ترك ديوانا له بالتركية[2] وأشعارا أخرى كثيرة فارسية أصواتا فى الغناء والموسيقى[3] .

وتعد سيرته المعروفة باسم « بابرنامه » أعظم آثاره الأدبية على الإطلاق ، هى كتاب النثر التركى التقليدى بحق حتى اليوم . وقد كتبها بنفسه فى لغة تركية (جغتائية) سهلة وأسلوب يدل على ذوق أدبى رفيع ، وينم عن تمكن صاحبه من أصول الثقافة الإسلامية وآداب العربية والفارسية تمكنا تاما .

لم يذكر لنا بابر فى سيرته التاريخ الذى بدأ عنده كتابته لها . على أن إشاراته فى أوراقها الأولى ، إلى رجاله ممن كانوا معه بالهندستان ، وإلى زيج كان يستخدم بالهند ، يقطع بمراجعته لها هناك ، حتى ذكر فى أوراقها الأخيرة أنه أمر بنسخ أجزاء منها وإهدائها إلى بعض الأمراء الذين طلبوها منه .

وأغلب الظن أن الأجل لو كان قد امتد به لنقحها كثيراً ولصاغ أجزاءها لأخيرة على الخصوص فى أسلوب يتمشى مع رصانة فى أقسامها الأولى فلا تبقى أشبه بيوميات تبعث الملل عند قارئها .

ومن أسف أن الأصل الأول لهذه السيرة قد فقد . وأكمل مخطوطاتها التى

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١١٢ ، ١١٣ .

(٢) نشر ما عثر عليه منه دنيسون روس J. R. A. S. B. 1910

(٣) أكبر شاه ٥٢

بين أيدينا والتى يرجع تاريخها إلى عام ١١١٢ هـ ، ١٧٠٠ م[1] به ثغرات خمس تتضمن حوادث تسع عشرة عاما بيانها كالآتى : —

١ — من أواخر عام ٩٠٨هـ إلى نهاية عام ٩٠٩هـ .

٢ — من أوائل عام ٩١٤هـ إلى نهاية عام ٩٢٤هـ .

٣ — من أوائل عام ٩٢٦هـ إلى أوائل عام ٩٣٢هـ .

٤ — من رجب عام ٩٣٤هـ إلى آخر هذه السنة .

٥ — من المحرم عام ٩٣٦هـ حتى وفاة البادشاه فى جمادى الأولى من عام ٩٣٧هـ .

وقد نقلت هذه السيرة إلى الفارسية فى عهد أكبر ، حفيد بابر ، فى نهاية القرن العاشر الهجرى ، كما نقلت إلى بعض اللغات الأوربية فى العصر الحديث ونرجو أن يتهيأ لهذه السيرة القيمة الممتعة من ينقلها بدوره إلى العربية .

إن التقارب الكبير عند الذين أرخوا لبابر وعصره وما وصل إلى أيدينا من سيرته ليجعلنا نميل إلى تصديق حديثه حين يقول بأنه لا يهدف فى كتابته إلا إلى الصدق ولا يجرى قلمه بغير الحق ، فهو حين يذكر بالخير أو السوء عدواً أو صديقاً ، أو يشيد بفضائل واحد منهم أو يعيب عليه رذائله ، إنما يبغى إقرار الواقع فحسب دون ميل أو هوى[2]

والحق أنه فى حديثه عن نفسه أو غيره لم يحاول أن يخفى رذيلة أو ينكر فضيلة ، فصور النفس الإنسانية على طبيعتها بما فيها من خير وشر .

---

(١) وهو المعروف بمخطوط حيدر آباد ، وقد نشرته السيدة أنيتا بفريدج فى مجموعة جب التذكارية عام ١٩٠٥م .

(٢) بابر نامه ١١ — ٢ .

فهو لا يتردد مثلا عن أن يذكر كلفه ذات مرة بغلام حسن الصورة صادفه بمعسكره ، وقد بلغ به الوجد يوما أنه كاد يسقط عن دابته حين طلع عليه فى طريقه فجأة . ولكنه يقف عند هذا الحد فلا ينغمس فى هذه الرذيلة التى شاعت عند عمه السلطان محمود ميرزا صاحب سمرقند ورجاله حتى كثرت اعتداءاتهم على الأهلين بسببها[1] .

وهو حين يحمل على عمه هذا ، لفرط عنفه مع رعاياه ، لا ينكر حسن إدارته لشئون بلاده وحرصه على أموالها .

كذلك نراه لا يخفى ولعه بالشراب حتى كان نبيذ كابل يحمل إليه بالهندستان ويفصل لنا ما كان يجرى فى مجالس شرابه من عبث ولهو وتطارح بالأشعار . ولم يترك هذا كله ، وهو مقدم على حربه مع الراجبوتيين ، إلا ليقبل على تعاطى المعجون فى إدمان شديد ، حتى لا تكاد الصفحات الأخيرة من سيرته تخلو من ذكر تناوله له كل يوم .

وهو إلى ذلك يتفاخر فى سيرته بأكداس القتلى فى معاركه الكثيرة التى خاضها ، فوصفها وصفاً دقيقاً حتى فصل من ضروب الشجاعة التى كان يظهرها كل فرد من أبطاله . ولا يكتفى بذلك حتى يقارن بين فتحه لسمرقند وفتح السلطان حسين بيقرا لمدينة هرات ، كما يقارن كذلك بين فتحه للهندستان وفتوحات من سبقوه إليها من الغزنويين والغوريين وغيرهم ، مع ضآلة قواته بالنسبة لمعظم جيوشهم فضلا عن كثافة جند الهند نفسها .

وهو إلى جانب تفصيله لانتصاراته يذكر هزائمه فى صراحة تامة ، ويبين

---

١ ـ بابرنامه ١٢٤ و ٧٥

ماصادفه من محن ومتاعب شردته فى الأرض وقد انصرف رجاله عنه وتنكر أقاربه له . حتى إذا ماأقبلت الدنيا عليه لم يَنِ عن وصل هؤلاء جميعاً ، وفيهم من ركن إلى التآمر عليه من جديد برغم إحسانه إليه ، وفيهم من قتل ذوى قرباه وسمل عيونهم بل وتعرّض لأمه وآله بالإهانة والسوء . وهو حين يذكر ذلك كله تفيض عليه مسحة من التواضع فيقول بأنه إنما يثبته تقريراً لحقيقة والواقع فحسب[1] .

ويذكر بابر فى سيرته جده الأكبر تيمور فخوراً بأعماله ومنشآته وآثاره ، كما يفصل من سيرة أغلب أبنائه وأحفاده ورجالهم . حتى إذا مابلغ بحديثه السلطان التيمورى حسين بيقرا أفاض إفاضة عليم متمكن فى العلوم والفنون والآداب ، فذكر من كان يزدحم بهم بلاط هذا الأمير ، بهرات ، من الفقهاء والمحدثين والشعراء والموسيقيين ، حتى البهلوانيين عرف بكل واحد منهم فى إسهاب . فصور للناس بصنيعه هذا صورة شاملة لما كان لفروع المعرفة من ازدهار كبير بإحدى مراكز الثقافة الإسلامية الكبرى فى عصره[2] .

وأدى ببابر سعة اطلاعه ، التى تشيع فى سيرته ، إلى اقتناء مكتبة قيمة خاصة به ، كان عليها قيم له يدعى عبد الله كتابدار . وقد ضم إليها كذلك قسما من مكتبة غازى خان لودهى حين استولى على حصنه بالبنجاب ، وبعث بالقسم الآخر إلى ابنه همايون الذى كان يحرص على تنشئته تنشئة طيبة[3] .

هذا كما كان يراسل أساطين العلماء فى عصره ويستقبل الكثير منهم ببلاطه

---

(١) بابرنامه ١٠٢ ا

(٢) بابرنامه ٨٢ ـ ١٧٧

(٣) المصدر السابق ٧٠٩ ب

وكان من بينهم الشاعر المشهور على شير نوائى والمؤرخان خواند أمير، صاحب حبيب السير، وميرزا محمد حيدر دوغلات صاحب تاريخ رشيدى.

أما وصف بابر لبلاده والبلاد التى دخلها، فحسبه أن يذكر فريق من المؤرخين، الذين زاروا هذه الأماكن، أن أغلب ماأورده عن بلاد ماوراء النهر وكابل على الخصوص يصدق عموماً على حالها اليوم (1).

وهو فى وصفه للبلدان لايدع شيئاً عرفه أو وصل إلى علمه إلا وذكره، ففى حين يعدد لنا أسماء الرياح التى تهب على كابل، ويقرر أنه هو أول من أدخل زراعة قصب السكر بها، إذا هو يذكر لنا أن أهل الهند يطلقون على كل أرض خارج بلادهم اسم خراسان، مثلما يعرف العرب غيرهم من الأمم باسم العجم (2).

وعلى هذا جرى وصفه لسمرقند. فتحدث عن أصل تسميتها وتاريخها، ووصف واديها وأسواقها وتجارتها وصناعاتها وما بها من منشآت ومدارس ومساجد، كما تحدث عن حكامها وسكانها وما ظهر بها من العلماء والفقهاء ومذاهبهم وفرقهم.

وكذلك ساق الحديث عن خراسان وحاضرتها هرات مقر آل بيقرا، وفرغانة مسقط رأسه، ثم الهند التى ذكرنا له قدراً من وصفها تفصيلا فيما سبق

ولم يكن ظهير الدين بابر فى تدوينه لسيرته بدعا بين أفراد أسرته على كل حال، فقد سبقه إلى ذلك جده الأكبر تيمور، كما نهج أبناؤه نهجه من بعده.

---

(1) Elliot and Dowson, India V.IV p.220

(2) بابرنامه ١٢٩ أ

على أنه يتميز عنهم جميعا بتدوينه لسيرته بنفسه . فلم يكن ليتأتى لـكتاب البلاط بداهة ، وهم يدونون سير سلاطينهم ، أن يذهبوا مذهبه فى صراحته التى جرى عليها وصدقه الذى التزمه فى الغالب .

إن بابرنامه قد خلدت ذكر صاحبها فى عالم الأدب والتاريخ ، كما خلدته حروبه وفتوحاته فى عالم الغزاة والمحاربين . وما من شك فى أن هـذه السيرة لتعد من المثل الصالحة التى يستلهمها أصحاب الطموح على الدوام .

همايون

لم يكن عرشاً كرا حين اعتلاه نصير الدين محمد همايون بن بابر فى التاسع من جمادى الأول من عام ٩٣٧ هـ / ١٥٣٠ م ، محوطة الأزهار والرياحين ، ولم تكن سماء الهند التى تظله تنبىء عن صفو وصفاء .

فقد ترك له أبوه خزانة خاوية استنفدت هباته وعطاياه من أموالها أكثر مما استنفدته حروبه وغزواته . كما ترك له جيشاً من أجناس مختلفة ، من الجغتائيين والأوزبك والفرس والمغول ، أثارت كثرة الغنائم التى أتخمتهم ، مع اختلاف العرق ، شحناء الحسد والخصومات فيما بينهم . أما الأمراء ، أصحاب النفوذ بالبلاط ، وكانوا ما بين خوانين من المغول ومرازبة من الترك ، فقد ذهبوا بدورهم يؤثرون منافعهم الخاصة على صالح الدولة العام ؛ فى حين لم يقنع أبناء بابر الآخرون وأقر باؤه بما أصابوا من ملك حتى ثاروا على أميرهم الجديد فجروا عليه وعلى أنفسهم بذلك كثيراً من المتاعب والمحن .

ولم يكن ذلك هو كل ما تعرض له سلطان الهندستان الجديد من مشكلات ؛ فقد كان الهنادكة بدورهم ، وهم غالبية السكان . يرون فى الحكام المسلمين عموماً مغتصبين لبلادهم وغزاة دخلاء عليهم . كما كان هناك بقية من الأمراء الأفغان مازالوا بأطراف البلاد يتربصون بغزاة الهند الجدد فى انتظار الفرص المواتية ليثبوا عليهم ويخرجوهم من أرضهم .

وأقوى مراكز هؤلاء الأمراء الأفغان كانت بالأقاليم الشرقية ؛ وأبرز زعمائهم كان السلطان محمود لودهى الذى انطلق يجمع شتات بنى جلدته من

جديد ببهار ، وكان بابر قد هزمـه من قبل فيمن هزم من عصبة رانا سنكا بالراجبوتانا ، ثم شير خان سورى ذلك الداهية المجرب الذى سنراه فيما بعد ينزل بالدولة ضربات قاصمة .

وكانت البنغال ما تزال بعيدة عن متناول أيدى سلاطين دهلى ؛ وكان يلوذ بها أعداؤهم بالمناطق الشرقية فى الغالب . وكذلك كان شأن الـكجرات التى طفق أصحابها ، وهم سدنة باب التجارة الهندية الأكبر ، يبذلون من فيض بلادهم الغنية لتقوية جيشهم ويستمدون الأسلحة الحديثة من البرتغاليين الذين كان لهم بشواطئهم منازل أشرنا إليها من قبل ، حتى باتوا يتطلعون إلى عرش الهند ، ولم يبخلوا عن مديد العون لأولئك الذين يناهضون الدولة المغولية الجديدة .

ولئن كانت المدة القصيرة التى استقر فيها بابر بآكرا لم تيسر له القضاء التام على الخارجين على سلطانه وتدعيم أسس دولته الهندية الجديدة ، فإن همايون ، وهو الذى تمرس بأعباء الحـكم حين ألقى إليه بمقاليد بدخشـان وشارك فى بعض وقائع أبيه الهندية فأظهر من ضروب البسالة والفروسية التى اشتهر بهـا الأمراء التيموريون [١] ، كان كفيلا بترسم خطا أبيه وإتمام ما بدأه من عمل ، لولا تراخيه فى كسب ود رجال بابر وخلصائه ، ثم فتور همته وخور عزيمته ، فتراه لا يكاد يمضى فى الإجهاز على أحد خصومه والقضاء عليه حتى ينصرف فجأة إلى عدو آخر غيره . وهو حتى حين يبلغ غايته فى القضاء على واحد من أعدائه ، كان يستخفه الطرب فينصرف إلى متعة عابرة غير منتبه إلى وجوب تدعيم ما أحرزه من توفيق أو مستمع إلى نصح القادة المجربين الذين قادوا جيوش أبيه من نصر إلى نصر .

Lane - poole p218 (١)

بهذا أتيحت لأعدائه فُرَص متكررة لجمع صفوفهم وضم شملهم من جديد حتى بلغوا إلى إخراجه من الهند كلها والقضاء على كل ما بذله أبوه من جهود .

عمل همايون بوصية أبيه ، فولى أخاه كامران إقليمَى كابل وقندهار ، كما أقطع أخاه عسكرى ولاية سنبهل ، فى حين أعطى أخاه هندال ألوار وميوات(١) . أما إقليم بدخشان فقد جعل عليه ابن عمه سليمان ميرزا .

على أن كامران لم يقنع بأرضه ، فاستخلف أخاه عسكرى عليها ثم اقتحم مشارف البنجاب بدعوى سيره لتهنئة همايون . ولم يثنه عن غايته ماعرضه عليه أخوه السلطان من ضم لمغان وبشاور إلى حوزته ، حتى انقض على لاهور واعترف له همايون بسيادته على البنجاب كله .

وأدت سيادة كامران على البنجاب إلى قطع كل صلة بين دهلى وبين البلاد الواقعة فيما وراء الهندكوش ، وهى التى كانت تمد حكام الهند المسلمين دواماً بإمدادات لاتنفد من أشداء المقاتلين .

وتدبر همايون موقفه بين أعدائه من بعد ذلك ، فرأى أن يبدأ بثوار الأفغان الذين عادوا إلى عصيانهم السابق بإقليم بهار . حتى إذا بلغ لكهناوتى اكتفى بضرب قواتهم عندها دون أن يكلف نفسه عناء مطاردتها ، وقد كان ذلك فى متناول يده . وسلك شبه هذا المسلك مع شيرخان سورى صاحب حصن جنار إذ قنع منه بالولاء الإسمى ، مؤثراً أن ينصرف عنه إلى حرب الكجرات ، دون أن يُلقى بالا إلى خطورة هذا الثائر .

---

(١) طبقات أكبرى ١٨٩

غزو الكجرات :

وكان بهادرخان ، أحد سلاطين الكجرات الكبار ، قد أخضع لسلطانه أصحاب أحمد نكر وبرار وكواليار ، ووثق علاقاته بالبرتغاليين الذين كانت لهم مستعمرات بشواطىء بلاده ذات المركز التجارى الممتاز ، هذا كما اقتحم إقليم مالوه مع رانا موار بدعوى استضافة صاحبه محمود الخلجى لأخيه جندخان وكان ينافسه العرش ، فصار بذلك يتاخم سلطنة دهلى فى مواضع كثيرة ، وغدت آكرا نفسها غير بعيدة عنه .

وأدى ازدياد نفوذ هذا السلطان إلى أن لجأ إلى بلاده فريق من الخارجين على صاحب آكرا الجديد ، وفيهم علم خان عم إبراهيم آخر سلاطين اللودهيين ، وزمرة من رجال بابر السابقين الذين زينوا له التطلع إلى عرش الهند والسعى لاستخلاصه لنفسه(١) .

وحين كتب همايون إليه يسأله إخراج هؤلاء اللاجئين من بلاده فرفض الاستجابة إلى طلبه ، لم يكن من الحرب بينهما عند ذلك مناص .

هنا لك بادر صاحب آكرا بالارتداد سريعاً من المناطق الشرقية ، ولمّا يجنِ بعدُ ثمارَ انتصاراته هناك ، حتى إذا ما بلغ مالوه فوجد بهادرخان منهمكاً فى حربه مع صاحب جتور ، أبت عليه شهامته إلا أن يمهل خصمه فلا يهاجمه حتى يفرغ من اشقيا كاته مع الأمير الراجبوتى(٢) .

وبرغم ما كان عند بهادرخان صاحب الكجرات بدوره من مدافع أمده بها أصحابه البرتغاليون ، فقد أرغمته قوات همايون على الامتناع فى حصونه

(١) منتخب التواريخ أول ٣٤٦
(٢) طبقات أكبرى ١٩٦

ليقسلل من بعد ذلك منها فى نفر قليل من رجاله حين أيقن بانهيار مقاومة قواته لطول الحصار وعنف المجاعة التى بدأ شبحها يخيم عليهم .

وطفق البادشاه يطارد خصمه بنفسه فتبعه إلى ماندو ، ثم جمبنير فأحمدآباد حتى بلغ كباى فوجده قدلاذ بجزيرة ديو إحدى حصون البرتغاليين هناك .

وما غدا بهادر خان أن تم له ، بعون من البرتغاليين ، جمع قوات جديدة استطاع بها أن يسترد أغلب أراضيه . ويسر له بلوغ هدفه ما كان من فشل ميرزا عسكرى نائب همايون هناك فى تصريف شئون حكومته وانغماسه فى الدس والتآمر ، وانصراف أغلب رجاله إلى حياة الترف التى كفلها لهم ماوقع بأيديهم من غنائم هذا الاقليم ذى الثراء الطائل .

على أن سلطان الكجرات لم يكتب له الاستمتاع بثمار انتصاراته هذه ، إذ سقط فى البحر غدراً بتدبير من البرتغاليين ، وهو فى طريقه للتفاوض معهم ، برغم شدة حذره وفرط تحوطه .

وما غدا أصحاب الكجرات أن أعادوا مالوه بدورها إلى حظيرتهم ، وذلك حين خرج همايون من جديد للقضاء على القلاقل الشرقية التى طفقت تهدد ملكه تهديداً خطيراً .

البنغال وبهار : كان شيرخان سورى ، وهو من أقدر الزعماء الأفغان وأوفرهم شجاعة وعلماً ، قد استخلص لنفسه إقليم بهار . توغل بقواته فى البنغال من بعد ذلك فلم تصادفه بها مقاومة تذكر [1] .

---

١ ــ طبقات أكبرى ٠٠٠

وما أن توجه همايون إلى البنغال فاسترد إقليم غور حتى ارتد هـذا الثائر الأفغانى إلى إقليم بهار فطفق ورجاله ينهبون كافة الأراضى التى تمتد بين بهار وقنوج وجونبور .

وقضى السلطان شهوراً ستة بالبنغال وقد ظن أن الأمر قد دان له فى الغالب بالأقاليم الشرقية ، ولم يـكن يدرك ، وهو يطيل فترة استجمامه هناك ، أن عدوه إنما تركه يوغل فيها ليقطع خط الرجعة عليه ويقضى على ملـكه قضاء تاما بالتالى. حتى إذا ما تنبه إلى هذا التدبير ، بعد فوات الوقت ، فاستدار إلى خصمه والأمطار الموسمية على أشدها ، استطاع شيرخان بدهائه ومناوراته المحكمة أن ينزل بقوات دهلى ضربة حاسمة أتت عليها جميعاً .

فقد جاءت الأنباء إلى همايون ، وهو بالبنغال ، بخروج أخيه هندال عليه بتحريض من بعض أعيان الأفغان حتى دعى له بمساجد العاصمه ، فبادر فزعا بالارتداد إلى أكرا فى طريق طويل تعرض فيه جنده لعنف الأمطار الموسمية وأوبئتها حتى هلك منهم خلق كثير .

هنالك عمد شيرخان إلى خداع السلطان ، وقد علم بتمرد إخوته عليه ، فأوفد إليه من يؤكد له طاعته وولائه له حتى إذا ما اطمئن همايون إلى تلك العهود فعرض على عدوه إمارتى البنغال وبهار ثمنا لخضوعه له ، إذا بذلك القائد الأفغانى يهبط فى الفجر على معسكره بأرض جوسا ويحيط برجاله . فنهم من لفظ أنفاسه وهو يغط فى نومه ، ومنهم من لقى حتفه فى اليم غرقاً ، ومنهم من وقع فى الأسر . وبرغم ما بذله السلطان همايون نفسه من جهد وما أظهر من جلد فى القتال شديد فقد كاد هو نفسه يبتلعه الماء لولا سقاء يدعى نظام أبصر به

فحمله على زقه [1] » .

واتخذ هذا الثائر الأفغانى لنفسه ، على أثر انتصاره فى معركة جوسا هذه، لقب شاه وأمر أن تضرب السكة باسمه وتجرى الخطبة بالدعاء له .[2] وأردف ما أحرزه من فوز بتحالفه مع أصحاب الكجرات وماله على محاربة همايون .

تدبر همايون موقفه فاستبان له أنه لن يكون له قبل بالقضاء على خصمه حتى يمد له أخوته يد العون ويلتف رجاله حوله مخلصين . وهما أمران لم تحالفه الظروف على تحقيقهما .

فمن ذلك أن أخاه كامران حين انتوى العودة من آكرا إلى لاهور، فعزم على ترك أغلب قواته لتشد من عضد أخيه ، أصابه مرض مفاجىء ، ليلقى أحد رجاله ، عند ذلك ، فى روعه باحتمال دس أخيه السم له ، فيعدل عن وعده ، فلا يسير بأغلب جنده فحسب ، حتى طفق يحرض فريقا من جنده دهلى نفسها بالذهاب معه .

ولم يكن شيرشاه ليعلم ذلك كله ، من أحوال غريمه ، فلا يفيد من هذه الفرصة التى سنحت له ليقضى عليه . فعبر الكنج فى خمسين ألف من الجند لاقى بهم مائة ألف من جند همايون عند قنوج وأدى تراخى جند السلطان فى القتال، حين رأوا كثيرا من الأمراء الكبار ينسحبون بقواتهم من الميدان مع بدء الأمطار ، إلى انتصار جموع الأفغان انتصارا ساحقاً كان من أثره أن أخرج همايون من الهندستان كلها ، وبهذا ذهبت كل الجهود التى بذلها أبوه بابر فى فتوحاته أدراج الرياح .

---

١ ــ تذكرة الواقعات أو همايونتامه لجوهر ص١٤٣ ــ وقد وقعت زوجة همايون أسيرة بأيدى شيرشاه فى هذه الحرب .

٢ ــ رياض السلاطين ١٤٧ وما بعدها.

وكاد همايون أن يلقى حتفه فى هذه الوقعة غرقا كذلك ، لولا أن بصر به قائده شمس الدين محمد غزنوى الذى وزر لابنه أكبر من بعد ، فانقذه[1] ليعود إلى الهند من جديد بعد خمسة عشر عاما قضاها فى المنفى .

شيرشاه

هذا الزعيم الأفغانى ، الذى استطاع بشدة مراسه وقوة عزيمته أن يخرج الإمراء التيموريين من الهند ، والذى ينتسب إلى بيت سور الغورى ، كان جده إبراهيم قد قدم الهندستان فى عهد السلطان بهلول اللودهى فنال الحظوة عنده حتى ولى ابنه حسن إقليم سهسرام .

وكان أن أهمل حسن هذا شان إبنه الأكبر فريد بتحريض من صغرى زوجاته ، لينفر الولد من بعد ذلك إلى جونبور ، منتدى الصفوة من رجال المعرفة بالهندستان إذ ذاك ، ثم يتركها إلى أكرا فيصادف قبولا وترحيبا ببلاط السلطان إبراهيم اللودهى الذى وهبه أقطاع أبيه عقب وفاته .

ولجأ فريد عقب دخول بابر الهندستان إلى بهار فالتحق بخدمة صاحبه محمد بن درياخان لوحانى . وفيما كان الأمير فى المصطاد إذ وثب عليه نمر فاتك كاد يقضى عليه لولا شجاعة فريد الذى بادر بالقضاء عليه بسيفه ليشتهر من بعد ذلك باسم شيرشاه[2] .

وما غدا طموحه أن دفعه إلى الالتحاق بخدمة جنيد برلاس نائب بابر على جونبور ، ثم أتيح له من بعد ذلك أن يظهر ببلاط بابر فاتح الهندستان الجديد وينال الحظوة عنده .

---

١ ـ منتخب التواريخ أول ٣٥٥ .
٢ ـ منتخب التواريخ أول ٣٥٨ .

وحين عهد بابر إلى جلال خان لودهى بإقليم بهار ، سار معه شير شاه ، ولكنه ما لبث أن انضم إلى عصبة الثائرين التى كان يتزعمها السلطان محمود لودهى . حتى إذا ما هزم هذا الأخير بإقليم خريد ، على ما ذكرنا من قبل ، أقبل ذلك القائد السورى يستتيب بابر من جديد فعفا عنه ، ليسقط على بهار من بعد ذلك عقب وفاته ويستخلصها لنفسه ، ثم ما يزال بهمايون حتى يخرجه من الهند كلها .

ورأى شير شاه ، بعد أن جلس على عرش آكرا ، أنه لا سبيل إلى تأمين حدوده إلا بالقضاء على الأمراء البابريين الذين ما برحوا يحكمون بأرض كابل وكشمير . فلم يبلغ البنجاب حتى اضطرته ثورة حاكم البنغال إلى الارتداد مسرعا إلى دهلى بعد أن عهد إلى خمسين ألف من جنده بإقرار الأمن عند حدوده الشمالية الغربية منفذ الغزاة إلى سهول الهند منذ القدم .

واتيح لسلطان الهندستان الجديد هذا أن يثبت نفوذه فى البنغال ويخضع السند والملتان ومالوه له ، كما أنزل ضربات شديدة كذلك بالأمراء المنادكة وبالراجبوتانا برغم استماتتهم فى القتال ورغم الخسائر التى لحقت بالجند الأفغان. وتم له كذلك انتزاع حصن كلنجر من أصحابه الراجبوتيين ، لكنه أصيب فى معمعان المعركة بشظية من قذيفة ، لم يكتب له النجاة من أثرها ، فقضى بعد قليل فى عام ٩٥٢ هـ / ١٥٤٥ م بعد أن حكم الهند قرابة سنوات خمسة[١] . ولبثت أسرته من بعده تحكم هذه البلاد عشرة سنوات استطاع همايون من بعدها أن ينتزع الملك منهم مرة ثانية بمساعدة طهماسب شاه الفرس الذى آواه فى محنته .

---

(١) منتخب التواريخ أول ٣٧٢ — ٣٧٣ .

هذا ويعد شير شاه من بين أمراء المسلمين العظام الذين عرفتهم الهند فقد التفت بهمة عالية إلى تنظيم أداة الحكم ، ونهض باقتصاديات البلاد وتعمي الأرض ، وأصلح نظام الضرائب بعد أن أمر بمسح الأرض الزراعية وحصر زراعاتها على اختلاف أنواعها . وقسم أراضي الدولة إلى سبع وأربعين ولاي تضم كل واحدة مراكز عدة جعل عليها عمالا له ألزمهم بالسهر على مصالح السكان وجمع الخراج دون تعسف أو حيف .

ثم اهتم بأمر الجيش اهتماماً بالغاً مسترشداً بما سبقه إليه علاء الدين الخلجى من نُظم فى ذلك . فجعل تحت إمرته المباشرة جيشاً قويا قوامه مائتى ألف من الجند التزم بطافع نفقاتهم من بيت المال ، وكان العرف يجرى من قبل على أن يمد الأمراء وزعماء القبائل السلطان برجالهم فى الحروب على إقطاعات واسعة تقطع لهم وأنصبة من الغنائم والمتاع . وبهذا أراح الناس فى الغالب من عسف أصحاب الإقطاعات وابتزازهم المتواصل لأموالهم وما يملكون .

ونشر شير شاه جنده فى كافة أنحاء البلاد ، وعهد إليهم بحراسة الحقول والمحافظة على أرواح الناس ومتاعهم من اعتداءات اللصوص وقطاع الطرق الذين كان لهم فى بعض العصور نشاط ملحوظ وخطر شديد .

وامتدت يده كذلك إلى النهوض بالبريد وتنظيمه ، وتحسين الطرق حتى أنشأ منها ما يزيد طوله على الألفين من الأميال للعبدة ، وأقام على جانبيها الأشجار ذات الظلال ، وأنشأ بها الكثير من محطات المسافرين ومنازل الدواب ، وأباحها للمسلمين والهنادكة على السواء .

وأدى قيام محطات المسافرين هذه إلى تجمع ما يشبه الأسواق الصغيرة من

حولها ، مما ساعد على رواج أحوال أواسط التجار وعامتهم[1] .

ولم تكن عناية هذا الأمير السورى[2] بالعلم والعلماء بأقل من عنايته بتعمير بلاده والنهوض بحكومتها . فقد أنشأ كثيراً من المدارس والمساجد ، ورتب الأجور للطلبة والمعلمين على السواء ، وحرضهم تحريضاً شديداً على طلب العلم والاستزادة منه .

كما فتح كثيراً من المطاعم فى أنحاء متفرقة بالهند وأباحها بالمجان للفقراء والمعدمين من أهل البلاد جميعاً ، مسلمين وهنادكة ، فساهم بذلك ، فى الغالب ، فى تخفيف وطأة المجاعات المعروفة التى كانت تجتاح بعض مناطق الهند من حين إلى حين .

وبلغ من برّه برعاياه والتزامه إقامة العدل فى ربوع دولته ، أنه كان لا يتردد فى إنزال أشد العقاب بمن تحدثه نفسه من رجاله وجنده بالاعتداء على الأهلين أو السطو على حاصلاتهم وأملاكهم ، فلا تشفع له من عنده مكانة المعتدى أو حسبه ونسبه[3] .

همايون فى منفاه : طفق همايون ، بعد أن دحره شيرشاه ، يُطوف بالسند فى حالة شديدة من البؤس والشقاء ، وإخوته ما يزالون يكيدون له ، وأغلب رجاله قد تخلوا عنه . بل إن صديقه القديم مل ديو ، صاحب جُدهبور ، حاول وفريق من أمراء المنادكة أن يوقعوه فى أسرهم ، حين دعوه للنزول عندهم ، على اتفاق سابق فيما بينهم وبين شيرشاه .

---

(١) Prasad Muslim. Rule pp 801, 2.

(٢) نسبة إلى آل سور .

(٣) Lane-Poole 933 86.

وبنى همايون فى تجواله هذا بحميدة بانو ابنة الشيخ على أكبر جامى فرزق منها بابنه أكبر[1] .

وانتهى المطاف به إلى قندهار فترك بها ابنه الذى لم يكن يعدو العام الأول من عمره إذ ذاك ، وقد عقد العزم على السير إلى العراق ومعه قائده بيرم خان الذى وفد إليه من الكجرات فلازمه مخلصاً طول محنته .

وبلغ همايون سيستان فاستقبله نائب طهماسب ، شاه الفرس ، بها فى ترحيب وتوقير . وكذلك فعل محمود ميرزا أكبر أولاد العاهل التيمورى حين بلغ مقر حكمه بهرات . وظل نواب طهماسب يبالغون فى الحفاوة بسلطان الهند الشديد على طول الطريق حتى بلغ مقام سهدم بنواحى قزوين .

وكان أن أفاض همايون فى بيان ما لقيه من محن ألمت به بسبب تنكر إخوته له ، حتى خشى بهرام أخو طهماسب أن تذهب الظنون بالشاه بدوره إلى القضاء على إخوته . هنالك حاول بهرام هذا أن يزين لأخيه العاهل الفارسى قتل صفيه التيمورى ، بحجة الانتقام منه لتقاعس أبيه بابر عن نصرة جند فارس فى قتالهم الأوزبك عند غجدوان أيام إسماعيل الصفوى ، لولا أخت لطهماسب ، تدعى سلطانة خانيم ، استطاعت بحكمتها ونفاذ كلمتها أن تحبط هذا التدبير كله[1] .

وأكره همايون على التظاهر بالتشيع جلباً لمعونة الشاه الفارسى الذى أمده بأربعة عشر ألفاً من الجند ليغزو بهم بخارى وكابل وقندهار ، على أن يصبح

---

(١) طبقات أكبرى ٢٠٧

(١) منتخب التواريخ أول ٤٤٤

إقليم قندهار بعد فتحه من أملاك الدولة الفارسية.

واقتحم همايون بجنده القزلباش أراضى أخيه كامران ، فشد فتحه لقندهار كثيراً فى عزيمته ، وبعثت بذلك الآمال العريضة فى نفسه من جديد.

وصدق همايون ماعاهد عليه الشاه طهماسب فسلم المدينة إلى ابنه مرادخان. على أنه حين طلب أن يأويه وجنده القليل إبان الشتاء فرفض ، دفعته قسوة البرد ورجاله إلى اقتحام المدينة على صاحبها عنوة على أن يردها له ثانية إذا ما تم لهم دخول بدخشان وكابل . وما غدا الأمير الفارسى أن وافته منيته بعد قليل فبقيت المدينة بيد همايون .

وطفق جند كثير من قوات كامران تفد إلى همايون فى مقامه هذا بعد أن هجروا مضارب أميرهم ، فدخل بهم كابل حيث التقى بابنه أكبر ، وقد بلغ الخامسة من عمره ، وكان قد تركه دون الفطام بقندهار كما ذكرنا من قبل .

وتبادل الأخوان المدينة مرات عدة حتى انتهى الأمر بكامران إلى الفرار منها ليلتجأ من بعد ذلك عند السلطان سليم شاه سور خليفة شيرشاه . حتى إذا ما اضطره ما قوبل به من جفاء عنده للنزوح إلى السند فاستقر بمنازل الجكر ، بادر زعيمهم بتسليمه إلى أخيه . ومنع همايون من التنكيل بكامران ما وصاه به أبوه بابر ، من قبل ، من الرفق بإخوته ، فسمح له بالسير إلى مكة المكرمة والاعتكاف بها ، بعد أن سملت عيناه .

وما لبث عسكرى أن سار فى أثر كامران إلى الحجاز كذلك بعد أن وقع بدوره فى الأسر ، لكن الأجل وافاه ، فى طريقه ، بأرض الشام . أما هندال

فكان قد لقى حتفه بأرض كابل حين كانت قوات همايون تطارده وأخاه كامران[1] .

وهكذا نفض همايون يده من إخوته جميعاً الذين أدوا ، بتخليهم عن نصرته ومداومتهم على الكيد له ، إلى أخراجه من الهند وضياع كافة الجهود المضنية التى بذلها أبوه من قبل فى فتح هذه البلاد أدراج الرياح .

وحين أطل على سهول الهندستان من جديد ، آثر أن يتريث قليلا فلا ينحدر إليها قبل أن يطلع اطلاعاً صحيحاً على ما صارت إليه أحوالها .

خلفاء شيرشاه : غدت سلطنة دهلى تضطرب أمورها اضطراباً شديداً عقب وفاة شيرشاه . ذلك أن ابنه جلال الذى الذى خلفه باسم السلطان سليم (إسلام) شرع منذ مستهل حكمه يسلك طريق العنف مع الأمراء الأفغان ، فقتل فريقاً منهم وألقى بفريق آخر فى الحبس ، وبث عيونه وجواسيسه فى طول البلاد وعرضها لينبئونه ، بكل مايحدث فيها ، فيتخذ من إنبائهم ، دون تحر أو روية وتدقيق ، وسيلة للعسف بالقوم والتنكيل بهم .

وهكذا أعاد هذا السلطان سيرة إبراهيم اللودهى مع رجاله من جديد . حتى إذا ما ثار عليه عظيم همايون نائبه على البنغالى ، لما بلغه من إيقاعه بالقائد القدير شجاعت خان نائب أبيه على مالوه ، فغلب البنغالى على أمره ، خرج السلطان من نصره هذا ليمعن فى ارتكاب للظالم ، حتى صار يتصرف فى أموال الدولة وفق هواه المطلق ويعطل أغلب السنن الحسنة التى جرى عليها أبوه من قبل .

وخلفه ابنه الصبى فيروزشاه فوثب عليه خاله مبارزخان ، ولما يمض إلا أياماً

(١) (طبقات أكبر ٢٢٤)

قليلة على العرش ، ليقتله ويضطلع بشئون الحكم باسم السلطان محمد عادل شاه (عدلى) .

واستوزر هذا السلطان هندوكيا عالى الهمة يدعى هيمو (هيمون) . لكن كفاءة هذا الوزير لم تستطع أن تحد من ثورات الأمراء الأفغان التى أخذت تجتاح البلاد فى عنف بالغ ، وكان من أخطر نتائجها استيلاء إبراهيم شاه سور على دهلى وآكرا ليطرده منها بعد قليل سكندر شاه سور ويضع يده على الإقليم الواقع بين السند والكنج كله .

وما غدا هيمو أن استرد آكرا لسيده ، فصارت الهندستان بذلك نهبا لسلاطين ثلاثة . فهذا عادل شاه يحكم آكرا ومالوه وجونبور ، وإلى جانبه سكندر شاه تخضع له دهلى والبنجاب ، فى حين كان إبراهيم شاه يُسيطر على رقعة من الأرض تمتد من بيانه إلى حدود كواليار[1] .

عودة همايون : رأى همايون فى هذه الاضطرابات الفرصة المواتية لاسترداد بلاده ، فاقتحم لاهور فى ربيع الأول من عام ٩٦٢ هـ / ١٥٥٥ م دون مقاومة تذكر ، ليهزم من بعد ذلك جيوش سكندر شاه سورى عند سرهند هزيمة حاسمة[2] ويدخل دهلى بعد أن اتخذ أميرها سبيله إلى جبال البنجاب فراراً .

ويرد الفضل فى انتصارات همايون هذا كلها إلى قائده بيرم خان التركمانى الذى أبى دون أغلب رجاله أن يتخلى عنه فى محنته ، وقد كافأه أميره على وفائه

(١) تاريخ سلاطين أفغانى ٤٥

(٢) طبقات أكبرى ٤٠٨ ـ وفى هذه الوقعة ، التى بلغت فيها قوات اسكندر سورى أربعة أمثال قوات همايون ، شارك أكبر أباه الحرب الأول مرة .

هذا بأن ولاه البنجاب مع ابنه أكبر وعهد إليهما بمطاردة ذلك الأمير السورى .

ولم يطل الأجل بهمايون ليجنى ثمار جهاده الطويل الشاق ، فقد انزلقت به عصاه وهو يصعد درج مكتبته بدهلى ، وكان من المرض الخالص ، فقضى بعد قليل فى ربيع الأول من عام ٩٦٣ هـ/١٥٦٦ م ، وهو فى الحادية والخمسين من عمره ، ولما يمض بالهند ، وقد آب إليها بعـــد غياب طويل ، سوى شهور ستة .

لم يـكن همايون دون أسلافه التيموريين فى الشجاعة والجرأة ، فقد شارك أباه أغلب حروبه وترسم خطاه فى التحمل بالصبر واحتمال الشدائد ، فلم يفارقه جلده وثباته طيلة محنة المنفى ، التى بلغت خمسة عشر عاما ، لولا ما كان يداخله من الغرور وينقصه من مضاء العزم الذى قعد به فى الغالب عن المضى فى مطاردة أعدائه والاجهاز عليهم ، فكان يقنع باول ضربة ينزلها بهم ولا يزيد .

كذلك عرف عن همايون شغفه ، كأبيه وأجـــداده ، بالفنون والعلوم والآداب . وقد ترك ، فيما ترك مـكتبة عامرة بالمؤلفات القيمة لا يزال بناؤها قائما بدهلى حتى اليوم . ولولا المنية التى عاجلته لأتم بناء المرصد الذى كان قد شرع فى إقامته هناك .

ومن أسف أنه ورث عن أبيه عادة تعاطى المعجون (الأفيون) الذى بـكر بنهاية الأب وهد من كيان الإبن .

أكبر

وصلت أخبار وفاة همايون إلى ابنه أكبر وهو فى كلانور بالبنجاب يطارد الثائر سكندر سورى، فبادر مرافقة القائد الشيخ بيرم خان إلى المناداة به سلطانا على الهند، باسم جلال الدين محمد أكبر (1)، ولم يكن يتجاوز إذ ذاك الرابعة عشرة من عمره.

ويقسم المؤرخون مدة حكم أكبر التى امتدت من عام ٩٦٣ هـ/١٥٥٦م حتى عام ١٠١٣ هـ/ ١٦٠٥ م إلى فترات ثلاث: فالفترة الأولى هى التى كان زمام الحكم الفعلى فيها بأيدى الوزير الشيعى المجرب بيرم خان الذى كان خير معين لهمايون فى منفاه. وأما الفترة الثانية فهى التى حاول فيها بعض نساء القصر إملاء رغباتهن على السلطان الشاب، وذلك بعد أن أفلحن، بالدس والوقيعة والخداع، فى إبعاد بيرم خان من منصبه بسبب تشيعه وتقويض ما كان له من نفوذ بالغ. وكانت الفترة الثالثة، وهى التى انفرد فيها أكبر بالأمر كله، أطول هذه الفترات جميعا إذا امتدت من عام ٩٦٩ هـ/ ١٥٦٢ م حتى وفاته عام ١٠١٣ هـ/ ١٦٠٥ م.

وتعد هذه الفترة الثالثة كذلك من أزهر عصور الهند التاريخية. ومن أجلها اعتبر المؤرخون القدامى من هنادكة وغيرهم، السلطان أكبر أعظم عاهل عرفته الهند منذ أيام آشوك (آزوكا) حامى للبوذية فى القديم، كما سلكه

---

١ ـ كان ذلك فى يوم الجمعة الثانى من ربيع الأول عام ٩٦٣هـ/مارس ١٥٥٦ م. منتخب التواريخ ثان ص ٨

المحدثون من كتاب التاريخ فى مصاف أعاظم الملوك الذين عرفهم العالم فى عصره طراً.[1] :

وكما يقسم المؤرخون مدة حكم هذا السلطان إلى فترات ثلاث كذلك يسلكون غزواته وفتوحاته فى أدوار ثلاثة :

الدور الأول، ويبدأ من عام ٩٦٥ هـ / ١٥٥٨ م حتى عام ٩٨٣هـ/١٥٧٦م وفيه بسط أكبر سلطانه على الهندستان كلها .

الدور الثانى ، ويبدأ من عام ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م حتى عام ١٠٠٤ هـ / ١٥٩٦ م .

وفيه تم له تأمين حدود الشمالية الغربية ومناطقها التى تعد أخطر أبواب الهند ، فهى منفذ الغزاة الفاتحين إلى سهول السند والكنج منذ القدم .

الدور الثالث ، ويبدأ من عام ١٠٠٦ هـ / ١٥٩٨ م حتى عام ١٠٠٩ هـ / ١٦٠١ م وهو الذى طفق أكبر يتوغل إبانه بالدكن حتى تم له ضم أغلب مناطقه لملكه .

والواقع أن الهندستان ، حين جلس أكبر على عرشها ، كانت تفيض بالاضطرابات . فأمراء أسرة سورى ، خلفاء شيرشاه ، كان منهم سكندرشاه بالپنجاب يتحفز للانقضاض على دهلى وآكرا واسترداد الأراضى التى أخرجه همايون منها ، فى حين استقر محمد عادل شاه سورى فى چنار بعد أن أخرجه ابراهيم خان سورى من دهلى، وبعث بقائده الهندوكى هيمون على رأس قوات كثيفة وقف بها غير بعيد من العاصمة فى ارتقاب الفرصة المواتية لاستردادها من

١ — Prasad, Muslim Rule pp. 831,88

جديد ، هذا كما كان هناك أمراء آخرون من آل سور يستأثرون كذلك بالأمر كله فى البنغال :

ولم تكن أسرة سور هذه هى وحدها التى تهدد سلطان أكبر بالهند ، فإن ميرزا حكيم ، أخا أكبر ، كان قد أعلن استقلاله بكابل ، أرض الرجعة لسلاطين المسلمين بالهند وطريق الإمدادات إليهم التى كانت تمدهم بمحاربى بلاد ما وراء النهر الأشداء ، ثم أخذ من بعد ذلك يرنو ببصره إلى أرض الهند نفسها ويتطلع إلى الجلوس على عرشها .

وكانت ولايات السند والملتان وكشمير قد انفصلت عن سلطان دهلى بدورها لسنين خلت ، فى حين راح الأمراء الراجبوتيون ، فى موار وجسالمير وبوندى وجُدْهبور ، يغتنمون ما أتاحه لهم اضطراب الأحوال من فرص لاستعادة الكثير من سلطانهم القديم ونفوذهم ، واستردت مالوه والكجرات استقلالها الضائع وثبت أمراء الدكن المسلمون أقدامهم فى بلادهم من جديد ، فى خاندش ، وبرار وبيدر وأحمد نكر وبيجابور وغولكونده .

ومن وراء أولئك وهؤلاء جميعاً كان الأمراء المنادكة ، أصحاب إمارة فيايانكر فى الجنوب ، يجهدون فى المحافظة على استقلالهم من اعتداءات جيرانهم أمراء الدكن المسلمين .

وكان البرتغاليون بدورهم يقيمون فى حصونهم القوية فى جُوَا وديوا على شاطىء الهند الغربى بعد أن خاضوا غمار معارك بحرية عنيفة ضد سلاطين الكجرات المسلمين وأعوانهم من سلاطين المماليك المصريين والعثمانيين .

ونتج عن انتصار هؤلاء المستعمرين أن اشتد خطرهم وتفاقم طغيانهم فى

مناطق الخليج العربى وبحر العرب والمحيط الهندى وعند منافذ البحر الأحمر حتى اقتربوا من شواطىء الحجاز وراحوا يهددون طرق التجارة الهندية والحج الإسلامى إلى البيت الحرام[1] .

حرب آل سور : رسم أكبر ورجاله خطتهم على أن يعملوا أولا على التخلص من آل سور ، خلفاء شير شاه ، الذين كانوا يجهدون لاسترداد عرش الهند . وفيما كان جند الدولة يجدُّ فى مطاردة سكندر شاه سور بالبنجاب هاجم هيمون قائد محمد عادل شاه سور مدينة آكرا فى خمسين ألف من الخيل وخمسمائة من الفيول .

وكان هذا القائد الهندوكى ، الذى يشتهر فى كتب التاريخ باسم البقال[2] قد تم له من قبل دحر إبراهيم شاه سور ، بالقرب من دهلى ، وكاد يقتحم عليه معقله فى بيانه لولا ما كان من زحف سكندر خان صاحب البنغال على أملاك عادل شاه فى جونبور وكالبى . وما إن تم لهيمون دفعُ قوات البنغال عن أراضى أميره حتى اقتحم حصن آكرا وأرغم سكندر أوزبك قائد أكبر هناك على الارتداد إلى دهلى .

هنالك بادر أكبر من فوره بتسيير قائده عليقلى خان زمان إلى دهلى لمؤازرة تردى بيكخان ورجاله فى الدفاع عن هذه المدينة وصد جحافل هيمون

---

(١) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٢٤١ ، ٢١٢ .

(٢) كان هيمون فى أول أمره بقالا بمدينة روارى بإقليم موات ثم عهد إليه بمراقبة الأسواق حتى صار مدبرا لإمدادات الجيش ، غير أن لقب بقال لصق به طول حياته . وما زال يرتقى بلغ مرتبة القيادة وصار وكيلا (وزيراً) للسلطان محمد عادل شاه الذى كان يشتهر بين العامة باسم عدلى (طبقات أكبرى ص ٢١٤) .

عنها ، فلم تبلغ الإمدادات مكان المعركة إلا بعد فوات الفرصة .

فلقد تمكن رجال الميمنة المغولية من دفع جناح العدو المقابل لهم أول الأمر، إلا أن هيمون استطاع بقواته الرئيسية فى القلب أن يدحر القائد المغولى تردى خان حتى بادر بالانسحاب من الميدان دون أن يفطن إلى عدول خصمه عن مطاردته ، فقد فت فى عضده تأخر وصول الإمدادات إليه من جهة ،وعظم قوة عدوه من جهة أخرى .

واتخذ هيمون لنفسه على أثر هذا النصر لقب بكرماديت (فكرماديت)[1] الهندوكى القديم ليعلن بذلك عزمه على إحياء أمجاد أمته القديمة ومناهضته للاسلام والمسلمين . فلم يكتف بإهمال شأن سيده عادل شاه، حتى راح يضرب السكة باسمه ويولى خاصته ورجاله مناصب الدولة وشئون الولايات .

وبرغم عنف المجاعة التى كانت ما تزال تجثم على دهلى وآكرا وبيانه وما حولها حتى طعم الناس الجيف وهلك خلق كثير ، فإن هيمون لم يتردد عن مطاردة قوات أكبر حتى ميدان بانى بت ، وهو الميدان الذى انتصر فيه ظهير الدين محمد بابر بقواته القليلة على حشود الهند الكثيفة لثلاثين عام خلت.

وهال رجال أكبر كثرة قوات هيمون ، التى كانت تبلغ مائة ألف من الجند وخمسمائة من الفيول ، بالقياس إلى ضآلة قواتهم التى لم تكن تعدو عشرين ألفا ما بين فرسان ومشاة ، حتى أشار أغلبهم بالارتداد إلى أرض كابل ، لولا إصرار السلطان ووزيره بيرم خان على القتال

---

(١) وهو من الأبطال الذين يمجدهم تاريخ الهند القديمة وأساطيرها على السواء وكان قد أخرج السيث والسكا من الهند ووحدها تحت حكمه .

هنالك عهد أكبر إلى صهره خضر خان بمواصلة قتال سكندر سور ثم خرج هو على رأس قواته لقاء الأمير الهندوكى وعصبته .

استطاع هيمون أول الأمر أن يكتسح جناحى جيش أكبر، برغم سقوط مدفعيته بأيدى عدوه ، غير أن سهماً أصابه فألقى به من فوق فيله الذى كان يدعى « الهوا » لخفة حركته البالغة . وحين طلب إلى فياله أن يسير به وبدابته إلى خارج الميدان توهم رهطه وقوع الهزيمة بهم، فانفرط عقدهم لساعتهم وتفرق شملهم ووقع هيمون نفسه فى الأسر . وفى هـذه الوقعة لقى كثير من الأمراء الأفغان حتوفهم .

وأبت على أكبر شهامته أن يستجيب لوزيره بيرم خان حين أشار عليه بقتل أسيره ، محتجا بأنه ليس من المروءة التنكيل بأعزل جريح [1] ، غير أن الوزير وثب على هيمون وقتله ، ثم بعث برأسه إلى كابل وبجثته إلى دهلى ليرى العصاة فى مصير صاحبها عبرة لهم وعظة .

ودخل السلطان المنتصر دهلى من جديد ، فاستقبله الأهلون على اختلاف طبقاتهم بحفاوة بالغة . وما غدا أن أقبل عليه بير محمد شروانى ومعه أموال هيمون وما كان بخزائنه فى موات من نفائس ، وفى ركابه خاصـة أتباعه وأهل بيته .

وفتت هزيمة ذلك القائد الهندوكى الـكبير ومقتله فى عضد أمراء أسرة سور ، ونال اليأس من نفوسهم منالا شديداً ، فما إن خرج أكبر إلى لاهور فبلغ جالندهر حتى رجع سكندر سور من تلال سيوالك إلى حصن مانكت

(١) منتخب التواريخ بدوان ثان ص ١٥ ، ١٦

فاعتصم فيه . حتى إذا ما قدم أكبر ومدفعيته فشدد الحصار عليه ، لم يجد بداً من طلب الصلح ، مع التعهد بالولاء التام للسلطان ، على أن يسمح له بالمسير إلى البنغال فى أمان .

وحفظ أكبر على هذا الأمير كرامته فولاه بهار وخريد فى الشرق ؛ فلبث بها حتى وافته منيته بعد عامين .

أما عادل شاه سور فقد اقتحم عليه مقره فى جنار ، خضر خان وإخوته فدحروا قواته وقتلوه انتقاما منه لمقتل أبيهم محمد خان بنغالى بظاهر آكرا .

وحاول شيرشاه الثانى بن عادل شاه هذا أن يستحوذ على جونبور بعد مقتل أبيه ، ولكن خانزمان قائد أكبر تصدى له ودحره وضم كل أراضيه إلى أملاك الدولة .

أما إبراهيم شاه سور فقد زينت له بعض القبائل الأفغانية الاستيلاء على ولاية مالوه . حتى إذا أخفق فى هذا الأمر انطلق إلى ولاية أوريسة فى إقليم البنغال فبقى بها حتى عام ٩٧٥ هـ / ١٥٦٨ م حيث لقى مصرعه على أيدى القائد المغولى سليمان كرانى [١] .

وعرف البادشاه لوزيره بيرم خان همته وحزمه فى القضاء على آل سور ، خلفاء شيرشاه ، على الخصوص ، فأنعم عليه بلقب خان خانان (أمير الأمراء) وجعله وكيلا للسلطنة وزوجه بابنة أخته .

والحق أن هذا الوزير المجرب بذل جهداً صادقاً فى تصريف شئون الدولة على أحسن وجه ، كما نظم الإدارة ، وبعث بالجند ففتحت كواليار وآجمير

(١) طبقات أكبرى ص ٢٤٥

واقتحمت جونبور وأمنت الحدود الشمالية الغربية ، فأمكن بذلك السلطنة دهلى أن تستعيد أغلب الأراضى التى كانت لها أيام بابر . وعمل كذلك ، وهو فى غمرة مشاغله الكثيرة ، على تثقيف السلطان الشاب ، وحضه دواما على طلب العلم والتزود بالمعرفة .

غير أن هذا الوزير الشيعى طفق يحابى أبناء مذهبه ويخصهم بالمناصب الرفيعة فى الدولة ويمعن فى اضطهاد السنيين جملة ، أصحاب الغالبية بين مسلمى الهند ، مستغلا فى ذلك حادث اندحار القائد السنى تردى بكخان أمام القائد الهندوكى هيمون فى معركة دهلى ، حتى فاضت النفوس بالسخط الشديد عليه[1] .

واستغل نساء القصر ، وعلى رأسهن حميدة بانو بيكيم أم السلطان وماهم أنكة مرضعته ، ما كان من تضييق الوزير على السلطان فى النفقات وما أشيع من ميله سراً إلى أبى القاسم ابن كامران[2] ، الذى كان يطمع فى الجلوس على عرش الهند ، فرحن يحرضن أكبر على إبعاد مستشاره الداهية عن منصبه[3] .

وأحس بيرم خان بدوره بنفور أكبر منه فعقد النية على الابتعاد عن البلاط بالسير إلى البيت الحرام . حتى إذا ما بلغه تسيير السلطان الجند فى أثره ، مخافة أن يستحوذ على البنجاب ، على مادس الدساسون ، استبد به الغضب فأعلن عزمه على مناهضة قوات الدولة ، غير أنه وقع فى الأسر . وقد عفى عنه أكبر على كل حال وذلك لسابق أياديه وعظيم خدماته ، وسمح له بالانطلاق إلى الحج .

---

(١) ليس هناك ما يؤيد ما ذهب إليه بدوانى « منتخب التواريخ ثان س ١٤ » من حصول بيرم خان على أمر صريح بقتل تردى بك بسبب هزيمته . وقد أثارت فعلة بيرم خان هذه نفوس رجال البلاط Muslim Rule. 819

(٢) هو ابن عم لأكبر

(٣) منتخب التواريخ ثان س ٣٢

وفيما كان بيرم خان يجتاز الكجرات عام ٩٦٨ هـ ، فى طريقه إلى البيت الحرام ، اغتاله أفغانى، يدعى مبارك خان لوحانى ، كان أبوه قد لقى مصرعه على يديه . وعلى أثر مقتله احتضن أكبر ابنه عبد الرحيم ببلاطه وكان إذ ذاك فى الرابعة من عمره ، فمازال يرعاه حتى بلغ أكبر مناصب الدولة .

هكذا تخلص أكبر من نفوذ وزيره الشيخ ليقع تحت تأثير حاضنته الداهية ، على الأخص ، حتى كان لا يبرم فى الغالب أمرا دون رأيها . وطفقت هذه السيدة تمهد بمناصب الدولة إلى أتباعها وفق هواها وترفع من مقام أبيها أدهم خان، وإن لم تستطع أن تبلغ به الوزارة على كل حال .

على أن أكبر ماغدا أن تكشف له خطورتها بعد قليل عليه فأخذ يراقب سلوكها وعصبتها بعين اليقظة والحذر . فحين بعث بأدهم خان ومعه بير محمد شروانى لفتح مالوه فدخلاها عام ٩٦٧ هـ / ١٥٦٠ م ، بعد أن هزما بازبهادر ابن شجاعت خان خاصة خيل نائب شيرشاه السابق عليها ، فلم يصل إلى آكرا من غنائم الفتح إلا القليل ، دفعه الريبة فى سلوك قائده هذا إلى أن يفاجئه بظهوره هناك ليطلع بنفسه على ماحوزته من أسلاب ضخمة ، ولم يملك أدهم خان عند ذاك إلا أن يدعى أنه كان بسبيل إرسالها إلى العاصمة .

وانفرد بير محمد شروانى بالحكم فى مالوه على أثر استدعاء أدهم خان إلى آكرا لينطلق من بعد ذلك إلى أعمال السلب والنهب والتخريب فى كافة المناطق المجاورة لإمارته حتى شواطىء نهر نربدا الجنوبية ، فلم ينج من أذاه مسلم أو هندوكى أو مسجد أو معبد ، حتى اجتمع الأهلون عليه ليتاح لأميرهم السابق وأصحابه استرداد بلادهم بمعونتهم من جديد ، وما زالوا يطاردون نائب

أكبر هذا حتى لقى حتفه غرقاً فى نهر تربدا وهو فى طريقه إلى ماندو قراراً (١) .

وما غدا البادشاه أن بعث بقائده عبد الله خان أوزبك بعد قليل فاسترد هذه الولاية من جديد ، وقد لاذ بازبهادر ببلاط أداى سنغ ، أحد أمراء مروار ، ثم مالبث أن سعى إلى التماس الصفح من البادشاه فأجيب إليه .
كذلك لم يمنع حرّ الهنـد أكبر من أن يسير إلى جونبور فيفاجىء عامله هناك عليقلى خان الأوزبكى بدوره ، كما فاجأ أدهم خان بمالوه من قبل ، ويردّه إلى طاعته .

ذلك أن هذا القائد ، بعد أن تم له رد جموع الأفغان التى التفّت حول شيره شاه الثانى بن عادل شاه سور بحصن جنار فخرجت تبغى الاستيلاء على جونبـور ، بدا من تصرفاته وعصبته من الأوزبك ، الذين كانوا فى رعاية بيرم خان من قبل ، ما أثار الريب فى نفس البادشاه حتى خرج إليهم بنفسه .
فما إن غادر كالبى فبلغ قرّه حتى جاء إليه عليقلى خان وأخوه بهادر خان فجدد له الولاء وإن عاود العصيان بعد ذلك ببضع سنين .

بلغ أكبر فى هذه الأثناء مبلغ الرجال ، وغـدا يدرك مدى خطورة المسئوليات التى يلقيها عليه منصبه ، فاتخذ له وزيراً من رجال أبيه الأكفاء المخلصين ، هو شمس الدين محمد أتـكه . حتى إذا ما ثارت عصبة ماهم أنـكه مرضعة البادشاه ، لهذا الإجراء ورأت فيه ما يحد من نفوذها ، فبرز أدهم خان ابن ماهم أنـكه فى زمرة من رجاله فوثب على الوزير وهو يؤدى فريضة الصلاة بالبلاط فقتله ، باغت أكبر القاتل وقبض عليه بنفسه ثم أمر فقذف به من حالق حتى هلك ، وما غدت أمه أن لحقت به كمداً بعد قليل (٢) .

---

(١) منتخب التواريخ ثان ٢ ٥
(٢) طبقات أكبرى ٢٧٣

تقريب المنادكة :

هكذا قضى أكبر القضاء التام على دسائس نساء القصر ومن سار سيرتهم إثر مقتل وزيره ليبدأ بذلك عهداً جديداً فى حكم الهند . ذلك أن بصيرته قد هدته إلى وجوب العمل على توحيد سكان الهند جميعاً مسلمين وهنادكة تحت رايتـه ، فطفق ، فى سبيل تحقيق هـذا الأمر ، يقرّب زعماء المنـادكة وأمراءهم منه ويفتح لهم أبواب بلاطه ويعهد إليهم بالمناصب الرفيعة مدنيـة وعسكرية على السواء ، فكان ممن أصهر إليهم من كبارهم راجا بيهرمل أمير جايبور الراجبوتى ، كما كان ممن قلدهم المناصب الهامة راجا تُدر مَلْ ، الذى خلف خواجه ملك اعتماد خان ، فسار فى شئون الدولة المالية على الخطة الحسنة التى كان اختطها شيرشاه فى إصلاحاته من قبل ، بعد أن أدخل عليها قدراً من التعديلات والتحسينات .

كذلك رفع أكبر الجزية ، التى كانت تُفرض على الهنادكة والرسوم التى كانوا يلزمون بها عند الحجيج إلى مقدساتهم ، فغدا رعاياه جميعاً على قدم المساواة فيما يلزمون به من واجبات وما يتمتعون به من حقوق . وكان صنيعه هذا كله هو البداية العملية لتحويل الهنادكة وأمرائهم من أعداء الدولة إلى خدّام لها وحُماة لأراضيها .

حروب الشمال والوسط :

التفت أكبر إلى الفتوحات على نهج أجداده فاندفع فى حروب وغزوات تكاد حلقاتها تتصل حتى عام ١٠٠٩ هـ / ١٦٠١ م لينتهى بذلك إلى تدعيم ملكه من جهة وتوسيع رقعة دولته من جهة أخرى .

غوندوانا :

تبدأ هذه الفتوحات بغزو غوندوانا إحدى إمارات الوسط . وكانت تحكمها ملكة هندوكية تدعى رانى دروكانى وصية على إبنها الصغير برنزايان ، وقد اشتهر إسم هذه الملكة لاستماتتها فى الدفاع عن بلادها حتى سقطت فى ميدان الشرف .

وحين استبان لابنها الصغير بدوره استحالة الوقوف فى وجه آصف خان قائد القوات المغولية آثر تناول السم (الجوهر) على التسليم لأعدائه فلحق بأمه .

وعوق من خطة أكبر فى الفتوح ، بعد ما أصابت قواته أسلابا كثيرة فى غوندوانا ، ما كان من انتقاض الأوزبك ، رجال بيرم خان القدامى عليه . ولئن انتهى الأمر سريعاً بعبدالله خان الأوزبكى إلى طرده من مالوه بعد هزيمته حتى لجأ إلى الكجرات ، فإن عصيان أخيه عليقلى خان زمان فى جونبور وما حولها ، حتى جهر بخلع طاعة أكبر والدعاء لأخيه حكيم مكانه ، قد اقتضى من السلطان الكثير من الوقت والجهد ليتم له القضاء عليه .

ذلك أن أكبر لم يكد يمضى فى مطاردة قوات الثائر الأوزبكى ، حتى بلغه مهاجمة أخيه البنجاب ، بتحريض من الأوزبك ، بعد أن طرده سليمان شاه صاحب بدخشان من كابل ، مستعيناً فى ذلك بالقوات التى كان أخوه قد بعث بها إليه لنجدته .

ولم يكن البادشاه ليغفل عن أهمية المركز الاستراتيجى لمنطقة الحدود الشمالية الغربية التى تعتبر باب الهند ، فبادر من فوره برد أخيه وقواته عنها كلها بعد أن كانوا قد دخلوا لاهور .

وما غدا حكيم خان أن استرد حاضرته كابل من أيدى سليمان شاه واستقر بها ، ليعود أكبر من بعد ذلك مسرعاً إلى المناطق الشرقية ثانية ، فما يزال يطارد الثائر الأزبكى وعصبته حتى التحم بهم عندما نيكبور حيث سقط خانزمان فى الميدان فى حين استسلم أخوه بهادر خان وفريق كبير من بنى جلدتهم فأوردوا جميعاً مورد الردى [1] .

واستبان لأكبر أنه لن يصير له السيادة على الهندستان كله إلا إذا تم له اخضاع حصونه الكبرى التى ما يزال فريق من الأمراء الراجبوتيين يسيطرون عليها ويعتصمون بها .

چتــور : يُعد حصن جتور أمنعَ هذه المعاقل جميعا ، إذ كان يقوم على سلسلة من الاستحكامات القوية تمتد لمسافة أميال ثمانية على نتوء من الصخر يبرز على ارتفاع شاهق فى السهل . وكان صاحبه أوداى سنغ رانا موار قد غدا يأوى عنده فريقا من الخارجين على سلطان أكبر من أمثال بهادر خان أمير مالوه السابق ، فضلا عما كان يسديه من العون ويبذله من التعضيد لأبناء عمومة البادشاه من الطامعين فى ملكه [2]

ولم تمتنع هذه المعاقل على جند الدولة برغم وعورة مسالكها واستماتة جاى مل وفتح (بتا) سنغ قائدى الأمير الراجبوتى ورجالها فى الدفاع عنها بعد أن لاذ سيدهم وأسرته بالجبال . فقد بلغ من عزم المدافعين حين رأوا زمام الأمر يفلت من أيديهم ، أن عمد نساؤهم وشيوخهم إلى قتل أنفسهم بأيديهم ، فمنهم

---

(١) طبقات أكبرى ٣١٨ - ٢١

(٢) تاريخ النبى ١٧٠ — ١٧٤

من جرع السم ، ومنهم عرّض نفسه على نيران المواقد . ثم فتحت أبواب الحصن بعد ذلك لتنطلق الحامية منه فتشتبك مع مهاجميها فى قتال وحشى عنيف فنى فيه أغلبها(١) .

وأثار ما أظهره الراجبوتيون من ضروب البسالة إعجاب أكبر حتى احتفظ بتمثالين قيل إنهما للقائدين المندوكيين(٢) . والحق إن هذا البادشاه المغولى كان ممن يقدرون شجاعة الشجعان حق قدرها حتى رأيناه فى مواقف كثيرة يحفظ على الأبطال ، من أعدائه ، حياتهم ويحيطهم بالرعاية والإكرام .

وكان من أثر حسن صنع أكبر هذا ، لا سيما مع الأمراء الراجبوتيين ، أن طفق كثير منهم ينضم إلى صفوفه ويوثق من صلاته معه ، وكان من بين هؤلاء راجا بيكانير وجيسلمير ثم بها رمل راجا أمبر وابنه بهكوان داس وحفيده من سنغ وقد صحبوه جميعا إلى آكرا وأصهر إليهم فيما بعد .

على أن راى براتاب ، حين خلف أباه أوداى سنغ فى إقليم موار عاد يرى فى توثيق الصلات بين الأمراء الراجبوتيين وسلطان المغول خطراً شديداً قد يؤدى إلى القضاء التام على أمجاد بنى جنسهم وما بذله أسلافهم ، من أمثال جده راناسنكا من تضحيات وما خلدوه من صفحات البطولة الرائعة دفاعاً عن شرف عنصرهم فنصّب نفسه للدفاع عن تراث المنادكة وماضيهم التليد ، ومن ثم طفق يستنهض من همم أقرانه ويعمل على إثارتهم وتحريضهم على مناهضة الدولة . وقد بنى خطته على تحصين حدوده وحدود حلفائه ثم إطلاق عصاباتهم جميعا من بعد ذلك لتقض من مضاجع صاحب آكرا .

---

(١) منتخب التواريخ ثان ١٠٤

Muslim Rule. 325(٢)

ولئن كان أكبر قد سير قوات كثيفة من جنده لتكتسح إقليم موار كله فانه لم لتيسر له تحقيق غايته على التمام برغم ما أحرزة من انتصارات متكررة على رنا براتاب وابنه أمر سنغ .

رنتنبهور : لم يكد البادشاه يفرغ من حرب جتور عام ٩٧٥هـ/١٥٦٧م حتى أخذ بعد العدة لاقتحام حصن رنتنبهور ثان قلاع الهندستان الكبرى ، فسارت قواته إلى هناك فى العام التالى ليلحق هو بها بنفسه فى رمضان من نفس السنة .

وحين رأى سورجانا ، صاحب الحصن ، أعداءه يبلغون بمدافعهم أعلى تل يواجه معقلة المنيع فتنهال قذائفهم عليه بادر، بوساطة من بهكوان داس ومن سنغ اللذين كانا فى صحبة البادشاه ، إلى إعلان خضوعه واستسلامه ، فخلع أكبر عليه وعلى ولديه ، وما غدا بعد قليل أن أقامه على إقليم بنارس ، كما عهد إليه بقلعة جتور .

وأدى سقوط حصنى جتور ورنتنبهور إلى تيسير مهمة الحملة التى كان السلطان قد بعث بها للاستيلاء على حصن كلنجر فى بند لخاند وهو فى طريقه إلى ثانى القلعتين سالفتى الذكر . وصار أمر راجا جندرا صاحب هذا الحصن إلى أن أقطع إقطاعا على مقربة من أحمد آباد .

وباستيلاء أكبر على هذه الحصون الثلاثة المنيعة رسخت أقدامه وتعززت حدوده . وأدى ما سلكه مع أصحاب هذه الحصون ، حين استسلموا إليه ، من طريق للودة والرفق ، فصحبهم إلى بلاطه فى الغالب أجرى عليهم رزقا حسنا وعهد إليها بقدر من مناصب الدولة ، إلى أن ركن أغلب الأمراء المنادكة إلى السلم وطفقوا يساهمون معه فى بناء الدولة بهمة بالغة وإخلاص[1] .

---

(١) Muslim Rnle. 327-28

فى ذلك الوقت رزق أكبر بابنه وولى عهده الأمير سليم ، الذى يعرف فى التاريخ باسم جهانكير ، من أم هندوكية هى إبنة بهار مل راجا جيبور وكان وكان قد بنى بها عام ٩٦٩ هـ / ١٥٦٢ م .

وعلى أثر مولد هذا الأمير عام ٩٧٧ هـ / ١٥٧٠ م انتقل البادشاه بحكومته إلى مدينة سكرى ، عند حدود الراجبوتانا من ناحية آكرا ، فاتخذها حاضرة له وسماها فتحبور ، فلم يهجرها إلى آكرا إلا حين انهار خزان المياه بها عام ٩٨٩ هـ / ١٥٨٠ م وغمرها الماء .

وكان مما حبب إلى أكبر النزوح إلى هذا المكان ، قيام ولى صالح به يدعى سليم جشتى كان قد بشره وتنبأ له بمولد ابنه هذا بعد أن مات له أطفال كثيرون من قبل . وبلغ من تعلق السلطان بهذا الشيخ أن بعث بزوجته هذه حين ظهرت عليها بوادر الحمل فأقامت إلى جواره ، حتى إذا وضعت حملها أطلق على المولود اسم الولى تبركا . وفى رحاب هذا الشيخ ولد أكثر أولاد البادشاه .

وعنى أكبر بتعمير هذه المدينة عناية بالغة حتى لتعد منشآته من أروع نماذج العمارة الهندية الإسلامية . وكان من بين هذه المنشآت الفخمة المسجد الجامع ، الذى أقيم على طراز البيت الحرام ، ثم ضريح الولى سليم جشتى ، وجملة من القصور أجاد المعماريون فى تصميمها كما أبدع النقاشون فى زخرفتها وترصيعها بمختلف الزخارف والتصاوير (١) .

وأعظم آثار أكبر بهذه المدينة هى بلند دروازه (البوابة الكبيرة) التى أقامها تذكاراً لانتصاراته فى الكجرات ، ذلك الإقليم الذى تم لأبيه همايون

---

(١) Lane-Poole, 721-75

إخضاعه لسلطانه قبل إخراجه من الهند ، والذى يعد ، إلى جانب خصب تربته ووفرة زراعاته ، عظم مراكز التجارة الهندية . فمن موانيه ، بروج وسورات وكباى ، كانت السفن تبحر وعليها منتجات الهند التى كان يتهافت عليها سكان العالم منذ القدم ، حتى لم يقتحم غاز من الغزاة أسوار الهند إلا وكان فى حسابه دخول هذا الإقليم ، ومن بين هؤلاء كان محمود الغزنوى الذى أغراه موقعه وطيب هوائه حتى جرى بخاطره أن يتخذه مقاماً دائماً له وقاعدة يدير منها دولته الهندية الجديدة .

فتح الكجرات : كان مظفر شاه الثانى آخر سلاطين الكجرات ، الذى خرج اليه أكبر فى ربيع الثانى من عام ٩٨٠ هـ/ ١٥٧٢ م ، ضعيفاً خاملا، اجتمع عليه نفر من رجاله فسلبوه كل نفوذ ، ثم ما غدا نفر منهم أن انتهز فرصة الفوضى التى كانت تسود الدولة فى عهد فراح يسعى إلى الاستقلال عما بأيديه من إقطاعات .

واستسلم سلطان الكجرات من فوره للبادشاه الذى أجرى عليه رزقا حسنا . وحذا حذوه كثير من رجال الكجرات ، لينطلق أعظم عزيز كوكا قائد أكبر ، من بعد ذلك ، ومعه إمدادات من مالوه وچندرى ، فيطارد إبراهيم حسين ميرزا ابن عم البادشاه وفريق من الأمراء التيموريين العصاة الذين كانوا يقيمون هناك ، فما زال بهم حتى أخرجهم من سورات .

على أن أكبر لم يكد يعود إلى سكرى فتحبور حتى ارتد الكجراتيون إلى العصيان من جديد ، فلم يرجع عنهم هذه المرّة إلا بعد أن استخلص من أيديهم مدينة أحمد آباد ودخل كباى وبارودا ، كما اقتحم حصن سورات المنيع الذى طالما استعصى على البرتغاليين ودفع خطرهم عن المنطقة كلها .

وفى هذا الحصن ، الذى كانت أسواره يصل سمكها إلى مايزيد على أمتار أربعة مسلحة بالحديد ، عثر البادشاه على قطع من المدفعيــة تحمل اسم السلطان العثمانى سليمان القانونى ، فهى بقايا من آلات أســطوله البحرى الذى كان قد بعث به لمعاونة سلاطين الـكجرات فى دفع خطر البرتغاليين عنهم (١) .

وجعل أكبر من هناك فى منتصف عام ٩٨١ / ١٥٧٣ م بعــد أن عهد إلى وزيره تدرمل ثم شهاب الدين أحمد خان من بعده بتنظيم شئون هــذا الإقليم الغنى الذى كان خراجه يعــد من أهم موارد الدولة .

وظلت الأمور فى هــذا الإقليم تميل إلى الاستقرار حتى أتيح لمظفر خان أن يجمع قوات جديدة سقط بها عام ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م على أحمد آباد فدخلها كما اســتولى على كمباى وباردوا فتم له بذلك السيطرة على أغلب الكجرات ، حتى سير إليه البادشاه قائده عبد الرحيم خان خانان بن بيرم خان فرده عن كثير مما وقع بايديه من أرضين ، وما زالت قوات آكبرا تطارده من بعد ذلك حتى استسلم إليها عام ١٠٠٠هـ/ ١٥٩٢م ليقتل نفسه من بعد ذلك بموسى كان يخفيها فى ثيابه .

وقد عهد أكبر إلى ثانى أبنائه مراد بشئون هــذه الولاية التى صارت جزءا من أراضى الدولة وبقيت فى حوزة السلاطين المغول قرابة قرنين من الزمان .

هذا وكان البادشاه قد صادف بالـكجرات البرتغاليين لأول مرة ، وكانوا فئة قليلة قدمت لشد أزر مظفر خان فى حربه معه ، فلم يتعرض لهم بسوء ، واكتفى بأن أخذ عليهم موثقاً بألا يتعرضوا لحجاج البيت الحرام حين

---

(١) طبقات أكبرى ٣٥٠ .

يخرجون من موانىء الهند التي كانوا يسيطرون على مسالك أغلبها[1] .

وكان هؤلاء البرتغاليون قد استطاعوا أن يقيموا لهم مستعمرات بشواطىء الكجرات بعد مواقع بحرية عدة مع سلاطين الكجرات في القرن ٩هـ/١٥م وقد اتحد المماليك المصريون وسلاطين العثمانيين بأساطيلهم سلاطين الكجرات لدفع خطر البرتغاليين هؤلاء الذي امتد حتى البحر الأحمر .

غزو البنغال : بيّنا فيما سلف كيف اتخذ شيرشاه من البنغال وما جاورها قاعدة لحملاته التي انتهت إلى إخراج همايون شاه من الهند . ولبث هذا الأقليم في حوزة أمراء من الأفغان حتى انتزعه من أيديهم سليمان خان كراني صاحب بهار في عهد سليم شاه سورى . وجرى هذا الأمير على إعلان ولائه الإسمى للدولة المغولية ، حتى إذا ما خلفه ابنه بايزيد فقتله وزراؤه بعد قليل ، جاء أخوه وخلفه داود ليغريه ما بخزائنه من أموال كثيرة وما تهيأ له من جند كثيف على مهاجمة أراضى الدولة المغولية الشرقية وتخطفها حتى بلغ بتنة وخربها .

ولئن كان أكبر قد خرج إلى هذا الثائر بنفسه عام ٩٨٢هـ/١٥٧٥م حتى بلغ بنارس فاقتحمها على صاحبها كما استولت قواته بدورها على بتنة ، فإن قائده منعم خان رضى آخر الأمر بالصلح مع خصمه بفعل ما كان بينه وبين أبيه من صداقة قديمة ، وأقطعه إقليم أوريسه برغم معارضة زميله تدرَملَ . وما غدا داود ، حين بلغه وفاة نائب أكبر هناك بالهيضة ، أن انطلق يسترد أراضيه السابقة ، حتى أوقع به خان جهان نائب السلطنة الجديد فقضى عليه في

---

(1) Dunbar 168

ساحة راجا محل فى ربيع الثانى من عام ٩٨٤هـ/١٥٧٦م . وبمقتله قضى على استقلال البنغال الذى لبثت تنعم به قرابة قرنين ونصف القرن .

على أن خان جهان لم يكد يقضى عام ٩٨٧هـ/١٥٧٩م . حتى خلفه مظفر خان تربتى ليؤدى ما فرضه على أصحاب الأراضى من ضرائب عالية لصالح بيت المال إلى ثورة هؤلاء الملاك .

وأدى إلى اتساع نطاق الفتن ، حتى شملت البنغال وجونبور كلها ، نفور أغلب العلماء ورجال الدين المحافظين هناك من الدراسات الفلسفية واللاهوتية التى كان البادشاه يمارسها وما بلغهم من انصرافه إلى التفكير فى ابتداع مذهب جديد يذيب فيه عقائد الهند كلها ويجمعها على التوحيد ، حتى لم يتردد ملا محمد يزدى ، قاضى جونبور ، أن يفتى بوجوب حرب السلطان لما استحدثه من بدع تزعزع بناء الإسلام فى الهند .

وبلغ من عنف الثورة هناك أن قتل ظفر خان نفسه نائب أكبر هناك ، كما اضطرت قواد البادشاه التى كانت قد قدمت من دهلى إلى الاعتصام وقائدها تدرمل فى حصن منفر ، حتى جاء ميرزا عزيز كوكا فقضى على تمرد باب خان وعشائره الجغتائية بالبنغال ، لينطلق من بعد ذلك قائده بازخان إلى بهار فيرغم معصوم فرنخودى زعيم الثوار هناك على الفرار إلى تلال سوالك بالبنجاب .

<u>ثورة ميرزا حكيم</u> : كان من نهج ثوار المناطق الشرقية من أفغان وأوزبك أن يعمدوا فى الغالب ، وهم فى غمرة العصيان ، إلى آثارة القلاقل والفتن بأيدى

أبناء جلدتهم عند حدود الدولة الغربية والشمالية الغربية تخفيفاً لضغط قوات السلطان عليهم .

ولم يكن ميرزا حكيم خان ليقعد بدوره عن الإستجابة لهؤلاء الثائرين وهم الذين دأبوا على التلويح له بمرش آ كرا إذا ما عاونهم على التخلص من نير أخيه الجالس عليه . وقوى فى عضد هذا الأمير هذه المرة ، على ماعرف عنه من خور فى العزيمة وانـكباب على الشراب ، ما كان من انضمام فريق من قادة أ كبر من طلاب المغامرات إلى صفوفه ، حتى خرج عام ٩٩٠ هـ / ١٥٨٣ م إلى البنجاب فدخل لاهور وانتهب ما حولها من أرضين .

وما غدا أ كبر أن أسرع إلى هناك فى خمسين ألف من الفرسان وخمسمائة من فيول الحرب وجموع كثيفة من المشاة ومعه ولداه سليم ومراد ، فتقدم سليم إلى جلال آباد بعد أن عبر ممر خيبر ، فى حين اتجه مراد إلى كابل فالتحم بقوات عمه وأرغمه على الفرار . على أن البادشاه ما لبث أن ردّ أخاه إلى إمارته بعد أن عفى عنه خوف انضمامه إلى أعدائه الأوزبك ببلاد ما وراء النهر [1] .

وهلك فى حملة البنجاب هذه خواجه شاه منصور ، ديوان السلطان [2] وأحد مستشاريه الذين ساهموا مساهمة قوية فى إقرار الأمور فى الجبهة الشرقية من قبل ، إذ دس عليه راجا مان سنغ بضع رسائل قيل أنه كان يتبادلها مع ميرزا حكيم فأمر أ كبر من فوره بشنقه دون تثبت من أمره ، وقد ندم على فعلته هذه من بعد [3] .

---

(١) طبقات أ كبرى ٤٢٥ .

(٢) الديوان هو القيم على شئون المال ، وهو وزير عادة .

ولئن كان من المعروف أن منطقة الحدود الشمالية الغربية هى منذ القدم باب الهند الأعظم الذى ينفذ منه الغزاة إلى هذه البلاد ، فإن اهتمام سلاطين الهند الجدِّى بتحصين هذه المنطقة لم يبدأ إلا غداة غزو جنكيز خان وأبنائه من بعده للهند : حتى رأينا آل بلبن والخلجيين ثم آل تغلق من بعدهم يقيمون بها سلسلة من المعاقل والحصون القوية حبسوا بها قوات كثيرة العدد والعُدد.

وأتيح لتيمور لنك اجتياح أغلب هذه الحصون حين فتر الاهتمام بها ودب الإهمال إليها لما كان عليه آخر سلاطين آل تغلق من الضعف . حتى جاء أكبر فعمّرها من جديد لتدفع عنه أخطار الأوزبك ، أصحاب بلاد ما وراء النهرين وألدّ أعداء الأمراء التيموريين وأشدهم مراساً ، ومعهم القبائل التى تقطن أرض كابل وغزنة من الأفغانيين وغيرهم الذين طالما أغراهم ثراء الهند جارتهم ، بالقياس إلى جدب أراضيهم وفقر بلادهم ، بالسقوط عليها وتخطف أراضيها وانتهاب أرزاقها بل والتوغل فيها ما سنحت لهم الفرصة بذلك وغفلت عنهم أعين نواب دهلى على البنجاب .

وكان من أثر مبادرة البادشاه إلى إرسال قواته لاحتلال إقليم كابل عقب وفاة أخيه ميرزا حكيم فى شعبان من عام ٩٩٢ هـ / ١٥٨٥م وضمه إلى أراضيه ، وما أنزله قواده ، من أمثال راجا من سنغ وزين خان وراجا بيربل ، بعبد الله خان الأوزبك وقبائل يوسفزاى الأفغانية من الهزائم الحاسمة ، أن أمنت حدود الدولة فى المناطق الغربية والشمالية الغربية ، لتتجه قوات أكبر من بعد ذلك بقيادة راجا بهكوان داس لغزو كشمير فتضمها إلى أملاك الدولة عام ٩٩٥ هـ/ ١٥٨٧ م .

كذلك دخلت جيـوش البادشاه إقليم أوريسه كما سيطرت على السند والملتان ومنازل البلطهان لتطل من ذلك على قندهار التى كان أكبر يمنى النفس منـذ أمد بعيد باسترجاعها من الفرس ، فهى مفتاح الطريق إلى حدوده الشمالية الغربية .

وانتهز السلطان الهندى فرصة اشتغال عباس الصفوى شاه الفرس بحروبه مع العثمانيين والأوزبك فدفع بقوته عام ٩٩٨ هـ/ ١٥١٠م إلى هذه الأيالة ، فلم يهل عام ١٠٠٣هـ حتى صارت فى حوزته دون قتال ، إذ وصل إلى غرضه فى مهارة سياسية فائقة أبقت على علاقات المودة بينه وبين جاره (١) .

وهكذا صار لأكبر ، ولما ينصرم القرن العاشر الهجرى بعد ، مملكة متسعة الأرجاء امتدت من آخر حدود البنغال الشرقية إلى ما وراء الهندكوش وأرض كابل وغزنة وقندهار فى الغرب ، ومن جبال الهملايا فى الشمال إلى نهر نربدا فى الجنوب ، ولما تنته فتوحه بعد .

فتوح الدكن : لبث سلاطين المسلمين فى الهندستان يرون فى الدكن وما وراءها جنوباً بلاداً غريبة عنهم ، فى الغالب ، بأهلها وعاداتها ورسومها . على أن أطماعهم ، حين كان يستتب لهم الأمر فى الشمال الهندى كله ، كثيراً ما أغرتهم بالنفوذ إلى ذلك الجنوب الذى كشفت لهم حملات علاء الدين الخلجى عما به من ثراء ، والذى قامت به دويلات وإمارات إسلامية أبى أصحابها الاعتراف بسيادة دهلى عليها طواعية .

وكان من الطبيعى أن يتطلع أكبر بدوره إلى هذا الجنوب ، وهو المحارب الطموح ، بعد أن ساد سلطانه الشمال وعظم شأنه وأمنت حدوده .

---

(١) Muslim Rule 347

واستعصت إمارة أحمد نكر أول الأمر على الأمير مراد بن أكبر وقائده عبد الرحيم خان لحسن دفاع الأميرة الشجاعة جند بيبى عنها ، فلم تستقر جهود هذين القائدين بالدكن إلا عن ضم إمارة برار إلى أملاك الدولة (١) .

كذلك لم يفلح قواد البادشاه فى حسم موقفهم مع قوات أحمد نكر وبيجابور وغولكنده مجتمعة حين التقوا بهم من جديد ، حتى جاء الوزير أبو الفضل بن المبارك نفسه إلى الدكن فى جند كثيف ، وما غدا أن لحق به أكبر بنفسه بعد أن عهد بأمر حكومته إلى ابنه سليم .

وكان مما أدى بالسلطان إلى السير بنفسه إلى هناك ، موت ابنه مراد من جهة وانضمام أمير خاندش إلى الخارجين عليه من جهة أخرى .

وسير أكبر ابنه دانيل إلى أحمد نكر فى حين قصد هو إلى خاندش ، فما أن دخل عاصمتها برهانبور ثم شرع من بعد ذلك فى حصار « عسير » أقوى حصونها ، وكان يمتنع فيه وصاحبه ميران بهادر ؛ حتى وافته الأنباء بخروج ابنه سليم عليه وتنصيبه لنفسه سلطاناً فى مدينة الله أباد بأدنى الدوآب (٢) ، فلم يثنه

(١) هذه الأميرة إبنة حسين نظام شاهى وأرملة إبراهيم عادل شاه الثانى صاحب بيجابور . وقد رجعت إلى مسقط رأسها فى أحمد نكر بعد موت زوجها لتقف إلى جانب الصغير بهادر نظام شاهى صاحب الحق الشرعى فى الإمارة ، مما أدى بالوزير ميان منجهو ، وكان يناصر أميراً آخر يدعى محمد خدابنده ، إلى الاستنجاد بمراد بن أكبر الذى كان يحكم بالكجرات ، وبرغم نجاح هذه الأميرة فى إقرار بهادر على بلاده ، فما غدا أنصاره من الأحباش والدكنيين أن انقلبوا عليها حتى ضيعوها وضيعوا إمارتهم معها .
هذا وفى القسم الأول من هذا الكتاب ص ١٦٨ — ١٧٦ تفصيل لنشأة إمارات الدكن جميعاً .

(٢) دفى أكبر عن إبنه حين عاد إلى آكرا فولاه البنغال وإن لبثت العلاقات متوترة بين البادشاه وابنه إلى آخر أيامه .

ذلك عن المضى فى خطته حتى سقط الحصن فى يده وتبعه استسلام إمارة أحمدنكر له بدورها .

وبسقوط هذه الإمارات فى مستهل القرن الحادى عشر الهجرى ، وختام القرن السادس عشر الميلادى ، تم لأكبر السيطرة على الدكن التى استمرت حروبه بها سنوات خمسة[1] ، وصارت الدولة المغولية ، أعظم الدول لعصرها وأقواها وأكثرها ثراء وغنى[2] ، بما دخل فى حوزتها من أرضين ومالنطوى تحت لوائها من الأمراء وما عمرت به خزائنها من أموال الفتح وغنائمه وكنوزه .

ولم يطل الأجل بأكبر حتى يتم فتح جنوب شبه القارة الهندية بأكمله بعد أن شرع فيه ، وقد كان بوسعه تحقيق هذا الأمر فى أمد قصير أن أقر الأحوال فى الشمال كله بقضائه على أسرة سور وكبحه جماح الأوزبكك وفتحه البنغال واقتحامه حصون الراجبوتبين الكبرى وتأمينه حدوده كافة ، لولا ما تعرض له من ثورات وفتن عنيفه بسبب ما ذاع عنه من أفكار وآراء فلسفية أدت به إلى استنباط مذهب دينى جديد .

المذهب الإلهى :

برغم أن أكبر ينحدر من أسرة امتازت بالثقافة المتوارثة فيها ، فقد أدى اضطراب حياة أبيه فى الغالب ، إلى حرمانه من قدر وافر من التعليم فى الصغر ، فشب ولم يكن يحسن القراءة والكتابة . ومع ذلك فقد فاضت حياته الطويلة بالنشاط العقلى ، إذ كان قوى الملاحظة كلفا بالمعرفة ، فتعلم عن طريق التلقين مكتفيا

(١) كان من أثر طول مقاومة أمارات الدكن الإسلامية للمغول ، ابتعاد الخطر الى حين عن أمارة فيايانكر الهندوكية التى كانت تقع ماورائها جنوبا .

(٢)

بالأصغاء والتـــأمل . وكانت ذاكرته القوية تستوعب كل ما كان يقرؤ فى حضرته من الـكتب القيمة التى جاوز عددها فى مكتبته الخاصة أربعا وعشرين ألفا .

ولقد ولد أكبر عن أب سنى المذهب وأم شيعية ، وربى بوضع أميرات من الهنـادكة . وطفق لا يشغل نفسه إلا بعلوم أهل السنة حتى التقى بالشيخ مبارك نا كورى وولديه فيضى وإبى الفضل وكان ثلاثتهم من المشتغلين بعلوم الحـكمة ، فتفتحت ، عيناه على كثير من المسائل الفلسفيه والأسرار الصوفية ، ودفعوه معهم فى طريقهم ، طرق البحث عن الحقيقة ومحاوله الوصول إلى الحق المجرد .

وأدى به شغفه بهذه المسائل إلى اقامة دار للعبادة « عباد تخانه » ، بمدينة فتحبور حاضرته الجديدة ، تم بناؤها عام ٩٨٣هـ / ١٥٨٥ م لتـكون منتدى الفقهاء والمتصوفة ورجال الدين وصفوة رجال الدولة يتدارسون فيها كتاب الله الـكريم وعلوم التفسير والحديث ومسائل الفقه والتصوف والفلسفة .

ودرج أكبر على الحضور إلى هذه الدار عقب صلاة الجمعة عند انصرافه من خانقاه شيخ الإسلام . هذا كا كان يتعبد كذلك فى كهف غير بعيد من قصره ويمضى ليالى بأكلها يناجى ربه برموز الصوفية واصطلاحاتها .

كان هـذا السلطان يرى فى الملك نعمة من نعم الله العظمى ، يتجلى العرفان بها فى حسن إدارة الحاكم لحـكومته على وجه يجعل رعاياه جميعا يتفانون فى طاعته وتلهج ألسنتهم بالثناء عليه .

وعلى هدى هذه الغاية حاول أن يمزج نفسه بالهند وشعوبها من مسلمين

وهنادكة مزجا عميقا لينقلب هو وبلاده آخر الأمر إلى وحدة لا تنقسم أو تتجزأ. فمضى يعمل على انضواء الهنادكة جميعا تحت راية الحكم الإسلامي عن رضى وقبول بتألف قلوبهم ، وفتح أبواب بلاطه لهم حتى بلغ كثيرون منهم أعلى مناصب الوزارة والقيادة[1] ، كما أصهر إلى كثير منهم كذلك ، وإن أدى سلوكه هـذا إلى نفور طائفة من العلماء ورجال الدين الذين كانوا ينكرون قيام المساواة بين المسلمين ومن خالفهم في دينهم .

وكان من ثمرة نهجه هـذا الذى انتهجه أن طفق فريق من الأمراء الراجبوتيين يوالونه حتى ساروا معه بقواتهم لتحقيق أهدافه في الفتوح والقضاء على الفتن التي كانت تنشب من حين لآخر في أنحاء بلاده الواسعة .

وكان من بين هؤلاء راجا بهكوان داس وابنه من سنغ اللذان ظاهراه في حصاره لحصن جتور أقوى قلاع الهند ، ثم راجا بيرمل الذى لاقى حتفه وهو يدافع عن حدود الدولة الشمالية الغربية .

ولعل تدر مل هو أبرز هندوكى قام على خدمة أكبر في إخلاص بدت آثاره العظيمة واضحة جلية في تاريخ الهند . فهذا الوزير ، الذى كان قد نشأ عند السلطان القدير شيرشاه فألم بالكثير من اتجاهاته السديدة في شئون الإدارة الحكومية ، قد شارك بنجاح في حملات البادشاه البنغالية ، كما أظهر كفاءة ودراية كبيرة حين عهد إليه بتنظيم شئون حكومة الكجرات ، أغنى إمارات الهند ، وتنسيق مواردها المالية ، حتى صار من بعد ذلك خير مشير لأكبر فيما شرع فيه من إصلاحات شملت كافة نظم الحكم وشئون الدولة[2] .

---

(١) بلغ عدد المناصب الكبرى في الدولة أيام أكبر ٤١٥ ، وكان الهنادكة يشغلون منها ٥١ منصباً .

(٢) Lane-Poole 260-62

لقد أدرك أكبر أن بلاده الواسعة لا يمكن حكمها وإقرار الأمور فيها إقراراً إلا بقيام المؤاخاة والألفة بين أهلها على اختلاف مللهم وتباين عروقهم ونحلهم . وهو حين قرب إليه الهنادكة، دفعه شغفه بالمعرفة إلى التطلع إلى ما عندهم من ثقافات ورسوم قديمة ومعتقدات ، فعهد إلى فريق من العلماء بنقل عيون الكتب الهندوكية القديمة من السنسكريتية إلى الفارسية ، لسان العصر بالهندستان ، ومن بينها الرامايانا[1]، ثم المهابهارتا، كتاب الهند القديمة الأقدس، التي يعد قراءة قدر منها مجلبة للرحمة والمغفرة ، كما يقرء المسلمون القرآن وأتباع المسيح الإنجيل ، وتحوى ربع المليون بيت من الشعر ، في حين لا تعدو إلياذة هوميروس ، نظيرتها عند اليونان القديمة ، خمسة وعشرين ألف بيت .

ولم يكتف البادشاه بقراءة هذه الأسفار حتى راح في سبيل دراساته ، يستدعى إليه ، في دار العبادة وفي قصره ، شيوخ العقائد من برهمية وبوذية وجينية وويشية وزرادشتية ونصرانية [2]، ليعرضوا عليه بضاعتهم علّه يبلغ إلى علة الفروق بينها حين تكفر كل فرقة أختها وتحرم على أتباعها أن يطاعموا غيرهم أو يخالطوهم .

ولم يكن أكبر ، وهو المفكر المسلم الحر ، ليحجم عن إعلان إعجابه بما

(١) قام المؤرخ بداونى بنقل الرامايانا إلى الفارسية فأتمها في أربع سنوات ، وهى تحوى خمس وعشرين ألف بيت ، يتركب كل بيت منها من خمس وستين حرف وبطلها رام جند، وكان مسقط رأسه مدينة أوده . وقد زينت هى والمهابهارتا التى قام فريق من علماء الهنادكة وأدباء المسلمين بنقلها إلى الفارسية بنقوش كبار النقاشين في بلاط السلطان . منتخب التواريخ ثان ٣٢٠ ، ٣٣٦ .

(٢) نقل الإنجيل إلى الفارسية [illegible] أبى الفضل بن المبارك « منتخب التواريخ ٣٦٠ » .

يعرض عليه من نواحى الخير والمبادىء الإنسانية فى هذه [illegible]
من تلطفه مع أصحاب هذه الملل وحدبه على استمالتهم [illegible]
الهنادكه وجرب معهم طقوسهم (1) وكف عن استخدام الثوم والبصل فى أطعمته وتقديم اللحوم على مائدته .

ولقد كان أكبر فى الواقع لايهتم أبداً بأصناف الطعام ، فنشأ منذ صغره على غير ميل إلى تناول اللحم حتى حرمه على نفسه محتجا بأنه لا يليق بالإنسان أن يجعل من جوفه مقبرة للحيوان ، وإن لم يحرمه على رعاياه .

كذلك كان يكن كراهية شديدة للقصابين والصيادين الذين كان يرى فيهم أناساً وقفوا حياتهم على قتل الحيوان (2) . هذا كما منع اقتناء الطيور وأطلق ما كان منها حبيس الأقفاص .

ولم يكن أكبر كذلك يتناول سوى الماء القراح ، وإن كان قد عكف فى شبابه على تناول النبيذ بعض الوقت .

كذلك اجتبى البادشاه اليسوعيين الذين وفدوا إلى بلاطه ليستمع إلى

---

(1) من ذلك أنه رتل معهم الإبتهالات الدينية البرهمية التى زعموا له بأنها تجعل الشمس وفق هواه . ولم تقف تجاربه عند هـــذا الحد حتى راح يحاول اختبار الفطرة الإنسانية فى أطفال عزلهم بقصره عن الناس بعد أن رتب لهم المراضع ، ليعرض عليهم مبادىء الأديان كلها حين يشبوا عن الطوق ويرى ماعسى أن تهديهم إليه فطرتهم . لـكنه فشل فى تجربته إذ استبان له بكمهم جميعاً بسبب عزلتهم « منتخب التواريخ ثان ٢٨٨ » .

(2) لايتفق تحريم اللحوم هناومقاطعة الجزارين ومن إليهم مما ادعاه بداونى من إباحة السلطان للحوم البقرة واقتنائه للخنازير والـكلاب بقصره ، وقد أفصح هذا المؤرخ عن وجه الحق فى إتهاماته هذه وغيرها مما كان يحز فى نفسه هو ومن كانوا على هواه حين كانوا يرون السلطان يقرب الهنادكة إليه ويعاملهم بالتسامح والتكريم « المصدر السابق ٣١٤ » .

بيان النصرانية من أفواههم لا من بطون كتبهم ، فأكرمهم ، وكانت لهم بعوث تبشيرية تنتشر فى مستعمرات البرتغاليين بالهند ، حتى حملوا على محمل رغبته فى التنصير ما أظهره من التبجيل والتوقير للإنجيل حين رفعوه إليه ، ولأقنومة المسيح وأمه البتول حين أطلعوه عليها ، وما كان من رده المهذب عليهم ، حين عرضوا عليه الدخول فى ملتهم ، فقال لهم بأن الأمور كلها تجرى وفق المشيئة الإلهية . وقد تجاهلوا موقفه منهم حين كانوا يجنحون إلى التحامل على الإسلام فيردهم عن ذلك بما أثر عنه من رفق ولطف .

استمع أكبر إلى هؤلاء جميعا فى حرية وتسامح دينى مطلق وقت أن كانت أوروبا تجتاحها موجات مدمرة من متعصب ، فالكاثوليك كانوا يفتكون بالبروتستانت فى فرنسا ، والبروتستانت كانوا يذبحون الكاثوليك فى انجلترا ، ومحاكم التفتيش كانت تنكل ببقايا المسلمين واليهود فى إسبانيا ، ورجال الكنيسة بإيطاليا كانوا يحرقون بتهمة الهرطقة جمهرة من العلماء تدين لهم المدنية والحضارة الحديثة بالكثير .

والمعروف أن هذا الأمير التيمورى الذى كان يعمل ، فى سبيل بلوغ الحقيقة ، على استخلاص الحسن من الآراء المختلفة التى قد تنتهى به إلى غايته ، هداه تفكيره الفلسفى وبصيرته النفاذة إلى أن يرى الديانات عموما ، بعد اطلاعه عليها ، كأنها رموز مختلفة تمثل الأسرار التى تحيط بالكون وأهله . لذا ود لو أنه استطاع إذابتها فى مذهب جديد يقوم على التوحيد ، ويجمع ما فى هذه العقائد من فضائل ، ويقضى على الخلاف بينها ، ويزيل ما بين الناس من فوارق ، ويدعم أخوة الإنسان لأخيه الإنسان ليبلغ بذلك كله إلى قيام التجانس التام فى مجتمع بلاده .

إلا أن مسعاه لم يتكلل بالنجاح في مؤتمر الأديان الذي عقده في «عبادتخانه» وحشد له الصفوة من رجال الأديان وشيوخ العقائد على اختلاف مللهم ونحلهم. ذلك أن هؤلاء الأعلام لم يتبادلوا فيما بينهم إلا أفظع التهم وأفحش الشتائم [1]

وعلى ذلك فقد أدرك أكبر، قبل أن يأتي الفلاسفة المحدثون بزمن طويل ويقرروا، على وجه التحقيق، أن المعتقدات مستقلة تمام الإستقلال عن العقل الصرف [2].

وبرغم سخرية البادشاه من هؤلاء جميعا فقد راح أصحاب كل مذهب وعقيدة يدعيه بدوره لنفسه في غير تورع ولا استحياء.

ادعاه الزرادشتيون حين وضع علاماتهم على ثيابه، وادعاه المنادكة حين رأوه يمتنع عن أكل اللحم ويحرم الصيد واستخدام البصل والثوم في طعامه، ويحض الناس من حوله على ذلك. ونسوا تشدده المطلق في محاربة عادة الساتي الخاصة بهم - حيث تقبل الأيم التي ليس لها ولد على حرق نفسها مع جثمان زوجها - حتى تدخل بنفسه لإنقاذ إحدى نساء الأشراف ومنع عشيرتها من إرغامها على ذلك[3]. كما أباح زواج الأرامل وحض عليه، على خلاف شرائعهم.

---

(١) اقترح أحد المناظرين، وكان يدعى شيخ قطب جليسرى، أن تختبر المسيحية إزاء الإسلام بمحنة النار، وذلك بأن يخوض أحد القساوسة اللهب، فمن خرج منه سالما كانت فرقته صوت الحق في الأرض، لكن اليسوعيين رفضوا ذلك وخافوه «منتخب التواريخ ثان ٢٩٩».

(٢) اختلال التوازن العالمي لجوستاف لوبون ص ٣٥١.

(٣) هي إبنة أداى سنغ وأرملة جاى مل أحد أبناء عمومة راجا بهكوان داس من زعماء المنادكة المقربين من البادشاه. وقد ركب أكبر بنفسه لإنقاذ هذه الأميرة.

وادعاه النصارى حين أمر وزيره أبا الفضل بترجمة الإنجيل له وأدخل دراسة النصرانية فى تعليم ابنه ، ولم يمانع - على حد قولهم - فى تنصير أحد من أهل الهند، على الإختيار. وزعموا أنه ، بفضل تعاليمهم، أحال أحد المساجد فى حاضرته إلى اسطبلات للخيل والفيلة ، بدعوى الاستعداد للحرب ، وأمر بحرق المصاحف وحرم ذكر النبى الأكرم ببلاطه، واقتصر على زوجة واحدة، وحرم على أتباعه المسلمين ختان أولادهم الذكور حتى يبلغوا الخامسة عشرة من عمرهم فتكون لهم الخيرة فيما يعتنقونه من الأديان[1] .

وعلى هدى نشأة اللغة الأوردوية فى الغالب - وهى مزيج من لغات الفاتحين المسلمين ولغات الهند ، نشأت نشوءا غريزيا من اختلاط هؤلاء الشعوب بعضها ببعض ، حتى غدت بالكاد لغة الهند القومية — هدت أكبر قريحته ، بمعاونة وزيره أبى الفضل وأخيه فيضى ، إلى ابتكار مذهب جديد يتألف كل ما هو حسن فى سائر العقائد على وجه يقضى، فيما ظنه ، على تناحر الفرق والأديان ويهيىء السلام للناس والأمن للدولة .

وهذا المذهب الذى يعرف فى التاريخ باسم « دين إلهى» والذى يقوم على تمجيد الله وينادى بوحدة الوجود ويمتزج فيه التصوف والفلسفة بالعبادات ، فيه البادشاه هو الإمام العادل[2] ظل الله على الأرض ، والمجتهد الأكبر ،

---

(١) Muslim Rule 375–81

(٢) فكرة الإمام العادل هى عند أكبر بتأثير المذهب الشيعى ونظرية المهدى المنتظر، حتى اصطنع له تقويما جديداً يبدأ من عام ارتقائه للعرش ، وهو ماحدا به كذلك فى الغالب الى أن يوحى لفريق من المؤرخين وعلى رأسهم مولانا أحمد داود بن قاضى تتا بكتابة « تاريخ ألفى » الذى يضم تاريخ المسلمين وسلاطينهم الى العام الألف من تاريخ انتقال النبى الأكرم الى الرفيق الأعلى .

من أطاعه فقد أطاع الله ومن عصاه فقد خسر الدنيا والآخرة .

وكان من رسوم هذه العقيدة الجديدة التى رمى أصحابها فيها إلى تمثيل عقائد الهند كافة أحسن تمثيل ، أن يقر المؤمن بها باستعداده لتضحية أملاكه وشرفه وحياته وعقيدته فى سبيل البادشاه ، وأن يقتصر فى غذائه على النبات ، ويمتنع عن تناول اللحم أياما كثيرة مرسومة ، ولا يجالس الجزارين والصيادين وغيرهم من قتلة الحيوان ، ولا يحبس حيوانا أو طيرا عنده ، ويتجنب البصل والثوم ، وأن يبذل الصدقات للفقراء والمعوزين .

وكانت تحيتهم فيما بينهم هى : « الله أكبر » وجوابها : « جل جلاله »[1]

وقرن أكبر إعلانه لمذهبه هذا بإصدار طائفة من التشريعات الإجتماعية المفيدة . فمنع عادة الساتى ، وأباح لأرامل الهنادكة الزواج ، وحض الناس على الاكتفاء بزوجة واحدة والابتعاد عن البناء بالأقارب الأقربين لما ينجم عن ذلك من ضعف النسل وفتور فى الميل ، ومنع زواج الأطفال دون البلوغ[2] ، وزواج النساء المتقدمات فى السن بشبان يصغرهن بكثير .

وفرض كذلك عقوبات صارمة على متبرى الشغب والشجار ، كما منع

---

(١) لم يقل أحد من المورخين بادعاء أكبر الألوهية أو النبوة . ومما يذكره بداونى فى هذا الصدد (منتخب التواريخ ثان ص ٢١٠) — وكان من أشد الناقمين على هذا المذهب الجديد — أن البادشاه رغب عام ٩٨٣ هـ فى ضرب عبارة « الله أكبر » على السكة والخاتم الشاهانى ، فنصحه أحد رجاله بأن يستبدلها بقوله تعالى « ولذكر الله أكبر » حتى لا تحمل الأولى على ادعاء الألوهية ، فاحتج عليه السلطان بأنه كل ما فى الأمر هو موافقة مقتضى الحال ، فكيف للانسان أن يرقى إلى ادعاء الألوهية وهو على ما هو عليه من العجز والضعف .

(٢) نص هذا التشريع على أن لايقل سن الشاب عن ستة عشر عاما والفتاة عن أربعة عشر .

تعاطي الشراب وتداوله ، وأمر بعقاب شارب الخمر وبائعها ومشتريها وصانعها وقصر بيعها للتداوي على متجر خاص بقربة من قصره وجعل به سجلا يثبت به اسم كل مريض يتعاطاها واسم أبيه وجده وترخيص الطبيب له بها[1] .

وأمر كذلك بجمع البغايا في دار تدعى « شيطانبور » أي محلة الشيطان ووكل بهن عاملا خاصاً يقدم على شئونهن ، ثم أخذ من بعد ذلك يستدعي إليه كل واحدة منهن فيستوضحها عن أغوائها ودفعها بها في طريق الشر والفساد ، لينتهي من ذلك إلى قتل كل من ثبتت هذه التهمة عليه .

ولم يكتف بتعميم هذه الدور في مناطق كثيرة ببلاده حتى أمر بأن يساق إليها كل زوجة يثبت إدمانها على الخصام والشجار مع زوجها .

هذا كما منع من استرقاق أسرى الحرب[2] واختلاط النساء بالرجال في الأسواق وعند شواطيء الأنهار طلبا للسقي أو الإغتسال .

وأعفى المناذكة من ضريبة الرءوس ورفع عنهم رسوم الحج[3] ، حتى

---

(١) يرى بدواني في هذا الإجراء تنظيما غير مباشر لتعاطي الشراب فحسب وترخيصا مقنعا به ، وبلغ من فرط تحامله هنا أن صرح بأن النبيذ يدخل لحم الخنزير في صناعته « منتخب التواريخ ثان ٣٠١ » .

(٢) هذا الإجراء بعد ، على ضوء ملابسات القرن السادس عشر الميلادي ، من أنبل ماشرعه ملكه ، فضلا عن تحقيقه لهدف من أهداف الإسلام الإنسانية الكبرى في الدعوة للتحرير وفك الرقاب ، ولاننسى أن المناذكة كانوا يسطون عن الأسرى فيمتهم الإنسانية فيسلكونهم في عداد المنبوذين ، هذا ونجد بيان هذه التشريعات جميعاً في الجزء الثالث من آيين أكبرى لابى الفضل بن المبارك بمواضع عديدة متفرقة منها .

(٣) كان يجبى من المناذكة رسوم معينة نظير السماح لهم بالحجيج الى أماكنهم المقدسة وهذه هي التى رفعها أكبر عن كاهلهم — هذا وكان أكبر هو كذلك أول من سير المحمل الى الاراضي المقدسة .

يشعروا بقيام المساواة التامة بينهم وبين مواطنيهم من المسلمين . ولم يكتف بأن يصرح للذين أجبروا فى صباهم على الإسـلام أن ينظروا ، متى بلغوا سن الرشد ، فى البقاء على إسلامهم أو الرجوع إلى دين آبائهم ، حتى راح ينادى بحرية الناس جميعاً فى تخيُّر ما يروقهم من الأديان والعقائد ، ويسدى لهم النصح بألا يتعرضوا للذين يخالفونهم فى عقيدتهم بسوء أو أذى ، وأن يسلكوا معهم سبيل المودة والرحمة حتى يصلوا وإياهم إلى معرفة الحق .

والحق أن أكبر لم يحـاول أن يحمل الناس أبداً على الدخول فى مذهبه الجديد هـذا . فلم يلق بالا إلى رفض راجا بهكوان داس وراجا مَن سنغ(١) الإستجابة إلى دعوته ولا إلى احتجاج قائده عزيز ككا ، برغم أنه كان بوسعه - بطبيعة الحال - أن يحمل كثيراً من رجاله على الانتظام فى حزبه .

ولئن التف فريق من الناس حول المذهب الجديد جلياً للنفع وطمعاً فى اكتساب الحظوة فى الغالب ، فإن الفشل التام قد أصاب البادشاه فى مشروعه هذا الذى لم يكن ليقوى أبداً على هدم التقاليد الموروثة ، فلبثت الغالبية العظمى على استمساكها بعقائدها ومذاهبها .

ولم تكن حركة أكبر هذه إلاّ واحدة من المحاولات القوية التى اضطلع بها نفر من المسلمين والهنادكة ، من قبله ومن بعـده ، للتقريب بين الإسـلام والهندوكية وتضييق شقة الخلاف بينهما وإحلال التفاهم وتحقيق الوحدة بينهما .

وهذه التعاليم ، التى اضطلع بها كيتانيا ، ونانك ، وكبير ، وداراشكوه ،

---

(١) كان من رد مان سنغ على البادشاه أنه يعرض حياته دائما للموت فى سبيل السلطان ، وأنه على دين الهنادكة ، فاذا ما طلب إليه أن يسلم فقد يفعل ذلك ، وهو لا يعترف بغير هاتين الملتين على كل حال .

ويلاحظ فيها تأثير التوحيد الإسلامى تأثيراً كبيراً ، حتى لترى فرقة « السك المندوكية » تجهر صراحة بتعظيم النبى الأكرم على الخصوص ، وتمجيد القرآن الكريم .

وأدت هذه الحركات فى الغالب إلى إضعاف روح التعصب الدينى والعرقى وأوهنت من ضغط نظام الطبقات إلى حد كبير .

وبلغ أكبر بتسامحه الشديد على كل حال إلى كسب ولاء الهنادكة حتى أولئك الذين لم يعتنقوا مذهبه الجديد ، واستطاع عموما أن يحقق لبلاده الوحدة السياسية التى كان يهدف إليها ويعمل فى سبيلها[1] .

نظام الدولة : لئن كان أكبر بوصفه البادشاه هو صاحب السلطان المطلق فى الدولة الذى يوجه أمورها وفق هواه ، إلا أنه سار فى حكمه على مقتضى العدل والتسامح المطلق ، فنظر إلى رعاياه دون أدنى تفرقة فى الدين أو الجنس ، فمارسوا جميعاً طقوسهم الدينية على اختلاف مللهم ونحلهم فى حرية تامة ، فى الوقت الذى كان فيه ملوك أوربا ينكلون بأصحاب المذاهب التى تغاير مذاهبهم فى المسيحية على ما كان يفعل الأليزابثيون مع كاثوليكيى أيرلندا ، وأصحاب فيليب الثانى ملك أسبانيا مع البروتستانتيين .

---

(١) لم يصرح أكبر فى الواقع بتنكره للاسلام أو خروجه عليه وإن اضطهد جملة من شيوخ المسلمين . ومع ذلك فلا نستطيع أن نقول بتمسكه بدينه ، فقد كانت السياسة هى دينه ، ووحدة أهل الهند تحت سلطانه هى عقيدته . وما ذهب اليه السيد أميرعلى ، العلامة الهندى ، من أن أكبر «لم يغفل فى حياته تعاليم الرسول والأئمة» Islamic Culture. Oktober 1927 ، إنما كان لاستمساكه حقيقة بفضائل الإسلام الكبرى ، وإن لم ينف ذلك عنه ورهطه الخوض فى بعض مسائل الفروض والعبادات بما يخالف الشرع ، فضلا عن تأثره بفكرة التناسخ عند الهنود وإعجابه بما تدعوا إليه الويشنوية من إعادة اكتشاف الإنسان لنفسه وإدراك شخصيته خارج الحدود التى تفرضها العرف وترسمها التقاليد الدينية ، واقتناعه بآراء البوبانشاد فى القول بأن كل إنسان إنما يسمى الكائن الإسمى باسم يلائم وجهة نظره .

كذلك لم يكن هذا الأمير المغولى ليتردد عن مشاورة رجاله فى تصريف شئون الدولة على أحسن وجه يكفل صالح الأهلين ، حتى بلغ من حرصه على إسعادهم أنه لم يعارض فى فرض جديدة عليهم فحسب بل ورفع عنهم كذلك قدراً مما كان يفرض عليهم من قبل .

وهذا السلطان ، الذى قيل أنه قد أوتى حظاً وافراً من رجاحة العقل حتى صار الموجه الفعلى لكافة المشروعات والإصلاحات التى تمت فى عصره ، كان يعتمد ، أكثر ما يعتمد ، فى تصريف الأمور على طائفة من كبار الرجال فى الدولة وعلى رأسهم وكيل السلطنة ، وكان فى أول عهده بالحكم بيرم خان قائده ومربيه ، ويأتى من بعد الوكيل فى المرتبة الوزير أو الديوان وهو القيم على شئون المال فى الدولة ، وكان يشغل فى العادة مركزاً كبيراً فى الجيش (منصبدار) شأنه فى ذلك شأن أصحاب المناصب فى الدولة ؛ ويليه مير بخشى وهو الذى يقوم بدفع مرتبات الجند والقادة ويشرف على شئون القوات جميعها ، ويعد مسئولا بصفة خاصة عن جيش السلطان الخاص . ويأتى من بعده خان سامان وهـــو صاحب شئون البلاط ، وكان يلازم البادشاه فى حله وترحاله ويشرف على شئونه الخاصة جميعها . ثم قاضى القضاة وهو الموكول به شئون العدل وإجرائه وفق الشرع ، وأخيراً المحتسب وهو الذى يراقب سلوك الناس ويمنع ممارسة البدع وارتكاب ما ينافى الشرع والآداب عموما .

وإلى جانب هؤلاء الكبار ، كان هناك فريق آخر من أصحاب المناصب المهمة ، دونهم فى المنزلة ، مثل المستوفى ، محاسب الدولة الأول ، والكُتْوَل وهو بمثابة رئيس الشرطة ، وكان يوكل إليه حراسة المدينة فى الليل والبحث

عن اللصوص وقطاع الطرق ، ومراقبة السكان ورقابة الأسواق ، ثم صاحب البريد وأمير العرض الذى يرفع إلى البادشاه الالتماسات والشكاوى .

وبلغ من حرص أكبر على ضمان العدل فى دولته أنه كان ينظر بنفسه فى القضايا الكبرى التى كان على عماله بولايات الدولة أن يبعثوا بها إليه ، كما كان يفتح أبواب قصره للناس يوما معلوما فى كل أسبوع ليتلقى منهم ظلاماتهم بنفسه أو يتلقاها من ينيبه عنه من ثقاته حين كان يتغيب عن مقره .

وكان صدر الصدور (المفتى) وقاضى القضاة ومساعدوهم يعاونون البادشاه عادة فى الفصل فى ذلك كله وفق قواعد الشرع الشريف ، مع مراعاة رسوم الهنادكة وشرائعهم فيما يعرض لهم من مشاكل ويقوم بينهم من خصومات .

وقد ألغى أكبر كثيراً من العقوبات البدنية التى تتنافى مع الإنسانية ، كبتر بعض أعضاء البدن، وأمر أن يكون تنفيذ أحكام الإعدام منوطا بمصادقته شخصيا على الحكم .

هذا ولم تكن الدولة الإسلامية فى الهند ، قبل عصر أكبر ، تعرف التقسيمات الإدارية فى الغالب ، اللهم إلا ماذهب إليه شيرشاه فى هذا الباب من قبل ، إذ كان تحديد الإقطاعات رهنا بمشيئة السلطان وحده .

وانتهى أكبر إلى تقسيم أراضى الدولة إلى ولايات « سبه » وكل ولاية إلى عدة مراكز (سركار) وكل مركز إلى جملة دساكر (بركنا) ،

وكانت هذه الولايات فى أول أمرها اثنتى عشرة ، حتى إذا ما فتحت الدكن بلغت خمس عشرة هى : آكرة والله آباد وأوده ودهلى ولاهور

والملتان وكابل وآجمير والبنغال وبهار وأحمد آباد ومالوه وموار وخاندش وأحمد نكر[1] .

ورأس كل ولاية ، فى هذا النظام ، يدعى سپهسالار ، أى القائد العام ، وهو نائب السلطان بها . ولم يكن له أن يدخل فى حرب أو يبرم التحالف والصلح دون مشورة السلطان ورأيه .

وهو المشرف الأول على شئون القوات والقضاء فى إقليمه . وله أن يعين صغار العمال العال ويقيلهم . ولم يكن له أن يتدخل فى الأمور الشرعية ، التى هى من اختصاص الصدر وحده ، أو يصدر الحكم بالإعدام دون إذن السلطان نفسه .

ويليه فى المنزلة ثمانية من أصحاب المناصب الكبيرة وهم : الديوان ، والصدر ، والعامل ، والبتخشى ، والخزندار ، والفوجدار والكتول ووقائع نويس . وبيان وظائفهم هو كالآتى :

الديوان : ويناط به شئون المال بالولاية ، وهو يلى السپاهسالار فى المرتبة . وكان فى أول أمره يعين من قبل أمير الأقليم نفسه ، حتى رأى السلطان أن يجعله تابعاً له ليكون رقيبا من لدنه على كل ما يصدر عن الحاكم من تصرفات وأفعال ، ويحد من سلطانه كذلك إذا لزم الحال .

الصدر : وهو صاحب الشريعة فى الإقليم كله ، وكان فى العادة من العلماء أصحاب المهابة ، ويأتمر القضاة ورجال العدل بأمره .

---

(١) انظر آيين أكبرى لأبى الفضل بن المبارك .

العامل : وهو صاحب الخراج ، وكان عليـــه أن ينظم جباية الضرائب ويراقب عماله جميعاً فى يقظة تامة وحذر على وجه العدالة ، وأن يجرى تقدير خراج الأرض على درجة خصوبتها وجودتها ، وأن يعمل على تأمين الناس على أنفسهم وما يتملكون ، ويطهر الطرق والسبل من اللصوص وقطاع الطرق ويراقب البيع والشراء .

البتكجى : وهو المحاسب الذى يراجع أعمال العمال ورجال الدخولية ، ويشترط فيه أن يكون ماهراً فى الحسابات ملما بأصول الخراج ونظمه وأسس الإيرادات والمصروفات ، وأن يسجل ذلك كله فى سجلاته بالتفصيل .

الخزندار : وهو صاحب الخزانة الحافظ لأموال الدولة ، وعليه أن لا يخرج مالا دون إذن الديوان ، مع إيصال بالتسلم ، ويثبت ذلك كله فى دفاتره .

الفوجدار : وهو القائد المباشر لقوات الولاية ، وعليه أن يعاون السپهسالار فى إقرار السلام فى الإقليم كله ، ويعين العمال على تحصيل الضرائب من أهل القرى والدساكر الذين يمتنعون عن أدائها ، على أن يكون ذلك بطلب مكتوب وتصريح من الحاكم ، وكان هو الذى يطارد بقواته عصابات اللصوص وقطاع الطرق ويخمد كل عصيان أو فتنة تنشب فى الإقليم .

الكوتوَل . وهو صاحب الشرطة والمنوط به مراقبة تنفيذ الأوامر والقوانين فى المدن .

وقائع نويس : وهو مسجل الوقائع ، وضابط الاتصال بين الحكومة المركزية والولاية ، والرقيب الذى لا تخفى عليه فى الإقليم كله خافية .

وبواسطة هؤلاء الرقباء كان البادشاه يقف على كل أمر ، صغيرة او

كبير ، يجرى فى كافة نواحى دولته المترامية الأطراف . وكان على كل واحد من هؤلاء أن يحيط أمير الإقليم ورجاله علما بما يبلغه من الحوادث والوقائع قبل أن يرفع خبرها وتفصيلها إلى السلطان .

ورغم أن البادشاه كان قد أحكم نظام الرقابة على عماله جميعا فى مختلف أنحاء دولته فأقام من كبارهم رقباء بعضهم على البعض الآخر ، فإن صعوبة المواصلات وترامى المسافات ، مع اشتغال الدولة نفسها بالحروب والغزوات المتواصلة فى الغالب ، قد اضعف من جدوى هذا النظام حتى صار حكام الأقاليم يتصرفون عموما وفق هواهم وعلى مسئوليتهم الخاصة .

وامتدت إصلاحات أكبر كذلك إلى نظام خراج الأرض الذى كان يعد أهم موارد الخزينة بعد رفع ضريبة الرءوس عن كاهل المنادكة وإعفائهم من ضريبة الحج .

ولم يكن هذا السلطان هو أول من أجرى ضريبة الأرض على نظام كفل العدل للمسلمين والمنادكة على السواء ، فقد سبقه إلى ذلك شيرشاه سورى ، وإن كان خلفاؤه قد عدلوا عنه من بعده فآثروا النهج القديم مع ما كان فيه من إجحاف بالغ الأهلين .

وحين عهد أكبر إلى تدرمل وزير ماليته « ديوان أشرف » بوضع نظام ثابت لخراج الأرض يوفى للدولة حقوقها ولا يضار الأهلون به ، عمد هذا الأخير أولا - على ضوء تجاربه السابقة بالكجرات حين عهد إليه بتنظيم شئونها - إلى مسح أراضى الدولة كلها وبيان ما يجود منها فيزرع على مدار السنة ، وما يزرع منها مرة واحدة فى العام ، وما لا ينبت إلا مرة واحدة فى كل بضعة

أعوام ، وما يعتمد منها فى الرى على الأمطار ، وما يسقى منها من الأنهار والينابيع والآبار ، وما هو فى حكم البور ، وما يقع منها فى السهل أو يقوم على سفوح الجبال أو تغطيه الأحراش والغابات[1] .

حتى إذا تم له ذلك كله ربط الضريبة على متوسط الإنتاج فى عشر سنوات . على أن يكون للدولة ثلث المحصول نقدا ، فى الغالب ، بعملة العصر ، وكانت دقيقة الصنع مضبوطة الوزن ، ما لم يصب الزرع بآفة أو ينقطع الماء عن الأرض فتجدب .

كذلك حاول أكبر جاهدا أن يدرأ عن بلاده خطر المجاعات المروعة التى كانت تدهمها حين كانت تجدب الأرض بسبب انحباس الأمطار الموسمية عنها . فاهتم إهتماما بالغا باستصلاح الأراضى البور ، وحض الأهلين على الاشتغال بالزراعة وتوسيع رقعة الأراضى المزروعة ، وأمدهم بما يحتاجونه من البذور ويعاونهم على زيادة إنتاج الأرض .

وكان من ثمرة هذه الجهود أن نعم الناس فى الغالب بحياة طيبة لم يألفوها منذ زمن بعيد ، وازدهرت عيشتهم ، وصارت الأسعار فى متناول أيديهم جميعا .

وقد اقتبس البريطانيون أغلب نظم أكبر ، الحكومية والإدارية والاقتصادية ، حين صار إليهم زمام الأمور فى الهند .

وثمة إصلاح آخر بالغ الأهمية أجراه الوزير الهندوكى تدرمل ، بتوجيه

---

(١) منتخب التواريخ ١٨٩

من سلطانه ، حين أمر بتحرير سجلات الدولة كلها بالفارسية ، لغة المسلمين الرسمية بالهند إذ ذاك ؛ فأقبل كثير من عمال الدولة من المسلمين الهنود والهنادكة على تعلم هذه اللغة ، مما أدى إلى رواجها رواجا كثيرا[1] ، فهي اليوم ثاني لغات العالم الإسلامي انتشارا بعد العربية .

ومهد هذا الإجراء لظهور الأوردوية المكتوبة ، تلك اللغة التي هي مزيج من لغات المسلمين ولغات الهند ، والتي نشأت نشوءا غريزيا من صلات سكان الهندستان من المسلمين والهنادكة بعضهم ببعض ، لتأخذ صورتها الأدبية بعد قليل وتعم البلاد كلها .

الجيش : جرى سلاطين المسلمين في الهندستان على الاستعانة في حروبهم بما كان يمدهم به أصحاب الاقطاعات من الرجال في الغالب . وكانت هذه الحشود ، على ضخامة عددها تجهل أساليب القتال وفنونه عموما ولا يتيسر لها فرص المران والتدريب .

حتى إذا ما قضى أكبر على نظام الاقطاع وصارت الأراضي كلها ملكا للدولة ، وغدت ولاياتها تحكم بواسطة نواب للسلطان يوليهم شئونها على نظام مرسوم ، رأى أن ينهج في تنظيم قواته الحربية نهج علاء الدين الخلجي وشيرشاه سوري من قبل ، فتغدو للدولة قوات نظامية دائمة تقوم بدفع أجورها من الخزانة العامة .

وكان من بين هذه القوات من يعمل تحت إمرة البادشاه نفسه فهي بمثابة حرسه الخاص ، ومنها من كان يعمل تحت إمرة حكام الولايات . هذا عدا

---

(1) Lane-Poole 246-66

القوات الخاصة التي كان يحتفظ بها أصحاب المناصب الكبرى في الدولة (المنصبدارية).

وقضى هذا النظام على كثير من مساوىء سابقه، ومنها ما كان يبذله الأمراء عادة من الرشاوى للحصول على إقطاعات واسعة نظير ما يتعهدون به من إمداد السلطان بالجند والمؤن، وما كان يستتبع ذلك من إرهاقهم لسكان الاقطاع وابتزازهم لأقواتهم ومصادرتهم لأموالهم وأملاكهم.

هذا وكانت قوات أكبر المسلحة تتألف من المشاة والمدفعية والفرسان والبحرية.

والمشاة، إذا استثنينا منهم حملة البنادق (بندقجى) وأرباب السيوف (شمشيرباز)، لم يكن لهم في المعارك شأن يذكر في الغالب. فعامتهم، على كثرة عددهم، كانوا يضطلعون بخدمة القوة العاملة ونقل المؤن ورعاية الدواب وحراسة المعسكرات ليس غير.

أما سلاح المدفعية، وهو الذي أتى به ظهير الدين بابر إلى الهند على ماذكرنا من قبل، وعرفه الكجراتيون من بعد ذلك على أيدي البرتغاليين الذين كان لهم مستعمرات بشاطئهم فاستخدموه في حروبهم مع همايون، فقد كان مناط عناية البادشاه الكبرى حتى كان يشرف على كل شئونه بنفسه. وأغلب خبراء هذا السلاح كانوا من رجال فرغانة ومن العثمانيين ومولدي البرتغاليين بالهند. وبلغ من اهتمام أكبر بهذا السلاح وحدبه على إدخال كل تحسين ممكن عليه، أنه احتال على تيسير استخدام قطعه الثقيلة، التي كانت تستنفد جهود الرجال عند نقلها من مكان إلى آخر، بأن وجه مصانعه إلى صنعها من قطع صغيرة يسهل فكها وتركيبها ويهون حملها ونقلها على جنده.

وأما سلاح الفرسان فكان هو القوة الضاربة الرئيسية فى الجيش ، حتى كان البادشاه يوالى بنفسه التفتيش عليه ويختبر خيوله ، وينزل إلى حظائرها ، ويراقب تدريب رجاله .

وإلى جانب الفرسان كانت هناك وحدات الفيلة ، وقوام كل واحدة منها كان يتراوح بين العشرة والثلاثين . وكان كل فيل يحمل إسما خاصا به على العادة التى لا تزال تجرى بتلك البلاد حتى اليوم .

كذلك عنى أكبر بتدعيم سلاحه البحرى وإن لم يبلغ به إلى درجة الأساطيل التى كانت تجوب أعالى البحار فى عصره على كل حال . وأغلب سفنه كانت تعمل فى أنهار الهندستان وفى حدود موانيه ، ومن بينها ما كان يحمل المدافع الخفيفة وآلات الحرب .

وقام ، بتشجيع من السلطان وتوجيه منه ، عدة مصانع لبناء السفن مختلفة الأحجام والأشكال فى لاهور وأحمد آباد وكشمير . وكان يعمل على هذه السفن فريق من مهرة الملاحين الذين كانوا يفدون من ساحل المليبار وكمباى ليلاقوا من تقدير البادشاه ما انتهى إلى تقرير رتب لهم نظير رتب الضباط فى جيشه البرى .

هذا وتتباين أقوال مؤرخى أكبر فى تحديد عدد قواته ، حتى ليذهب بعضهم إلى تقويم الفرسان عنده بأربعمائة ألف والمشاة بما يقرب من أربعمائة ملايين .

والثابت المعروف أن الجيش الذى سار به البادشاه للقضاء على فتنة أخيه حكيم خان عند الحدود الشمالية الغربية كان يضم قرابة خمسين ألفا من الفرسان مع خمسة آلاف من فيول الحرب وألوف كثيرة من المشاة ، وجميعهم كانوا يتناولون مرتباتهم من الخزانة العامة .

ومن الطبيعي أن يتضاعف هذا العدد حين تنضم إليه قوات الولايات، وينكمش إلى ما دون ذلك بكثير أيام السلم.

الحياة والفكرية والثقافية: وقف المؤرخ عبد القادر ابن ملوكشاه بداونى المجلد الثالث من كتابه «منتخب التواريخ» على ذكر من عاصر أكبر واختلط به من الحكماء والعلماء والفقهاء والمؤرخين والشعراء والأدباء الذين تجاوز عددهم الثلاثمائة.

والواقع أن الهند لم تعرف من قبل أكبر سلطاناً مثله اجتمع حوله هذا العدد الكبير من رجال العلم والأدب، واتصلت ندواتهم عنده ولقوا منه كل إجلال وتوقير وتقدير، حتى بلغ من احترامه لشيخه عبد النبي صدر الصدور مثلا أنه كان يقدم إليه نعليه بنفسه حين يغادر مجلسه. بل إنه حين بلغه مقتل وزيره الفضل، وكان عالماً ومؤرخاً كبيرا مشهودا له بسعة الإطلاع وغزارة المعرفة، اشتد حزنه عليه حتى ود لو كان هو المقتول مكانه. فنوابغ العلماء، على حد قوله، لا يجود بهم الزمان إلا في النادر القليل، بخلاف الملوك وإن صلحوا.

كان من بين كبار المؤرخين الذين عرفهم بلاط أكبر، المؤرخ محمد قاسم فرشته صاحب التاريخ المعروف باسمه، وعبد القادر بداونى سالف الذكر، ونظام الدين أحمد صاحب طبقات أكبرى ومحمد عبد الباقى صاحب مآثر رحيمى. وكان أبعد هؤلاء ذكرا وأخلدهم صيتا الوزير أبو الفضل بن مبارك العلامى الذى لعب دوراً هاماً فى توجيه آراء البادشاه الفلسفية ومبادئه المذهبية على السواء. وله كتابان مهمان: أولهما أكبر نامه، وفيه يستعرض تاريخ الدولة منذ نشأتها، وقد أكمله من بعده الشيخ عناية الله ليتم به تاريخ حكم البادشاه كله،

ثم آيين أكبرى الذى يعد ثبتاً كاملا لتقاليد الدولة المغولية ورسوم البلاط ونظام الحكومة وقوانينها ، إلى جانب ما يحويه من حديث مفصل عن المناذكة ورسومهم وعاداتهم وعلومهم .

ولم يكن أبو الفيض فيضى دون أخيه أبى الفضل فى نباهة الذكر . فهذا الشاعر لم يكن له نظير فى عصره ، حتى كتب فى المثنوى والديوان أكثر من عشرين ألف بيت ، كما كان على نبوغ كبير فى الكتابة والفقه ثم الطب الذى بلغ من شغفه به أن أوقف علمه به على علاج الناس بالمجان . وترك هذا العالم من بعده مكتبة كبيرة ضمت قرابة خمسة آلاف مجلد من النوادر فى الشعر والطب والفلك والموسيقى والرياضيات والفلسفة والحديث . وقد نقلت جميعها ، على أثر وفاته إلى البلاط بعد تصنيفها [1] .

وإلى جانب فيضى ، اشتهر الشاعران الهندوكيان تنسى داس وسورداس اللذان كانا يجيدان النظم فى الفارسية والسنسكريتية معاً .

ولا أدل على عظيم عناية أكبر بالفنون الجميلة من مخلفات عصره الفنية الرائعة التى يزدان بها كثير من متاحف العالم الكبرى اليوم . ولقد وفد إلى بلاطه جملة من مشاهير النقاشين الفرس وعلى رأسهم ميرسيد على وعبد الصمد فلقوا عنده كل عناية وتشجيع .

ودفع بأكبر ولعه بهذه الفنون إلى أن يأمر بإقامة معرض للنقش مرة فى كل أسبوع تشجيعاً منه للفنانين وتشحيذاً لهممهم وإغراء لمشاهيرهم بالقدوم إلى بلاده .

---

(١) بداونى منتخب التواريخ ثالث ٣٠٥

ولم يغفل أكبر بدوره كذلك عن تشجيع فنانى الهنادكة حتى نشأ من بينهم طبقة فذة غدت تنافس نقاشى المسلمين فى أكثر من ناحية(١) .

ولا يستغرب ذلك كله من عاهل أوتى من الأحاسيس الفنية ماجعله يصرح بأن التصوير هو ضرب من العبادة ، وأن الفنان ، فيما يبدو ، طريقته الخاصة للاقرار بواحدنية الخالق المبدع . فهو حين يصوّر الكائنات الحية وينقش أعضائها وأطرافها وملامحها على لوحته ، لا بد وأن ينصرف بذهنه وخياله إلى التفكير فى إبداع خالقها الذى نفخ فيها بما يعجز هو عن تصويره وإبرازه .

وقد تخلف عن فنانيه لوحات كثيرة سجلت حياة البلاط ورسومه وكثيراً من مظاهر المجتمع لعصره فى إبداع منقطع النظير .

ومدرسة النقش المغولية التى وضع أسسها أكبر لها اليوم صيتها الذائع فى عالم الفنون على كل حال .

كذلك كانت مصانعه تخرج طرفاً من النسيج المزركش والسجاد الفاخر المحلى بمختلف النقوش والألوان .

ولم تكن عناية أكبر بالموسيقى دون عنايته بالتصوير والنقش وما تزال الأنغام المغولية وألحانها لها سوق رائجة بالهند حتى اليوم .

أما العمارة الهندية الإسلامية التى تعد بحق من مبتكرات العصر الأكبرى ففى القصور والمساجد والحمامات وغيرها من المنشآت ، بمدينة فتحبور على

(١) Laurence Binyon: The Court Painters of the Grand Moghul, Oxford 1921.

الخصوص، ما يُعَدّ من بين خير نماذجها التى تجلّت رائعة فيما بعد فى مثوى تاج محل بآكرا الذى يُعدّ من بين عجائب الدنيا .

وفنون الهند هى جملة ، باعتراف المؤرخين الأوربيين ، لم تـكن فى عصر أكبر دون فنون أوروبا منزلة إن لم تتفوق عليها فى بعض نواحيها[1] .

ابتُلى أكبر فى أواخر أيامه بكوارث عائلية حطمت من قوته النفسية وهدّت من كيانه . من ذلك فقده لولديه مراد ودَانيل على التوالى بإدمانهما على الشراب ، وعقوق ابنه الأكبر سليم وعصيانه له حتى دبّر مقتل الوزير العالم أبى الفضل بن المبارك أعظم علماء البادشاه وأكبر مستشاريه[2] .

واشتد الداء على أكبر عام ١٠١٤ هـ/ ١٦٠٥ م فأسلم روحه إلى بارئها فى جمادى الآخر من العام نفسه .

وحاول الخان الأعظم عزيز كُكا ومعه الأمير الهندوكى راجا مَن سنغ ، والبادشاه فى أيامه الأخيرة ، أن يمهدا المناداة بالأمير خسرو ابن سليم وحفيد أكبر سلطاناً على الهند بدلا من أبيه الذى أدى بغيه إلى تمـكن كراهيته من قلوب الـكثيرين . لـكن تدبيرهما باء بالفشل حين قدم سليم إلى أبيه وهو فى النزع فقلّده سيف همايون وعمامته وعهد إليه من بعده[3] .

ولم يكن أكبر بهى الطلعة، وإنما كان قوى البنية مقداما شجاعا، لم يتقاعس

(١) V. A. Smith, History of Fine Arts in India and Ceylon. Oxford 1930.

(٢) تـكملة أكبر نامه لعناية الله ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٢

(٣) وقايعى « حالات » اسعد بك قزوينى ١٦٩ — ١٧١

أبداً عن مشاركة جنده فى أعنف المعارك أو يتردد فى مواجهة أضرى النمرة والأسود والفيلة وأشدها شراسة فى المصطاد ، كما كان يستخف بأربعين ميلا يمشيها فى اليوم الواحد ، ويندفع بحصانه فى مجرى الـكنج إبان موسم الأمطار والفيضان وسيوله الجارفة .

كذلك كان أكبر شديد البر بالناس عظيم الإحسان إلى الطبقات الفقيرة خصوصاً ، حتى جاوزت رحمته بهم كل مدى وشملهم عدله إلى أبعد حد.

ومن تواضعه أنه كان يتقبل من أهل الطبقات الدنيا هداياهم البسيطة التافهة بنفسه ويضمها إلى صـــدره ممتنا ، مع أنه كان لا يكترث بهدايا الأمراء والأعيان (١) .

وكان إلى جانب نظافته الشديدة ، بسيط الثياب فى الغالب ، فلم يكن يميل كثيراً إلى التحلى بالجواهر ، غير كاف بأنواع المـآكل والمشارب . ولقد أقلع فى كهولته عن تناول الشراب ، ولـكنه ظل طوال حياته مدمنا على تعاطى معجون الأفيون ، وهى رذيلة ظلت تتمكن من كثير من سلاطين الهند وفارس وتركيا أمدا طويلا (٢) لتوردهم موارد الردى فى سن مبكرة فى الغالب

هذا وكان أكبر طموحا يستمتع بصفات عقلية ممتازة يسرت له أن يقضى وقتا مرسوما فى النظر إلى شئون الدولة وما تقتضيه نظمها من ضروب الإصلاحات التى كان يجيش بها صدره ، لينصرف من بعد ذلك إلى الجلوس

(١) الهند وجيرانها ١٣٧

(٢) جرب البادشاه كذلك التدخين وكان التبغ حديث الورود إلى الهند « وقايعى أحمد بك ١٦٥ — ١٦٧ » ، وفى هذه الصفحات نقاش طريف بين أسعد بك وطبيب السلطان الذى كان يحذره من الأندفاع وراء تقاليد الأوربيين فى عاداتهم ودن تبصر .

إلى طوائف العلماء والحكماء الذين كانوا يفدون إليه من كل أمة على إختلاف مذاهبهم ومللهم ، حتى شهدت الهند فى عصره نهضة عقلية رائعة لم تكن تقل عن نظيرتها بأوروبا إذ ذاك .

وترك أكبر من بعده لابنه دولة موطدة الأركان تتألف من الشمال الهندى بأكمله مع كابل وكشمير والبنغال وجزء كبير من الدكن . فكان هو أول من انتقل بالبابريين من محاربين وطلاب المغامرات إلى أصحاب أسرة مالكة عظيمة . ذلك أن بابر ، أول سلاطين المغول فى الهند ، كان قد شغل بحروبه ومغامراته وفتوحه طيلة حياته ، فى حين قضى همايون الشطر الأكبر من عمره فى المنفى يجاهد لاسترداد ملكه الذى كان قد انتزعه منه الأمير الأفغانى شيرشاه سورى ، وطرده من الهند كلها ، ثم كتب الاستقرار على عرش الهند لأبى الفتوح جلال الدين محمد أكبر فتجلت عبقريته فى تنظيم حكومة بلاده على اتساع رقعتها ، حتى كانت طريقته فى الحكم هى التى أذاعت من صيته أكثر مما أذاعه فتوحاته ، فاجمع كثير من المؤرخين على أنه أعظم ملك عرفته الهند ، حتى ليعد كذلك بين أعاظم الملوك فى التاريخ طرا (١) .

Dunbar. 197-Lane-Poole 288 (١)

جهانكير

لم يكن أكبر ، وهو من هو فى رعايته للعلم والعلماء ، لينسى لابنه سليم مقتله لوزيره المؤرخ العالم أبى الفضل بن المبارك . كذلك لم يكن ايروقه منه ولعه الشديد بالشراب ، حتى جال بخاطره يوما ، بتحريض من صديقه رانا من سنغ وقائده عزيز كوكا ، أن يتخطاه بولاية العهد إلى حفيدة خسرو .

وحال دون تحقيق هذا الأمر حسن تدبير هذا الأمير حين قدم إلى أبيه مستتيبا عما بدر منه من عصيان وعقوق فى السابق ، ليجلس من بعد ذلك على عرش الهند فى آكرا فى الثامن من جمادى الثانى عام ١٠١٤ هـ/١٦٠٥ م باسم السلطان أبى المظفر نور الدين محمد جهانكير .

وبرغم ما كان من ميل هذا الأمير للشراب ، فقد كان على درجة كبيرة من الثقافة ، شغوفا بالمعرفة التى نشّأه أبوه عليها ، متشبثا بالتسامح المطلق الذى دأب أبوه على غرسه فى نفسه وبثه فيه ، حتى غدا فى ذلك كله صورة مصغرة لسلفه أعظم سلاطين الهند المسلمين بلا شبهة .

ودفع جهانكير حرصه البالغ على ضمان إجراء العدل المطلق فى دولته ، بالوقوف على شكاوى رعاياه والنظر فى تحقيقها بنفسه ، إلى أن أمر بمد سلسلة العدالة التى ذاع صيتها عنه : « أول ما أمرت به بعد جلوسى على العرش هو مد سلسلة العدالة لأطلع بنفسى على شكاوى المظلومين من إهمال رجال ديوان

العدالة لأمرهم[1] . وكانت سلسلة من الذهب الخالص تطول ثلاثين ذراعا ، وتتدلى منها أجراس سبعة ، وتمتد من شرفة البرج السلطانى الخاص بقلعة آكرا لتبلغ أسطونا شدت إليه عند شاطىء جمنة . والغالب أن سطوة الحكام ونفوذ العمال كان أقوى من إرادة السلطان ، فلم تحرك هذه السلسلة وتهز أجراسها إلا مرات قليلة .

هذا كما كان فى أسفاره ورحلاته الكثيرة لا ينى عن تفقد أحوال الناس والجلوس إليهم وتحقيق مظالمهم بنفسه .

دستور أمل : ودعم جهانكير صنيعة هذا بإصدار « دستور أمل » وهو اثنتا عشرة وصية وجهها إلى عماله ليسيروا على هديها فى علاقاتهم برعاياه وتدبيرهم لشئون الدولة .

وقد نظم هذا الدستور وظائف الدولة ومناصبها المدنية والعسكرية والدينية على السواء ، وفسر شئون الميراث وقوانين الضرائب ، ودفع عن كاهل الأهلين ما كانوا يلزمون بدفعه للولاة والعمال من الضرائب ليفيدوا منها لأنفسهم ، كما حظر تطبيق العقوبات التى تؤدى إلى جدع الأنف أو قطع الأذن أو بتر أى عضو من أعضاء البدن مهما بلغ عظم ذنب المذنب . كذلك حرم هذا الدستور تعاطى الشراب وصنعته وتجارته ، وحض على إقامة دور الشفاء فى كافة أنحاء البلاد وتزويدها بالأطباء ، على أن تقوم الدولة بالإنفاق عليها ، فتصرف الغذاء والدواء للمرضى بالمجان ، وحرم على الولاة والعمال استخدام

---

(١) واقعات جهانكيرى ص ٢٨٥ . وهى تقليد جرى عليه بعض حكام الصين الأقدمين .
Modern Universal Hisory - vol. vII p. 206.

أقاربهم في مناصب الولايات أو مصاهرتهم إلى الأهلين دون إذن صريح من السلطان ، وحثهم على إضفاء الأمن والطمأنينة على الناس فلا تغتصب أملاكهم أو أموالهم ، وأن يكفوهم أخطار اللصوص وقطاع الطرق بتعمير الأرض الخلاء التي يأوى الأشرار عادة إليها ، وذلك ببناء الدور والمساجد بها وحفر الآبار فيها فيأنس الناس إليها .

كذلك نظم هذا الدستور مسكوكات الدولة من الذهب والفضة والنحاس وجعل لكل صنف منها علما مرسوماً[1] .

ونهج جهانكير نهج أبيه أكبر في التشبث بالتسامح المطلق بأزاء رعاياه من الهنادكة على الخصوص فقرّبهم إليه وفتح لهم باب المناصب الرفيعة في الدولة .

والثابت أن هذه السياسة قد ساعدت في كثير من الأحوال على إقرار السلام في أراضي الدولة المغولية المترامية الأطراف أكثر مما عاونت عليه قواتها العسكرية وآلاتها الحربية . وحين عدل حكام هذه الدولة فيما بعد عن سياسة التسامح هذه التي جرى آباؤهم عليها ، أخذت الدولة تتعرض لمتاعب شديدة دفعت بها آخر الأمر في طريق التفسخ والانهيار .

ولئن كان السلطان قد شمل صديقه راجا برسنغ ديو ، قاتل الوزير أبي الفضل ، بالكثير من الرعاية ، فإنه لم ينس ، على كل حال، عبد الرحمن خان خانان ابن بيرم المتحول في رفعه مكانا عليا . كما تغاضى كذلك عن فعلة القائد عزيز كوكا وراجا مان سنغ ، حين كانا يحولان بأبيه إلى ابعاده عن ولاية العهد ، وأجزل

(1) واقعات جهانكيري ٢٨٤ — ٢٨٧

عطاءه لهما ، وإن لم يغمض عينيه أبدا عن مراقبة سلوكهما وسلوك ابنه خسرو الذى كادا يناديان به مكانه فى السابق .

ثورة الأمير خسرو : ما غدت نوازع الشباب الغض وأطماعه أن تغلبت على خسرو وهو يعلم أن له من بين الكبار فى الدولة ظهراء فى آماله ، فانطلق من حصن آكرا ، حيث كان أبوه يستبقيه به تحت عينيه ، واتجه إلى البنجاب فى بضع مئين من رجاله وقد رفع بنود العصيان .

وانضم إليه فى الطريق بعض صغار القادة ومعهم عبدالرحيم ديوان لاهور ، الذى اتخذه وزيراً له ، كما نفحه كورو أرجونا ـ زعيم طائفة السك وصاحب جرانث صاحب ، أقدس كتبهم ـ قدراً كبيراً من المال بدوره . حتى إذا ما بلغ لاهور ، امتنع دلاور خان أمير البنجاب عليه بها ، ليقبل السلطان من بعد ذلك بنفسه فيصده عنها ويوقعه فى أسره ويمثل بمن مالأه فى عصيانه من القادة أشنع تمثيل[1] .

وكان ما دفع بجهانكير إلى خروجه بنفسه عجلا فى أثر ابنه ، هو ما خافه من احتمال اتصاله بعدوه راجا من سنغ فى البنغال ، أو الأوزبك والفرس عند حدوده الشمالية الغربية فيفتح بذلك باب المتاعب والأخطار التى لا تحمد عاقبتها.

على أنه ارتكب خطأ شنيعا حين أمر بقتل زعيم السك ، كورو ، لمده ابنه الثائر بالمال ، وكان فى مقدوره أن يلقى بهذا الشيخ فى الحبس حتى يوفيه أجله بسلام ، فيتجنب بذلك إثارة عداء طائفة السك الكبيرة القوية التى رفعت شهيدها إلى مرتبة القديسين ، وراحت تنادى على طول الزمن بالثأر

(١) واقعات ٣٠١ ، ٣٠٢

لقتله ، فساهمت بعدائها هذا مساهمة فعالة فى تعجيل انهيار بناء الدولة المغولية حين بدأ الضعف يعتورها [1] .

وكأن الحبس لم يفت فى عضد الأمير خسرو ، فما غدا بعد قليل أن استمال إليه نفراً من حراسه ليتآمروا معه على قتل السلطان . حتى إذا ما وقف جهانكير على تدبيرهم ، حين بلغ لاهور قادما من كابل حيث كان يستجم ، أمر بقتل المتآمرين ، دون ابنه الذى سملت عيناه وإن ترفق به الكحال حتى استرد بعض بصره بعد قليل . وقد بقى خسرو فى محبسه حتى وافاه أجله بالدكن عام ١٠٣١ هـ/١٦٢٢ م [2] ،

اضطرابات البنغال : أدى اضطراب الأحوال فى البنغال لكثرة توالى الحكام عليه وقصر إقامة كل واحد منهم به ، إلى أن جمع الأفغان هناك شملهم من جديد ، فراحوا ، بزعامة من يدعى عثمان أفغان ، يثيرون القلاقل والفتن ، حتى قدم إليهم القائد مهابت خان فقضى على عصيانهم وأقر الأمور فى هذه البلاد من جديد .

وكان لحسن صنيع جهانكير مع زعماء الثوار فى البنغال ، حين عفا عنهم وقلد بعضهم مناصب فى الدولة ، أكبر الأثر فى ركونهم إلى طاعته وتفانيهم فى خدمته .

وكذلك فعل السلطان مع رانا أمار سنغ صاحب موار فوصله وابنه وبالغ فى إكرامهما [3] .

---

(١) Prasad, Muslim Rule, p. 432.

(٢) انتخابات جهانكيرشاه ٤٤٨ ، ٤٤٩

(٣) Muslim Rule. pp. 445,6

ملك عنبر : كانت الدكن قد ظهر بها قبيل وفاة أكبر وزير حازم وقائد شجاع هو ملك عنبر الحبشي وزير ملوك نظام شاهي أصحاب إمارة أحمد نكر.

وقاد هذا الوزير بصيرته النافذة إلى الإفادة من المرهتها الهنادكة وما عرفوا به من شجاعة وتهور في القتال، فدربهم على حرب العصابات ومعارك الأدغال.

وقد استفحل أمر هذه الطائفة حين بدأ الضعف يدب في الدولة المغولية فصارت لهم دولة وقوة رهيبة طفقت تهدد حكام الهند المسلمين تهديداً خطيرا وأمكن لهذا القائد الحبشي أن يسترد أغلب الأراضي عند أسيركاه وما حولها، وهي التي كان قد استولى عليها أكبر ومنعه خروج ابنه سليم عليه من التوغل عند الجنوب منها. حتى إذا ما توالى قواد جهانكير على الدكن فصدهم عنها وأرغمهم على الارتداد إلى الكجرات[1]، بعث السلطان بالخان خانان فمهد الأرض بضرب العدو، ليقدم شهزادة خرم من بعد ذلك ويقر الأمور هناك بعد حروب طويلة انتهت بضم أقاليم الدكن الشمالية إلى أراضي الدولة، وإن لم تنكسر شوكة الوزير الحبشي ورجاله، حتى تمكن خليفته حميد خان، وكان من بني جلدته، أن يصرف قادة السلطان عن حربه على قدر كبير من الأموال.

وقد أقام السلطان ابنه خرم نائبا له بالدكن ولقبه بشاهجهان وهو اللقب الذي عرف به من بعد ذلك في التاريخ.

كذلك كتب لجهانكير التوفيق بالاستيلاء على حصن كنجرا الهندوكي الشهير عام ١٠٣١ هـ / ١٦٢٢ م بعد حصار طويل دام أربعة عشر شهرا. وكان

(١) واقعات ٣٣٣، ٣٣٤

قد امتنع من قبل على فيروز تغلق وأكبر نفسه ، بل وكل الفاتحين المسلمين منذ أيام محمود الغزنوى الذى تم له اقتحامه فانتهب ما بمعبد نسكركت الذى يقع فى نطاقه من أموال وكنوز[1] .

ثورة شاهجهان : أدى ضياع قندهار من أيدى الدولة المغولية إلى إثارة حفيظة السلطان على ابنه شاهجهان ، بتحريض من زوجته نورجهان، حتى صار الحال إلى خروج الابن على أبيه وجهره بعصيانه له .

ذلك أن هذه المدينة فضلا عن أهميتها التجارية الكبيرة ، حتى كان يمر بها فى العام الواحد ما ينوف على أربعة عشر ألف جمل تحمل البضائع فيما بين الهند وفارس ، كانت موقعاً حربياً خطيرا عند حدود الهند الشمالية الغربية ، مما حدا ببابر وأولاده من بعده أن يحرصوا على الاحتفاظ فى أيديهم .

ولئن كان الفرس قد أكرهتهم بعض الظروف على التخلى عنها إلى حين ، فإنهم لم يعدلوا أبداً إلى التنازل عن حقهم الثابت فيها أو تغفل عيونهم عنها أبداً. فانتهز الشاه عباس الصفوى فرصة اضطراب الأمور ببلاط الهند عقب وفاة أكبر فزحفت قواته إلى المدينة ، فما زال أميرها شاه بك خان ممتنعا فيها حتى وافته قوات جهانكير فأبعدت هؤلاء الغزاة عنها .

هنا لك شرع الشاه الفارسى يلاحق محاولاته الودية عند السلطان الهندى علّه يسترد مدينته سلما . حتى إذا ما أيقن بفشل مساعيه بادر عام ١٠٣٢ هـ /١٦٢٢م بضرب الحصار عليها .

وحين طلب جهانكير إلى ابنه شاهجهان أن يبادر بالسير من الدكن إلى

---

(١) واقعات ٣٧٤، ٣٧٥

قندهار لدفع الفرس عنها ، خاف إن هو سار إلى خارج الهند ، أن تكيد له زوج أبيه نورجهان فى غيابه ، وكانت قد شرعت تحشد جهودها ومعها أخوها آصف خان لحمل السلطان على جعل ولاية العهد للأمير شهريار أصغر أبنائه وزوج ابنتها من زوجها الأول شير أفكن ، فجهر بعصيانه لأبيه حتى رفض أن يسير إليه جند الدكن حين طالبه بها .

هنالك اهتبلت نورجهان هذه الفرصة التى سنحت لها بذلك ، فراحت تحط من قدر الأمير الثائر وتعلى من قدر ختنها أصغر أبناء السلطان حتى عقد له جهانكير لواء حملة قندهار .

وفيما كانت السلطانة منهمكة فى تنفيذ خططها ، سقطت قندهار بأيدى الفرس ، لتفد من بعد ذلك رسل الشاه الصفوى إلى جهانكير وتؤكد له حق أميرها المتوارث وقومه فى هذه المدينة فيتقبلهم بقبول حسن ويبعث فى أثر قواته يأمرها بالارتداد إليه .

وقوى من جبهة نورجهان أن كان يناصرها فى خططها فريق من كبار القواد والأمراء ، وفيهم آصف خان ومهابت خان وبرسنغ بندلا قاتل أبى الفضل ؛ وها هو السلطان نفسه يسير برأيها ، وموارد الدولة كلها رهن تصرفها .

واشتبك الخصمان : السلطان وابنه ، فى قتال عنيف عند الجنوب من دهلى ، حتى إذا ما دارت الدائرة على شاهجهان ، فاعتذر ملك عنبر وسلطان غولكونده عن مديد العون له حين أكره على الارتداد إلى الدكن ، انطلق إلى أوريسه ثم له من هناك إخضاع البنغال وبهار له . على أن فشله فى الاستيلاء على أوده والله آباد ، وما تكشف له من تفشى الخيانة بين صفوفه ، اضطره إلى الارتداد إلى

الدكن من جديد ، فرحب به ، فى هذه المرة ، ملك عنبر الحبشى حتى كاد يشتبك إذ ذاك مع قوات الدولة فى بيجابور .

ووضح لشاهجهان آخر الأمر ضعف مركزه بالدكن ، فلم يكد يكتب إلى أبيه مستقيلا حتى حملت نورجهان السلطان من فورها على الصفح عن ابنه ، على أن يبعث بابنيه ، دارا شكوه وأورنكزيب ، وكانا حدثين إذ ذاك ، رهائن بدار السلطنة[1] .

مهابت خان : لم تكن نورجهان لتذهب هذا المذهب فى حمل السلطان على الإستجابة إلى ضراعة ابنه الأكبر لولا ما بدا لها من أخطار تهدد بالقضاء المبرم على خطتها وهدفها الأكبر فى الحصول على البيعة لختنها شهريار .

ذلك أن مهابت خان ، وهو ذلكم القائد القدير الذى تم على يديه إقرار الأموال بالبنغال ودحر قوات شاهجهان من بعد ذلك ، ضاق ذرعا بنورجهان التى غدت تسيطر بنفوذها على شئون الدولة والتى أدى بها غرورها إلى الحط من أقدار كبار الرجال ، فانطلق يدعو لأخذ البيعة لبرويز ثانى أبناء السلطان ، وكان طوع يمينه ، ليضمن بذلك خلاص الأمر له مستقبلا .

وأدى غلو السلطان ، بتحريض من زوجته ، فى اضطهاد ابنه وقائده حين أمر الأول بالسير إلى الدكن والثانى بالتوجه إلى البنغال ، إلى أن فر الإثنان من عنده وخرجا عن طاعته .

وما غدا مهابت خان أن كن للسلطان . وهو فى طريقه من لاهور إلى كابل قادما من كشمير ، فسقط عليه فى خمسة آلاف من محاربى الراجبوتيين الأشداء ، عند نهر جهلم رافد السند ، وأوقعه فى أسره[2] .

---

(١) تتمة واقعات ٣٩٦ .
(٢) إقبال نامة جهانكيرى ٢٥٧ .

ولم تفلح نورجهان أول الأمر فى فك أسار زوجها ، فباءت قواتها بالهزيمة وسقطت وأخاها بدورها فى الأسر ، لتصل بدهائها وحيلتها من بعد ذلك إلى الإيقاع بمهابت خان وهو يسير فى حفنة قليلة من رجاله ، حتى لم يتمكن من الخلاص إلا بشق الأنفس فهرب إلى الدكن .

هذا وكان شاهجهان قد سارع بدوره لنجدة أبيه حين علم بوقوعه فى الأسر ، فلم يبلغ السند حتى وافته رسل نورجهان تنبئه بما أشاعه خبر مقدمه من الاضطراب فى صفوف مهابت خان ، حتى تم لهم الخلاص مما وقعوا فيه ، وتشير إليه بالارتداد سريعا إلى الدكن لإقرار الأمور فيها [1].

نورجهان : هذه السيدة ، التى صارت صاحبة السلطان المطلق فى الهند فى عهد جهانگير ، هى ابنة تاجر فارسى يدعى ميرزا غياث ساقته الأقدار إلى بلاط أكبر فولى ديوان كابل واضطلع به فى مقدرة فائقة . وما غدت ابنته هذه ، وكانت تدعى مهر النساء أن بنى بها مغامر فارسى آخر يدعى على قلى استاجلوا ويشتهر كذلك باسم شيرا فكن ، وكان قد قدم الملتان فالتقى بالخان خانان الذى ألحقه بأحد المناصب فى الجيش .

وصحب على قلى هذا الأمير سليم (جهانگير) حين سيره أبوه أكبر لقتال رانا مور ، ولبث معه كذلك بعض الوقت بالدكن ؛ حتى إذا ما خرج الأمير على أبيه ، كان ذلك القائد الفارسى من بين الذين تخلوا عنه من القادة وتركوا معسكره .

وحين ولى جهانگير العرش ، فتناسى لكل رجال أبيه السابقين ما كانوا

---

(١) مآثر جهانگيرى ٤٤٤ — ٤٤٥ .

قد ارتكبوه فى حقه وشملهم جميعاً ببره ، عهد إلى شيرا فكن بدوره بأحد المناصب فى البنغال ؛ حتى إذا ما استراب فى اتصاله بعصاة الأفغان هناك ، فبعث إلى نائبه البنغالى قطب الدين يأمره بتسييره إليه ، اهتبل هـذا القائد فرصة انفراده بحاكم البنغال فهوى عليه بسيفه حتى كاد يقضى عليه ، لولا أن أسرع إليه حرس قطب الدين فمزقوه إربا بسيوفهم وأنقذوا أميرهم .

وسُيّرت أرملة شيرا فكن عقب ذلك إلى البلاط فلبثت به سنوات أربع حتى بنى بها جهانكير عام ١٠٢٠ هـ / ١٦١١ م .

وما تقوله الرواية عن غرام السلطان بهذه السيدة منذ أن رآها بالدكن أيام أبيه - حيث كان زوجها يسير فى حاشيته ، حتى انتهى إلى تدبير مقتل زوجها بالبنغال لتخلص له - قد يجد له سنداً فى حملة السلطان نفسه ومؤرخيه على شيرا فكن ، حين يصفوه بأنه كان مجرد ساقٍ عند الشاه الصفوى إسماعيل الثانى ، وأنه سار سيرة أهل البغى والفساد فى البنغال[1] .

ولعل بناء جهانكير بهذه السيدة ، بعد أن تركها تقيم سنوات أربع فى حرم أمه ، إنما كان فى الغالب لينسى الناس قصتها ولتخف لوعتها على زوجها وما لقيه من مصير أليم . وأياً ما كانت حقيقة المسألة ، فإن هذه السيدة ، التى كانت لا تزال على جمال فائق برغم بلوغها الرابعة والثلاثين من عمرها حين بنى بها السلطان ، قد أوتيت من قوة الشخصية وحدة الزكاء ورجاحة العقل ما يسر لها أن تغدو صاحبة الكلمة الأولى فى الدولة ، حتى خضع لمشيئتها السلطان والقادة وتقبلوا جميعا مشورتها بأحسن القبول . ولا أدل على دهائها وسعة حيلتها من

---

(١) اقبال نامه ٤٠٢ ، ٤٠٥ .

نجاحها فى تخليص نفسها وزوجها من أسر القائد مهابت خان والإيقاع به بدوره على ما فصلناه من قبل .

واشتهرت هذه السيدة كذلك بقوتها البدنية الفائقة وشجاعتها الخارقة ، حتى انبرت لصراع أشد الكواسر فتكا ، كما كان لها مشاركة فى الدراسات الأدبية وتفنن دائم فى تصميم الأزياء ونقوش والجواهر والحلى [1] .

ولقد كان حريا بنورجهان أن تقصر جهودها على وجوه الخير التى حققت الكثير منها ، حتى نهضت بالمرأة الهندية ورفعت الكثيرات من الفتيات الفقيرات على الزواج . فقد جرها ماصار لها من بالغ النفوذ على زوجها ، حتى ضربت السكة باسمهما [2] وذيلت مراسيم الدولة بخاتميهما جنبا إلى جنب ، إلى أن طفقت ، بوحى من أطماعها، تعمل لحمل السلطان على البيعة لأصغر أولاده وختنها الأمير شهر يار ، فأثارت بذلك ثائرة شاهجهان ، صاحب الحق الأول فى ولاية العهد ، حتى جهر بالخروج على أبيه . ونهج نهجه كذلك طائفة من كبار رجال الدولة حين رأوا هذه السيدة تعمد ، بدافع من غرورها وكبريائها، إلى محاولة النيل من أقدارهم، لتزعزع هذه الدسائس والفتن كلها من بناء الدولة وتعوق من إقرار الأمور فيها من بعد ذلك .

وساعد على إطلاق يد نورجهان فى تصريف شئون الدولة ،فضلا عن وله جهانكير بها ، ما كان من إدمانه على الشراب ، الذى قضى على أخوية وهما فى ميعة الشباب من قبل ، وتعاطيه للأفيون ، حتى قضى فى ٢٨ صفر من عام ١٠٣٧ هـ / ١٦٢٧ م ، والكأس فى يده ، بعد أن حكم إثنين وعشرين عاما .

---

(١) Muslim Rule 411

(٢) Lane-Poole 317 .

شخصية جهانكير : لولا محنة الشراب التي ابتلي بها جهانكير لأفادت الهند منه خيرا كثيرا .

فلقد كان لهذا السلطان الكثير من صفات أبيه العالية التي أرادها له حين حرص على تزويده بالكثير من العلم والمعرفة والفضائل ، فنهج نهج التسامح المطلق فى حكمة وقرب إليه المسلمين والهنادكة على السواء ، ولاطف الأوربيين ومبشريهم حين قدموا إليه .

هذا ، كما كان له مشاركة كبيرة فى الدراسات الأدبية والتاريخية ، وإلمام واسع بعلوم الحيوانات والنبات خاصة ، وشغف بالغ بالحدائق وتنسيقها بل وبتزويدها بكل نبت جديد ، مما لم تكن تعرفه الهند ، على ما كان يفعله جده بابر من قبل .

وبلغ من رسوخ قدم جهانكير فى الفنون الجميلة وبخاصة فى فن النقش والتصوير ، أنه كان فى مقدوره أن يميز نقوش كل فنان بخصائصه ، فى سهولة ويسر ، حتى عندما يشترك جملة منهم فى نقش واحد [1] . وحين كان يعرض عليه زواره من الأوربيين صور ملوكهم وأمرائهم ، كان يأمر نقاشيه بنقلها ، توا ، ليزين بها جدران بلاطه .

وقد كتب بدوره سيرته ، على غرار مافعل آباؤه فى الغالب ، وضمنها الكثير من أعماله ومشاهداته . ويؤكد صدق روايته عموما ، ما كتبه معاصروه من الأوربيين عن هذه البلاد حين زاروها [2] .

---

(١) واقعات ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(٢) Muslim Rule 462-72 Morland, India 231 .

البريطانيون عند جهانكير : أدى ما أذاعه البرتغاليون بأوروبا عن مبلغ ثراء الهند الطائل، وما كانوا يرونه من كرم حكامها وترحيبهم بالمسيحيين وملاطفتهم لهم، أن قصد هذه الأرض في القرن السابع عشر الميلادى نفر من تجار الهولنديين والبريطانيين والفرنسيين ليبغى كل واحد منهم لأمته قدرا من الامتيازات ظاهرها التجارة وباطنها وهدفها الاستعمار.

وسبق البرتغاليون الأوروبيون جميعاً إلى الهند على ما فصلناه من قبل، ثم جاء الهولنديون فى أثرهم، وكان لهم نشاط تجارى ملحوظ فى جزر الهند الشرقيه، وفى جاوه وبتافيا على الخصوص، فنجحوا فى إقامة بعض مصانع لهم بسورات بالكجرات وعند شواطىء فيايانكر وغولكونده الشرقية، ودعموها بالحصون لتقف فى وجه منافسيهم من البرتغاليين الذين كان لهم عند دولة المغول مقام حميد. وما زالوا يجدون فى نشر أسواقهم بالهند حتى بلغوا بها آكرا نفسها (١).

واقتفى البريطانيون أثر الهولنديين فى غزو الأسواق الآسيوية، والهندية بخاصة. وجاء منهم إلى الهند عام ١٦٠٨ م وليم هوكنز، فكان أول بريطانى يظهر فى آكرا ويلتقى بالسلطان. وحين عرض على جهانكير رسالة من مليكه جيمس الأول يرجوه فيه تيسير أمور التجارة الإنجليزية ببلاده، احتفى به السلطان أول الأمر احتفاء كثيراً حتى أذن له بمشاركته مجالس شرابه. وبقى عنده فترة من الزمن، حتى بلغ البرتغاليون بدسائسهم إلى تنفيره منه، فرجع إلى بلاده دون أن يحقق غرضه على الوجه الذى ابتغاه. وكان مما ألقاه هؤلاء إلى السلطان فى شأنه أنه لا يعدو أن يكون رسول ملك صغير على جزيرة صغيرة

---

(١) Dunbar, India 220

تدعى انجلترا ، أغلب سكانها من صيادى الأسماك [1] .

ومهد ازدياد النفرة بين حكام الكجرات والبرتغاليين ومبشريهم ، إلى الترحيب بتوماس رو مبعوث ملك الانجليز حين وفد إلى هناك من بعد ذلك عام ١٦١٥م ، فاستطاع بلباقته وحزمه وما جلبه معه من الطُرف والجواهر والحلى وما قدّمه لرجال الدولة من الهدايا الفاخرة،أن يبلغ عند السلطان مكانة ملحوظة ويصل إلى مايريد . فثبتت شركة الهند الشرقية البريطانية أقدامها فى أماكن عدة، وصار لها مصانع فى سورات، وعند ساحل كوروما ندو ، وغولكونده وإلى الجنوب من مدراس .

وقد وصف هذا السفير وسلفه ، سلطان المغول الهندى وبلاطه وما كان له من أبّهة بالغة، كما تحدثا عن نظام حكومته وجيشه وتقاليد القوم ورواج الثقافة عندهم .

هذا ، وكان التجار الأوربيون يحرصون عموماً على أن يجلبوا إلى الهند كل طريف من منتجات بلادهم ويغمروا أسواقها بالكماليات وأدوات الزينة التى كان الناس هناك يكلفون بها كلفاً شديداً ويتهافتون عليها تهافتاً عظيما ، ليأخذوا منهم فى نظيرها المواد الأولية والبهار والقطن والنيلة ، فيجنون من مقايضاتهم هذه أرباحاً طائلة وغنما وفيرة . وكانت هذه المقايضات تجرى فى الغالب فى موانىء بروج وسورات وكمباى وقاليقوط ثم فى كلكتا من بعد ذلك [2] .

وكان مما يسّر للبريطانيين على التحرص غزو أسواق الهند ... جالياتهم

(١) Lane-Poole, 293-302

(٢) Dunbar 231

أول الأمر من المبشرين وحرصهم على تجنب التدخل فى شئون الناس وتظاهرهم بالمودة والمداهنة لهم .

وأدى تعرض البرتغاليين لبعض السفن التى كانت تحمل بضائع برسم السلطان ، مع نفور الناس منهم، إلى أن أغرى جهانكير البريطانيين بقتالهم، بعد أن طردهم من بلاطه ، فنزلت بهم فى البحر ضربات قاصمة .

وكسب التجار البريطانيون بصنيعهم هذا امتيازات أخرى ما زالت تزداد على مر الزمن، وما غدوا يدعمونها بالخبث والدهاء ويثبتونها بالغدر والخيانة حتى وضعت بريطانيا أيديها على شبه القارة الهندية كلها .

شاهجهان

حين مات جهانكير سارع آصف خان بإنباء صهره شاهجهان بالدكن بالخبر ، ثم عمد من فوره إلى إخراج داور بخش ، حفيد السلطان الراحل من إبنه خسرو ، من محبسه وأجلسه على العرش ، ليتقى بهذا الإجراء المؤقت ما عساه أن يحدث من اضطراب الأمور فى المدينة ، حتى يتأتى له تخليص أولاد شاهجهان ، محمد دار اشكوه ، وشاه شجاع ، وأورنكزيب ، وكانوا جميعاً يقيمون عند نورجهان[1] منذ أن بعث بهم أبوهم رهائن فى دار السلطنة .

ولم تكن نورجهان لترضى بما ذهب إليه أخوها آصف فحرضت ختنها الأمير شهريار على أن ينادى بنفسه فى لاهور ، قصبة البنجاب ، سلطانا على الهند . وظاهره على هذا الأمر أمير من أولاد عمه دانيل ، ليسارع إليه من بعد ذلك آصف خان بنفسه ويقتحم المدينة عليه ويلقى به فى الحبس بعد أن سملت عيناه .

وتناهى خبر ذلك كله إلى شاهجهان ، ولما يبرح الدكن بعد ، فكتب فى التو إلى صهره آصف خان يحرضه على القضاء على منافسيه جميعاً ، فكان لتنفيذه كل مارغب فيه زوج ابنته أكبر الأثر فى ارتفاع مكانته عنده وازدياد نفوذه فى البلاط بالتالى ، حتى صار وزير السلطان الأول وكاتب يومين الدولة .

---

(١) باد شاهنا مه ص ٥

ولم تكتب النجاة من مذبحة آصف خان تلك إلا لداوربخش فلاذ ببلاد فارس حتى أواخر أيامه .

هنالك لم تملك نورجهان بإزاء ذلك كله إلا أن تعتزل الحياة العامة . وقد تنامى لها السلطان الجديد كلّ ما كان لها معه من عداء وأجرى عليها رزقا حسنا.حتى وافاها أجلها بلاهور عام١٠٥٥هـ/ ١٦٤٥ م فثُويت إلى جوار زوجها جهانكير ببستان دلكشا بظاهر قصبة البنجاب.

ولد شاهجهان عام ١٠٠٠ هـ/ ١٥٩٢ م ، من أم هندوكية ، ـ كأبيه ـ هى إبنة رانا مروار . وهو ثالث أبناء جهانكير وأقدرهم جميعاً ، اتصف برجاحة العقل والذكاء وقوة العزيمة حتى كان جدّه أكبر شديد الاعتزاز به كثير الحدب عليه . وقد عرف دون سائر أمراء أسرته السابقين بعزوفه ، فى الغالب ، عن مقاربة الشراب مع مجانبته اللهو والعبث . وكفلت له صفاته العالية هذه ثقة أبيه فيه دون أخويه : خسرو ، الذى عمد إلى عقوقه له منذ صغره ، وبرويز الذى لازمته العلل وضعف الإدراك منذ ولادته ، وكان كلاهما يدمن الشراب فقضيا به فى حياة أبيهما .

وزاد من قدر هذا الأمير عند أبيه ما أظهره من مقدرة وكفاءة فى حرب الراجبوتيين عند موار ، وما أبداه من حنكة ودراية حين أرغم ملك عنبر الحبشى على قبول شروطه بعد ما أنزله من الهزائم المتكررة بقوات الدولة ، فأنعم عليه بلقب شاهجهان وعهد إليه بإدارة حكومة الدكن . حتى إذا ماتوجست نورجهان الخيفة من علو شأنه فخشيت أن يطغى بنفوذه على سلطانها ، راحت توقع ، بالدس ، بينه وبين أبيه ، فما عدا أن رفض السير إلى قندهار حين طلب إليه أبوه ذلك — وكان قد بلغه ما تدبره زوج أبيه لحمل

السلطان فى غيبته على البيعة إلى ختنهـا أصغر الأمراء شهريار — لينتهى به الحال من بعد ذلك إلى الجهر بعصيان طال أمده حتى عادت المياه بينهما إلى مجاريها من جديد على الوجه الذى فصلناه من قبل .

وحين دخل جهانكير فى النزع ، تدبر آصف خان الموقف ، على ضوء مصالحه الخاصة ، فى روية وحذر ، فآثر أن يقف إلى جانب ختنه القوى الرشيد شاهجهان معرضا عن أخته نورجهان وختنها شهريار ، ليصل من بعد ذلك — وفق ماقدر ودبر — عند السلطان الجديد إلى أعلا المناصب ويصير له بالدولة شأن وأى شأن .

ممتاز محـــل : بنى شاهجهـان عام ١٠٢١هـ/١٦١٣م وهو فى صدر شبابه بأرجمند بانو بيكيم إبنة آصف خان وهى التى تشتهر فى التـاريخ باسم ممتاز محل أو سيدة التاج .

وهذه السيدة ، التى حرص أبوها على تنشأتهـا تنشئة طيبة وتزويدها بالعلوم والآداب منذ صغرها ، كانت على جمال فاتن وخلق نبيل وصفات عالية أدت بها إلى ملازمة زوجها فى كل المحن التى مرت به ، إبان خلافه مع أبيه وحروبه معه . فى وفاء وإخلاص قل نظيره . وحين رقى زوجهـا العرش صارت له خير ناصحة ومرشدة ؛ فلم يَبْدُ منها أبداً ما كان من شأنه أن يغضب رجال الدولة أويثير ثائرة القادة ، وإن أخذ عليها بعض المؤرخين دفع زوجها، بوازع من تقواها وورعها ، إلى العدول بعضَ الشىء عن التسامح المطلق الذى كان يصطنعه آباؤه بأزاء الهنـادكة والمبشرين المسيحيين . ولعل شاهجهان إنما منع ، بوحىٍ منها كذلك ، سجود النـاس للسلطان ، على ما كان متبعاً منذ

أيام أكبر ، وعاد بالدولة إلى اتخاذ التقويم الهجرى فى أعمالها[1] ، وحرم التطاول على مقام الخلفاء الراشدين عند شيعة بلاده ، وحدّ من بناء معابد جديدة للهنادكة :

ولم يبطر بممتاز محل ما كان لها من نفوذ بالغ وثراء طائل ، فكانت تقيم على البر بالفقراء والأرامل ، وتعين عيالها الفتيات الفقيرات على الزواج ، كما وسعت رحمتها كثيرا من المذنبين ، حتى كانت تبلغ بتدخلها عند زوجها إلى رد حياتهم عليهم فى الغالب ، وإعادة أصحاب المناصب منهم إلى مناصبهم[2] الأولى .

ووافاها أجلها عام ١٠٤٠ هـ/١٦٣٠م وهى تضع طفلها الرابع عشر ، فحزن عليها زوجها حزنا شديداً ، حتى عزف عن كل مباهج الحياة برغم امتداد الأجل به من بعدها خمسة وثلاثين عاما .وقد أذاع من صيتها ذلك الثوى الفخم الذى أقامه زوجها لها ، فكان من آيات وفائه لذكراها . ويعرف هذا الضريح باسم « تاج محلّ » ويُعد بحق من بين روائع الفن للعمارى فى الدنيا .

ثورات الدكن : تعرض شاهجهان فى بداية حكمه لبعض ثورات فى الدكن كان منها ثورة راجا ججهار سنغ فى بُند لخاند . ذلك أن هذا الأمير الهندوكى كان قد ورث عن أبيه برَمن سنغ ، قاتل أبى الفضل ، أموالا طائلة ، فجال بخاطره أن يناهض الدولة فى قوات أبيه السابقة ، وكانت بدورها وفيرة العدد ، حتى اضطر السلطان أن يسير إليه قائده مهابت خان فى سبعة وعشرين ألفاً من الفرسان وستة آلاف من المشاة ، فأرغمه على الإستسلام له ، ليعاود

---

(١) بدلا من التقويم الأول الأكبرى

(٢) Muslim Rule. P 485

عصيانه فى العام التالى من جديد ، و ينطلق ينتهب أراضى جيرانه من المنادكة ولـكن خروجه ماغدا أن انتهى به إلى مقتله وولده بـكرماجيت .

وفرغ شاهجهان من هذه الفتنة لتنطلق قواته فى العام الثانى من حكمه فى أثر قائد أبيه السابق خان جهان لودهى حين أشعل بالدكن نيران ثورة ثانية فقد عمد هذا القائد الأفغانى ، عقب وفاة جهانگير وقبل بلوغ شاهجهان العاصمة ، إلى الزحف إلى ماندو والاستيلاء على مقاليد الحكم فيها . وأطمعه عفو السلطان عنه من بعد ذلك حين ولاه بعض الدكن ، فانطلق يعنف بالأهلين ويشتط فى ارتكاب للظالم والجور ، ليسير إليه السلطان عندئذ قائديه عبد الله خان، ومظفر خان فماز ألا يطردانه حتى ظفرا به بعد عامين فاورد حتفه[1] .

<u>المجاعة والقحط</u> : لم يفرغ شاهجهان من هذه القلاقل إلا ليواجه محنة القحط الذى اجتاح بلاده فى العام الرابع من حكمه ، وذلك بسبب انحباس الأمطار للوسمية التى تعتمد عليها الهند فى السقى والرى ، فانجاب عن مجاعة بشعة بدت أقسى مظاهرها فى الكجرات والدكن ، وزاد من سوء الحال انتشار الأوبئة الفتاكة بين السكان .

وبرغم ما بذله السلطان من جهود جبارة لإغاثة الناس، حتى أمدهم بالكثير من المؤن والأرزاق والأموال وأقام المطاعم المجانية لهم وأعفاهم من أغلب الضرائب المفروضة عليهم ، فإن رداءة المواصلات وازدحام الطرق بالمهاجرين قد عوق كثيراً من بلوغ هذه النجدات أهدافها ، حتى باع الناس أولادهم من الإملاق وطعموا الجيف من المخمصة ، وغلبهم تعلقهم بالحياة على حبهم لأولادهم

(١) بادشاهنامه ص ٢٢

حتى كان منهم من ذبح ولده وطعم لحمه[1] ، وكثيراً ما سدت الطرق أجداث الألوف من الصرعى ، وأقفرت قرى وأحياء بأكملها من ساكنيها .

البرتغاليون : ضاق شاهجهان ذرعا باستبداد التجار البرتغاليين عند شواطىء البنغال ، إذا انطلقوا يتخطفون الناس هناك قسراً ليبيعوهم فى سوق الرقيق ، وفرضوا على السكان مكوسا لحسابهم ، حتى عم أذاهم وجورهم أغلب المناطق التى كانوا ينزلون بها عند شواطىء الهند الشرقية والغربية على السواء .

وتفاقم خطر مبشريهم تفاقما خطيراً ، فقد جهدوا ، فى ظل مواطنيهم هؤلاء ، لحمل الأهلين على قبول عقيدتهم قسراً ، كما راحوا يتدخلون فى شئون الدولة التى يعيشون فى كنفها ويتآمرون عليها مع تجار الهولنديين وغيرهم من الأوربيين الذين كانوا يفدون إلى هذه البلاد لامتصاص مواردها ، ويشجعون بعض الخارجين على سلطان الدولة من أبنائها على العصيان حتى كتب أسقف جوا البرتغالى نفسه يشكوهم إلى مليكه[2] .

ولم يكن شاهجهان بغافل عن سلوك هؤلاء البرتغاليين الذين أقدموا ، إبان محنته مع أبيه ، على اختطاف فتاتين من أتباع زوجه ممتاز محل حين نزل على مقربة من محلتهم ، فسكت إذ ذاك على مضض ولم ينسها لهم . حتى إذا ما ولى الحكم وفزع الناس إليه من عسفهم بعث من فوره عام ١٠٤٠ هـ/١٦٣١ م بقائده قاسم خان[3] . حاكما على البنغال وأمره باقتحام مراكز هؤلاء الطغاة وتشتيتهم .

---

(١) بادشا هنامه ٢٤ ، ٢٥

(٢) Muslim Rule 388 .

(٣) بادشاهنامه ٣٢ — ٣٥

وبرغم امتناع هؤلاء الدخلاء فى حصون قوية ، كانوا قد عمروها بالمدافع وشحنوها بالبنادق والرجال ، فقد اقتحم عليهم رجال السلطان أقوى مواقعهم فى هوجلى وخلصوا من أيديهم عشرة آلاف من أهل الهند كانوا معدين للتصدير[1] .

ولم تخسر الدولة فى هذه الحرب أكثر من ألف قتيل ، فى حين سقط من أعدائها عشرة آلاف ، ووقع فى الأسر أربعة آلاف آخرون منهم ، سيقوا إلى آكرا ليختاروا بين اعتناق الإسلام أو الحبس.

ولئن كان شاهجان قد عمد بإجرائه هـذا مع أسراه إلى أن يرد الصاع صاعين لمبشرى البرتغاليين[2] ، وهو خطأ لم يكن لمثله أن يرتـكبه ، فهو على كل حال لم يذهب إلى ما ذهب إليه ملوكهم بأوربا وأسبانيا على الخصوص حين خيروا مسلمى الأندلس بين اعتناق المسيحية أو الموت حرقاً . وقد رد السلطان الهندى هؤلاء البرتغاليين آخر الأمر إلى محلتهم على كل حال ، وإن لم يستطيعوا أن يعودوا بها إلى سيرتها الأولى من العمران لفرط ما كان قد نزل بها من الدمار .

ولم يتردد البريطانيون ، على الخصوص ، فى الإفادة من هذه المحنة التى نزلت بأعظم منافسيهم بالهند فبذلوا جهوداً كثيرة للتقرب من السلطان والحصول على مزيد من الإمتيازات لهم ولقومهم بالتالى .

حروب الدكن : تاق شاهجان إلى أن يتم الفتوح التى بدأها أبوه وجده من قبل بالدكن والتى شارك هو بنفسه فى بعض منها أيام جهانكير . وشد من

(١) منتخب اللباب ٢١٧ .

(٢) Muslim Rule 489 .

عزيمته للمضى فى هذا الأمر ، وهو السنى المتمسك بعقيدته ، حرصه البالغ على منع انتشار مذهب الشيعة الذى كان بعض سلاطين الدكن قد طفقوا يروجون له فى إماراتهم ويرحبون بأصحابه الفرس ، حتى غدت بلادهم مثابة لمناوءة السنيين فى الهند وإثارة الفتن بين السكان .

ولئن قعد بشاهجهان بعض ما اعترض عهده من الأحداث عن المضى بخطته إلى غايته ، فقد اضطلع بهذه المهمة ابنه أورنكزيب من بعده ، وما زال بها حتى أتمها على خير وجه ، فلم تخضع الدكن كلها لسلطان الدولة فحسب ، بل لقد أظلت راية المسلمين شبه القارة الهندية كلها من أدناها إلى أقصاها .

هذا ولقد كان من أثر خروج شاهجهان ومهابت خان على طاعة السلطان جهانكير ، وما تبع ذلك من أحداث فصلناها فى موضعها ، أن ضعف سلطان الدولة فى الدكن ، لينتهز أصحاب بيجابور وغولكونده هذه الفرصة فيخلعوا عنهم الولاء للسلطان المغولى ويوسعوا ، من بعد ذلك، فى رقعة أراضيهم على حساب إمارة أحمد نكر التى بقيت على ولائها الأسمى للسلطان .

واستبد بشئون الحكومة فى أحمد نكر قائد مراهتى يدعى شاهجى ، حتى صار سلاطين هذه الإمارة ينصبون وفق هواه . وظاهره فى استبداده هذا أصحاب بيجابور فراحوا يمدونه بالمال والرجال ، فلم ير شاهجهان بإزاء ذلك كله إلا أن يخرج بنفسه إلى الدكن ، وكان قد طلب إلى أصحاب بيجابور وغولكونده أن يعدلوا عن عدم دفع الخراج لشاهجى ويعترفوا له بسلطانه هو من جديد فلم يستجيبوا له .

وأدى ظهور شاهجهان بالدكن فى قواته الكثيفة إلى أن بادر أمير

غولكوندة بإعلان طاعته له من جديد ، وقد تعهد له بمنع سب الخلفاء الراشدين ببلاده ، وإجراء الخطبة بالثناء عليهم ، والعدول عن الدعاء لشاه الفرس فيها .

وبقى صاحب بيجابور على عصيانه حتى اقتحمت قوات السلطان بلاده فتمكنت بأغلب قواته وانتزعت عددا كبيراً من حصونه ، ليرضى آخر الأمر بالخضوع ويتعهد بالابتعاد عن القائد المراهتى شاهجى الذى بادر بمعاداة السلطان بدوره . ولم يرجع شاهجهان من الدكن حتى أقام إبنه أورنكزيب نائباً له هناك عام ١٠٥٤ هـ / ١٦٣٦ م وقد دخلت فى حوزته : دولت آباد وأحمد نكر وتلنجانا وخاندش وبرار وهادنه شاهجى [١]

مكث أورنكزيب بالدكن سنوات ثمانية ، حتى إذا لم يستطيع صبرا على ما بلغه من تمكن أخيه الأكبر دارا شكوه من قلب أبيه ، فصارت أمور الدولة لا تجرى إلا وفق مشورته قدم بنفسه إلى العاصمة بدعوى قلقه على صحة أخته جهان آرا ، وكانت قد أصيبت بحروق شديدة حتى أشرفت على الموت فلم يجدها نفعا ما بذله الأطباء من جهود كثيرة لإنقاذ حياتها ، لولا ترياق صنعه لها مولى يدعى عارف أزاح به آلامها عنها ورد الحياة إليها . وقد قابل السلطان صنيعه هذا بإغداق الأموال والإنعام عليه .

بلخ وبدخشان : بسعى الأميرة جهان آرا رضى السلطان عن أورنكزيب من جديد فندبه لحكومة الكجرات فقضى بها عامين اضطلع فيهما بشئونها على خير وجه ، حتى وجهه من بعد ذلك إلى بلخ وبدخشان ، ليشترك هناك

---

(١) باد شاهنامه ٥٨ .

في حروب عنيفة مع الأوزبك ، كان شاهجهان يبغي من ورائها استرداد بلاد ما وراء النهر كلها ، موطن آبائه السابقين ، التي لم يغفل أحد من سلاطين المغول بالهند عن السعي إلى استرجاعها ما واتتهم الفرصة وتكشف لهم ضعف حكامها .

ولئن أفلح أورنكزيب في إنزال ضربات قاصمة بالأوزبك ، على كثرة عددهم بالقياس إلى قلة قواته ، فقد انسحب آخر الأمر من بلخ بعد أن أجلس على عرشها أحد أحفاد نظر خان حاكمها السابق ، على الولاء له . ليفتك الزمهرير بفريق من قواته من بعد ذلك وهي في طريق العودة وتضيع كل الأموال والجهود التي أنفقتها الدولة في هذا الغزو هباء [1] .

قندهار : أشرنا من قبل إلى ضياع قندهار من أيدي جهانكير حين رفض ابنه شاهجهان أن يسير إليها لدفع الفرس عنها ، إذ كان قد بلغه ماتدبره نورجهان في الخفاء لحمل زوجها السلطان على البيعة لختنها الأمير شهريار من بعده .

وحاول شاهجهان عام ١٠٤٧هـ/١٦٣٧م أن يستعيد هذا الإقليم بالمودة من أيدي الأمير الفارسي على مردان ، نائب الشاه الصفوي عليه ، لكن مسعاه باء بالفشل ، حتى إذا ما كتب أمير قندهار إلى سلطانه يسأله إمداده بالجند والعتاد ليقوى بهما على صد قوات الهند عن أراضيه ، حمل مطالبه على غير حقيقته فظنه لا يبغي من وراء ذلك إلا تدعيم سلطانه ثم الخروج عن طاعته ، فسير إليه قوات كبيرة ، لا لتشد من أزره وإنما لتوقعه في أسرها وتعود به إلى العاصمة .

(١) شاهجهانامه ٨٢ ، ٨٣ .

وحين وقف على مردان على ما كان يدبر له ، سارع من فوره بالكتابة إلى حاكم كابل للمغولى يستنجد بشاهجهان ، لتقبل قوات الهند على المدينة من بعد ذلك فتدخلها ثم تدفع قوات الشاه الفارسى عنها بعد قليل .

ولم يسكت الفرس بدورهم على ضياع هذه المدينة من أيديهم . حتى إذا ما رقى الشاه عباس الثانى عرش الصفويين اعتزم الخروج لاستردادها فى شتاء عام ١٠٥٩هـ / ١٦٤٩ م وهو يعلم أن ثلوج الهند كوش سوف تعوق أى مدد يسارع به سلطان الهند إلى تعزيز حاميتها إبان هذا الفصل .

وصح ما جرى فى حساب الشاه الصفوى . ذلك أن دولت خان ، نائب شاهجهان هناك ، حين بان له تردد دولته فى تسيير الجند إليه إبان فصل الثلوج وكان يلح عليها من قبل هذا لتعزيز قواته فلا يجد لطلبة سميعا ، لم يصبر طويلا على الحصار فاستسلم لأعدائه وهو لا يعلم أنهم بدورهم كانوا على وشك الرحيل عنه لنقص كبير طرأ على مؤنهم ، وأن قوات الهند كانت بالفعل فى طريقها .

وجهد شاهجهان من بعد ذلك فى استرداد هذه المدينة عن جديد ، فسير إليها نخبة من قواده وقواته وعلى رأسهم إبنه أورنكزيب ووزيره سعد الله خان الذى خلف آصف خان بعد وفاته .

وكان حريا بالسلطان أن يستجيب لأورنكزيب حين طلب إليه أن يأذن له بالسير فى محاولة ثالثة نحو هذه المدينة[1] ، وكان قد أمكن له فى حصاريه السابقين لها أن يدرس مواقعها وإمكانيات حاميتها دراسة خبير ، حتى كاد أن

---

(١) عمل صالح ثالث ٣٢٤ .

يتم له دخولها لولا إقبال الشتاء ونفاذ مؤنه ، فأدى رفض شاهجهان لطلبه ثم تسييره دارا شكوه إليها هذه المرة على قلة درايته وخبرته الحربية ، إلى رد قوات الدولة عنها كرة ثالثة وضياع ما بذل لفتحها من أنفس وأموال هباء[1] .

أورنگزيب في الدكن: عاد أورنگزيب إلى الدكن عام ١٠٦٣هـ/١٦٥٣م بعد غياب دام سنوات ثمانية قضاها في الگجرات وعند بلخ وقندهار ، ليرى حكومتها قد ساءت أحوالها حتى غدت عبئا على الدولة، تستنفد إدارتها كثيرا من أموال بيت المال بدار السلطنة بعد أن كانت تمده في السابق بخراج وفير . فقد انصرف حكامها إلى رعاية مصالحهم الخاصة ، فأهملوا شأن الزراعة بها وطفقوا يثقلون كاهل الأهلين بما فرضوه عليهم من مكوس لحسابهم حتى هجر الفلاحون أغلب أراضيهم وفروا من قراهم ، فأجدبت الحقول وخوت البساتين والحدائق على عروشها . فما غدا ، بمعاونة إداري حازم يدعى مرشد قلي خان ، أن نهض بالزراعة ، عاد ثروة الإقليم من جديد ، فجعل كافة الأراضي الخصبة تحت إدارته مباشرة ، وأمن الفلاحين في أعمالهم وأمدهم بالبذور الجيدة والماشية وشجعهم على استصلاح الأراضي البور وزراعتها .

واهتدى مرشد خان بنظام تدرمل وزير أكبر ، فأمر بمسح الأراضي كلها وأعاد تقدير الخراج المفروض عليها من جديد، فجعل للدولة نصف محصول الأرض التي تزرع مياه الأمطار . وثلثه من الأراضي التي تروى بمياه الآبار فيما عدا البساتين والحدائق فيجبى منها ربع المحصول . أما الأراضي التي كانت تسقى من الترع والقنوات فكان ربطها يتراوح بين الزيادة والنقصان بحسب طبيعة تربتها .

---

(١) شاهجهاننامه ١٠١ ، ١٠٢

وبهذا النظام ، وما كفله من توفير الأمن للفلاحين ، أقبل هـؤلاء على أعمالهم فى جد ونشاط أدى إلى استقرار اقتصاديات الدكن من جديد ونهوض مواردها بالتالى .

كذلك كان من أثر سوء إدارة حكام الدكن ، إبان غياب أورنكزيب عنها ، أن عاد أصحاب غولكونده وبيجاپور إلى سابق خروجهم على طاعة السلطان فامتنعوا عن دفع مافرض عليهم من جزية وراحوا يتخطفون أملاك الدولة هناك حتى اغتنم أورنكزيب فرصة سنحت له بنشوب الخصام بين عبد الله قطب شاهى سلطان غولكونده ووزيره محمد سيد المعروف بمير جمله – وكان هذا الأخير قد بلغ الكثير من النفوذ والقوة فصار له جيش خاص به داخل الدولة قوامه خمسة آلاف من الفرسان وعشرون ألفاً من المشاة – فزحف بقواته على هذه الإمارة بدعوى تخليص أسرة الوزير من الحبس ورد أملاكها إليها . ولم يغن سلطان غولكونده فتيلا مابعث به إلى قادة القوات المهاجمة من أموال كثيرة وجواهر عسام يرجون بذلك عنه ، فاقتحم محمد ابن أورنكزيب عاصمته وأوقعه فى أسره .

وعفى شاهجان آخر الأمر عن قطب شاهى ورده إلى إمارته بعد أن أقسم على الولاء له ، ليرتبط معه من بعد ذلك برابطة النسب حين زفت ابنته إلى محمد ابن أورنكزيب[1] .

وما غدا مير جمله بدوره أن شمله شاهجهان بالرعاية حتى وزر له خلفا لسعدالله خان.

---

(١) شاهجهانانامة ١١٨ ، ١١٩ .

وسار أورنكزيب كذلك إلى بيجابور ، وكان قد بلغه اضطراب أحوالها بعد وفاة سلطانها محمد عادل شاه ، فما زال بها ، ومعه مهابت خان ومير جمله ، حتى وقع بأيديهم حصون بيدار وكولبوركة وكلياني وبارنده . فما إن فرغوا من أمرها عام ١٠٦٨ هـ/ ١٦٥٨ م فانطلقوا إلى مدينة بيجابور نفسها ، حتى أمرهم شاهجهان بوقف القتال ، إذ رضي سلطانها بالصلح على جزية كبيرة مع إعلان خضوعه وولائه ، وتنازله عما ضاع من أيديه من الحصون[1] .

فتنة الأمراء : رأى شاهجهان ، حين اشتد به المرض عام ١٠٦٧هـ/١٦٥٧م أن يعهد بالملك من بعده إلى دارا شكوه أكبر أبنائه الأربعة من ممتاز محل دون إخوته ، وكان قد استبقاه إلى جانبه بآكرا حتى يتدرب على التمرس بأعباء الحكم .

ولم يكن لهذا الأمير بطبيعته كفاية حربية أو حنكة سياسية ، إلا أنه كان واسع الاطلاع ، شغوفا بدراسة الأديان بخاصة ، حتى نقل ، بمعاونة بعض علماء البراهمة ، اليوبانيشاد للقدس من السنسكريتية إلى الفارسية . وجر عليه اختلاطه بالمناذكة واشتغاله الكثير بعلومهم ، سخط علماء السنة ، مما يسر لأخيه أورنكزيب أن يفيد من ذلك مستقبلا ، حتى بلغ إلى تأليب المسلمين في الهند عليه إبان نزاعه معه على العرش .

أما شجاع ، ثاني الأبناء ، فكان في مقامه بالبنغال منصرفا في الغالب إلى ملاذه . وقد تعاون جو هذا الإقليم وإدمانه للشراب على إضعاف عزيمته والهدّ من كيانه .

هذا ، في حين كان أورنكزيب يسوس شئون الدكن في همة ونشاط .

(١) عمل صالح ١٢٨

ولم يكن رابع الإخوة ، مراد بخش ، وهو فى مقامه لكجرات إلا صورة أخرى لأمير البنغال .

وأثار نبأ البيعة لداراشكوه ثائرة إخوته الآخرين ، إذ كان كل واحد منهم يرى نفسه أحق بالملك من أخيه ،[1] ومن هذا الأمير ، بخاصة ، الذى كان يشاع عنه ميله إلى محاولة إيجاد دين جديد يمزج فيه قواعد الإسلام بعقائد الهنادكة .

على أن أورنكزيب — وهو الذى قد كفل له محبة الناس وثقتهم به ما أظهره من كفاية فى الحرب وما عرف عنه من الحزم والخلق القويم والتمسك التام بأحكام الشرع — تمكن من أن يغرى أخاه مراد بالائتلاف معه ، على أن يقتسما أرض الهند فيما بينهما فيكون للثانى منها البنجاب والسند وكشمير وبلاد الأفغان . فالتقت قواتهما بقرية دهرمت على مقربة من اجين وقد أعلنا معا أنهما إنما قد قدما لتخليص البلاد من ربقة ذلك الأمير المرتد دارشكوه .

واتجه شجاع ، بدوره ، على رأس جيش كبير ، إلى دهلى بعد أن كان قد نادى بنفسه سلطانا على البنغال ، لكن قوات سليمان بن دارشكوه ما غدت أن أرغمته على الارتداد إلى إمارته بعد أن بلغ بنارس[2] .

وباءت بالفشل كل الجهود التى بذلها الوسطاء لمنع الصدام بين قوات دارشكوه وأخويه ليمنى من بعد ذلك جند دهلى بهزيمة شديدة ساعد عليها

---

(١) تاريخ مفضل ١٤٣

(٢) منتخب اللباب ٢١٥

نفور بعض القواد المسلمين فى جيش الدولة من السير تحت إمرة قادة من كبار المنادكة فانحازو إلى صفوف مهاجميهم .

وقوى من عزيمة أورنكزيب ما انضم إلى جبهته من قوات عديدة ، وما وقع بأيديه من أسلاب وذخائر حربية ومؤن ، فاتجه إلى كواليار حتى حط رحاله بسهل سموكره إلى الشرق من آكرا ، لينزل من بعد ذلك هزيمة أخرى قاصمة بعدوه ، بعد قتال عنيف عظمت فيه خسائر الطرفين ، حتى اضطر داراشكوه آخر الأمر إلى الارتداد إلى آكرا مسرعاً فى الليل تاركا كل عتاده ومؤنه لأخيه .

وحين بلغ الأمير الظافر آكرا فكتب إلى أبيه يعتذر إليه عن هذه الحرب التى أكرهه أعداؤه على خوض غمارها ، بعث إليه شاهجهان بسيف يدعى عالمكير هدية منه ودعاه للقدوم إليه . غير أن رجال أورنكزيب حذروه مما قد يكون أعده له أبوه من شراك للايقاع به ، وأشاروا عليه بأسر السلطان على الفور حرصاً على سلامته وتأمينا لمركزه .

وأدى قطع الماء عن حصن آكرا إلى استسلام حاميته بعد دفاع مجيد ، لتحدد من ذلك إقامة شاهجهان فى جناح الحرم بالقلعة ، ولم يكن يرخص لأحد الاتصال به إلا لابنته جهان آرا التى تفانت فى السهر على راحته حتى آخر حياته .

ووقع بأيدى أورنكزيب رسالة كان أبوه قد بعث بها إلى دارشكوه يحذره فيها من القدوم إليه ويطلب إليه لزوم دهلى ، فتكشف له بذلك سوء نوايا أبيه نحوه وصح لديه ما حذره رجاله منه فى السابق ، فحرم الكتابة على السلطان للمعتقل .

وأحس أورنكزيب ، وهو فى طريقه إلى دهلى زحفاً ، بنفور أخيه مراد منه حتى شرع يتآمر عليه ، فدبر بدوره أمر اعتقاله غدراً ليسيره من بعد ذلك إلى الكجرات ويعتقله بقلعتها . وما غدا أن أدين هناك لقتله ديوانه على نقى فقتل به عام ١٠٧٢ هـ / ١٦٦١ م [١] .

وحين بلغ أورنكزيب دهلى نودى به عام ١٠٦٩ هـ/١٦٥٨ م سلطانا على الهند باسم عالمكير .

هذا ، وقد ظل داراشكوه يضرب فى أرض البنجـــــاب والملتان والكجرات وآجمير ، حتى حط به المطاف عند زعيم من البطهان يدعى ، ملك جيون ، كانت له عليه أياد سابقة كثيرة ، فلم يغن عنه ذلك كثيراً ، إذ غدر به الأفغانى ودفع به إلى أخيه فأفتى العلماء بكفره وأباحوا دمه [٢] .

أما شاه شجاع فما زال به قواد أورنكزيب يطاردونه فى البنغال حتى اختفى فى جبال آسام وانقطعت أخباره .

ولو أن شاهجهان ، حين أبل من مرضه الذى اعتقد أن فيه نهايته ، كان قد عمد من فوره إلى حسم الموقف بنفسه بدلا من أن يبعث إلى ابنه دارشكوه يطلب إليه العدول عن قتال إخوته ، وقد كان يوقن أنه لا بأس عليه من قدومهم الى دار السلطنة ، لتغير الموقف كله على وجه السلامة .

فقد كان حريا به أن يبرز الى الميدان بنفسه فيقضى بظهوره على الشائعات التى راجت بموته والتى ساعد على انتشارها سد ابنه الأكبر لكافة الطرق المؤدية إلى الدكن والكجرات والبنغال وقطعه البريد عنها .

---

(١) عمل صالح ١٣١ ، ١٣٢

(٢) منتخب اللباب ٢٤٦

هذا ، كما كانت دعوته لمجلس الحرب الذي يضم كبار القادة كفيلا بدوره ، في مثل هذه الظروف ، بالقضاء على الفتنة في مهدها ، في الغالب .

وغني عن البيان أن ما عرف به أورنكزيب من مقدرة وحزم مع انصاره لعلماء السنة وتأييدهم له ، قد أدى إلى التفاف القوم حوله ، فلم يكن ما أظهره الأهلون من الأسى حين جيء بدارا شكوه إلى دهلي أسيراً فطوف به في طرقاتها إلا لغدر مضيفه به في الغالب .

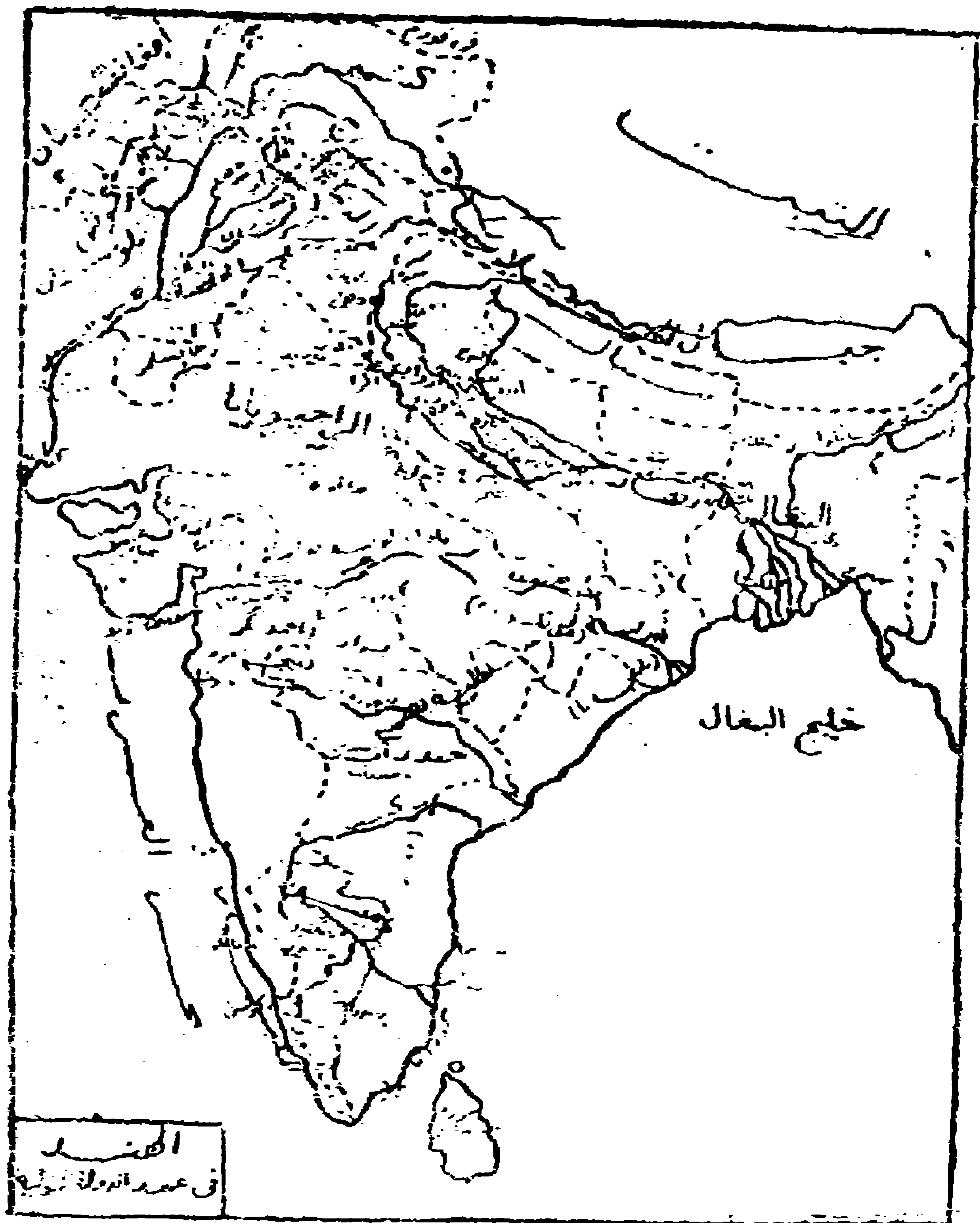
ولبث شاهجهان في محبسه سنوات ثمانية ، حاول في أثنائها عبثا العمل على استرداد ملكه ، حتى قضى أسيفا حزينا عام ١٠٧٠ هـ/١٦٦٦ م وهو في الرابعة والسبعين من عمره ، وهو يرنو ببصره إلى تاج محل ، حيث ترقد زوجه الحبيبة ممتاز محل ، وإلى جواره جهان آرا ، ابنته منها ، والتي وقفت حياتها على خدمته والعناية به .

شخصية شاهجهان : كان شاهجهان حاكما قديراً بلغت الدولة في عهده أوجها وعلت مكانتها ، وقد نهج نهج أبيه وجده في تنظيم شئون الحكومة ، وعرف بالحزم الشديد مع رجاله وعماله والسهر على مصالح رعيته ، حتى كان لا يتردد في إنزال العقاب الشديد بمن يراه يتراخى في تحقيق العدالة لهم أو يتسبب بإهماله أو يتسبب في إلحاق الضرر بهم (1) .

ولئن ذهب إلى فرض ضرائب جديدة على التجار وأعاد فرض الرسوم التي كان الهنادكة يلزمون بها عند زيارة أماكنهم المقدسة ، فإنه كان ، على حد

---

(1) Muslim Rule 541,43


خليج البنغال
الهند
في عهد الدولة

قول الرحالة الفرنسي تافرنييه ، ينظر إلى رعاياه عموما نظرته إلى أبنائه (١) .
وتجلت شفقته بهم وحدبه على رعاياهم فيما كان يبذله من جهود كثيرة لتخفيف وطأة القحط والمجاعات حين كانت تنزل بهم ، فلم يكتف بما أقامه لفقرائهم من مطاعم مجانية كثيرة وما كان يبعث به إليهم من الأرزاق والمؤن والأموال ، حتى أمر عماله بشراء الأطفال الذين كان أهلوهم يعرضونهم للبيع من فرط الإملاق ليردهم عليهم ثانية فيما بعد (٢) .

وبلغ من بر هذا السلطان ، الذي عرف بتمسكه الشديد بشعائر السنة ، أن داوم على إرسال هبات من الأموال في كل عام إلى فقراء الحجاز وعلماء الأراضي المقدسة وأشرافها .

وأدى به ذوقه الفني الرفيع ، وما ورثه عن آبائه من أموال طائلة (٣) ، إلى تزيين الهند في عهده بجملة من المنشآت المعمارية الفخمة التي ما تزال ترى آثارها حتى اليوم بآكرا ، وبدهلي الجديدة التي يعد بحق منشئها ومجددها ، والتي اتخذها مقاماً له بعد أن أتم بناء قصره الكبير بها .

---

(١) Lane Poole 329 .

(٢) Muslim Rule 546

(٣) يقدر الرحالة الألماني بمندلسلو ما كان بخزائن دار السلطنة حين زارها في عهد شاهجهان ، بما يعادل ثلاثمائة مليون جنيه ، عدا الدخل السنوي ، كما ذكر كذلك أن جيش السلطان كان يضم مائة وأربعين ألفا من الفرسان ووصف مدينة آكرا وازدهار الحياة فيها ، فقال في شوارعها كانت ممهدة نظيفة وإن حوانيت التجار كانت تزخر بمختلف أنواع السلع ، وقد خصص لتجار كل سلعة محلة موقوفة عليهم ، وكانت دور المسافرين نظيفة كذلك .

وأحصى هذا السائح بهذه المدينة سبعين من المساجد وثمانمائة من الحمامات ، هذا عدا القصور الشاهقة التي كان يسكنها النبلاء والمناكه بظاهرها . وقال إن سكان آكرا كانوا من الكثرة بحيث يمكنهم أن يقدموا من بينهم في الحرب مائتي ألف من الرجال .

Lane Poole 333-5.

ومن هذه الآثار المسجد الجامع ومسجد اللؤلؤ والقلعة الحمراء . وأروعها جميعاً ذلك المثوى الفخم الذي يعرف باسم تاج محل ، والذي أقامه لتخليد ذكرى زوجته ممتاز محل ، فعد بكماله وبهائه من بين روائع المعمار في الدنيا وقد استغرق بناؤه اثنين وعشرين عاماً ، واستخدم فيه عشرون ألفاً من العمال وبلغت تكاليفه سبعة عشر وتسعمائة لكا[1] من الروبيات .

وبلغ بشاهجهان كلفه بالأبهة إلى صنع عرشه الفخم المعروف بعرش الطاووس الذي رُصّع بأكداس من الجواهر النادرة ، وكانت قوائمه من الذهب الخالص ، وكان سقفه المطلي بالميناء يُحمل على إثنى عشر عموداً من الزمرد ، على كل واحد منها طاووسان تزينهما الجواهر وتتوسطها شجيرة يغطيها الماس والياقوت والزمرد ، وتتدلى منه درج ثلاث تكسوها الجواهر واليواقيت . وقد استغرق صنع هذا العرش سنوات سبعة وبلغت تكاليفه أكثر من ستة ملايين من الجنيهات[2] . وحين غزا نادر شاه الفرس ، الهند عام ١١٥١ هـ / ١٧٣٩ م حمله معه ، فأثرى حكام الفرس من جواهره ، وأقاد فتح على شاه سلطانهم من بعد ذلك من بقاياه وحطامه في إقامة عرش جديد له حمل الإسم نفسه .

(١) اللك مائة ألف ، وفي هذا البناء اختلط الطراز الفارسي بالهندي .

(٢) Muslim Rule 533.6

أورنكزيب عالمكير

اعتلى أبو المظفر محمد محي الدين أورنكزيب عالمكير عرش الهند عام ١٠٦٩ هـ/ ١٦٦٩م والبلاد يعمها الخراب الشامل الذي اكتسح حقولها ومروجها إبان حروب الوراثة الجامحة التي قامت بينه وبين أخيه دارا شكوه. وحالف القحط هذا الخراب بسبب انحباس الأمطار الموسمية، فأتى على كل ماتبقى بالبلاد من أخضر ويابس.

لذا رأى أورنكزيب أن يرفع عن كاهل الأهلين عددا من المكوس والضرائب تخفيفاً عنهم ورحمة منه بهم، فأعفوا من ثمانين نوع، منها مكوس الطريق وللمرور ومكوس الأرضية، التي كان يلزم بها أصحاب المتاجر والحوانيت جميعا، ومكوس الأضرحة ورسوم الدواب، كاخفض كذلك كثيراً من الرسوم التي كانت تفرض على المحاصيل الغذائية الزراعية تيسيراً على السكان جميعاً من مسلمين وهنادكة[1].

ورغم أوامره المشددة في تنفيذ هذه الإعفاءات وعنفه في معاقبة المقصرين من عماله، فإن سكان المدن كانوا هم وحدهم، في الغالب، الذين أفادوا من ذلك كله، إذ احتال حكام الأقاليم دواما على إبقاء الحال على ما كان عليه، حتى لا يضاروا في أهم مواردهم ومصدر ثرائهم، ولا سيما حين عدل أورنكزيب عن

(١) منتخب اللباب لخافي خان ٢٤٦ — ٤٩

نظام التجنيد الذى رسمه جده جلال الدين أكبر ، وسار عليه أولاده من بعده ، إلى نظام الإقطاع القديم[1] .

اشتهر أورنكزيب منذ أول شبابه بتمسكه الشديد بتعاليم السُّنة ، حتى خاض حرب الوراثة ضد أخيه دارا شكوه على هذه المبادىء وأورده حتفه على ما أفتى به علماؤه . لذا أبطل الاحتفال بالنيروز عيد الفرس وحظر دخول بلاده على أصحاب مذهب الشيعة وغيرهم من أصحاب المذاهب غير السُّنية[2] .

وكان من أثر هذا الإجراء ، ومناصبته قبائل الأفغان العداء فيما بعد ، وما سبق إليه جدُّه حين نادى بأن الهند للهنود ، أن انقطع عن جيوش الدولة مصدر مهم طالما أمدَّها بمحاربين أشداء ، من أبناء بلاد ما وراء النهر وبلاد الأفغان وكابل ، كانوا بلا مراء كفيلين بشد أزر بنى جلدتهم ، الذين تأثرت عزيمتهم على مرِّ الزمن بحر الهند ، فى دفع خطر المرهتها والسك عن الدولة ، وهما العصبتان اللتان عجل تزايد نشاطهما فى نهايتهما .

وأدى حرص أورنكزيب عالمكير على أن يصبغ دولته بالصبغة الإسلامية الخالصة إلى أن تشدد فى تحريم الخمر والميسر تحريما تاما وأبطل البدع ، ثم أمر بتعمير المساجد وترميم الخَرِب منها وأمدَّها بطائفة مختارة من الأئمة والوعاظ والمدرسين ، وحض الناس على الإقبال على حلقات العلم بها وشجعهم على الدرس فيها ، ثم بعث بمحتسبيه من بعد ذلك ليراقبوا سلوك الناس ويحملوهم على التمسك بتعاليم الشرع والابتعاد عن نواهيه .

---

(١) كان الحكام وعمال الدولة ، فضلا عن حرصهم البالغ على الاحتفاظ بمظاهر الأبهة والعظمة ، يتنافسون فى تقديم الهدايا الثمينة من الجواهر وغيرها إلى السلطان فى كل مناسبة ، وأعظم هذه المناسبات هى ذكرى مولده حيث كان يوزن بالذهب والجواهر على رسم مغولى قديم . ويذكر الرحالة الفرنسى برنييه ، وكان قد حضر هذا الحفل فى أحد الاعوام أن ما قدم به السلطان من الجواهر يقدر بما يوازى المليونين من الجنيهات . Lane-Poole 375

(٢) عالمكير نامه ٣٨٩

وطفق أورنكزيب من بعد ذلك يبعد الهنادكة عن مناصب الدولة الكبرى ويقلل من عددهم فى الدواوين عامة، فلم يبق بها منهم سوى نصفهم حرصاً على صالح العمل[1]، ولم يكن ذلك بدعاً منه بعد أن رأى بوادر الفتنة والعصيان تظهر من بينهم أيام أبيه.

وانتهى أمره معهم إلى أن أمر بغلق كثير من مدارسهم ومنعهم من إقامة معابد جديدة لهم، حتى هدم معبدى بنارس وسومنات، وأقام على أنقاض معبد مُتهُرَه مسجداً كبيراً، بعد أن بدّل اسم هذه المدينة إلى إسلامبور، ونقل أوثان هذا المعبد المكللة بالجواهر إلى آكرا فردم بها أساس مسجد نواب بيكيم صاحب حتى يطؤها المسلمون بأقدامهم فى صلاتهم تقرباً إلى الله[2].

وأعاد أورنكزيب فرض جزية الرءوس على الهنادكة وأعفى من تأديتها غير القادرين عليها. وقد أدى الحرص بكثير من عامتهم إلى الدخول فى الإسلام تخلصاً من دفعها.

وكذلك فرض أورنكزيب رسماً جديداً على البضائع التى كان يستوردها التجار من الخارج، وكان أغلبها من أدوات الترف وألزم الهنادكة منهم بدفع هذا الرسم مضاعفاً.

ويمكن تقسيم مدة حكم أورنكزيب التى تجاوزت سبعة وأربعين عاماً إلى فترتين: الأولى، وهى التى شغل فيها عامة بإقرار الأمور فى الهندستان، والثانية وهى التى قضاها فى حروب متواصلة بالدكن والجنوب استوعبت ستة وعشرين عاماً واستنفدت أموالا طائلة وهلك فيها ملايين عدة من الجند

---

(١) Dunbar 264

(٢) مآثر عالمكيرى ص ٩٥

والأهلين . وقد هدف من ورائها في الغالب إلى الجهاد في سبيل نشر الإسلام بين المنادكة والقضاء على مذهب الشيعة أكثر مما هدف إلى توسيع رقعة ملكه.

آسام والبنغال : أفاد أورنكزيب من كفاءة قائده مير جمله فوجهه في جيش كبير وأسطول من السفن النهرية إلى آسام و كوش بهار اللتين تقعا عند الطرف الشمالى الشرقى الهندى وهى منطقة تغطيها الغابات والآجام وكان أصحابهما يتخطفون أراضى الدولة . ورغم فتك الأوبئة بجند الدولة وشدة ضغط العصابات عليهم ، وهم فى حصارهم لعاصمة آسام ،فقد مضى بهم قائدهم غداة انتهاء موسم الأمطار ، والحمى تركبه ، حتى أرغم الآساميين على التسليم ، فعاملهم برفق ومودة(1) . ومن أسف أن وافى الموت مير جمله وهو طريق عودته إلى دكا عام ١٠٧٣هـ/١٦٦٣م ، وقد أضاع نوابه جميع جهوده بعد بضع سنين بسوء إدارتهم وعسفهم .

وخلف مير جمله على البنغال الأمير شايسته خان ، خال السلطان . وكان ملوك أراكان بها قد اشتد نشاطهم حتى راحوا يتعاونون تعاونا وثيقا مع البرتغاليين لمناهضة الدولة ، فرحبوا بقراصنة هؤلاء المستعمرين وغيرهم من المغامرين ، حتى باتوا يسيطرون على خليج البنغال ، فضلا عن مساحات واسعة ممتدة من دلتا الكنج إلى دكا ، ثم انطلقوا يقطعون الطريق على التجار ويتخطفون الأهلين ويبيعونهم بيع الرقيق لتجار الهولنديين والإنجليز والفرنسيين فى الثغور الدكنية الشرقية وفى جزيرة سرنديب غير بعيد من شيتا جونج .

---

(1) Gait Hist of Assam 141-51

وبرز شايسته خان لمقاتلة هؤلاء جميعاً ومعه أسطول كبير عدته ثلاثمائة سفينة لخاض ضدهم غمار معارك متصلة عامى ١٠٧٥ ، ١٠٧٦ هـ / ١٦٦٥ ، ١٦٦٦ م حتى كسر شوكتهم وحرر كثيراً من السكان من أيديهم واستعاد للدولة مساحات كبيرة من الأراضى التى كانت فى حوزتهم . وقد تحالف شايسته خان فى حروبه هذه مع الهولنديين والبريطانيين الذين كانوا يتوقون للقضاء على منافسيهم من البرتغاليين ، ولم يكن يدرى أنه بقضائه على البرتغاليين إنما يمهد السبيل للبريطانيين الذين بدأوا وقتذاك بداية متواضعة هناك فأقاموا مصانعهم فى منطقة كانت نواة لمدينة كلكتا الحالية [١] .

البطهان والأفغان : أخذت أطراف الهند الشمالية الغربية تتعرض ابتداء من عام ١٠٧٨ هـ / ١٦٦٧ م . لغارات قبائل البطهان الأفغانية ، وعلى رأسها يوسفزى والأفريدى [٢] ولما ينقض عام واحد على فراغ الدولة من مشاكل الحدود الشرقية .

ولقد جهد السلطان أكبر من قبل فى الحد من نشاط هذه القبائل ، وحذا حذوه جها نكير ثم شاهجهان فسيرا جيوشهما القوية إلى قندهار وبدخشان مرات عدة وحين تجددت حركات هذه القبائل أواخر عهد شاهجهان ، بسبب حرب الوراثة الجامحة التى نشبت بين أبنائه ، فانحدرت جموع

---

(١) Lane-Pool 382.3 — المصانع هنا هى المخازن .

(٢) تشتهر من هذه القبائل الأفريدى والوزيرى على الخصوص بشدة المراس حتى صدت جيوش الهند البريطانية مرات عديدة عن بلادها فى القرنين : الحالى والماضى ، وأنزلت بها خسائر جسيمة

يوسفزى إلى مناطق الهزرا فبلغت شواطىء نهر كابل ، لم يكتف حاكم آتوك ردها فى عنف حتى خرب منازلها وأراضيها .

وركنت هذه القبائل إلى الهدوء بضع سنين من بعد ذلك كان راجا جسوانت ، نائب السلطان عند جامرود ، يراقبهم فيها بعين ساهرة حذرة . ثم برزت قبائل الأفريدى ، وعليها زعيمها أكمل خان تستنهض همم القبائل الأخرى وتستعين بها فى السيطرة على المنطقة الواقعة بين كابل وبشاور . حتى أتيح لها آخر الأمر أن تنزل هزيمة قاصمة بقوات الدولة عند ممر خيبر ، سقط فيها عشرة آلاف من جند السلطان أسارى بأيديهم .

وشجع هذا النصر القبائل الأفغانية الأخرى التى كانت تضرب بين أتوك وقندهار، فركنت بدورها إلى العصيان. وقوى من عزيمتها انضمام الزعيم الأفغانى خو شحال إلى صفوفها ؛ وكان هذا الزعيم قد استدرج من قبل ، بالخيانة والغدر إلى بشاور ثم ألقى به فى السجن بدهلى ، فأطلق سراحه على أن يسير وابنه بجند الدولة لمحاربة أعدائه من قبائل يوسفزى ؛ ولكن ما أحرزه بنو جلدته من الانتصارات على الدولة أنساه عداءه معهم فانضم إليهم .

هنالك بعث أورنكزيب بفدائى خان حاكم لاهور إلى بشاور ، وسير قائده الآخر مهابت خان إلى كابل . حتى إذا ما تكشف له تواطؤ هذا الأخير مع العدو جعل مكانه شجاعت خان .

وأدى ظهور قوات الدولة القوية عند منطقة الحدود إلى قدوم فريق من شيوخ العشائر الثائرة مستسلمين . حتى إذا ما أصم شجاعت خان أذنيه عن الاستماع إلى نصيحة راجا جسوانت فلم يصطنع التريث والصبر حتى يأتيه بقية

الشيوخ فيبرم الصلح معهم على خضوعهم للدولة ، فاندفع بقواته إلى منازلهم فى مناطق التلال المجاورة لـكابل ، انحدر البطهان إليه فى ليل شتاء عاصف عام ١٠٨٤ هـ / ١٦٧٤ م فأنزلوا بقواته هزيمة شاملة لاقى فيها حتفه .

هنالك لم ير السلطان بداً من المسير إلى هذه المنطقة آخر الأمر بنفسه ، فأفلح وقائده أغار خان ، بقوة السلاح تارة وببذل المودة والمال والعطاء لشيوخ القبائل تارة أخرى ، فى أن يؤمن منطقة ممر خيبر ، أخطر أبواب الهند وأهم طرق الغزاة إلى سهولها وأراضيها .

ولم تستنزف قلاقل الحدود الشمالية الغربية هذه كثيراً من أموال الدولة فحسب . بل لقد اضطر السلطان بسبب عنفها إلى استدعاء نخبة من قواته الدكنية إليها ، مما أتاح الفرصة لإمارات الدكن وللمرهتها على الخصوص ، ليقووا من نفوذهم هناك ويثيروا المتاعب فى وجه الدولة من بعد ذلك .

ولو أن أورنكزيب كان قد اصطنع المودة مع القبائل الأفغانية منذ بادىء الأمر وأخذهم بالسياسة والدهاء الذى اشتهر به ، لأفاد من شدة مراسهم فى القتال فى حروبه الطويلة ، مع الراجبوتيين والسك والمرهتها وشيعة الدكن ، وقد كانوا على هواه فى تعصبهم الشديد لتعاليم السنة .

الجات والستناميون : أدت السياسة التى انتهجها أورنكزيب عالمكير فى تدمير معابد الهنادكة وإقامة مساجد المسلمين على أنقاضها ، إلى شيوع روح التذمر بينهم حتى ثار الجات منهم(١) ثورة عارمة عند ماتهور فتمكن زعيمهم

(١) الجات أو الزط ، منهم المسلمون ويسكنون السند الأعلى والملتان ، وقد ذكرهم الجاحظ بأنهم أصحاب مهارة فى التجارة والصيرفة والصيدلة . ومنهم فريق من الهنادكة =

جُـكال من قتل نائب السلطان هناك وانتهاب أراضي سعد أباد . ولم يفت سقوط هذا الزعيم في يد الدولة ومقتله ، في عضد بني قومه ، فطفقوا ينزعون إلى التمرد والعصيان بين الفينة والفينة حتى تفاقم خطرهم حين بدأ الضعف يدب في بناء الدولة بعد عهد أورنكزيب .

وجاءت ثورة الستناميين في أعقاب سابقتهـا . وهم طائفة من الزهاد ينتسبون إلى الإسم الحسن (لله : ستنام) ويحرصون على كبريائهم وأنفتهم حرصاً شديداً ، حتى لا يترددون في سبيل ذلك عن بيع أنفسهم بيع السماح . ولم يكن مردُّ ثورتهم إلا لاعتداء بعض الجند على فريق منهم[1] دون أي سبب ديني آخر ، فزحفت جموعهم من نارنول عند موات تخرب ما يصادفها من مساجد وتعمل السلب والنهب في المدن والقرى حتى بلغت مشارف دهلي ، وفي ركابها شائعات قوية عن نفاذ سحرها وطلاسمها . حتى فزع الناس والجند من لقائهم فلم يتأتى للسلطان القضاء عليهم إلا بمشقة .

<u>السِّك</u> : لم يقعد السِّك بدورهم عن المشاركة في حركة السخط التي عمت الهنادكة جميعاً بسبب موقف السلطان غير الودي معهم ، وكانوا قد غدوا يناصبون الدولة العداء من قبل منذ أن قتل جهانكير زعيمهم أرغون حين ظاهر ... خسرو في خروجه عليه .

وهذه الطائفة وهي من الجات البنجابيين ، إمامهـا مصلح ديني يدعى

= في انراجبوتانا ، ومنهم السك في البنجاب أتباع نانك ، وجميعهم من الويشية ، وأغلب الصيارفة والمرابين في الهند اليوم منهم .

(١) منتخب اللباب ٢٩٤/٩٦

غورو نانك ، ظهر فى القرن التاسع الهجرى ، وحاول أن يصهر ديانات الهند فى مذهب واحد يقوم على تعظيمها جميعاً ، ويقضى على فروق الطوائف ، ويعلن المساواة التامة بين الناس .

وبلغ رابع خلفائه رام داس مكانة مرموقة عند السلطان أكبر ، حتى أقطعه أرضاً أقام عليها محلة لأتباعه ومريديه ، فما زالت تنمو وتكبر حتى صارت إلى مدينة أمر تسهر كعبتهم الدينية اليوم بالبنجاب .

حتى إذا ما تفشت الكراهية للمسلمين بينهم بسبب مقتل جهانكير لخليفة أورغون ، شرع زعيمهم الجديد هار غوروند يُعدُّهم إعداداً عسكرياً للدفاع عن كيانهم .

وحين ثار بهم تاسع زعمائهم غوروتغ بهادر ليعارض الدولة فى اضطهادها للهنادكة وتخريبها لمعابدهم . فقبض عليه أورنكزيب عام ١٠٨٦/١٦٧٥ م وأورده مورد الردى ، انطلق ابنه غوروند سنغ يشعل روح الحماس فى قومه ليثأروا لقتلاهم ، وهو يواصل تدريبه الحربى لهم ويمدهم بنقيع السيوف والخناجر . فصمدوا لكل الضربات التى وجهتها إليهم الدولة فى عزم وإصرار حتى تم لهم السيطرة على منطقة التلال فيما بين ستلج ، رافد السند ، وجمنه .

وأحاطت قوات الدولة بهذا الزعيم آخر الأمر بعد أن قتلت ولديه ، فالتحق بخدمة بهادرخان خليفة أورنكزيب ،(١) لينقلب قومه حين بدأ الضعف يدب فى بناء الدولة ، إلى جيش جسور غدا والمرهقها نذير سوء عليها .

---

(١) منتخب اللباب ٩٤ — ٩٦

الراجبوتيون : أدى فرض أورنكزيب جزية الرءوس على المنادكة من جديد ، بعد أن ظلوا يعفون من دفعها قرابة قرن ونصف القرن ، إلى تفاقم الإضطرابات بينهم واشتداد أوار غضبهم .

وكان هدف السلطان من وراء إعادة فرضها هو الحصول على المال الذى أعوزه فى حروبه الكثيرة ، فلم يلتفت إلى توسلات جموعهم الكثيرة التى وفدت إليه وزحمت طريقه إلى المسجد ، حتى استخدمت الفيلة لتفريقها وهلك كثير منهم تحت أقدامها .

ولم يقبل الأمراء الراجبوتيون جزية الرءوس هذه عن طيب خاطر ، وقد انقلب السلطان ينظر إليهم بعين الإمتهان ، فى حين أن أسلافه ، حتى بعد استيلائهم على أقوى حصونهم فى جتور ، كانوا يعدونهم فى الغالب حلفاء لهم ويحفظون عليهم مراسم الأبهة والإمارة .

حتى إذا ما احتجز أورنكزيب ببلاطه أحد أبناء راجاجسوانت بعد موته ، وكان هذا الأمير قد شارك فى إقرار الأحوال عند الأطراف الشمالية الغربية للهند ، فتراءى إلى قومه أنه إنما يبغى بفعلته هذه إلى حمل الأمير الراجبوتى الصغير على اعتناق الإسلام ، ألتفوا حول درغا داس راجا مروار (جدهبور) الذى توصل بالحيلة إلى تخليص الأمير من أسره ونقله وأمه إلى إمارته[1] ، لينفذ السلطان عندئذ قائده تهور خان وابنه أكبر لغزو هذه الإمارة وضمها إلى أملاك الدولة .

---

(١) منتخب اللباب ٢٩٨ .

كذلك انبرى أمير أدايبور (موار)[٢] بدوره يعارض ما فرض عليه وعلى قومه من جزية الرءوس ، فاجتاحت قوات الدولة بلاده بدورها وخربت ما بها من معابد هي وآمبر التي لم يشفع لها ما كان بين أميرها وأورنكزيب من صلات مودة وسلام .

اعتصم الأمراء الراجبوتيون الفارون من بعد ذلك بحصونهم في الجبال ، وانطلقوا من هناك نشطين للايقاع بقوات الدوله . وقد فشل أكبر رابع أبناء أورنكزيب في كبح جماح هؤلاء الثائرين الذين كادوا يصلون إلى قطع الإمدادات والمؤن عن أورنكزيب نفسه وهو في موار .

وأدى حرج الموقف بأورنكزيب إلى استدعاء ولديه الآخرين ، أعظم ومعظم ، بقواتهما من الدكن والبنغال ليشاركاه الحرب عند موار ، في حين وجه ابنه أكبر إلى مروار بعد أن أنبه تأنيباً شديداً لتهاونه السابق مع العدو . فإذا بالأمراء الراجبوتيين يلتفون حول هذا الأمير الغاضب ، وكان إذ ذاك في الثالثة والعشرين من عمره طموحا فتيا ، فمازالوا يزينون له الخروج على أبيه حتى استجاب لهم ونادى بنفسه سلطانا عليهم .

هنالك قر قرار القوم على الزحف بجموعهم التي تجاوزت السبعين ألفاً ، إلى آجمير مقر السلطان ، ولم يكن بها حوله من الجند عندئذ ما يزيد على الألف فارس ، حتى أتاح تباطؤ الأمير أكبر وانشغاله بعتمه الفرصة لأورنكزيب ، فبلغ بدهائه وحسن تدبيره إلى صرف الأمراء المناكدة وجموعهم عن ابنه

---

(٢) رفض أمراء أدايبور دائما مصاهرة سلاطين الدهلي ، كما رفضوا فيما بعد أن يشاركوا في حفل تتويج فكتوريا ملكة بريطانيا امبراطورة على الهند ، ورد أميرهم إلى نائبها قلادة كوكب الهند محتجا بأن أحداً من أجداده لم يحمل شعار العبودية من قبل .

وجذب ما معه من قوات الدولة إلى صفوفه ، إذ اصطنع خطابا بعث به إلى أكبر ، تعمد أن يقع بأيدى الراجبوتيين ، وقد أثنى فيه على الأمير وعلى خداعه للأعداء على مارسمه له من قبل ، وأمره باستدراجهم وقوادهم حتى يحصرون بين قوتى المسلمين ليبادوا عن آخرهم[1]. فإذا بالراجبوتيين ينفرط عقدهم حين أطلعوا على الرسالة ، ، وإذا بالأمير الثائر يجد نفسه وحيدا فى الميدان ، فيمعن فى الهرب حتى ينزل بعد مطاف طويل عند شمبهوجى زعيم المرهتها بالدكن . وقد أبحر من أحد موانيه من بعد ذلك إلى إيران فأقام بها إلى آخر حياته .

وانتهت الحرب مع موار عام ١٠٩٢ هـ / ١٦٨١ م بعد أن قبل أميرها التنازل عن بعض حصونه للدولة نظير إعفائه وقومه من جزية الرءوس . أما مروار فقد بقيت على عصيانها حتى أقر بها درشاه ، خليفة أورنكزيب ، لأصحابها بحقوقهم فيها .

الشيعة والمرهتها : قضى أورنكزيب ، بطريق العنف الذى سلكه مع الأمراء الراجبوتيين ، على مورد قوى من الجند الذين طالما ساندوا الدولة فى حروبها أيام السلطان جلال الدين أكبر وخلفائه ، كما شارك أمراؤهم ، فى الوظائف الكبرى وفى الجيش ، فى تحقيق للمنعة للدولة وتوفير المهابة لها . وكان هؤلاء المحاربون الأشداء كفيلين بشد أزر أورنكزيب فى حروبه الطويلة التى قضاها بالدكن فابتلعت الأموال الطائلة وفنى فيها ألوف كثيرة من أبنائها . وبدأ بناء الدولة من جرائها يتزعزع ويتصدع .

---

1) Muslim Rule, 427

فقد عقد العزم ، بعد أن تم له إخضاع موار عام ١٠٩٢هـ/١٦٨١م ، على السير إلى الدكن . فهاهم سلاطين المسلمين فى بيجابوروغولكونده لايزالون يحملون هناك لواء التشيع ويروجون لهذا المذهب الذى يرى أورنكزيب أنه من أقدس الفروض عليه ، بوصفه سلطان السنيين وحامى حمى المذهب ، أن يقضى على ملكهم أو يعودوا إلى ملته . ولقد أرغم فى عهد أبيه على وقف القتال معهم ومهادنتهم ، ليهتبلوا الفرصة التى أتيحت لهم من بعد ذلك بمرض شاهجهان وقيام حرب الوراثة بين أبنائه فيعودوا إلى سيرتهم الأولى فى العصيان ونبذ طاعة الدولة . وها هم المرهتها قد تفاقم خطرهم ، والدولة منشغلة بحروبها عند الحدود الشمالية الغربية وفى الراجبوتانا ، فانتشرت عصاباتهم تخرب المدن والقرى وتنهبها وتغتصب الحصون وتقطع الطريق على التجار وتأوى عندها الخارجين على سلطان الدولة حتى نزل الأمير أكبر بن أورنكزيب آخر مطافه بكنفهم .

ولم تكن الدكن ، على كل حال ، بغريبة عن هذا السلطان ، فقد ولى حكمها فى عهد أبيه ما ينوف على اثنى عشر عاما فعرف ما لأرضها من خصب عميم وما لأمرائها من ثراء عريض .

وكان للمرهتها الدكنيون هم أول من اجترأ من سكان الجنوب فى الغالب على الزحف إلى الهندستان . وقد قضى أورنكزيب عالمكير أكثر من ستة وعشرين عاما يحاربهم هناك . وقد أنزلت عصاباتهم بالدكن كله فى أيامه خسائر بالغة بما خربته من مدنه وقراه وما أحرقته من زرعه وضرعه حتى شاركوا فيما بعد مشاركة فعالة فى انهيار الدولة .

ويشتق اسمهم من مهاراشترا ، أى المملكة الكبرى ، وهى التى لم يبلغ الباحثون إلى تحديد موقعها فى القديم بعد . ويعدهم البراهمة من زمرة الشودرا

أدنيء طبقات الهند وطوائفها ، وإن كانت سماتهم فيها كثير من سمات التورانيين . وقد ذاع اسمهم في القديم على كل حال حين استعان بهم بليكسين الثاني في حروبه مع هرشا .

وامتدت إلى منازلهم بالدكن بدورها موجة الإصلاح الديني التي ظهرت في أماكن متفرقة بالهند في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادي ، فظهر من هداة المراهتها . اكناته وتكارام ورام داس ، ينكرون نظام الطبقات ويجهرون بأن الشودري قادر بعقيدة بهاكتي (أي الإخلاص لله) أن يبلغ عند الله منزلة ليست دون منزلة البرهمي الورع[1] .

وقد أفاد منهم ملك عنبر الحبشي الوزير الدكني في حربه مع جهانكير ، على ما ذكرناه من قبل . وظهر من بين صفوفهم من بعد ذلك شاهجي بهونسلا الذي حارب الدولة ثم عمل تحت لوائها لينضم آخر المطاف إلى صفوف البيجاپوريين من بعد ذلك .

وحين قضى شاهجهان على إمارة أحمد نكر ، تمكن ذلك القائد المرهتي بعد قليل من أن يمد نفوذه إلى هذه الإمارة ويجلس على عرشها أميراً من أسرة نظام شاهي . حتى اجتاح جند الدولة هذه الإمارة من جديد ، فلجأ شاهجي ثانية إلى بيجاپور ثم اعتكف آخر الأمر في إقطاعه ببونا وشمارغوندا على مقربة من بمباي .

شيواجي : نشأ شاهجي ابنه شيواجي تنشئة عسكرية منذ صغره . وأتاح له لزومه بلاط بيجاپور بعض الوقت التمرّس بالسياسة والوقوف على الكثير من أحوال الدولة وعلاقاتها بسلاطين الدكن ، كما بث في نفسه حكيم

1 — Mbslim Rv!s. 582.3

المرهتها ، رام داس ، حب المنادكة ، وحرضه على وقف حياته للدفاع عن بنى جلدته ومقدساتهم .

حتى إذا ما اضطربت الأحوال فى بيجابور بسبب مرض سلطانها عام ١٠٥٦هـ/١٦٤٦م ، انتهز شيواجى هذه الفرصة ليستولى على جملة حصون حول بونا[1] . إقطاع أبية ، وليفذ من بعد ذلك إلى إقليم كنكان .

هنالك بادر سلطان بيجاپور إلى اعتقال شاهجى فلم يطلق سراحه حتى تعهد ابنه شيواجى بالركون إلى السلم والابتعاد عن انتهاب أراضى الإمارة وتخطفها .

ولكن المرهتى مالبث أن عاد إلى كنكان من جديد ، وأورنكزيب نائب شاهجهان إذ ذاك بالدكن مشتبك فى الحرب مع بيجاپور ، فوضع يده على أغلب أراضيه ، وتحكم فى موانيه حتى رد البيجاپور يين عنه حين ساروا إليه من بعد ذلك ، وطفق يتعقبهم فى تقهقرهم عنه حتى دخل بلادهم ، فلم يرتد عنها إلا حين بلغه زحف شايسته خان قائد أورنكزيب على الدكن .

وأتيح لشايستة خان أن يقتحم بونا وحصن شكن ويثبت أقدامه فى القسم الشمالى من كنكان ، ليفاجئه عندئذ شيواجى بمقره فى مائتين من رجال عصابانه قدموا فى هيئة من يحتفلون بزفاف صبى ، فانقضوا على قصره فى غارة ليلية قتل فيها أغلب حراسه وحريمه وأصيب هو نفسه بجراح شديدة[2] .

واستشرى خطر هذا الزعيم المرهتى حتى سقط فى أربعمائة من رجاله على ميناء سورات الغنى ، فانتهب سكانه وتجاره وما صادفه فيه إذ ذاك من سفن الحجاج المسلمين . فلم يقف فى وجهه هناك إلا مصانع الهولنديين والإنجليز

---

(١) منتخب اللباب ٢٥٦ ، ٥٧

(٢) Sarkear. Hist. of Aurengzib Voliv pp. 47-51

الذين لم يأبهوا لتهديده وأغلظوا القول لرسله ، فعاد بأسلابه إلى مقره دون أن يجرء على التعرض لهم بسوء .

وثار أورنكزيب لفرط جرأة هذا الثائر ، فبعث إليه بجيش كبير ، عليه ابنه معظم ، اكتسح بلاده حتى هدد مقر حكومته فى رايكره ، ليهادن الدولة من بعد ذلك فيتنازل لها عن الكثير من الحصون ويتعهد بدفع جزية سنوية كبيرة لها .

ومازال السلطان بعدوه حتى حمله ، بحسن تدبير قائده راى سنغ ، على القدوم إلى آكرا ومعه ابنه شمبهوجى ليقدم فروض الولاء إليه بنفسه .

وحين أحس هذا الزعيم للغاضب بأنه وابنه معتقلان فى دارهما ، احتالا على الحراس فهربا من محبسيهما فى سلتين من سلال الفاكهة بتدبير محكم ، لينطلقا من بعد ذلك إلى مناوأة أورنكزيب من جديد . وقد كان فى إمكانه أن يكسبهما إلى صفه باصطناع المودة معهما فيبلغ بمعونتهما إلى إخضاع الجنوب كله لسلطانه دون كبير عناء[1] .

ومن عجب أن شهواجى ، حين عاد إلى مقره ، وجد وزراءه منصرفين إلى تدبير شئون الدولة وكأن شيئا لم يقع لأميرهم .

وهادن شيواجى الدولة عامين انصرف فيهما إلى تنظيم حكومته ، وكان يدير شئونها إذ ذاك مجلس برئاسته قوامه ثمانية من الوزراء لشئون المال

---

(1) Mughal Rule in India PP 137-38 عالمكير نامه ٩٦٧ — ٧١

والشئون الداخلية والخارجية والدينية والبلاط وشئون الحرب والقضاء ، وجميعهم ، فيما عدا وزيرى العدل والشئون الدينية ، كانوا من أصحاب الرتب فى الجيش .

وعدل شيواجى عن نظام التجنيد الذى كان يلزم به رجاله قضاء ستة أشهر من كل سنة فى المعسكرات لينصرفوا من بعدها إلى حقولهم ، فأقام له جيشا ثابتا التزمت حكومته بنفقاته ، وكان قوامه أول الأمر المشاة حتى يسهل تشكيل العصابات منهم ، ثم ضم إليهم من بعد ذلك فرق من الفرسان صاروا مصدراً للفزع والرعب أينما حلوا وساروا[1] .

ولم يهتم المرهتها إلا بترقية الزراعة وتوسيع رقعتها ، فلم يلتفتوا إلى العناية بالتعليم أو العمل على كسب الأهلين إلى صفوفهم[2] .

وطفقت عصاباتهم تعاود نشاطها من جديد ابتداء من عام ١٠٨١هـ/١٦٧٠م حتى طردت نائب السلطان من كنكان . وسقطت مرة ثانية على سورات ، فبلغ ما انتهبته منها ما يزيد قيمته على سبع ملايين من الروبيات . وكان من أثر غاراتهم المتكررة على هذا الميناء المهم أن أدى انتشار الرعب منهم بين السكان إلى كساد التجارة فيه :

ونادى شيواجى بنفسه آخر الأمر أميراً على قومه عام ١٠٨٥هـ/١٦٧٤م ، والدولة منشغلة عنه إذ ذاك بفتن الشمال . وقد ضم إليه كثيراً من الأراضى

Hist. of the Mahrattas. Vol 1 175 (١)

Shivaji and his times 485,6 (٢)

والحصون في نطاق مملكة فيابانكر القديمة التي بات المناديكة فيها يحلمون باستعادتهم لمجدها الغابر على يديه .

ثم انطلق من بعد ذلك ينهب أملاك الدولة نفسها ، بعد أن اغتصب بعض حصون أخرى من سلطنة بيجابور ، فلم يستطع دلرخان قائد أورنكزيب أن يصمد في وجهه كثيراً ، حتى طواه الردى عام ١٠٩١هـ/ ١٦٨٠م ولما يكمل الثالثة والخمسين من عمره[1] .

وزعزع من بناء الدولة التي أقامها شيواجي ، انصراف رجاله من بعده إلى تحقيق أطماعهم ومآربهم الخاصة ، فانقلبت القوة التي أقام صرحها إلى سلاح هدام استخدمه رجاله في منازعاتهم فيما بينهم ، ليجيء من بعد ذلك أورنكزيب ، بعد فراغه من حروبه في الشمال ، فيلتحم معهم في معارك متعاقبة استمرت سنين طويلة وأصيبوا فيها بضربات متلاحقة منه وخسائر جسيمة في الأموال والأنفس .

بيجابور وغولكونده : قدم أورنكزيب عالمكير إلى برهانبور عام ١٠٩٢ هـ / ١٦٨١ ليقود بنفسه معارك الدكن ، فبعث بابنه الأمير معظم لغزو أراضي المرهتها ، فتوغل في كنكان ليجد العدو قد جلى عنها بعد أن أحرق زرعها وخرب قراها . حتى إذا ما حاول الجيش الغازي أن يمون جنده بالمؤن عن طريق البحر سقط الثوار على السفن فاستولوا على ما بها من حبوب وأغرقوها .

(١) يذكر خافي خان في منتخب اللباب « ٣٠٥ » لشيواجي أنه كان يحرص في غاراته على ألا يتعرض أحد من رجاله لمساجد المسلمين أو نسائهم وأطفالهم بالسوء برغم عدائه الشديد لهم .

وحين وجه السلطان ابنه الثانى أعظم إلى بيجاپور وسارهو إلى أحمدنكر، انطلق شمبهوجى بن شيواجى وخليفته إلى خاندش نخرب بعصاباته قراها، حتى إذا ما قدمت إليهم قوات الدولة تفرقوا سراعاً على عادتهم، ليتصيدوا أفرادها وينزلوا بها خسائر كثيرة.

هنالك رأى أورنكزيب أن يوجه جهوده كلها إلى الاستيلاء أولا على إمارتى بيجاپور وغولكونده فيحرم بذلك المرهتها من أموال كثيرة كانت تلتزم هاتان الإمارتان بدفعها لهم اتقاء لشرهم، ويبلغ فى الوقت نفسه إلى القضاء على أصحاب مذهب ينكره أشد الإنكار، وهو مذهب الشيعة الذى كان يدين به سلاطين هاتين الإمارتين ويروجون له بالهند.

وفى هاتين الإمارتين، اللتين كان الضعف قد تسرب إلى حكومتيهما فى قوة بسبب تنازع حكامهما ووزرائهما فيما بينهم، كانت نواة عصابات المرهتها الحديثة، وفيهما كذلك عاش زعيمهم شاهجى وابنه شيواجى وحفيده شمبهوجى، وكانوا جميعاً على تحالف وثيق فى بعض الأوقات مع حكامهما، ويجمعهم معا فى صعيد واحد، آخر الأمر، عداؤهم المشترك للدولة وكراهيتهم المتأصلة فى نفوسهم لهم.

وأشرف أورنكزيب بنفسه على حصار حصن بيجاپور، فلم يغن صاحبه فتيلا استنجاده بأبى الحسن قطب شاه سلطان غولكوندة أو بشمبهوجى أمير المرهتها، حتى أرغم على الاستسلام بعد دفاع مجيد، دام عاماً وبعض العام، استطاع إبانه البيجاپوريون بمعاونة المرهتها أن يخربوا كافة الأراضى الزراعية ببلادهم ويحرقوا محاصيلها حتى عانى الغزاة شططاً شديداً فى الأقوات كاد يصرفهم غير مرة عن غايتهم، لولا عناد قائدهم أعظم بن السلطان وشدة مراسه.

ودخل السلطان بنفسه للمدينة قبيل أواخر عام ١٠٩٧ هـ/١٦٨٦ م فهدم كل النقوش الهندية التي كانت تزين قصر سلطانها سكندرشاه ، كما خرب رجاله بدورهم جملة من المنشآت الضخمة الأخرى بها :

وقضى سلطان بيجابور وهو في الثانية والثلاثين من عمره بعد أن أنفق بضع سنين في حصن دولت آباد بالدكن . وشاركه محبسه هـــــذا بعد قليل أبو الحسن قطب شاه سلطان غولكنده بعد أن سقطت بلاده بدورها في أيدي الدولة[1] .

ذلك أن أورنكزيب كان قد اشتد حنقه على صاحب غولكونده أمير حيدر آباد حين امتنع عن دفع الجزية التي تعهد بها للدولة من قبل،ونقض اتفاقه معها بالاعتماد عن محالفة أعدائها ، حتى اتخذ له وزيرين من المنادكة هما مادنا وآكنا فكانا على اتصال وثيق بشمبهوجي ، زعيم المرهتا في الخفاء ، وها هو آخر الأمر يعاون أصحاب بيجابور في حربهم مع الدولة .

هنالك زحف أورنكزيب على غولكونده ، وابنه أعظم في حصاره لبيجابور ، حتى إذا ما بلغه قتل الأهلين بها للوزيرين الهندوكيين عدل عن المضي في زحفه ، إلى حين ، ليعاون ابنه أولا في حربه .

وعاد السلطان ، بعد سقوط بيجابور ، إلى غولكنده من جديد ، ليواجه بها مقاومة عنيفة عاون أصحابها عليها المرهتا ، فأحرقوا الزرع على عادتهم . وأخذا الجوع والوباء يفتك بجند الدولة حتى تمكن أورنكزيب ، بالرشوة والخديعة ،من التسرب آخر الأمر إلى داخل الحصن .

---

(١) عالمكير نامة ٩٤٦ .

ولم يفت تدفق الغزاة فى عضد الوزير عبد الرازق الذى انطلق فى حفنة قليلة من رجاله لا تزيد على أثنى عشر نفراً يدفع بهم أعداءه عند باب الحصن فى تهور وشجاعة مذهـــلة حتى أعاقته جراحه التى زادت على السبعين من مواصلة النضال .

وندب أورنــكـزيب لعلاج هذا الوزير طبيباً هندياً وآخر أوروبيا. وحين شفى من جراحه أرادالسلطان أن يكرمه لشجاعته بإلحاقه وولديه ببعض المناصب، فاعتذر له ممتنا بأنه لا يستطيع أن يخدم سلطانا بعد مليكه أبى الحسن ، أكبر أورنـكـزيب فيه وفاءه وشمله بالـكثير من الرعاية والإحسان[1] .

وفى حصن غولـكونده ومدينة حيدر آباد الدكنية استحوذ أورنــكـزيب على كنوز كثيرة وأموال طائلة كانت تدرها على هذه البـلاد أراضيها الخصبة ،وموانيها التى كانـا تزدحم بالتجار الأوروبتين ،ومصانعهم التى كانوا يدفعون عنها للسلطان رسوما باهظة سنوية .

شمبهوجى : انتهى أورنـكـزيب من أمرهاتين الإمارتين ليفرغ من بعدذلك لحرب المرهتها ، وكان أميرها شمبهوجى بن شيواجى قد آثر أن يلزم حصن سنجمشوار طلبا للسلامة ، والسلطان منهمك فى حربه مع جيرانه ، حتى وقع عليه مقرب خان قائد أورنـكـزيب ، وهو فى تقاعسه منصرف إلى لهوه ، وأسره مع زوجاته وبناته وفريق من رجاله ، ثم قتله وأعيانه وأمر فطوف رءوسهم فى أغلب مدن الدكن عام ١١٠١هـ/١٦٩٠ عظة وعبرة[2] .

---

(١) منتخب اللباب ٣٣١ — ٣٣٥

Sarkar. Hist. of Aurengzib IV p 408 (٢)

وسقطت راجكره عاصمة المرهتها بأيدى الدولة بعد أشهر قلائل من أسر أبيهم ، وأحيط بأفراد أسرته جميعا إلا رام داس ، ليجتاح أورنكزيب من بعد ذلك الجنوب كله حتى يبلغ تنجوره بأقصاه .

بهذا صارت شبه القارة الهندية كلها فى حوزة أورنكَزيب إلا أماكن قليلة عند الساحلين الشرقى والغربى كانت بأيدى المستعمرين الأوربيين ، وإن لم يمكنه ترامى أطرافها ، وما يحمله له أغلب أهليها المنادكة من كراهية وعداء ، من إحكام قبضته فى الواقع عليها وتثبيت أقدامه بها . هذا فضلا عما استغرقته حروبه بها من أموال طائلة حتى عجزت الدولة أواخر أيامه عن الوفاء بمقرارات الجند [1] .

لقد أراد أورنكَزيب أن يجعل من جنوب الهند إمارة تابعة له يجرى حكمها على غرار حكومة البنغال أو البنجاب ، فقضى هذه السنين الطويلة مقيما ، فى الغالب ، هناك حتى نهاية عمره ، فلم يبلغ إلى تحقيق هدفه على الوجه الذى ابتغاه . ذلك أن قواده لم يكونوا من طراز أولئك الرجال الأشداء ذوى الجلد ، الذين ساروا مع جده الأكبر بابر ففتح بهم الهندستان وكسر بهم شوكة الراجبوتيين ، إذ كان كل واحد منهم يحرص أشد الحرص وهو فى حملات الدكن على توفير أسباب الرفاهية والأبهة لنفسه على أكمل وجه وكأنه لا يزال يقيم بالعاصمة فى قصره ومن حوله نسائه وجواريه . هذا كما كان الراجبوتيون بدورهم قد تخلوا عنه ، وهم الذين طالما عاونوا آباءه فى حروبهم من قبل . فلو كان قد أتيح لأورنكَزيب رجال من أولئك وهؤلاء لاستطاع ، أغلب الظن ، القضاء التام على المرهتها فى يسر ، ولثبت أقدامه فى الهند كلها ، ولجنب الدولة بالتالى الأخطار

---

(1) Dunbar 279

القاتلة التى تعرضت لها فيما بعد على أيدى المرهتها والسك[1] .

هذا وقد حاول راجا رام داس أن يلم شمت المرهتها من جديد ، بعد أن كتبت له السلامة من الأسر ، فلم يحالفه التوفيق ، حتى حاصرته قوات الدولة آخر الأمر فى حصن ستارا إلى الجنوب من بونا . واستسلم أصحاب الحصن لأعدائهم بعد موت أميرهم ، وقد تزعمتهم من بعد ذلك تارابى أرملة هذا الراجا فقادت عصاباتهم فى عزم أسلافها وحنكتهم . وحين سار أورنكزيب إلى أحمد آباد عام ١١١٧ هـ / ١٧٠٥ م مضوا فى أثره يخربون أراضى الدكن حتى مشارف مالوه ، فبلغ ما هلك من السكان على أيديهم هناك ، وما قضى عليهم القحط ، بسبب انحباس الأمطار قبل ذلك بسنوات قليلة ، بضعة ملايين .

لم ينقض عام على أورنكزيب بأحمد آباد حتى بلغ به المرض والشيخوخة مبلغهما فأيقن بدنو أجله . هنالك فرق أبناءه فى أنحاء الدولة مخافة أن يقع بينهم ما وقع بينه وبين إخوته من قبل من تطاحن وفتن ، فبعث بأعظم إلى بيجابور وبكام بخش ، أحب أبنائه إليه ، إلى مالوه .

وكان أورنكزيب منذ أول عهده على حذر تام من أبنائه حتى لم يتردد فى إلقاء ابنه الأكبر سلطان فى الحبس حتى مماته ، كما سجن ابنه معظم سنوات ثمانية حين بلغه خبر تفاوضه مع سلطان بيجابور ، أثناء حرب الدكن ، دون تصريح منه . وفعل مثل ذلك مع ابنه كام بخش وكان أقرب أولاده إليه . بل إنه لم يتردد كذلك فى عقاب ابنته زيب النساء ، وكانت شاعرة موهوبة ، لعطفها على أخيها أكبر حتى وافاها أجلها فى الحبس[2] .

Lane-Poole. 401,2 (١)

Muslim Rule 662 (٢)

وحين اشتد به الداء أوصى رجاله أن يقيموا له جنازة بسيطة عند وفاته، ويسرعوا بدفنه فى أقرب مقابر للمسلمين، ولا يزيدوا فى ثمن كفنه على خمس روبيات كان قد كسبها من صنع الطواقى وبيعها، وأن يتصدقوا على الفقراء بثلاثمائة من الروبيات كانت هى كل ما يملكه وما تبقى له من دخله من نسخه القرآن الكريم وبيعه.

وفاضت روحه يوم جمعة، على منّاه، فى الثامن والعشرين من ذى القعدة عام ١١١٨هـ/١٧٠٧م وهو فى التسعين من عمره فوورى التراب فى مقبرة دولت آباد [1].

شخصية أورنكزيب: وقف أورنكزيب عالمكير حياته كلها على إعلاء شأن السنة ونشر لواء الإسلام خفاقا عاليا، ومجاهدة عبادة الأوثان والخارجين على إجماع أهل السنة من أصحاب المذهب الشيعى وغيرهم. وقضى أيامه على خير ما يقضيها مسلم تقى يحفظ القرآن ويصوم أغلب أيامه، حتى كان لا يتردد، وأعنف المعارك تدور من حوله، فى أن ينزل عن دابته فيؤدى الصلاة فى وقتها باطمئنان بالغ وخشوع وكأنه يقيمها بالمسجد الجامع أو فى داره [2].

وبلغ من ورعه وتجنبه للترف والمتع، إلى جانب تحريمه التام للخمر والميسر، أن أبعد الموسيقيين والطربين عن بلاطه برغم براعته فى العزف [3]، وخير

(١) مرآة عالم ١٦١.

(٢) يروى أن الموسيقيين حملوا عندئذ النعوش مولولين والسلطان فى طريقه إلى المسجد، فحين استفسر عن أمرهم فأجابوه بأنهم فى طريقهم لدفن الموسيقى، طلب إليهم أن يحسنوا دفنها حتى لا تعود إلى الحياة ثانية.

(٣) Lane, Poole 353

الراقصات بين الزواج أو النفى فى الأرض . كما طوى قلبه على الرحمة البالغة برعاياه حتى بعد كل البعد عن القسوة والقتل ، وكاد يستغنى عن اصطناع العقاب فى محاكمة المجرمين إلا قطاع الطرق منهم [١] .

هذا فضلا عما شهر به من تجمل بالصبر وهدوء النفس فى المحن ، والتواضع الشديد الذى أدى به إلى تهديد نائبه بالبنغال حين بلغه أنه يتعالى عن الناس فى مجلسه حتى اتخذ له ما يشبه العرش ليتربع عليه [٢] .

ولقد نشأ منذ شبابه على التمرس بالحكم والاضطلاع بالحرب ووقائعها ، فأصاب نجاحا كبيراً فى حكم الدكن وحروبه ، كما ذاع صيته كذلك فى معارك بلخ وبدخشان مع الأوزبك وغيرهم .

وأدت به رقابته لضميره فى كافة ما كان يصدر عنه من أعمال أنه كان لا ينام إلا ساعات قليلة ، لينفق وقته كله فى الإشراف على كل كبيرة وصغيرة من شئون الدولة بنفسه ، ويسهر فى دأب متواصل على مصالح رعاياه ، ويبت فى كل مسائلهم برأيه الخاص ، حتى كان وزراؤه فى الغالب مجرد كتاب لتنفيذ أوامره .

وبلغ من حرصه على تحقيق العدل لرعاياه أنه أصدر أوامره المشددة لقضاته فى كافة أنحاء البلاد بأن يتوافروا على دراسة قضايا الناس ومشاكلهم ، مع سرعة الفصل فيها بالجلوس للقضاء خمسة أيام فى كل أسبوع بدلا من يومين على الرسم السابق .

---

(١) Lane-Poole.401.2

(٢) Muslim Rule. 685

على أن غيابه الطويل بالجنوب وهو يدير دفة المعارك هناك ، قد أدى إلى تسرُّب الفساد إلى جهاز الحكم وسلوك أغلب العمال طريق العنف مع الأهلين.

ولم يلبس أورنكزيب إلا بسيط الثياب ، ولم يكن يسمح لأحد أبداً أن يغتاب غيره فى حضرته . وأدى به ورعه وزهده إلى أن كف يده عن بيت المال فى الغالب ، فعاش على ما كان يكتسبه من صنع الطواقى بنفسه ونَسخه للقرآن الكريم بخطى الشكست [الرقعة] والنستعليق ، وكان فى كتابته ذوق فنى رفيع ، وكان يبعث ببعض هذه النسخ هدية منه إلى الحرمين الشريفين . وقد كان من أمانيه أن يحج إلى البيت الحرام لولا ماخافه من اضطراب أمور الهند فى غيبته ، فأخذ على عاتقه تيسير سبل الحج لرعاياه .

ولم يشتغل أورنكزيب فى حياته بغير علوم القرآن والسنة فى الغالب ، على تمكنه من الآداب الفارسية وبراعته فى النظم الذى عدل عنه حذر الغواية

وألف بأمره وإشرافه موسوعة مهمة تجمل أقوال أئمة الفقه الحنفى فى المذهب ، وهى المعروفة بالفتاوى الهندية أو العالمكيرية[1] .

على أن أورنكزيب كان يرى اصطناع الخداع فى السياسة أمراً واجباً ، وأنه لا ضير على الحاكم من نشر شبكة من عيون الناس لتأتيه بأخبارهم وتنبئه بأحوالهم . كذلك لم يكن يرَ بداً من أن يصطنع السلطان الرحمة والشفقة مع أعداء عقيدته الذين يناوئونه ، فعصف لذلك بالمرهتها والراجبوتيين والشيعة والسك عصفاً شديداً حين وقعوا فى قبضته .

---

(١) طبعت هذه الفتاوى بمصر عام ١١٨٢ هـ أى بعد مضى قرن ونصف القرن على وفاة أورنكزيب وهى من المراجع الشرعية المهمة فى الأحوال الشخصية .

البريطانيون عند أورنكزيب : كان من أثر وقوف البريطانيين فى وجه شيواجى زعيم المراهتها ، حين أقدم على نهب سوارت ، أن توثقت علاقاتهم بأورنكزيب الذى قابل موقفهم من عدوه بتخفيض الرسوم التى كانت تفرض على وارداتهم .

وكان البريطانيون قد أفادوا ، من قبل ، من سخط شاهجهان على البرتغاليين وتدميره لمراكزهم عند هوجلى ، فحصلوا على إذن لهم منه بإقامة وكالة لهم هناك ، لتخضع من بعد ذلك كل وكالاتهم الهندية لإشراف موحد مركزه فى سورات .

وامتدّ نفوذهم التجارى من بعد ذلك إلى بمباى بالساحل الغربى ، حتى إذا ما عارضوا شايسته خان حاكم البنغال فيما فرضه عليهم من رسوم جديدة ، على خلاف اتفاقهم السابق من شاهجان ، فعمدوا إلى مناهضة الدولة ، دحرتهم قوات أورنكزيب عند كل مراكزهم ، فضاعت منهم مصانعهم عند هوجلى وشوليبانام ، وحرموا حرماناً تاما من ممارستهم لنشاطهم التجارى فى أراضى الدولة من بعد ذلك .

على أن ما كانت تجنيه الدولة منهم من رسوم كثيرة ، أغرت أورنكزيب بالعفو عنهم ، فجاءوا من جديد ليقيموا لهم بأدنى هوجلى محلة جديدة بالقرب من قرية صغيرة تدعى كلكتا . وما غدت هذه القرية تتسع فى تدرج سريع حتى أصبحت عاصمة الإمبراطورية الهندية البريطانية قبل أن ينتقل نائب الملك إلى دهلى الجديدة .

ووحّد البريطانيون من بعد ذلك جهودهم ونشاطهم التجارى عند الساحلين

الشرقى والغربى، فى شركة الهند الشرقية ، ودأبوا قرابة نصف قرن على التظاهر ، فى حرص تام ، بالتباعد عن التدخل فى شئون الدولة .

ولم يكن يجول بخاطر أورنكزيب عالمكير أنه بتسامحه مع هذه العصبة إنما يمهد الطريق لأولئك الذين لم يتورعوا عن سلوك أحط السبل وأدنئها حتى تم لهم استعمار شبه القارة الهندية كلها .

خلفاء أورنكزيب

يتهم بعض مؤرخين أورنكزيب عالمكير بأن عدوله عن سياسة سلفه المعظم جلال الدين أكبر فى تقريب الهنادكة إليه وفتح باب مناصب الدولة الكبرى لهم قد أدى إلى شيوع الفتنة بينهم وجنوحهم إلى الثورات فى مختلف أنحاء البلاد مما عجل بنهاية الدولة المغولية . فى حين يرى مؤرخون آخرون ، أن تقريب السلاطين السابقين للهنادكة وإصهارهم إليهم وحضهم المسلمين على الامتزاج بهم كان هو العامل الأول فى زلزلة بناء هذه الدولة .

وفى هذين القولين متسع للبحث : فأورنكزيب فى تمسكه بتعاليم السنة وقصره وظائف الدولة الكبرى على المسلمين لم يكن إلا ضريبا لمحمود الغزنوى ومحمد الغورى اللذين أرسيا قواعد الحكم الإسلامى بالهند . وسلاطين المغول وغيرهم من حكام المسلمين بالهند ، حين حضوا الناس على الإصهار إلى الهنادكة ومخالطتهم ، إنما كانوا يبغون من وراء ذلك إلى تألف أفراد شعوبهم . وهو أمر عاون على ازدياد عدد المسلمين زيادة بالغة بالهند . حتى لترى أن الغالبية الغالبة من المائة مليون مسلم فى شبه القارة الهندية اليوم هى من أصول هندوكية

والحجة الدالة على خطأ القول بأن اختلاط المسلمين بالهنادكة وإصهارهم إليهم أدى ضياع دولتهم بالهند ، هى أن أورنكزيب نفسه أمه هندوكية خالصة ، وهو الذى خضعت لراية المسلمين فى عهده شبه القارة الهندية ، والذى عرف بتمسكه البالغ بشعائر الإسلام وسننه . وقد شهد ثقاة المؤرخين ، وفيهم من الهنادكة ،

بحزمه وشجاعته وعلو همته وأصالة رأيه ، وقالوا بأن الهند لم تعرف منذ أيام سكندر لودهى ، سميا له فى حب العدل والسهر على مصالح الناس . ولئن كان هو آخر السلاطين المغول الكبار زمنا فهو يعد من بين أعظمهم وأقدرهم على كل حال .

وغاية القول أن انهيار الدولة المغولية لا يرجع إلى سياسة أورنكزيب أو سياسة أسلافه نحو الهنادكة ، وإنما يرد إلى ما كان عليه خلفاء أورنكزيب من الضعف حتى عجزوا عن إدارة دفة الحكم فى بلادهم التى بلغ أبوهم برقعتها إلى ما لم تبلغه ، حتى أيام أكبر ، من السعة وترامى الأطراف ، وتمكن بما أوتى من حزم وقوة شكيمة ، من السيطرة على إدارتها سيطرة تامة ، اللهم إلا فى أخريات أيامه حين خذلته الشيخوخة وأضناه المرض .

هذا ؛ كما انصرف كثير من رجالهم بدورهم إلى الأهتمام بمصالحهم الخاصة فحسب ، حتى سعى فريق منهم إلى الاستقلال بما بأيديه من ولايات غير آبه بالأخطار التى طفقت تهدد كيان الدولة فى الداخل على أيدى المرهتها والسك والراجبوتيين ، مما أدى إلى تيسير غزو الفرس والأفغان لها مرات متتابعة من بعد ذلك ، فزلزل بناء الدولة على أيديهم زلزالا شديداً مهد الأرض لأولئك المستعمرين الأوربيين الذين بلغوا ، بقصور السلاطين السابقين عن إدراك نواياهم ، إلى تثبيت أقدامهم فى أماكن عديدة بالشواطىء الهندية بما حصلوا عليه من امتيازات ورخص ، ثم انطلقوا من بعد ذلك يحصنون مواقعهم بجندهم المدرب والأسلحة الحديثة التى لم يكن لها عند الدولة المغولية نظير ، حتى أفلح البريطانيون منهم ، بالقوة حينا ، وبالدس والوقيعة والغدر أغلب الأحيان ، فى أن يضعوا أيديهم على شبه القارة الهندية كلها .

بهادرشاه :

لم يجد فتيلاحرص أورنكزيب على أن لا تتكرر بين بنيه مأساته مع إخوته في تنازعهم على الملك . فهو حين فرق أبناءه في الأرض قبل وفاته ، ولم يعهد لأحد منهم بالملك من بعده حتى لا يتآمروا عليه في حياته فينتهي به الحال إلى ما انتهى إليه أبوه شاهجهان من مصير أليم على يديه ، إنما أدى بإجرائه هذا إلى تأجيل الفتنة إلى ما بعد انقضاء أجله فحسب ، دون انتلاع أصولها .

فلم يكد يوسد الثرى حتى قامت الحروب بين أبنائه ،وقدهدف كل واحد منهم إلى استخلاص عرش الهند لنفسه ، فنادى أعظم بنفسه سلطاناً بمالوه وكذلك فعل أخوه كام بخش ببيجابور ، في حين زحف شاه عالم بهادر أكبر أبناء أورنكزيب من بشاور إلى البنجاب حتى بلغ دهلى ، لينطلق إلى قتال أخويه من بعد ذلك فيقضى على أعظم بعد أن بلغت قواته مشارف آكرا ، ويوقع كام بخش في أسره على مقربة من حيدر آباد الدكن بعد ذلك بعامين ، وقد رفض الأسير في عناد أن يُعالج من جروحه حتى قضى بدوره[1] .

هنالك عهد بهادرشاه بالوزارة إلى بدخشي منعم خان الذي كان له خير معين لبلوغه العرش ليواجه بعد ذلك ثورات المرهتا في الدكن والراجبوتيين في منازلهم ثم السك في البنجاب والجات عند مشارف آكرا . وإلى جانب هؤلاء جميعاً كان البريطانيون قد أخذ خطرهم يتفاقم في أغلب مراكزهم وعند الشواطىء الشرقية بخاصة ، وكان أغلب القادة قد بعث السأم والضجر في نفوسهم حروب أورنكزيب السابقة الطويلة وبات الجند أنفسهم بسببها

---

(١) منتخب اللباب ٣٩٩ ـ ٤٩٠

فى حالة من الإنهاك الشديد الذى أدى إلى سريان الفوضى فى صفوفهم ، كما نتج عن اتساع رقعة الدولة ، وضعف رقابتها على عمالها منـذ أواخر عهد السلطان السابق ، أن شرع فريق من الولاة بدوره يتقاعس عن شد أزر الدولة ومدها بقواته فى انتظار الفرصة المواتية للاستقلال بما بيده من أرضين .

الراجبوتيون والسك : لم يمهل الراجبوتيون السلطان الجديد وهو فى حربه مع أخوته حتى انحدر أجيت سنغ بن جسوانت من مكمنه بالجبال فائتلف وأمر سنغ صاحب أوديبور لينطلقا من بعد ذلك إلى جدهبور فيطردا عمـال الدولة منها ويعملا التخريب فى مساجدها ويتخذا منها معابد لأوثانهم، ويذيقا المسلمين الخسف والذل بأرضها .

واتيح لبهادرشاه ، بعد أن فرغ من أمر أخيه أعظم ، أن يلزم هاذين الأميرين طاعته من جديد ، ليعودا إلى سيرتهما الأولى من البغى بعد قليل وهو فى شغل عنهم بحربه مع ثانى إخوته كام بخش بالدكن . حتى إذا ما عاد إليهما ثانية بعد القضاء على فتنة الوراثة، دفعه حسن تدبير إلى مهادنة الراجبوتيين جميعا فى اداييور وجدهبور وجاييور ، فاعترف لهم بالرسم الذى كان لآبائهم أيام جده أكبر ، كسبا لمودتهم ، حتى ينصرف مطمئنا إلى حرب السك الذين جنحوا إلى الثورة فى البنجاب من جديد [1] .

ذلك أن أحد البطهانيين الأفغان اغتال بالدكن كوفند سنغ ، عاشر زعماء هذه الطائفة ، الذى كان قد وقع فى أسر أورنكزيب ثم التحق من بعد ذلك بخدمة بهادرشاه فسار معه فى حرب كام بخش بالدكن . وحين بلغ

(١) Lane Poole 413.41

خبر مقتله البنجاب من بعد ذلك انطلق خليفته بندا يشعل الحماس بين بني جلدته ويحرضهم على الانتقام لزعيمهم المقتول ، فسقط بهم على سر هند فقتل حاكمها لينتشر رجاله من بعد ذلك في البنجاب الشرقي فيشيعون فيه الخراب والدمار والقتل ، لم ينج من سيوفهم الأطفال أو النساء والشيوخ ولم يقنعوا بذلك كله حتى امتد طغيانهم إلى لاهور وكادوا يبلغون بفتنتهم مشارف دهلي . لولا أن سارع إليهم السلطان فردتهم قواته إلى تلال جامو. ولم يمنع جند الدولة من مطاردتهم وتشتيت شملهم إلا وفاة بهادرشاه بلاهور عام ١١٢٣ هـ/ ١٧١١ م وهو في السبعين من عمره بعد أن حكم أربع سنوات وشهرين ساءت فيها أحوال الدولة المالية حتى اضطر القائمون على أمورها إلى اقتراض الأموال من بعض أمرائها لسد العجز في الخزانة .

وكان من حسن تدبير هذا السلطان حين أطلق سراح شاهو ، حفيد شيواجي ، أن ركن المرهتها في عهده إلى الهدوء حتى صحبه في حربه مع أخيه بالدكن ، نيا سندهيا ، أحد كبار صدورهم .

ولئن كان المرهتها قد تفرقوا عقب موت أورنكزيب شيعا وأحزابا ، حتى ابتعدوا عن تحقيق أهداف شيواجي وشمبهوجي في إقامة دولة موحدة كبيرة لهم ، فإنهم لم يعدلوا أبداً عما عرفوا به من الميل إلى التخريب والتدمير ما أتيحت لهم الفرصة بذلك .

جهاندار

تقاتل أبناء بهادر شاه الأربعة على العرش ، بعد موت أبيهم ، على العادة الثانية عند الأمراء التيموريين بالهند . ولقد كاد الحال يستقر بينهم ، بادىء

الأمر، على أن يقتسموا ملك أبيهم فيما بينهم فيكون لجهانشاه الدكن ولرفيع الشأن للملتان، وتتاه وكشمير، على أن يقتسم جهاندار وعظيم الشأن بقية الأرض فيما بينهما، لولا أن تنازعوا من جديد على الأموال ليبلغ ذو الفقار خان بدهائه إلى إثارة جهاندار ورفيع الشان وجهانشاه، مجتمعين، على أخيهم عظيم الشان.

واتسع نطاق الفتنة بين الإخوة جميعاً حتى سقط فيها ثلاثة منهم، ليرق العرش من بعد ذلك جهاندار فينصرف إلى اللهو والمتعة، ويبعد عن بلاطه الرجال المجربين والعلماء، حتى زحف إليه محمد فرُّخ سيرَ، ابن أخيه عظيم الشان، من بتنا، وكان قد استقل بها على أثر مقتل أبيه ثم مد سلطانه إلى البنغال، فالتف حوله عمال الدولة هناك لعدله وشجاعته، فأنزل بقوات الدولة على كثرتها، ضربات متلاحقة حتى دخل آكرا فانطلق منها إلى دهلى فوجد عمه بقلعتها، فأورده مورد الردى ولما يمض عليه فى الحكم أحد عشر شهراً[1]

فَرُّخ سِيَر:

جلس فَرُّخ سِير على عرش دهلى فى المحرم من عام ١١٢٤ هـ / ١٧١٢ م بعد أن طاف موكبه المدينة، والفيلة تتقدمه وعليها جثتا عمه جهاندار ووزيره ذى الفقار، فاتخذ له وزيرين أخوين ينتميان إلى أشراف العرب هما السيد عبد الله خان والسيد على خان، لينفسا من بعد ذلك على عبد الله مير جمله معتمد الملك ما حباه به السلطان من نفوذ واسع حتى اتخذه مشيراً له وأطلق يده فى تصريف شئون الدولة كلها، فما زالا يوقعان به عند السلطان حتى أبعده آخر الأمر إلى بتنا وانفرد بالأمر كله. وقد نجم عن تنافس الخصمين وما كانا يحيكانه من التآمر والدس إلى هلاك كثير من الأنفس ظلما[2].

---

(١) منتخب اللباب ٤٣٨.

(٢) المصدر السابق.

السِّك والمرهتها: ونزع السِّك عام ١١٢٦هـ/١٧١٤م إلى الفتنة من جديد ، وكان زعيمهم بندا قد وحد صفوفهم بعد أن أقاموا لهم معقلاقويا بجوداسبور بالبنجاب ، ثم أنطلق بهم إلى أراضى هذا الإقليم الشمالية فانتهبوها وسيطروا على كافة الأراضى الواقعة بين لاهور وسر هند . حتى بعث السلطان إليهم بقائده عبد الصمد دِلرجنك نخاض معهم وقائع عنيفة ،فلم يفلح فى إرغامهم على الخضوع والتسليم بعد أن ارتدوا إلى حصونهم إلا حين شاعت فيهم المجاعة بفعل الحصار المحكم الذى ضربه عليهم .

وسيق غورو بندا وألوف من أتباعه إلى العاصمة أسارى ، ليقتل منهم فى كل يوم بضع مئات حتى فنوا عن آخرهم . وما غدا زعيمهم أن لحق بهم بعد أن شهد ذبح ابنه ، أمام عينيه ، انتقاما لمن ذبحهم ورجاله من أبناء المسلمين فى البنجاب[1] .

وكان من أثر هذا العقاب الرهيب أن ركن السِّك إلى السلم بضع سنين .

هذا وكان قايج خان نظام الملك بهادر فتح جنك ، مؤسس بيت النظام فى حيدر آباد ، حين ولاه السلطان شون الدكن قد حد فى كبح جماح المرهتها الذين انطلقوا يفرضون على التجار والسكان ربع المكوس المقررة عليهم نظير عدم تعرض عصاباتهم لهم . حتى إذا ما استُدعى هذا الأمير إلى البلاط ليحل محله هناك الوزير حسين على خان بعد أن غضب السلطان عليه ، أدى بهذا الأخير انصرافه إلى مشاحناته وخلافه مع السلطان إلى مهادنة المرهتها على أن يجعل لهم أكثر من ثلث خراج الدكن كله .

وضاق فرخ سير آخر الأمر ذرعا بنفوذ وزيره الآخر عبد الله خان ،

---

(١) منتخب اللباب ٤٥٨

فدبر بعض رجاله خطتهم على الخلاص منه ، لكن عبد الله أفسد تدبيرهم بحذره ، حتى قدم أخوه العاصمة فى قوة من الرهتها فأطبقوا جميعاً على السلطان فى قصره وأوقعوه فى أسرهم ثم سملوا عينيه ، وقضوا عليه شنقا بعد ذلك بقليل بعد أن حكم ست سنوات وبضعة أشهر .

رفيع الدرجات :

هنالك أجلس الوزيران على عرش دهلى أبا البركات رفيع الدرجات فى حين نادى خصومهم بنيكوسير ، أحد أحفاد أورنكزيب ، أميراً عليهم بآكرا .

ووافى رفيعَ الدرجات أجله بعد أشهر ستة من حكمه قضاها على فراش المرض ليخلفه رفيع الدولة شاهجهان الثانى فيسير سيرته فى الاستسلام فى كل شىء إلى وزيريه والخضوع التام لرأيهما . وقد قوّى من نفوذهما استعادتهما لآكرا ووقوع أميرها نيكوسير فى أسرهما .

محمد شاه .

قضى شاهجهان الثانى بدوره بعد حكم لم يبلغ شهوراً ثلاثة ، فأتى الوزير عبدالله خان بابنه محمد روشن أختر وأجلسه على العرش فى ذى القعدة من عام ١١٣١ هـ /١٧١٩م باسم محمد شاه ليحكم من بعد ذلك تسعاً وعشرين عاماً ويشهد تفكك الدولة وانهيارها على يديه .

احتال السلطان الجديد بدوره على التخلص من استبداد وزيريه الآخرين نه ، حتى إذا ماتم له القضاء عليهما ، استدعى إليه آصف جاه نظام الملك فاتخذه وزيراً له . لكن سلوك العصبة الدائنة ، التى غدا السلطان ينقاد بالبلاط لمشورتها

ما لبث أن دفعه إلى ترك العاصمة بعد قليل إلى الدكن حيث أمكن له أن يثبت أقدامه بإمارة حيدر آباد الحالية بعد أن هزم قوات الدولة التى وقفت في طريقه ، حتى أقرّه محمد شاه آخر الأمر عليها وأطلق يده فى شئون الدكن[1] .

ولم يكن نظام حيدر آباد هو أول أمير استقل بإمارته استقلالا فعليا لا ينال منه اعترافه الإسمى بسيادة السلطان . إذ الواقع أن نفوذ الدولة وسيطرتها على كثير من ولاياتها كان قد غدا ، بعد وفاة أورنكزيب ببضع سنين ، يأخذ طريقه إلى التلاشى . فقد استقل كذلك بما بأيديه من أرضين مرشدقلى خان نائب السلطان على البنغال وأوريسه وبهار ، أغنى أقاليم الهند ، فتوارث أولاده ملكه من بعده ، وحذا حذوه كذلك سعادت خان وأبناؤه بإقليم أوده .

ولئن عمد نظام الملك فى إمارته الجديدة إلى إجراء الخطبة وضرب السكة باسمه ، فقد ظل سنين كثيرة على ولائه للدولة فساندها فى كثير من المواقف بإخلاص .

وهكذا زال كل سلطان للدولة على الأراضى التى تقع إلى الجنوب من نهر نربدا بقيام إمارة حيدر آباد الدكنية ، ومن حولها المرهتها الذين توصلوا لتمكين نفوذهم وأقدامهم بما أقرته الدولة لهم من نصيب فى خراج الدكن ، ضمنوا به موردا كبيراً لهم .

المراهتها : أدى فتور همة شاهو أمير المرهتها إلى انفراط عقد دولتهم ، فراح كل زعيم من كبارهم يعمل لحسابه الخاص ، وقد نبذوا جميعاً الحرص على وحدة الدولة التى عمل لها شمبهوجى وشيواجى من قبل وتجردوا للسلب والنهب والتخريب ، وسياستهم السابقة وغاياتهم من قبل .

---

(١) تاريخ هندى ٤٤ـ٤٥

وامتد نفوذ عصاباتهم إلى البحر ، فقاد قبطانهم تولاجى قراصنتهم عند الشواطىء الشرقية والليبار، فظل البريطانيون يرهبونهم هناك حتى تم لهم القضاء على كل نشاط بحرى لهم فى الربع الأول من القرن الثامن عشر الميلادى (١) .

لقد كان على المرهتها أن يمسكوا بعصاباتهم عن إثارة الاضطرابات بجنوب الهند نظير ما ترصده الدولة لهم من نصيب فى خراج الدكن . حتى إذا ما عادوا إلى سيرتهم الأولى من البغى والعدوان ، فحاول نظام حيدر آباد أن يقتحم قصبتهم القديمة بونا بقواته ، رد عنها رداً عنيفاً . وشرع أصحابها يطاردونه حتى تعرضت حاضرته نفسها لخطر هجومهم عليها ، فلم يجد آخر الأمر مندوحة من خطب ود البيشوا (٢) ووزرائهم الأقوياء الذين كان بيدهم المقاليد الفعلية لادارة الدولة ، فهادنهم على ألا يتعرض لهم إذا ما ساروا إلى أراضى الدولة فى الشمال بعيداً عن أملاكه ، وفى خاطره أنه بخطته هذه سيدفعهم إلى مناهضة الراجبوتيين أعدائه وأعداء الدولة على السواء .

ولو كان المرهتها قد ائتلفوا مع هؤلاء الراجبوتيين على الدولة بدلا من اجتياح أراضيهم ، مغيرين ، طلبا للغنم الذى صار كل غايتهم فى حروبهم فى الغالب ، لكفلوا لأنفسهم نفوذاً أوسع مدى ومغانم أضخم قدرا بالهند دون شبهة .

على أنهم لم يكادو يبلغوا مالوه ثم يظهروا من بعد ذلك عند مشارف دهلى ، حتى استنجد محمد شاه بنظام الملك ، الذى طمع بخروجه إلى حربهم فى أن يقضى على خطرهم المتزايد ، حتى إذا ما دحرت قوات السلطان وأمير حيدرآباد

---

(١) Dunbar. 297

(٢) البيشوا هو الزعيم .

مجتمعة عند بهوبال ، نشرباجى راو الزعيم للرهتهى نفوذه وسلطانه على كافة الأراضى التى تمتد فيما بين نربدا وسنبهل بما فيها مالوه .

الغزو الفارسى :

أقبلت على الهند كارثة مروعة فى ركاب نادرشاه ، صاحب فارس ، كانت أشد وطأة على الدولة وأبعد أثراً من الغزو التيمورى الذى تعرضت له البلاد قبل ذلك بثلاثة قرون ونصف القرن .

ذلك أن هذا العاهل القدير ، وكان من أسرة تركمانية رقيقة الحال فى خراسان ، توصل بجده وطموحه ودهائه إلى الجلوس على عرش الصفويين بإيران ، ليتجه من بعد ذلك إلى توسيع ملكه حتى دانت له كافة الأراضى الواقعة فيما بين بحر الخزر وقندهار . ومالبث بعد ذلك إن استحوذ على إقليم كابل ، وكان لا يزال بأيدى أصحاب دهلى ، ثم انحدر إلى البنجاب فنشر الخراب والدمار فيه كله ، بعد أن دخل لاهور فى شوال من عام ١١٥١ هـ / ١٧٣٩ م .

ولقد أصمت حكومة دهلى أذنيها حين استغاث بها عاملها على البنجاب لدى مقدم نادرشاه إلى أراضيه [١] ، فلم تنتبه من غفلتها إلا بعد أن كان الفرس قد توغلوا فى البنجاب واقتحموا قصبته . ومع هذا فقد أضاع السلطان المتولى ورجاله كثيراً من الوقت فى نقاش عقيم غلبوا فيه أحقادهم على مصلحة الدولة ، حتى انتهوا إلى استبعاد إسناد قيادة الحملة إلى نظام الملك أمير حيدرآباد الذى كان قد تقدم لنجدة السلطان ببعض قواته ، حذر الشائعات التى زعموها بتواطئه مع شاه الفرس [٢] .

---

(١) تذكرة أنندرام مخلص ٧٧

(٢) تاريخ هندى ٦٠

واستنجد السلطان كذلك بالراجبوتيين والمرهتها ؛ فأما الأولون فلم يعيروا دعوته التفاتا ، وأما الآخرون فقد آثروا أن ينصرفوا إلى تأمين حدودهم ، فأقاموا لهم خطوطاً دفاعية حصينة على طول نهر نربدا وكنوا من ورائها .

والتقى الغزاة بالمدافعين عند كرنال على حدود البنجاب فى معركة لم تستغرق سوى ساعات ثلاثة منى فيها السلطان المغولى بهزيمة منكرة استسلم على أثرها لنادرشاه ، ليدخل من بعد ذلك جند فارس مدينة دهلى فيعملون فيها السلب والنهب والتدمير ويقتلون من أهلها ما يزيد على العشرين ألف نسمة .

ولم يرجع نادر شاه عن الهند إلا بعد أن اغتصب عرش الطاووس لنفسه ، وأرغم محمد شاه ، نظير إعادته إلى عرشه ، على التنازل له عن أرض كثيرة بالبنجاب تمتد من كشمير حتى ولاية السند ، مع تعويضات مالية طائلة ومزيد من الجواهر والأحجار الكريمة جملته ، يتغاضى عن جمع الضرائب من سكان فارس لسنوات ثلاثة[1] . ولم ينس نادر شاه بدورة أن يسلك فى ركابه قسراً فريقاً من مهرة النقاشين ورجال المعمار[2] ، على غرار ما فعل محمود الغزنوى وتيمور من قبل .

ويضم نادرشاه بلاد الأفغان وقسماً كبيرا من البنجاب إلى بلاده حرمت سلطنة دهلى من حدودها الطبيعية التى كانت تحمى سهولها ، ومنع عنها موارد كثيرة كان مصدرها هذه الأقاليم الغنية ، وانكمشت بالتالى إلى إمارة صغيرة لم

---

(١) Dunbar 301

(٢) سير المتأخرين ٢١٦ — ٢٠

بعد لها قبل بمواجهة المرهتها والسك الذين استشرى خطرهم وأخذوا يعيثون فى الأرض فسادا .

والواقع أن غزو نادر شاه كان أخطر على الدولة الإسلامية ، بالهند من الغزو التيمورى وأبعد أثرا وأوخم عاقبة .

ذلك أن الدولة الاسلامية ، برغم تفككها عقب تخريبات تيمور ، استطاعت على كل حال أن تستعيد سيرتها الأولى من القوة فى أغلب إماراتها وأقاليمها الكبرى ، إذ لم يكن لها بالبلاد أعداء يتربصون بها نظير المرهتها والسك ، على الخصوص ، الذين كانوا للدولة المغولية بالمرصاد ، ومن ورائهم المستعمرون الأوربيون ، وعلى رأسهم البريطانيون ، عند شواطئها يعدون العدة لابتلاع أراضيها كلها .

الغزو الأفغانى :

ظل البنجاب بأيدى الفرس اثنى عشر عاما حتى دخله عليهم أحمد أبدالى الدرانى ، شاه الأفغان ، الذى نجح بعد مقتل نادرشاه فى أن يوحد قبائل الأفغان بزعامته ويمد سلطانه حتى سيحون وشواطىء قزوين لينحدر من بعد ذلك إلى سهول الهند .

وأفلح محمد شاه سلطان الهند فى رد الأفغان وأميرهم عن بلاده أول مرة عام ١١٦٠ هـ / ١٧٤٨ م ، حتى إذا ما وفاه أجله فى مستهل العام التالى ، خلفه ابنه أحمد شاه ليواجه ثورة قبائل أفغانية أخرى ، هى الروهيلا إحدى بطون يوسفزى ، عند قنوج والدوآب ، فلم يتح لوزيره صفدار جنك نائب أوده القضاء على فتنتهم إلا بعد أن استعان بالقائد المرهتى هولكر وكان إذ ذاك بمالوه(١) . وقد مهد السلطان المغولى باستعانته بالمرهتها إلى انتشار نفوذ هذه الطائفة حتى بلغ البنغال بعد أن شمل مالوه والكدرات .

---

(١) تاريخ احمد شاهى ١١٧، ١١٨

وانتهت غزوات أحمد أبدالى المتكررة على الهند مع اشتغال الدولة ، فى ضعفها ، بفتن الروهيلا المتعاقبة ، إلى ضياع البنجاب واستيلاء الأفغان عليه .

عالمكير الثانى :

ما غدا الوزير غازى الدين نظام الملك أن تآمر على السلطان أحمد شاه لما كان من عدائه هو وأمه له ، فعزله وأجلس مكانه محمد بن جهاندار باسم عالمكير الثانى[1] .

ونجم عن خلاف هذا الوزير صاحب حيدر آباد مع زعيم الروهيلا نجيب الدوله ، أن بعث هذا الأخير أحمد أبدالى شاه الأفغان يحرضه على الزحف إلى دهلى نفسها ، فاقتحمها برجاله عام ١١٧٠هـ/١٧٥٧ م وأنزل بها وبأهلها أضراراً فادحة ثم عادإلى بلاده بعد أن ألقى بمقاليد الأمور فيها إلى نجيب الدولة ونصب ابنه الأصغر تيمور شاه نائباً له بالبنجاب .

ولم يكن نظام الملك ليرضى بغل يده عن تصريف الأمور فى دهلى ، فما إن فشل فى إقتحام أوده والله آباد ، وكان أصحابهما على صلة وثيقة بنجيب الدولة ، حتى راح يستعين بالمرهتها، فحرضهم على مهاجمة قوات الشاه الأفغانى فى البنجاب ، ونجيب الدولة فى العاصمة وما حولها .

وأفلح القائد آدينه بك خان فى أن يطرد قوات أحمد أبدالى من البنجاب بمعونة المرهتها و يستخلص لنفسه من بعد ذلك لاهور وتتا والملتان التى خلفه

---

(١) تاريخ عالمكير ثان ١٤٠ — ١٤٢

السك عليها فيما بعد . ولم يكتف غازى الدين نظام الملك بطرد نجيب الدولة من العاصمة التى باتت تحت رحمة المرهتها وقادتهم ، حتى أوفد رجاله فقتلوا عالمكير الثانى وهو بحصن شاهجهان[1]

على أن نجيب الدولة مالبث بمعاونة حليفة شجاع الدولة بن صفدار جنك ، أمير أوده ، أن دفع المرهتها عن منازل الروهيلا ، ثم استنجد من بعد ذلك بالشاه الأفغانى لتخلصه من نظام الملك وحلفائه الذين الذين لم يكن له قبل بالقضاء التام عليه ، حتى لبى أحمد أبدالى نداءه ونجح فى طرد المرهتها من البنجاب والشمال الهند كله .

دحر المرهتها عند بانى بت : على أن عصابات الدكن هذه مالبثت أن جمعت جموعها عقب انصرام فصل الأمطار فصار لها ثلاثمائه ألف من الجند ومعها ثلاثمائه من مدافع الميدان[2] الثقيلة زحف بها أمراؤها، وسواس راو وسداشيو بها وصنديا ، إلى دهلى ثم جاوزوها ليلتقوا من بعد ذلك بقوات الشاه الدرانى عند بانى بت .

ولم يكن شاه الأفغان بدروه فى قوة تزيد على الثمانين ألف مقاتل ، ومدافعها لا تبلغ العشرين ، ولم يكن رجاله على دراية بطرائق الحرب الحديثة التى أتيح لفريق من جند المرهتها التدريب عليها بأيدى الفرنسيين بمستعمراتهم الدكنية . فأفادوا منها كثيراً فى حروبهم .

ونجح الأفغان آخر الأمر عام ١١٧٤هـ / ١٧٦١م فى قطع المؤن عن أعدائهم

---

(١) عبرتنامه ٢٤١ — ٢٤٣

(٢) فرحة الناظر ٧٠ — ٢٧٠

ليخوضوا معهم من بعد ذلك معركة عنيفة هدت من كيانهم وصعصعت من نفوذهم بالهند . وبلغ من وقع فى الأسر من رجالهم مائتى ألف وفيهم قائدهم سنديا الذى قتل لوقته . ولم يقو زعيمهم البيشوا بلاجى راو على تحمل هذه الصدمة حين بلغته أنباؤها ، وهو فى طريقه بالإمدادات عبر نربدا ، فارتد إلى بونا حيث قضى نحبه هناك بعد شهور ستة (١) .

البريطانيون فى البنغال وبهار : لم يكن للمنتصر فى بانى بت هذه المرة هو الذى قدر له أن يمسك بزمام الأمور فى الهند كلها كما قدر لظهير الدين بابر حين قضى على السلطان إبراهيم اللودهى ولجلال الدين أكبر حين هزم الأمير الهندوكى هيمون وجنوده من قبل ، فقد اضطر أحمد أبدالى شاه الأفغان ، بعد انتصاره الحاسم هناك ، إلى أن يعود إلى بلاده حين ثار عليه جنده لتأخر مرتباتهم وانتشار الأمراض والأوبئة الفتاكة فيهم بالهند ، لتميل ثقل الحدثان من بعد ذلك إلى ناحية الشرق حيث كانت شركة الهند الشرقية البريطانية قد غدت توطد أقدامها فى البنغال وتحكم من خططها فى الجنوب الهندى حتى تم لها القضاء على نفوذ الفرنسيين هناك، ولما يكن قد مضى بعد أسبوع واحد على انتهاء معركة بانى بت ، لتبلغ من بعد ذلك بالتدريج إلى وضع يدها على شبه القارة الهندية كلها وتضمها فى قرن واحد من الزمان إلى أملاك التاج البريطانى .

ولقد وقعت أحداث بانى بت هذه وعرش دهلى خال بعد مقتل صاحبه عالمكير الثانى وفرار ابنه على جوهر من وجه غازى الدين نظام الملك ، حيث

---

(١) Duff. Hist of the Mahrattas VI pp 524-9

لاذ بجلال الدين حيدر شجاع الملك نواب[1] أوده فى جلال آباد .

موقعة بلاسى : عن لعلى جوهر بن عالمكير الثانى وهو فى أوده أن يغزو البنغال ، وكان البريطانيون قد بسطوا نفوذهم عليه بعد أن تم لهم إخراج أميره سراج الدولة منه . وكان هذا الأمير قد انتزع كلكتا من أيديهم فلم يبلغوا إلى استردادها منه إلا بعد أن استمال كلايف ، مدير شركتهم ، القائد جعفر خان إليه برشوة قدرها ثلاثة ملايين من الروبيات[2] ضمنوا بها النصر على الأمير المغولى ومعه سراج الدولة فى معركة بلاسى ، فى شوال من عام ١١٧٠ هـ / ١٧٥٧ م ، تلك المعركة التى تعد أولى المعارك الحاسمة بين المستعمرين والدولة فى الهند[3] .

وكوفىء جعفر خان على خيانته هذه بتنصيبه حاكما على البنغال تحت وصاية الشركة البريطانية .

وما غدا الأمير المغولى أن بلغ بتنا فى مائة ألف من الجند ومعه محمد قولى خان نائب ولاية الله آباد فالتقى مع ميران خان بن مير جعفر وأحلافه البريطانيين فى حرب كاد يتم النصر فيها لجند الدولة لولا مانجم عن نقص مؤونة عند انسحاب جملة من الأمراء من صفوفه ، فمنهم من آب إلى دياره ومنهم من استجاب لإغراء

---

(١) كلمة نواب هذه تقابل لفظ راجا أو أمير ، فهى من ألقاب التشريف ، ولا يستلزم أن يكون صاحبها من أرباب المناصب .

(٢) Dunbar 341

(٣) تاريخ مظفرى ٣٢٥ — ٣٣٠

الأعداء فانضم إلى قواتهم ، حتى أضطر الأمير إلى مهادنة خصمه بعد ما نزلت به الهزيمة (١) .

شاه عالم :

فى بتنا بلغ الأمير على جوهر خبر وفاة أبيــــه فنادى بنفسه سلطانا على الهند باسم شاه عالم واتخذ شجاع الدولة وزيراً له ثم آب إلى الله آباد فأقام بها .

وضاق البريطانيون ذرعا آخر الأمر بجعفر خان وخداعه ، حتى إذا ما كشفوا عن تواطئه مع الهولنديين حين حاولوا إنزال بعض قواتهم إلى البر ليمحوا بهامصالحهم التجارية فى شرق الهند،خلعوه بحجة تقدمه فى السن وربطوا له معاشاً ثم أقاموا مكانه زوج ابنته الأمير على قاسم .

وما لبث حاكم البنغــــال الجديد أن رفض بدوره أن يسير على هوى المستعمرين ، حتى عارضهم فى رفع المكوس جملة عن بضائعهم ، وكان الإعفاء فى الأصل وقفاً على ما يصل منها برسم أعضاء جالياتهم الخاص ، حتى وضع يده عنوة على بتناوما بها من مصانع لهم .

موقعة بكسر :

حين قدمت قوات المستعمرين من كلكتا فأطبقت على بتنا ، اتخذ على

---

(١) كان الأمير المغولى قد جعل من كلايف ، مبعوث الشركة البريطانية وقائد قواتها ، بعد معركة بلاسى ، قائداً لخمسة آلاف من الفرسان ، فحين طلب إليه الانضمام إلى قواته فى محاربة مير جعفر بالبنغال ، بوصفه من قواده ، اعتذر له بتحالفه مع أمير البنغال على رسم البريطانيين فى الدهاء والخداع الاستعمارى . Dunbar 345 .

ولم تزد قوات البريطانيين فى هذه الموقعة على أربعمائة وخمسين رجلا مع ألفين وخمسمائة من أهل الهند ، لكن أسلحتها الحديثة وحسن تدريبها ودهائها كفل لها النصر بطبيعة الحال .

قاسم ، بعد هزيمته ، سبيله إلى نواب أوده فلاذ به . وقد أوقع بهما البريطانيون عند بكسر أواخر عام ١١٧٧هـ/ ١٧٦٤م ثم دخلوا الله آباد ولكنو وجنار[1] .

وفي هذه الوقعة استسلم للبريطانيين شاه عالم فتنازلوا له عن الله آباد وما حولها وضمنوا له معاشاً سنويا قدره مليونين وستمائة ألف من الروبيات على أن يطلق أيديهم في جمع الخراج بالبنغال وبهار وأوريسه[2] ، وبعبارة أصح ، على أن يعترف لهم في الواقع بسلطانهم على هذه الأقاليم. كذلك ردوا لشجاع الدولة أغلب أراضيه على خمس ملايين من الروبيات يدفعها لهم .

المرهتها في دهلي :

لبث شاه عالم يقيم في الله آباد على وعود متكررة من البريطانيين بتيسير عودته إلى دهلي ، ولكنهم لم يوفوا له بشيء منها أبداً .

هذا، وكان أحمد شاه أبدالي قبل أن يعود إلى بلاده بعد انتصاره في باني بت قد اعترف بشاه عالم سلطاناعلى الهند ، على أن يعهد بالوزارة إلى نظام الملك وبشئون المال والخراج إلى نجيب الدولة ، وفي خاطره أن هذا الوضع سيكفل إقرار أمور الدولة هناك .

على أن نجيب الدولة تأتى له أبعاد خطر المرهتها ونظام الملك عنه ، لينفرد من بعد ذلك سنوات تسعاً بشئون الحكم في دهلي والسلطان في منفاة بالشرق. وتمكن هذا الزعيم الأفغاني خلال ذلك من القضاء على فتنة السك ، على كثرة عددهم بالبنجاب ، لكن تهديد الجات له وزعيمهم سورج مل ثم ابنه جواهر سنغ من بعده أدى به إلى التفكير في الاستعانة بالمرهتها لدفع خطرهم عنه .

---

(١) حديقة الأقاليم .

Dunbar 354 (٢)

ونجم عن وفاة نجيب الدولة تحرج الحـــال فى العاصمة ، حتى بات الناس يتوقعون سقوطها فى أيدى المرهتها أو السك بين يوم وآخر. هنالك حزم شاه عالم أمره فاتفق مع المرهتها على أن يبادروا بدخول المدينة باسمه فيسلموها له من بعد ذلك على أربعة ملايين من الروبيات يدفعها لهم فى أوقات مرسومة. وبهذه الخطة أنقذ السلطان على الأقل سكان المدينة من تعرضهم لمذابح السك لو كانوا قد أتيح لهم الاستيلاء عليها [1] .

وصادفت خطة شاه عالم هذه قدراً كبيراً من التوفيق والنجاح ليكتشف ـ من بعد ذلك ببضع سنين ـ أنه لم يتخلص من أيدى البريطانيين ويفر منهم إلا ليقع فى براثن المرهتها ، الذين ما غدوا أن بسطوا نفوذهم على دهلى وما حولها وأفلحوا بمعاونة من ضباط من الفرنسيين فى دفع البريطانيين عنهم بعض الوقت حتى اجتاح أراضيهم القائد البريطانى ولسلى ودخل دهلى عام ١٨٠٣ .

فقد قدر أن يفيد من عون المرهتها له ، دون خطر كبير عليه منهم ، بعد أن كسرت شوكتهم فى پانى پت ، فيحقق لنفسه بذلك الاستقلال الذى ينشده بعيداً عن البريطانيين ونفوذهم . وهو بعد فى مقامه الجديد سيصير له من دخل الأراضى التابعة لدهلى ما يعوضه عما كان يدفعه البريطانيون له ، ثم منعوه عنه فيما بعد .

وهكذا سار شاه عالم إلى دهلى فدخلها فى مستهل عام ١١٨٥ هـ / ١٧٧٢ م

(١) حافظ المرهتها دواما على تقاليدهم حتى فى أيام تفككهم فلم يقترفوا قتل السكان الآمنين على ما أشرنا إليه من قبل .

برغم معارضة أغلب أتباعه الذين كانوا يؤثرون البقاء بإقليم الله آباد أرغد عيشا وآمن مقاما . وقد وجد فى وزيره الفارسى ميرزا نجف خان ذو الفقار الدولة خير معين وحازم وناصح أمين طوال الإثنى عشر عاما التى قضاها فى منصبه حتى وفاته . فقد دفع هذا الوزير عن الدولة خطر السك بعد أن هزمهم واسترد منهم آكرا ، كما كسر شوكة الروهيلا الأفغان بتحالفه مع البريطانيين وشجاع الدولة نواب أودة عليهم ، حتى أصبحت الدولة تمارس نفوذها ممارسة تامة فيما بين ستلج وسنبهل ، كما استردت قدراً من مهابتها السابقة التى غابت عنها سنين طويلة من قبل.

وقضى نجف خان ، ليؤدى القحط الشديد ، الذى نزل بمنطقة دهلى من بعد ذلك عام ١٧٨٢ م فأهلك ما يقرب من نصف السكان ، إلى اضطراب اقتصاديات الدولة ، حتى عجزت عن الإنفاق على الجيش القوى الذى أنشأه ذلك الوزير الحازم ، فذاد به عن أراضيها طويلا ، فانصرف عنه كثير من الأمراء والقادة إلى بلادهم .

وأدى تنافس رجال الدولة فيما بينهم إلى استبعاد خلفه الوزير أفراسياب بمادهوجى سندهيا زعيم المرهتها ، بعد أن أخفق السلطان فى الاتفاق مع البريطانيين على مساندتهم له وفق شروطه ، ليجمع هذا الزعيم المرهتى من بعد ذلك مقاليد السلطة كلها فى يده بوصفه نائباً للسلطان ، ويجعل من همت بهادر أحد رجاله وكيلا مطلقاً بالدولة .

وتعرض سندهيا لعدة ضربات فى الراجبوتانا والدوآب ، كما اقتحم دهلى فى غيبته غلام قادر خليفة نجيب الدولة على الروهيلا منتصف عام ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م

وقبض على شاه عالم وسمل عينيه ثم نادى بابنه بدار بخت مكانه[1] .

وتم للزعيم المرهتى آخر الأمر تثبيت أقدامه فى المنطقة كلها من جديد بفضل ضباطه الفرنسيين الذين آزروا ابنه دولت راو من بعده كذلك ، حتى دفع البريطانيين عن بلاده ، ليقبلوا من جديد عام ١٨٠٣ م بقودهم قائدهم ولسلى فيجتاحوا أراضى المرهتها كلها ويقوضوا سلطانهم ويدخلوا دهلى .

(١) عبرتنامه ٢٤٧ ، ٤٨

الاحتلال البريطانى

طرد المنافسين :

أخذت بعوث البريطانيين التجارية تفد إلى الهند منذ بداية القرن السابع عشر الميلادي ، ولم يثبط من عزيمة رجالها مابذله البرتغاليون من جهود متواصلة عند سلاطين الدولة المغولية ليحولوا دون منافستهم لهم بهذه البلاد . ومالبث هؤلاء البريطانيون ، بما اشتهر عنهم من الدهاء وسعة الحيلة ، أن صرحت الدولة لهم بإقامة وكالات تجارية[1] عند سورات فى الغرب وهو جلى فى الشرق، ثم مازالوا يتقربون من بعد ذلك إلى سلاطين الهند حتى عاونوهم فى حربهم للبرتغاليين عند الشواطىء الشرقية ، كادفعوا المرتهنا كذلك من بعض الموانىء الهندية الغربية ؛ ونال البريطانيون ، إثر كل عون قدموه للسلاطين ، مزيداً من الامتيازات حتى بلغوا من الثراء والقوة واتساع النفوذ ماامكنهم من شراء بمباى نفسها من البرتغاليين وتوسيع رقعة أراضيهم عند كلكتا ومد نفوذهم إلى مدراس وما يليها جنوباً .

ولم يطق البريطانيون بطبيعة الحال منافسة الفرنسيين لهم بعد ما كسروا

---

(١) كان التجار الإنجليز يعانون كثيراً من المشقة فى إخراج العملة الفضية من بلادهم ليدفعوا ثمن التوابل التى كانوا يشترونها من جزر الهند ، حتى اهتدوا إلى إقبال تجار البهار على منسوجات الهند ، فسعوا بدورهم إلى إقامة وكالات نسيج لهم بالهند . هذا ؛ كما كانوا يجلبون كذلك إلى الهند من بلادهم أدوات الترف فيحصلوا نظيرها على مايبتغون من منتجات هذه البلاد بنقدرهم .

شوكة البرتغاليين وأحبطوا كل محاولة قام بها الهولنديون لتثبيت أقدامهم عند بعض شواطىء الهند .

وكان الفرنسيون قد بلغوا بتدبير دوبليكس ، مدير الشركة الفرنسية الهندية ، ودهائه ، إلى مزيد من النفوذ فى الدكن وجنوب الهند . فقد استطاع هذا الداهية الفرنسى أن يدرِّب بعض جنود إمارة حيدر آباد الدكنية وفريقاً من قوات جنوب الهند على أساليب القتال الحديثة وخططه حتى صار الحاكم الفعلى لكافة الأراضى الواقعة إلى الجنوب من نهر كرشنا وللوجه لدفة الحكم فيها من وراء ستار .

وحين نشبت حرب الوراثة النمساوية عام ١٧٤٠ م وتحارب فيها الفرنسيون والبريطانيون بأوروبا ، بادر دوبليكس بالهند إلى اجتياح مدراس والاستيلاء على كثير من مراكز البريطانيين عند الشواطىء الشرقية . ومالبث البريطانيون أن استردوا مراكزهم السابقة كلها بعد هذه الحرب ، إذ أفلحوا ، بدسائسهم بالعاصمة الفرنسية ، فى حمل لويس الخامس عشر على استدعاء دوبليكس ، وبذا خلا لهم الجو ، حتى قضوا على كل نفوذ للفرنسيين بالهند وانتزعوا منهم كل أراضيهم إلا ميناء بندشيرى وبعض أماكن أخرى صغيرة متفرقة بالهند .

واصطنع البريطانيون طرائق دوبليكس الاستعمارية الفذة فانطلقوا يخصصون هذه البلاد الواسعة بجند من أبنائها وأموال من أموال أهلها .

ومالبث هؤلاء المستعمرون أن ثبتوا أقدامهم بالبنغال وأوده على أثر انتصارهم الحاسم فى معركتى بلاسى وبكسر ، وأبرموا عام ١٧٦٦ م معاهدة مع

نظام حيدر آباد تعهد فيها الطرفان بتبادل المعونة والمساعدة عند تعرض أحد منهما للعدوان .

سلطان ميسور : هدف اتفاق البريطانيين نظام حيدر آباد فى الواقع إلى الحد من أطماع حيدر على أمير ميسور عند الجنوب الغربى من الهند . واضطر هذا الأمير بدوره إلى قبول مهادنة الشركة البريطانية آخر الأمر عام ١٧٦٨ م وذلك بضغط من قواتها وقوات النظام . غير أن صاحب ميسور هذا ما لبث أن استولى عام ١١٩٥هـ/١٧٨٠ م على كرناتيا كلها عند شاطىء كورومانديل . وخلفه ابنه تيبو فاشتبك فى حروب متواصلة مع البريطانيين عدة سنوات . وما إن هادنوه عام ١٧٨٤ م حتى عقد العزم على أن يبدأ بضرب المرهتها ونظام حيدر آباد ليتفرغ من بعد ذلك للبريطانيين ويخرجهم من جنوب الهند كله ، وفى حسابه أن فرنسا سوف تستجيب لاستنجاده بها . غيرأن رسله عادوا من باريس وليس فى جعبتهم سوى عبارات التشجيع والإغراء[1] .

على أن أعداءه ما لبثوا أن اجتمعوا عليه آخر الأمر فحاصروه فى حاضرته سرنغابتم عام ١٧٩٢ م ، يقودهم كورنواليس قائد شركة الهند البريطانية ، حتى أرغموه على مهادنتهم وقبوله التنازل لهم عن نصف أراضيه .

وقوّت انتصارات نابليون بونابرت بأوروبا من عزيمة تيبو . وأصاب الفرنسيون بدورهم قدراً جديداً من التوفيق بالهند كذلك ، فاسترجعوا بعض نفوذهم فى حيدر آباد وعقدوا أواصر الصداقة مع أمير ميسور واضطلعوا بتنظيم جيوش هاتين الإمارتين وتدريبها .

---

(١) Moreland 319

على أن القائد البريطانى ولزلى توصل بدهائه إلى القضاء على النفـوذ الفرنسى من جديد واسترجع أميرها إلى حظيرة الشركة . حتى إذا ما وجد من تيبو الإصرار على تمسكه بالضباط الفرنسيين فى جيشه وتحالفه مع فرنسا ، سار إليه من مدارس فاقتحم عليه حاضرته فى قتال عنيف سقط فيه السلطان الميسورى وهو يقاتل . وبهذا قضى البريطانيون على آخر أمير مسلم قوى وقف فى وجههم بالهند فى إصرار وإيمان وعناد .

وأتيح للبريطانيين بالتدريج بسط نفوذهم على أهم مراكز الجنوب، وعملوا على تأمين طريقهم إلى الهند فوضعوا أيديهم على جزيرة سيلان عام ١٧٩٧ م بعد أن كان الهولنديون يرابطون فى بعض شواطئها ، كما انتزعوا من الهولنديين كذلك رأس الرجاء الصالح بعد أن تم لهم إجلاء الحملة الفرنسية عن مصر ، تلك الحملة التى كان نابليون يبغى بها الوصول إلى الهند وإخراجهم منها ، وأحبطوا فى الغالب كل خطط للفرنسيين والروس بغوا من ورائها عزلهم عن الهند وانتزاعها من أيديهم .

وانصرف البريطانيون من بعد ذلك إلى حرب المرهتها فاجتاحوا أراضيهم ودخلوا دهلى على الوجه الذى بيناه من قبل .

حرب المرهتها :

أفاد البريطانيون من شيوع الانقسام بين المرهتها فاشتروا زعماءهم فى ناجبور والكجرات بالرشاوى ، ليتفرغوا من بعد ذلك إلى بيتى سندهيا وهولكر ، أقوى طوائفهم ، فاجتاح هستنج أقوى حصون سندهيا فى كواليار

عام ۱۸۷۰ م وأنزل به هزيمة شديدة ركن من بعدها المرهتها عموماً إلى السلام وهادنوا أعداءهم .

هذا ؛ وكان قد تم لمهوجى سندهيا بسط نفوذه على دهلى ، على مابيناه من قبل ، وهزم الراجبوتيين ، كما مد نفوذه على كافة أراضى المرهتها القديمة حتى بونا عاصمتهم القديمة ، ليخلفه من بعد ذلك ابنه دولت راو عام ۱۷۹٤ م على هذه الأراضى كلها .

وكان أن دعى البيشوا باجى راو البريطانيين إلى شد أزره بأزاء خصومه فى بونا ، فقدموا من فورهم إليه ودخلوا معه المدينة ليعقدوا معه عام ۱۸۰۳ م معاهدة بَسِّين التى اعترف لهم فيها بسيادتهم .

وحين ثار زعماء سندهيا وبهونسلا على هذا التدخل الأجنبى . خاضوا مع البريطانيين غمار معارك عنيفة عند آساى انتهت بهزيمتهم وخضوعهم لشروط الشركة البريطانية ودخول البريطانيين دهلى وضياع أملاك سندهيا عند الشمال والشرق من جمنه وانتقالها وكافة الأراضى الواقعة بين الكنج وجمنه وإلى الغرب منها إلى أيدى المستعمرين .

وكان أن ترك البريطانيون بعض الأراضى بأيدى المرهتها فعانى الراجبوتيون على الخصوص كثيراً من الأذى على أيديهم وكان فى حسابهم أن أصحاب الشركة سوف يحمونهم من شرورهم .

وحين استشرى خطر عصابات البندارى المرهتهية فى إقليم بهار بصفة خاصة ، جرّدت الشركة كل جيوشها لتجهز عليها جميعاً ، حتى استسلم لها كل زعمائها عام ۱۸۱۷ م فسمحت لفريق من صغارهم بلزوم بعض إمارات فى مالوه .

والكجرات . وقد سارع الراجبوتيون بدورهم إلى التحالف عندئذ مع البريطانيين فلم يخوضوا معهم حرباً جماعية أبداً[1] .

حرب الأفغان :

كان من أثر هزيمة الروسيا لفارس عام ١٨٢٨ م أن عظم نفوذها فى تلك البلاد حتى حملت حكومتها على التعاون معها لمد نفوذها كذلك إلى أفغانستان[2] باب الهند إلى سهول البنجاب والكنج .

وحين تبين لبيرنز مبعوث الهند البريطانى بكابل حرج موقف دوست محمد شاه الأفغان بأزاء نشاط مبعوث الروس الداهية فيتكوفتش حتى اضطر إلى مصانعته برغم ميله للزوم الحياد التام ، عقد أوكلاند مدير الشركة الهندية العزم على الزحف إلى أفغانستان وفى صحبته أميرها السابق الشاه شجاع الملك الذى كان قد طرده دوست محمد فلجأ إلى رنجيت سنغ أمير البنجاب .

وكان هذا الأخير قد بلغ بقومه السك إلى انتزاع هذا الإقليم من الأفغان ، ثم آثر أن يهادن البريطانيين حين دخلوا دهلى ومدوا نفوذهم إلى مشارف ستلج .

وتم للبريطانيين إجلاس شجاع الملك على عرش كابل من جديد حتى يضمنوا بذلك القضاء على دسائس الروس وإبعاد نفوذهم عن حدود الهند .

---

(١) Dunbar 488

(٢) إطلاق « بلاد الأفغان » على الإقليم الذى يعرف بهذه التسمية اليوم ، هو من اصطلاح العصور الحديثة ، ومن باب تعميم الجزء على الكل ، فمنازل الأفغان هى الى الجنوب من طريق كابل — أما سكان كابل وغزنه ولمغان فهم خليط من عناصر العرب والفرس والترك :

على أن الأهلين مالبثوا أن ثاروا عليهم فى العاصمة ثورة عارمة أرغمتهم التسليم بعودة دوست محمد إلى مقامه القديم وإخلاء المدينة من قواتهم ، لتنزل بهم من بعد ذلك كارثة بشعة وهم يتراجعون بين ثلوج الطريق وضربات رجال القبائل على الجانبين ، فلم ينج من حملتهم التى كانت تضم عشرين ألف رجل إلا شخص واحد هو الطبيب العسكرى بريدون [1] الذى كتب له أن يبلغ جلال آباد حيث كانت تنزل حامية عسكرية بها .

ورجع البريطانيون من جديد إلى أفغانستان فى حملة انتقامية قدمت من قندهار وجلال آباد فوجدت الأهلين فى كابل قد قتلوا شجاع الملك ، ونادوا بابنه فتح جنك مكانه .

على أن إرادة الأهلين كانت أقوى من عنف الغزاة وأسلحتهم ، فما لبث البريطانيون أن أرغموا على الرجوع ثانية عن أفغانستان بعد أن عاهدوا أميرها دوست محمد عام ١٨٤٣ م على احترام حدوده .

ولم يكن مصير الحملات التى قادها اللورد روبرتس عامى ١٨٧٨ ، ١٨٧٩م فدخل بها كابل بأحسن حظا من حملات أو كلاند سالفة الذكر .

فعلم أبناء القبائل الأفغانية ، من الأفريدى والمحسودى والوزيرى ، ببسالتهم وضراوتهم فى القتال ، البريطانيين كيف يحترمون مشيئة الأحرار الذين رفضوا على الدوام كل ما كان يعرض عليهم من مغريات مادية لقبول المستعمرين ببلادهم [2] .

---

(١) Moreland 346

(٢) حاضر العالم الإسلامى ثان ص ٢٩٢ – ٣٠٠

وقد باءت بالفشل كل المحاولات التي بذلها البريطانيون لطيّ بلاد الأفغان تحت نفوذهم .

وبقي شاه الأفغـان محافظا على عهوده مع البريطانيين محافظة تامة حتى يَبْعُدَ كل البعد عن المشاركة في ثورة التحرير التي نشبت بالهند عام ١٨٥٧ م بزعامة فريق من المسلمين وكادت تنتهي إلى طرد المستعمرين منها .

إخضاع السك والبلوخ : تذرع البريطانيون بحروبهم الأفغانية لإخضاع السند بلاد البلوخ لسلطانهم ، كما انتهزوا كذلك فرصة إعتداء السك على بعض مناطقهم بعد موت أميرهم رنجيت سنغ ، فما زالوا يطاردونهم حتى أنزلوا بهم هزيمة قاصمة بالكجرات عام ١٨٤٩ م (١) ضموا من بعدها كشمير والبنجاب كله إليهم ، وجردوا قوات هذه الطائفة من أسلحتهـا وصرفوا رجالها للعمل في المزارع .

وكان السـك والغوركها أبنـاء نيبال ، التي لم يخضع المستعمرون إلا بعضها ، خير محاربين اعتمد عليهم البريطانيون في كل الحروب التي خاضوها دفاعا عن أمبراطوريتهم أو لالتهام أراض جديدة .

ويتدخل البريطانيين على الدوام فيما كان يقع بين الأمراء من منازعات بالدس والوقيعة ، أفلحوا آخر الأمر في أن يضموا إليهم الإمارات الهندية التي لم يستولوا عليها بقوة السلاح .

وبات الأمراء الذين بادروا إلى محالفة هؤلاء المستعمرين من أول الأمر، فحفظت عليهم إماراتهم ، معدودين من أتباع بريطانيا ، ومنعوا من ممارسة

---

(١) Dunbar 502

أى نشاط سياسى أو إدارى دون مشورة مستشاريهم البريطانيين الذين كانوا فى الواقع أصحاب السلطان المطلق فى هذه الأراضى .

وفُرض على أمثال هؤلاء الأمراء أموال كثيرة يدفعونها للشركة نظير حمايتها لهم ودفاعها عن أراضيهم ، وحين كان يعجز أحدهم عن الدفع أو يتوقف ، كانت الشركة تبادر بالاستيلاء على أراضيه لتفرض على سكان إمارته ماتُلزم به غيرهم فى أملاكها من ضرائب الأرض الباهظة ، حتى اضطر الكثيرون منهم إلى بيع أولادهم لسداد ما كانوا يلزمون به ، فعانى الملايين من أهل الهند أفظع ضروب القسوة والطغيان وعاشوا فى شقاء لم تعرفه الإنسانية فى أحلك عصورها [1] .

خاتمة سلاطين الدولة المغولية :

لم يقرر غزو نادر شاه الفرس ولاغزوات أحمد أبدالى ، شاه الأفغان ، المتكررة للهند مصير الدولة المغولية بقدر ماقررته معركة بكسر عام ١٧٦٥م ببهار . فطويت بانتصار البريطانيين فيها على شاه عالم السلطان التيمورى صفحة الحكم الإسلامى فى الهند .

ولم يكن البريطانيون ليتركوا شاه عالم ينزح من مقامه بالله آباد ، حيث كان يعيش على المال الذى ربطوه له ، إلى كنف المرهتها بدهلى إلا ليضيقوا الخناق عليه وعلى خلفائه من بعد ذلك ، وقد باتوا على يقين ، تام من قرب وقوع شبه القارة الهندية بأيديهم وخلاصها لهم بعد أن تم لهم هناك القضاء على نفوذ الفرنسيين أخطر منافسيهم وأقواهم ، وما تكشف لهم عن عجز قوات

(١) الهند وجيرانها ٤٠٣

الهند الكثيرة على الوقوف أمام قواتهم ، على قلة عددها ، لحسن تدريب رجالها وما بأيديها من أسلحة حديثة لا تعرف الهند لها نظيرا . حتى واجهوا، وعددهم مع حلفائهم من الوطنيين خمسة آلاف رجل ، عشرة أضعافهم فى معركة بكسر سالفة الذكر ، فانتصروا عليهم انتصاراً حاسما لم يكلفهم أكثر من عشرين قتيلا وبعض الجرحى .

ولئن كان شاه عالم يذكر للمرهتها أنهم أعانوه على العودة إلى دهلى ونظروا إليه فى الغالب نظرتهم إلى أحد حلفائهم حتى سارعوا إلى إنقاذه من بين براثن الثائر الروهيلى غلام قادر ، فى حين أعرض كونوالث مدير الشركة البريطانية عن نجدته فى محنته مع هذا الزعيم الأفغانى ، وضيق عليه البريطانيون، من قبل، فى الله آباد بعد أن هزموه فى بكسر ، فإنه على كل حال كان يداعبه الأمل فى أن تنتهى الحرب بين المرهتها والبريطانيين ، إلى إنهاك قواهما معاً ، حتى يخرج المنتصر منهما وهو أميل سلوك طريق المودة معه . وعلى هذا الرأى حرص كل الحرص على دوام اتصاله بالفريقين المتحاربين وإعلان تأييده لكل واحد منهما على حدة فى نفس الوقت .

على أن البريطانيين ما لبثوا حين دخل قائدهم ولسلى مدينه دهلى عام ١٨٠٣م أن انفردوا بالأمر كله فيها فلم يلتفتوا إلى السلطان إلا ليرتبوا له معاشاً لم يزد على ما كانوا قد أجروه عليه فى الله آباد من قبل .

أكبر شاه الثانى :

لم يكن للسلطان وأعضاء أسرته ما يقلقهم فى ظل الحكم البريطانى إلا

ضآلة ما رتب لهم من مال أصبح لا يفي بنفقاتهم[1]، وإن وجد بخزائن شاه عالم بعد وفاته ما يزيد على المليون من الروبيات كان قد ادخرها .

وحين قضى شاه عالم قبيل أواخر عام ١٨٠٦ م بعد أن جلس على العرش خمسة وأربعين عاما ، خلفه ثانى أبنائه أكبر شاه الثانى ، ليقضى حياة يغلب عليها الخمول والضعف حتى عدل اللورد هستنجز ، حين خلف ولسلى على ادارة الشركة الهندية ، عن تصدير أوامر شركته ونشراتها بإرادة السلطان ، ورفع عن خاتمه كذلك الرسم التقليدى الذى يصفه بأنه خادم السلطان المخلص ، بل لقد رفض فى لقائه له أن يخضع للمراسم التى لم يكن الحكام البريطانيون من قبله يجدون غضاضة فى ممارستها . ولم يكتف بذلك حتى حرض نواب أوده على أن ينادى بنفسه سلطانا[2] ، واحتضن رام موهان رو صاحب جمعية براهما سماج الذى راح يدعو مجدا إلى القضاء على بيت التيموريين فى الهند[3] .

بهادرشاه الثانى :

وخلف أكبر الثانى ابنه بهادرشاه الثانى عام ١٨٣٧ م ليعيش بدوره على الرزق الذى كان يجريه البريطانيون على أبيه ، من قبل ، بعيداً عن كل نشاط سياسى أو مشاركة فى الحكم ، فلم يكن يقلق باله إلا معارضة المستعمرين له فى اختياره لولى عهده وعدم استجابتهم لشكواه من ضآلة معاشه الذى كان يراه لايكفى لحفظ مظاهر الأبهة اللائقة بأمير تيمورى .

---

(١) Spear, Twilight of the Mughuls pp 36-9

٢ — راح هذا الزعيم ، بتأثير حركات الإصلاح الدينى السابقة يدعو إلى توحيد ديانات الهند فى دين واحد يعبد إلها واحدا هو براهما ، دون تعدد فى الآلهة أو الطبقات أو الزوجات ، وينكر كل العادات الهندية القبيحة كالساتى وزواج الأطفال وغيرهما .

وبقيام الثورة الوطنية الكبرى ، التي يعرفها البريطانيون بثورة السپاهى أو العصيان ، عام ١٨٥٧ م انتهت أيام بهادرشاه على عرش الهند ، وطويت صفحة السلاطين البابريين أبناء تيمورلنك بالهند كلها .

الثورة الوطنية :

هذه الثورة العارمة التي كادت تقضى على كل نفوذ للبريطانيين في الهند كلها ، والتي كان مبعثها عسف الشركة البريطانية واستنزافها لثروات البلاد وإقفار أراضيها الخصبة ، لاسيافي الشمال ، نشبت في وقت واحد بالبنغال ودهلى وجونبور والبنجاب .

أما أخطر أدوارها فقد بدأ بالبنغال حيث الجيش الذى كان يعتمد عليه هؤلاء المستعمرون في حفظ النظام بالهند ، وكان قوامه أكثر من مائة ألف مقاتل فيهم عشرون ألفا من البريطانيين . وقد بنى الثائرون خطتهم على أن يسارع البريطانيون عندئذ إلى استدعاء كل قواتهم المنتشرة في الهند إلى البنغال فيخلو لهم الجو بذلك ويثبتوا أقدامهم ويجمعوا شملهم من جديد ، فلا يتمكن المستعمرون منهم بعد ذلك أبدا .

وعرف المتزعمون للثورة كيف يثيرون ثائرة جند البنغال ، وكان أغلبهم من الراجبوتيين والبراهمة ، حين انطلقوا يلقون في روعهم أن الشركة تعتزم تسييرهم إلى خارج الهند لحرب بورما ، الأمر الذى يتنافى وعقائدهم التي تعد كل من يغادر موطنه خارجا على طبقته منبوذاً ، كما نبهوهم كذلك إلى معالجة البريطانيين لأسلحتهم وعجلاتهم بشحم الخنزير ودهن البقر المقدس ، ودسهم هذه الدهون فيما يقدمونه لهم من الطعام ، بل إنهم كذلك قد عقدوا العزم على

حملهم قسرا على أعتناق النصرانيه بأيدى مبشر يهم الذين جلبوهم لتحقيق هذا الغرض ، وهاهم يقفلون فى وجوههم باب الترقية حتى إلى أصغر رتب القيادة فى الجيش ، وهو ما لم يمنعه عليهم أحد من السلاطين المسلمين من قبل .

وانطلق المسلمون فى دهلى يقودون الثورة ، بزعامة بعض أبناء السلطان وفريق من الزعماء الأفغان الحانقين ومعهم حامية ميروت الشماليه التى أنضمت إلى صفوفهم ، وفى خطتهم أن يخرجوا المستعمرين من بلادهم و يعيدوا للمسلمين سابق سلطانهم بالهند .

وما غدا المرهتها فى جونبور أن نزعوا بدورهم إلى العصيان بتزعمهم أميرهم نانا صاحب الذى كان فريق من رجاله قد حددت إقامتهم هناك ، كما انطلقت الشائعات فى الوقت نفسه بزحف الروس والأفغان لشد أزر الثوار ، حتى أصيب البريطانيون فى الثورة بخسائر كثيرة وهزائم متكررة فى أماكن عديدة[1] .

على أن المستعمرين ما لبثوا أن أقروا الأمور فى البنجاب بهمة قائدهم لورنس وحسن تدبيره ، لينطلقوا من بعد ذلك ومعهم حلفاء من السك والغوركها وقوات نظام حيدر آباد فيقضوا على الثوار بكل مكان فى قسوة بالغة وعنف ، و يقصفوا بمدافعهم دهلى ، ثم يدفعوا بالسلطان المغولى الشيخ وهو فى الثانية والثمانين من عمره ، إلى محاكمة صورية أدانوه فيها بدعوى وقوفه وراء ولده محمد بخت خان وميرزا مغول فى تزعمهما للثوار ، ومسئوليته عن مقتل تسع وأربعين من البريطانيين بدهلى ، وثورته على الحكومة البريطانية بوصفه أحد رعاياها ، و إعلانه الحرب عليها ومناداته بنفسه سلطانا على الهند .

---

(١) Moreland pp 367-375

هذا، والثابت المعروف أن أحداً من السلاطين المغول، منذ أن صار شاه عالم فى قبضة الشركة الهندية، لم يقبل الإعتراف بالحماية البريطانية أبداً، كما أن بهادرشاه نفسه لم يكن أى مشاركة فى هذه الثورة حتى اعتذر لزعمائها بفراغ يده من المال، وأنه ليس له جيش أو قوة يقدمها لهم ولم يكن له بالتالى علاقة بملصقة صغيرة وجدت أثناء الثورة على حائط المسجد الجامع وبها نداء منسوب إلى شاه الفرس يدعو فيها المسلمين إلى تناسى خلافاتهم وتوحيد صفوفهم حتى يقبل لنجدتهم (١) .

قضى البريطانيون فى هذه المحاكمة عام ١٨٥٨ م على السلطان المسنّ بهادر شاه بنفيه مع أفراد أسرته إلى رانجون، وأعلنوا من بعد ذلك ضم شبه القارة الهندية كلها إلى امبراطوريتهم لتمارس الحكومة البريطانية حكمها بنفسها حكما مباشرا. وعُوضت الشركة الهندية عن إبعادها عن شئون الحكم بمبالغ طائلة وتعويضات سخية جُمعت دينا على الهند، هى وكل النفقات التى أنفقتها بريطانيا فى حروبها الأفغانية وحروب بورما بدعوى تأمين حدود الهند والمحافظة على سلامتها .

وراح الحكام البريطانيون فى الهند يذيعون بدورهم على الدنيا ما يبذلونه من جهود النهوض بهذه البلاد وترقيتها، ومنها إنشاء الطرق الحديدية وتوسيع رقعة الأرض الزراعية ونشر الحضارة الأوربية. ولم يكن هدفهم من وراء ذلك كله فى الغالب إلاّ تنظيم ابتزاز ثروات هذه الأرض الواسعة الغنية، حتى

---

(١) Spear pp 200, 222, 28

هذا وقد انبرى بعض الباحثين البريطانيين بعد مضى ستين عاما على هذا الثورة يبرىء السلطان الشيخ من كل ما نسب إليه، ويدلل على أن الشركة هى التى ثارت قانونا على السلطان وليس هو عليها .

كانت منتجاتها تنقلها فى كل عام أكثر من عشرة آلاف سفينة ، معظمها بريطانية ، لتبيعها بريطانيا فى أسواقها بخمسة أضعاف أثمانها أو يزيد ، فلا يعود من هذا الربح الوفير على أصحابه الأصليين ، سوى القليل ، وهم الذين دُفع بجماهيرهم ليزرعوا الأرض لسادتهم على كفاف من العيش .

وأقام البريطانيون من جهاز حكمهم بالهند طبقة جديدة تُضاف إلى طبقات الهند وتعلوها جميعا ، حتى حرموا على أهلها دهرا طويلا مجالستهم أو مطاعمتهم أو مزاملتهم فى سفر أو سمر .

قيام دولة باكستان :

نفى البريطانيون بهادر شاه الثانى ، آخر السلاطين البابريين من الهند بوصفه الزعيم الروحى لأهلها من المسلمين الذين رفضوا فى الغالب الاعتراف بسلطانهم وأصر زعماؤهم وأبناء الطبقة المستنيرة منهم على معاداتهم وتأليب أهل هذه البلاد جميعا عليهم ، حتى أعلن اللورد ألنبرو حاكم الهند البريطانى ، فى صراحة تامة، أن العنصر الإسلامى فى الهند هو عدو بريطانيا الأصيل، وأن السياسة البريطانية فى الهند يجب أن تهدف إلى تقريب العناصر الهندوكية إليها لتستعين بهم فى القضاء على الخطر الذى يتهدد بريطانيا فى هذه البلاد(١) .

وعلى هذا المبدأ بطش البريطانيون بالمسلمين الذين قادوا الثورة الوطنية

---

(١) بلغ من عداء هذا الحاكم البريطانى للمسلمين أنه أمر بنزع بعض بوابات رآها بغزنة حين دخل البريطانيون أفغانستان بزعم أنها أجزاء من معبد سومنات حملها محمود الغزنوى معه من الهند بعد أن خرب مصلى الهنادكة هذا أوائل القرن الخامس الهجرى . وحين حمل ألنبرو هذه البوابات إلى الهند ، تقربا منه إلى الهنادكة وتذكيرا لهم بعداوة المسلمين ، اكتشفوا هناك أن هذه الأبنية هى من صنع سبكتكين أبى محمود الذى لم يتخط حدود الهند فى غزواته .
Dunbar 489.90

(العصيان) أكثر مما بطشوا بغيرهم من الطوائف الأخرى الذين شاركوا فيها، فأقصوهم إقصاءاً شاملا عن كل وظائف الدولة التى كانوا يشغلون عددا كبيرا منها، وجهدوا فى تقويض كل اوضاعهم الاقتصادية والثقافية، ثم اصطنعوا أبناء الطبقات الهندوكية المتوسطة فى الوظائف الصغيرة فلا يتخطونها أبدا إلى المناصب الكبرى التى كانت جيمها، فى الملكين المدنى والعسكرى، وقفا على المستعمرين.

حتى إذا ما أصدروا قوانين التملك الزراعى، الذى نظم للأوروبيين حقوق امتلاك الأراضى الكثيرة والضياع الواسعة بالهند، صارت أغلب الأراضى التى كان المسلمون يمارسون زراعتها، بمقتضى هذا القانون، ملكا لجباة الضرائب من الهنادكة، وانقلب زراعها الأصليون الذين صودرت أراضيهم إلى أجراء عندهم.

ولم يكتف هؤلاء المستعمرون بهذا كله بل طفقوا يزيفون تاريخ الحكم الإسلامى بالهند ويظهرون سلاطين المسلمين وعمالهم بمظهر الطغاة. ثم انطلقوا من بعد ذلك يدعون الهنادكة إلى إحياء ماضيهم القديم قصد إثارتهم بذلك على مواطنيهم من المسلمين، لينجلى ذلك، كله فيما بعد، عن مذابح رهيبة متكررة بينهم وخلافات عميقة متواصلة شغلتهم جميعا حينا طويلا من الدهر عن مناوءة الحكم البريطانى بالهند.

بعث اضطهاد البريطانيين للمسلمين فى الهند شعوراً قوياً فيهم بضرورة العمل على توحيد صفوفهم من جديد ورفع معنوياتهم وإصلاح حالهم، حتى نهض السيد أحمد خان، فى أوائل النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى، يفصح عن هذا الشعور إفصاحاً عملياً، فرسم لقومه النهج الذى يبلغ بهم إلى

تحقيق نهضتهم ، فنبههم إلى أن نفورهم من البريطانيين لا يعنى التزام العزلة والتخلف عن المشاركة فى ركب الحياة الهندية ، وأن الاطلاع على المدينة الحديثة وعلومها واقتباس الصالح منها واجب على المسلمين لا يتعارض أبداً مع التفقه فى أمور دينهم والتمسك بآداب الإسلام وتقاليده[1] . ثم اتجه من بعد ذلك إلى البريطانيين يصارحهم بتبعاتهم ويؤكد لهم عدول المسلمين عن عدائهم لهم ، حتى يخفف من حدة اضطهادهم لهم . إذ كانوا قد أبعدوهم إبعاداً شاملا عن كل وظائف الدولة وطفقوا يغلقون أبواب الرزق فى وجوههم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا — ويقيم لهم الدليل على أن عسف شركتهم البريطانية وسوء إدارتها هو الذى أدى إلى ثورة الوطنيين عام ١٨٥٧ م .

ولم يأبه السيد لاتهام بعض الرجعيين له بموالاة المستعمرين والمروق من الدين ، فشمر عن ساعد الجد فى حزم وعزم وانطلق يعمم إصلاحاته فى أغلب نواحى الحياة الإسلامية ويدعو قومه إلى الاغتراف من علوم الغرب . وراح فى مجلته « تهذيب الأخلاق » ينقد أحوال المسلمين ويتقصى الأسباب التى أدت إلى زوال مجدهم القديم ، ويعرض لكثير من الموضوعات العلمية والسياسية والاجتماعية التى يجب على المسلمين الإحاطة بأهدافها والاشتغال بها والمشاركة فيها . ودلل من خلال أبحاثه هذه على مرونة اللغة الأوردوية ، لغة المسلمين وأغلب أهل الهند ، وصلاحيتها التامة لمسايرة المدنية الحديثة . وكان من أعظم أعماله الخالدة إنشاء كلية عليكر ، بشمال الهند ، التى تحولت من بعد ذلك إلى

---

(١) كان مما احتج به فى هذا الشأن أن المسلمين حين شرعوا ينشئون حضارتهم الكبرى لم يترددوا فى دراسة كتب اليونان وسواهم من غير أهل الملة ، فلا حرج على المسلمين بهذا من دراسة كتب الغرب وعلومهم بل هو واجب عليهم : حاضر العالم الإسلامى أول ٢٧١ — ٢٧٢

جامعة عقب عودته من زيارته لبريطانيا عام ١٨٧٥ م ، وفيها قامت الدراسات الغربية والدراسات الإسلامية جنباً إلى جنب على أرقى منهج جامعى اذ ذاك[١] .

بجهود السيد أحمد خان ظهر من بين المسلمين طائفة من المفكرين والأدباء والفلاسفة الذين حملوا الرسالة من بعده[٢] ، واتسع المجال لنقل فيض من المؤلفات الأوربية النافعة إلى الأوردوية ، فضلا عن إحياء التراث الإسلامى الهندى .

ولئن كان السيد أحمد خان قد أوقف حياته على النهضة بالمجتمع الإسلامى وسعى إلى حمايته حين نادى بضرورة تمثيل المسلمين فى المجالس الهندية التشريعية بنواب مستقلين منهم ، حتى لا تطغى طائفة الأغلبية على طائفة الأقلية فى هذه البلاد التى تعد فيها العقائد أساس حياتها السياسية والاجتماعية ، وجهر بأن المسلمين والهنادكة أمتان مختلفتان تمام الاختلاف فى العقيدة والتقاليد وكل شىء ، فإن تلاميذه الذين حملوا رسالته من بعده ما غدوا أن أعلنوا أن فترة محاسنة البريطانيين ، التى فرضها رائدهم من قبل . فقد استوفت أجلها ، وأن واجب المسلمين غداً يفرض عليهم أن ينتزعوا حقوقهم من أيدى المستعمرين وكل من يقف فى سبيلهم ، حتى أفصح المفكر الملهم محمد إقبال ، وهو من أبناء جامعة عليكر ، عن وجوب قيام وطن خاص بالمسلمين وحدهم بالهند ؛ ورسم حدود هذا الوطن على الأساس الذى تقوم عليه دولة باكستان اليوم فى الغالب .

---

(١) Dunbar 556- 90

(٢) من أمثال هؤلاء السيد أمير على وخدا بخش ومحمد إقبال ومحمد على وأخوه شوكت على . وفيهم من أخرج للناس باللغات الأوربية كتباً قيمة عرفهم فأبها بروح الإسلام وحقيقته وحضارته ومدنيته تعريفاً بيناً .

ولم تكن معارضة الهنادكية لقيام دولة خاصة بالمسلمين فى الهند الا لخوفهم ،فيما ظنوا فى الغالب،من أن ينقلبوا الى مصدر متاعب لهم من جديد حين يشتد ساعدهم ويستعيدوا بعض ماضيهم من القوة ،فى حين كان البريطانيون يرون مبدئيا أن كل انقسام بين شعوب الهند فيه تحقيق لمصالحهم العليا على قاعدة الاستعمار المعروفة " فرق تسد".

ومالبث المسلمون آخر الأمر أن بلغوا بجهود زعيمهم محمد على جنه ،من ورائه الرابطة الاسلامية ،الى تحقيق قيام دولة لهم ،بعد أن أصروا على رفض جميع عروض المؤتمر الهندى،الذى كان يتزعمه غاندى ،ودستور عام ١٩٣٥م ،حتى لاتضيع حقوق أقليتهم الكبيرة فى تيار الغالبية الهندوكية ، وحتى لايكون لأحد وصاية عليهم (١). فأعلنوا مولد باكستان فى ٤ أغسطس ١٩٤٧م على حدود لا ترضيهم فى الغالب،قبلوها ليضعوا بذلك حدا للمذابح الكثيرة التى سقط فيها من المسلمين اكثر مما سقط من الهنادكه. وهى تضم كراجى،مركز حكومتها اذذاك واقليم بشاور والحدود،والسند والبنجاب فى الغرب ، وأغلب البنغال فى الشرق .

وبباكستان (٢) ماينيف على المائة وعشرين مليونا من المسلمين يعيش الى جانبهم اكثر من عشرين مليونا من اصحاب المذاهب الأخرى الهندية .ولايزال مايزيد على ستين مليونا من المسلمين يعيشون فى جمهورية الهند.

واتخذت باكستان من مدينة كراجى عاصمة لها ثم انتقلت منها الى روالبندى ثم الى اسلام اباد عاصمتها الحالية .

ومن أسف أن يشتد التناحر الحربى من بعد ذلك فى باكستان الشرقية لينتهى الحال بنجاح الشيخ مجيب الرحمن زعيم حزب عوامى فى هزيمة قوات الدولة - حيث ناصرته جمهورية الهند بقواتها ،والروس بأسلحتهم ، ومن ثم اعلن استقلال باكستان الشرقية واتخذ من مدينة دكا عاصمة لها. وصارت هذه الدولة الجديدة تعرف باسم بنجالادش .

وفى فبراير عام ١٩٧٤ أعلن ذوالفقار على بوتو رئيس وزراء باكستان فى مؤتمر القمة الاسلامى ابان انعقاده بلاهور اعتراف حكومته بدولة بنجالادش الجديدة حفاظا منه على وحدة صفوف المسلمين.

---

(١) Moreland 463 - 501

(٢) باكستان هى الارض الطهور - واسمها جماع الحروف الاولى من اسماء المقاطعات التى تتكون الدولة منها .

مشكلة كشمير

عندما قسمت شبه القارة الهندية عام ١٩٤٧ إلى جمهوريتي باكستان والهند أخذ الزعماء في هاتين الجمهوريتين يرددون عبارات الود والتمنيات الطيبة كل بالنسبة لجارته . على أن جمهورية الهند الهندوكية الجديدة مالبثت أن انطلقت تقيم العراقيل في وجه جارتها باكستان التي ظفرت بوجودها بالرغم منها . فمن ذلك أنها ظلت تسوف في دفع ماقدر لباكستان في مال الهند وهو أربعون مليونا من الجنيهات يمثل ٥ر١٧٪ من الاحتياطي حتى أخذ غاندي نفسه في الصوم إذ ذاك لوضع حد للخلاف بين البلدين . بل لقد قامت المذابح في البنجاب الشرقية بين المسلمين والسك من جديد ، كما اضطر مائة ألف من سكان دهلي المسلمين إلى الاحتماء بالقلاع القديمة هناك حتى يرحلون إلى باكستان . وانتهى الأمر بين الدولتين — وقفا للمذابح — إلى إخلاء المسلمين للبنجاب الشرقية على أن يخرج كل الهنادكة من البنجاب الغربية . وتبادل الفريقان في ذلك ستة ملايين من السكان .

ولم تنته هذه المحنة الرهيبة حتى قام مايشبه الحرب الاقتصادية بين الدولتين فقد امتنعت الهند عن شراء الحبوب والقطن من باكستان وعدم تصدير الفحم لها ، في حين امتنعت باكستان بدورها عن مد الهند بالجوت ، وكانت الهند في ذلك هي الخاسرة ، إذ كانت الأسواق مفتوحة أمام باكستان لتصريف منتجاتها .

ولئن أمكن تسوية هذه المشاكل الاقتصادية فيما بعد ، فإن أصعب ماواجه

البلدين كانت مشكلة الإمارات الهندية التي كانت ترتبط مباشرة بالتاج البريطاني.
فلقد نص قانون استقلال الهند على أن تظل مثل هذه الإمارات حرة أو تنضم إلى إحدى الجمهوريتين على أساس عقيدة غالبية السكان فيها بصرف النظر عن عقيدة أميرها ، إذ المعروف أن الاستعمار البريطاني كان يحرص على تنصيب أمراء من غير أصحاب الديانة الغالبة في كل إمارة حتى يضمن ولاءهم له من جهة ، وحتى يستخدمونهم في الضغط على الأهلين من جهة أخرى . وبرغم سكوت باكستان على ضم الهند لإمارة حيدر آباد الدكنية إليها ، تلك الولاية التي كانت برغم هندوكية أغلب سكانها كانت تعد أهم مراكز الثقافة الإسلامية هناك ، فقد راحت الهند كذلك تطالب بإصرار بضم إمارة كشمير إليها ، وهي التي يبلغ عدد سكانها أربعة ملايين ٨٠٪ منهم من المسلمين ، وذلك بدعوى سيطرة السك عليها في القرن الماضي وخضوعها في الوقت الحاضر لحكومة المهراجا هاري سنغ منذ عام ١٩٢٥ . وفي هذا تقول باكستان أن المسلمين حكموا كشمير أكثر من خمسة قرون ، وأن ثمانين في المائة من سكانها مسلمون ، وهي فضلا عن ذلك تعد من الناحية الجغرافية جزءا متمماً لباكستان ، فالحدود بين كشمير والهند وعرة جدا لا تخشى الهند منها شيئاً ، في حين تتصل كشمير بباكستان بسهول فسيحة تجري فيها ثلاثة روافد للسند تحمل محصول الأخشاب أهم محاصيل كشمير . هذا كما تعد باكستان السوق الطبيعية لتصريف فواكه كشمير ثاني محاصيلها المهمة ، هي والصوف والبسط (السجاجيد) . وأنهار كشمير هذه يتوقف عليها سقي تسعة عشر مليونا من الأفدنة بباكستان ، فلو أن كشمير ضمت إلى الهند لكان معنى هذا التهديد بانقطاع الماء عن كل هذه الأراضي عند حدوث أي خلاف بين البلدين . وقد حدث بالفعل خلاف شديد على مياه روافد سندية أخرى تجري بالأراضي الهندية قبل دخول باكستان ،

واضطرت باكستان إلى دفع رسوم كبيرة ثمنا لما تسحبه من مياه هذه الأنهار، مع أن المعروف أن المياه المشتركة هي أنهار دولية.

ولقد كان أهل كشمير، وأغلبهم من المسلمين، يعتقدون أن الوضع الطبيعي لبلادهم هو انضمامهم إلى باكستان، وذلك بالقياس على ما نادت به الهند نفسها واعتقدته بدورها من حقها في ضم الولايات ذات الأغلبية الهندوكية إليها. على أن المهراجا الهندوكي هاري سنغ، وهو الذي كان يخص نفسه ورجاله بـ ٨٠ ٪ من إيرادات كشمير، رأى أن يستنجد بالهند وجيوشها لدخول بلاده. وأدى سلوكه هذا إلى ثورة المسلمين عليه هناك ثورة عارمة انتهت باستيلائهم على السلطة في المناطق الغربية حيث كونوا حكومة كشمير الحرة برئاسة السردار محمد إبراهيم.

وما غدت قوات الهند أن أخذت تتوغل في مناطق الجنوبية والشرقية. وحين أرادت باكستان أن ترد على صنيع الهند هذا، انبرى الفيلد مارشال أوكنلك يعلن أن عمل الهند هو عمل مشروع وهدد في ذلك بسحب الضباط البريطانيين من جيش باكستان وكانوا إذ ذاك يضطلعون بمراكز رئيسية فيه. وحين اتيح لقوات باكستان دخول كشمير من بعد ذلك، كانت القوات الهندية قد سبقتها إلى كسب عدة مراكز هامة.

وبرغم وقف القتال بين الطرفين في يناير من عام ١٩٤٩ واتفاق الطرفين على مبدأ الاستفتاء بتدخل هيئة الأمم المتحدة فلا تزال هذه المسألة دون حل حتى اليوم.

ومما هو جدير بالذكر أن باكستان تحتج فى ذلك بأن الهند حاولت أن تكسب تأييد أمريكا وبريطانيا فى هذه المسألة فبادرت بالاعتراف بإسرائيل بدعوى الأمر الواقع مع أنها لم تكن بدورها قد اعترفت إذ ذاك بالصين الشعبية ، فى الوقت الذى أعلنت فيه باكستان صراحة رفضها الأكيد الاعتراف بإسرائيل حتى لو اعترفت كل البلاد العربية نفسها بها .

حضارة الدولة المغولية

أقبل المسلمون ، منذ فجر الإسلام ، على الإفادة من حضارة الفرس واليونان بعد أن اظهروا عليها ، فلما دخلوا الهند وتوغلوا فى أراضيها واستقروا بها ومعهم ثقافتهم المزدهرة ، اشتاقوا كذلك إلى التعرف على ما عند الهنود من ثقافة ومدنية سمعوا الكثير عنها ووقفوا على قدر منها فى بلادهم .

ونشأ عن امتزاج حضارة الحاكمين بحضارة المحكومين القديمة ومدنيتهم حضارة ثالثة : اشتملت على عناصر هاتين الحضارتين ، هى ما تعرف باسم الحضارة الإسلامية الهندية التى بدت فى أكمل صورها فى عهد الدولة المغولية التى أقامها السلطان التيمورى ظهير الدين محمد بابر وخلفاؤه ، فظلت تحكم هناك قرابة ثلاثة قرون .

جمع هؤلاء السلاطين البابريون فى أشخاصهم كثيرا من الصفات المتناقضة التى ورثوها عن أبيهم الأكبر تيمورلنك ، فكان فيهم وحشية وتسامح ، وجبروت وحلم . كانوا يقيمون من هامات المقهورين على هيئة الأهرامات والمنائر ولا يجدون فى ذلك حرجا ، ثم يشيدون ، إلى جانب أكداس القتلى ، منشآت الحضارة والمدنية ويبالغون فى حبهم وبذلهم للآداب والعلوم والفنون والمشتغلين بها . بل إنهم ليسعون إلى العلماء يشاركونهم الدرس ويدعونهم من أقصى الأرض إلى بلادهم . وعلى هذه الخطة وفد إلى بلاط الهند صفوة من علماء العرب والفرس والترك ليساهموا بجهودهم فى بناء الحضارة الإسلامية الهندية هناك .

وأدى التسامح الذى اشتهر به سلاطين الدولة المغولية[1] ، إلى العمل على تقريب سكان الهند إليهم فى الغالب ، حتى أصهروا إليهم ، وتبعهم رجالهم فى ذلك ، وفتحوا لهم أبواب المناصب فى الدولة ، فساعد ذلك كله على نشر الإسلام بالهند حتى كانت غالبية المائة والعشرين مليون مسلم الغالبة بشبه القارة الهندية اليوم من أصول هندوكية خالصة .

وإذا كان بابر مؤسس هذه الدولة لم يطل به الأجل بعد إقراره للأمور فى الهندستان ، وإذا كان ابنه همايون قد أمضى عمره فى صراع متواصل من أجل عرشه ، فإن جلال الدين أكبر ، ثالث السلاطين ، هو أول من أفصح عن التسامح المطلق وجهر بالتآلف فنادى بأن الهند للهنود من أهلها مسلمين وهنادكة . وهو الذى بلغ كذلك بالدولة المغولية ذروة المجد والرقى . فقد نهض بالفنون والعلوم والآداب نهضة شاملة ، وزين الهند بكثير من المنشآت الفخمة وأرسى جهاز الحكم على نظم لائمت شعبه وأذاعت شهرته ، وقلده فيها الذين حكموا من بعده .

نظام الحكم : كانت السلطات جميعها فى الدولة ، من عسكرية ومدنية ودينية ، فى قبضة السلطان ، على الرسم الغالب فى تلك العصور ، وفى البلاد الاسلامية على الخصوص ، وكان هواه هو دستوره وتشريعه . فطالما كان الجالس على العرش من أولى العزم والقوة ، كان التماسك يعم الدولة الإسلامية كلها فى الهند ، وإلا فإن حكام الولايات كانوا يسعون إلى إعلان إستقلالهم وتأسيس

---

(١) يجمع المؤرخون على بعد سلاطين الدولة المغولية عن التعصب الدينى ، فارس الأهلون فى عهدهم طقوسهم الدينية بحرية تامة فى الغالب .

Havell 426- Prasad 286,7

إمارات لهم من فورهم ما أتيحت لهم الفرصة بذلك . وعلى هذا القياس ازدهرت الدولة المغولية أيما ازدهار عندما كان على رأسها رجال أقوياء كبار ، وسقطت عندما خلت من مثلهم .

أما الوزراء والولاة والقادة والأمراء فكانوا صنائع للسلطان في الغالب ، يرفع من قدرهم ويخفض كيف يشاء ، ويهبهم من أراضي الدولة، التي هي جميعها بداهة ملكه ، حين يشاء وبقدر ما يشاء ، ويستردها كذلك على مشيئته .

هذا ؛ وكانت أراضي الدولة على ضربين ، منها ما يقطع للقادة والأمراء على أن ينفقوا من دخلها على جندهم الذين يساهمون بهم في حروب الدولة ، ويدفعوا نصيبا آخر معلوما من المال كذلك إلى بيت المال في كل عام ، ومنها ما يستأجره الملتزمون على بدل سنوي يؤدونه . وكان هؤلاء جميعا ذوي سلطان مطلق على الأهلين بمناطقهم في الغالب .

وعدل أكبر نظام الإقطاع هذا إلى تقسيم البلاد إلى ولايات عليها نواب وعمال له ، على النظام الذي بيناه في موضعه سالفاً ، وأنشأ جيشا قويا مدربا يتبعه رأسا وتقوم الدولة بدفع رواتب أفراد قواته من خزانتها[1] . ونهج خلفاؤه نهجه في الغالب حتى جاء أورنكزيب عالمكير فرجع إلى النظام الأول .

وأدى اهتمام الحكام المغوليين والسوريين[2] بالوقوف السريع على كل ما يجرى في مختلف أنحاء بلادهم الواسعة ، إلى تنظيم شئون البريد تنظيما محكما ، وتمهيد الطرق والإكثار منها وتزويدها بعلامات يهتدى بها السعاة والمسافرون.

---

(١) انظر ذلك كله بالتفصيل في الفصل الخاص بأكبر .

(٢) السوريون هم آل شيرشاه وأولاده .

وأقاموا على هذه الطرق منازل كثيرة لنزول الناس والدواب ، وأباحوها جميعا للسلمين والهنادكة . وأدى قيام هذه المحطات إلى تجمع صغار التجار عندها ورواج أحوالهم بالتالى .

وقد أعجب بهذه الطرق الرحالة الفرنسى تافرنييه ، الذى ساح بالهند فى أواسط القرن السابع عشر الميلادى ، وصرح بأنها كانت خيراً من طرق فرنسا وإيطاليا إذ ذاك وأكثر أمنا[1] .

وعنى هؤلاء السلاطين جميعا كذلك بإقامة العدل بين رعاياهم وانتشار الأمن فى ربوع بلادهم ، وألزموا التجار والصيارفة بمراعاة الأمانة ، وراقبوا سلوك عمالهم مراقبة دقيقة فى الغالب ، فلم يترددوا فى أن ينزلوا بهم أشد العقاب حين كانوا يتحققون من ظلمهم للأهلين أو اعتدائهم على أملاكهم أو أموالهم .

المجتمع : إن مؤرخى الهند عامة لم يعنوا فى الغالب إلا بحياة الحكام والسلاطين وأعمالهم وفتوحاتهم ، وما يتصل بذلك من حياة الولاة والقواد وأعمالهم ، فلم يلتفتوا ، إلا فى النادر ، إلى الكتابة عن شعوب هذه البلاد وأحوالها الاجتماعية فى شىء من التفصيل يذكر ، اللهم إلا قلة يسيرة من المسلمين وفيهم أبو الفضل ابن المبارك ، مؤرخ أكبر ووزيره ، الذى تعد تدويناته من المصادر المهمة التى وصلتنا فى هذا الباب ، هى وما كتبه فريق من الأوربيين من التجار والمبشرين الذين وفدوا على تلك البلاد فى العصر الوسيط وما تلاه .

---

(١) حضارات الهند ٤٢٨

والمجتمع المغولى فى الهندستان ، كما قلنا من قبل ، مجتمعا إقطاعيا خالصا رأسه السلطان الذى كان يضفى فى العادة على بلاطه من ضروب الأبهة والعظمة ما خلب لب الذين أتيح لهم الإطلاع عليها وأدهش وصفه كل من سمع بها ، ففى بلاطه كان يتجلى بهاء الدولة ومجدها ورواؤها ، ومنه تشع علامات المدنية وتنبثق آلاء الثقافة ، وفيه تروج أنواع المعارف ، وعنده وفى كنفه يعيش رجال العلوم والآداب والفنون .

ومن بعده يأتى الأمراء ورجال الدولة الذين كانوا على دين سلطانهم فى الغالب فى البذخ والترف والإسراف ، حتى كانت قصورهم تزدحم بالجوارى والغلمان وتتبخم بكل طريف أو فريد من الأثاث والمتاع ، وتفيض موائدهم بأطايب الطعام ، وإلى جانبها أكداس من الفاكهة المنوعة النادرة ، المستوردة من بخارى وسمرقند ، والأنبذة والأشربة الفاخرة التى لم يلتفت إلى تحريمها أحد من سلاطين المغول تحريما جديا بالهند إلا أورنكزيب .

ولعل استيقان هؤلاء الأعيان من مصادرة السلطان لأموالهم واملاكهم بعد موتهم ، على العادة الغالبة إذ ذاك ، أو حتى وهم على قيد الحياة حين يبلغ بعض الوشاة إلى الإيقاع بهم عنده ، كان ذلك يدفعهم فى الغالب إلى إنفاق أموالهم فى مثل هذه الوجوه فى إسراف بالغ .

وكان التجار بدورهم يحرصون ، ولا سيما فى المناطق البعيدة عن العاصمة ، على إخفاء أموالهم عادة فلا يصادرها حكامهم حين تشتد حاجتهم إلى المال أو يدفعهم جشعهم إلى طلبها .

هذا ؛ وكان أوسط الناس وأصحاب الحرف والصناعات يعيشون فى الغالب عيشة تتراوح بين الميسرة والمعسرة . أما أبناء الطبقات الدنيا وأصحاب

الحرف الدنيئة ، ومنهم خدم الأمراء والحكام وأجراؤهم ، فكانوا فى شظف من العيش والذل مقيم ، لاينالون إلا وجبات غذائية قليلة هزيلة وأجور ضئيلة ، حتى كادت الأمانة تنعدم بينهم بدافع من حاجتهم إلى سد رمقهم وإجابة مطالب ذويهم . ومع هذا فيقول بعض المؤرخين بأن حالتهم برغم ذلك كله كانت أفضل بكثير منها فى العصور الحديثة[1] .

وكانت طبقات الشعب هذه ، ومعها الزراع واجراء الأرض ، هم أتعس الناس حظا وأشدهم بؤساً حين تجتاح الهند المجاعات بسبب انحباس الأمطار الموسمية وما ينجم عنها من شح الأقوات وانتشار الأوبئة الفتاكة .

وقد ألتفت أكبر ، وأولاده من بعده ، فى الغالب ، والتفاتاً جدياً إلى العناية بأمر هذه الطبقات والعمل على تحسين أحوالها ومد يد العون لها عند المجاعات والقحط[2] .

الصناعات : كذلك كان أكبر هو أول من عنى بأمر الصناعات الهندية ونهض بها ، فكان عنده ، كما يروى مؤرخه أبو الفضل ، مائة مصنع للنسيج والأسلحة والصباغة ، كل واحد منها كالمدينة فى اتساعه[3] . ومنها ما كان يمد السلطان فى كل عام ألف حلة ليخلع أغلبها على رجاله .

وكانت أهم مراكز الصناعة المنولية هى فى لاهور وآكرا وفتحبور وأحمد آباد ودكا . وكثير منها كان يصدر المنسوجات الفاخرة والسجاد إلى الخارج .

---

(١) Muslim Rule 673

(٢) Eb. 546

(٣) آيين أكبرى — آيين ٩

كذلك كانت الهند تصدر الصوف والنيلة والتوابل ، وتقايض عليه فى موانئها بالكماليات الشرقية والغربية التى اقتضتها حياة البذخ والإسراف التى كان يحياها حكامها والتى كان من مساوئها دخول الطباق إلى هـذه البلاد مستهل القرن السابع عشر الميلادى لتزرعه فى أراضيها من بعد ذلك .

العمارة . أدى كلف الباربين البالغ بالحضارة والمدنية إلى أن إلتفتوا إلى تعمير مدنهم وشغفوا بالعمارة شغفاً بالغاً ، حتى ظهر فى عهدهم طراز معمارى ، هو مزيج من فنون المسلمين فى الغالب وبعض الفنون الهندوكيه ، فشاع فى العالم باسم الطراز المغولى ، ويتميز بالقباب البصلية الشكل والترصيع بالحجارة الكريمة والميناء والخزف ، والأقواس الحادة ، والأبواب الضخمة التى تعلوهـا نصف القبة .

لقد انتقد ظهير الدين بابر أبنية الهند منذ دخلها انتقاداً شديداً وأظهر امتعاضه من عمارتها ، ولم يمنعه اشتغاله بحروبه المتواصلة فى هذه البلاد من إقامته من المنشآت على الطراز التيمورى الذى عرفه فى موطنه الأول ببلاد ما وراء النهر وصادفه فى مواضع كثيرة بخرسان وكابل ، حتى ليذكر فى سيرته أنه كان يستخدم ٦٨٠ من النحاتين فى بناء قصوره ، بخلاف ١٤٩١ آخرين كانوا يعملون فى منشآته الأخرى من الخزانات والمساجد بآكرا وبيانه ودهولبور وكواليار[1] . ولم يبق من منشآته الكثيرة هذه إلا مسجد كابلى باغ فى بانى بت والمسجد الجامع فى سنبهل . [illegible] من بعده [illegible] أكبر [illegible] الهندستان بعدة منشآت ضخمة جاءت عمارتها آية فى الإعجاز الفنى . وقد بقى منها حتى اليوم ضريح همايون وبعض قصوره فى فتحبور سكرى ثم بآندور وانزه

(١) بابر نامة ٢٩١ ب

(البوابة الكبيرة) التي أقامها تذكاراً لفتوحاته الدكنية والتي تعد بارتفاعها الذي يبلغ ١٧٦ قدما وحليتها مثالا لروعة العمارة الهندية كلها . ويقوم غير بعيد منها ذلك المسجد الجامع ، الذي حاكى به في تصميمه البيت الحرام ، ثم حصن آكرا الذي استغرق بناؤه سنوات ثمانية .

ومما يذكر في هذا الصدد أن أكبر لم يغفل في عهده عن مراقبة أسعار مواد البناء حرصا منه على تيسير الحياة لشعبه .

وما أذاع صيت العمارة المغولية في الخافقين هو « تاج محل » ذلك المثوى البديع الذي شيده شاهجهان لزوجته ، أرجمند بانو ممتاز محل ، فقام مثالا على الروعة في البناء وفي الوفاء ، حتى رجح بعض المؤرخين ، خطأ ، استعانة شاهجهان في إقامته بالفنانين الإيطاليين ، كما نسبوا إلى بابر من قبل استخدامه لتلاميذ سنان ، معماري العثمانيين ، المشهور .

والثابت المعروف أن هذا البناء ، الذي يعد بحق من روائع الفن المعماري المعدودة ، هو في تصميمه وتنفيذه إسلامي خالص .

ومن منشآت شاهجهان الخالدة مدينة دهلي الجديدة ، التي عرفت في عهده باسم شاهجهان آباد ، والتي خططها على أحسن نمط في عصره وأقام بها عدة قصور فخمة له ولأمرائه ، وخص التجار وأصحاب الحرف والصناعات والفنانين من نقاشين وغيرهم ، كل فريق منهم بحاجته ، ليبهروا من بعد ذلك بمنتجاتهم ورواء مدينتهم أنظار الأوربيين الذين زاروها إذ ذاك (١) .

---

(١) Lane-Poole 567-72

ونالت آكرا بدورها كذلك الكثير من عناية السلطان حتى أشاد الرحالة الألمانى مندلسلو بنظافة طرقها الممهدة وجمال أبنيتها واتساع رقعتها، وأحصى بها إذ ذاك سبعين مسجداً وثمانمائة حماماً (١).

وبموت شاهجان، وارتقاء ابنه الصوفى أورنكزيب عالمكير العرش من بعده وضعف خلفائه، فتر اهتمام الدولة بالتعمير والبناء.

وقلد الأمراء المسلمون، فى مختلف الإمارات الهندية، طراز العمارة المغولية، فظهرت أمثلة منها رائعة فى بيجابور وغولكونده وأحمدنكر وبرار وبيدار وتخطتها إلى نيبال، بسفوح الهملايا، التى لم يدخلها المسلمون، فضلا عن إمارة فيايانكر بأقصى الجنوب.

النقش: كان طبيعيا أن يستتبع شغف سلاطين الدولة المغولية بالعمارة شغفهم كذلك بفن النقش والعناية به، وأخذت مدرسته عندهم طابعها المغولى الخاص بها حتى أفرد لها أرباب الفنون باباً خاصا بها وتحدثوا فى أسفار كاملة عنها (٢).

فهذا جدهم بابر قد جلب معه إلى الهند جملة من روائع النقوش التى كانت فى حوزة الأسرة التيمورية، ومن بينها لوحات لبهزاد مصور السلطان حسين بيقرا، الذى يصفه عمداء الفنانين بأنه رفائيل الشرق (٣)، كما استصحب همايون معه فى عودته من المنفى إلى الهند النقاشين المشهورين سيد على تبريزى وخواجه

---

(١) Lane-Poole 333. 5

(٢) L. Binyon. The Court Painters of the Grand Moghul. Oxford 1921.

(٣) لهذا النقاش لوحات عدة بأشهر متاحف الفنون وهو يتأثر فى نقوشه بمذهب الصوفية الفارسية، فهو بذلك من مدرسة رمزية.

عبد الصمد ، ليجيء ابنه أكبر من بعد ذلك فيقرر أن التصوير نوع من العبادة ، وأن للفنان ، فيما يبدو له ، طريقته الخاصة للاقرار بوحدانية الخالق المبدع ، فهو حين يصور الكائنات وينقش أطرافها وملامحها على لوحته لا بد وأن ينصرف بذهنه إلى التفكر في إبداع خالقها الذي نفخ فيها بما يعجز هو عن تصويره وابرازه .

وهو بعد ذلك يقيم ببلاطه معرضاً للنقوش في كل أسبوع ويجيز المجيدين من أصحابها تشجيعا لهم ، بل إنه ليستهوى نوابغ النقاشين من خارج الهند بالمنح والعطايا ليفدوا إليه ، كما يمد تشجيعه وعنايته إلى فنانى الهنادكة ويحضهم على التعمق في تفهم فنونهم القديمة ودراستها ، فكان من نوابغهم ببلاطه دسونت وبساوت وسنول وتراشندوحكنات ، إلى جانب عبدالصمد وميرسيد على وفرخ بك ومحمد نادر وأستاذ منصور .

وقد عهد أكبر إلى نقاشيه بتصوير وقائع جنكيز نامه ، وظفر نامه ، ورازنامه ، وهى جميعاً من مؤلفات المسلمين . ثم المهابهارتا والرامايانا . ملحمتى الهنادكة اللتين كان قد أمر بنقلهما وبعض كتب هندوكية أخرى إلى الفارسية ، فزينت كلتا بنقوش تصور حوادثها [1] . وقد تأثر بعض هؤلاء النقاشين بالفنون الأوربية التى كان البرتغاليون قد جلبوا معهم إلى الهند بعض نماذج منها .

وورث جهانكير عن أبيه كثيراً من أحاسيسه الفنية حتى كان في مقدوره

---

١) بداونى ثان ٣٢٠ ، ٣٣٦

أن يتعرف في يسر على مقومات كل فنان وخصائصه حتى حين يشارك غيره في نقش واحد [1].

وبلغ الفنانون والنقاشون في عهد أورنكزيب بفن الخط وزخارف الكتب مرتبة الأعجاز الفني الرائع، وساهم السلطان نفسه معهم بنصيب ملحوظ في نسخه للقرآن الكريم في إبداع مشهور.

وتخلف عن فناني الدولة المغولية لوحات كثيرة سجلت كثيرا من مظاهر الحياة في البلاط وفي المجتمع الهندي، بل وفي البيئة الهندية كلها باشجارها وأزهارها وطيورها وفيولها، تجدها اليوم هي وزخارفهم قد أزدانت بها متاحف العالم الكبرى.

حدائق المغول: يتمثل كلف سلاطين الدولة المغولية بالجمال، وحبهم للطبيعة ومباهجها، في حدائقهم التي أقاموها في مواضع كثيرة بالهند حتى ذاع صيتها وأقبل الأوربيون في إيطاليا وبلاد الانجليز، على الخصوص، يحتذون نمطها ويزينوا بها كثيراً من مدنهم.

فهذا بابر نراه في مواطن كثيرة بسيرته لا يفتأ يتغنى بما أبدعته الطبيعة من آلائها. حتى إذا ما دخل الهند فشاهد حدائقها لأول وهلة، انتقدها انتقاداً شديداً لسوء تنسيقها وخلوها من الماء يجرى في جداولها بين الخمائل « وأين هي من مغاني فرغانه وكابل ». وما غدا أن أنشأ بالهندستان عدداً من البساتين والمنتزهات ما حاكى بها رياض مواطنه، فكان من بينها جارباغ الكابلي

---

(١) واقعات جهانكيرى ٣٥٩، ٢٠٠

بظاهر آ كرا الذى جعله على نمط نظيره بكابل وجلب إليه كثيراً من النباتات والأشجار التى لم تكن الهند تعرفها من قبل[1] .

وورث عنه حفيده شاهجهان شغفة بالنباتات والحدائق والأشجار وكلفه بدراستها تفصيلا[2]، كما استهوت مغانى كشمير، بفتنتها، الأمراء البابريين جميعا فكانوا يسارعون إليها فى كل صيف طلبا للانتجاع والمتعة، حتى أقاموا على غرارها بلاهور، قصبة البنغال، شالمار أخرى حاكوا به نظيرتها فى التبت بأشجارها وجداولها وشلالاتها ومدرجاتها .

وما زال الشعراء حتى اليوم يتغنون فى الفارسية والأوردوية بمفاتن هذه الرياض وجمالها .

الموسيقى هنا : والمطلع على موسيقى الهند اليوم لا يستطيع أن يغفل أمر المؤثرات الإسلامية التى حملت فيها، سواء فى ناحية الأصوات أو ناحية الآلات .

ومن المشهور كذلك أن سلاطين المغول كانوا على ولع شديد بالعزف والغناء، باستثناء أورنكزيب عالمكير الذى سرح الموسيقيين والشعراء من بلاطه . فهذا بابر قد روى عنه تأليفه لبعض الأصوات، فى حين كان ابنه همايون يعقد ندوة موسيقية ببلاطه فى يومى الإثنين والأربعاء من كل أسبوع : أما أكبر فقد استقدم إلى بلاط مشاهير الموسيقيين رجالا ونساء، من كشمير

---

(١) بابر نامه ٣٨٠ ب

(٢) واقعات جها نكيرى ٣٠٤ ، ٣٢٨ ، ٣٤٨ ، ٣٧٠

وإيران . ولايزال مثوى مطربه ميان تانس بكَوالبار مزاراً يقصده موسيقيو الهند حتى اليوم .

وفى إقبالنامه جهانكيرى ، لمعتمد خان ، تفصيل لنشاط الموسيقيين ببلاط جهانكير ، وقد كلف هذا السلطان نفسه بالموسيقى حتى ألف فيها أصواتا كثيرة .

وفى عهد الدولة المغولية أدخل إلى الهند كثير من الالات الموسيقية ، مثل الرباب والسرود والدلربى والطاووس ، وجميعها فارسية الأصل[1] ، وألف ، كثير من الأسفار فى هذا الفن تزخر بها مكتبة فيض بآكرا اليوم ، ولايزال إلى وقتنا هذا للألحان المغولية رواج بالهند .

الحركة الفكرية : لم يبد سلاطين الدولة المغولية رعاة للحركة الفكرية فى الهند وحماة للعلوم والآداب فحسب ، بل كان منهم من ساهم بقلمه فيها وأخرج للناس كتباً قيمة . فمن ذلك السيرة الفذة التى أنشأها بابر عن نفسه فأفصحت عن إحاطته الواسعة بالتاريخ وتقويم البلدان وكثير من العلوم العقلية والنقلية ، وتمكنه التام من الآداب العربية والفارسية والتركية . كذلك كتبت ابنته كلبدن بيكم ، هما يونامه التى تعد مرجعاً وثيقاً فى تاريخ ثانى سلاطين المغول . وشغف مثلها بالآداب كثيرات من نساء البيت المغولى ، أشهرهن زيب النسا ابنة عالمكير التى كانت تقرض الشعر باللسانين العربى والفارسى فى رقة وعذوبة أودعتها ديوانها المشهور « ديوان مخفى » .

هذا ؛ وكان همايون يحرص فى أسفاره على إلا تفارقه مكتبته الخاصة ،

---

(١) Legacy of India p 209

وكان يميل بخاصة إلى المصنفات الجغرافية والفلكية ، ولم يكن جوهر صاحب تذكرة الواقعات إلا تابعاً من أتباعه ومقدم شرابه[1].

وصادفت سوق الثقافة والحياة الفكرية رواجا منقطع النظير عند أكبر ، أعظم ملك عرفته الهند ، حتى أوقف المؤرخ عبد القادر بداونى المجلد الثالث من كتابه ، منتخب ، على ذكر رجالها والمشتغلين بها فى عهده . فكان من أعلامهم ملا داود صاحب تاريخ الفى ، وأبو الفضل بن المبارك صاحب أكبر نامه وآيين أكبرى — والكتاب الأول يستعرض فيه تاريخ الدولة المغولية منذ نشأتها ، فى حين يتحدث فى الكتاب الثانى عن رسوم هذه الدولة وتقاليدها ونظم الحكم فيها ومظاهر المدنية عندها — ثم أخوه أبو الفيض فيضى الشاعر الطبيب الرياضى ، ونظام الدين أحمد صاحب طبقات أكبرى ، ومحمد عبد الباقى صاحب مآثر رحيمى ، ومحمد قاسم هندوشاه صاحب تاريخ فرشته .

وأغلب هذه الكتب قد نشرتها المطابع ونقل بعضها إلى لغات كثيرة ، وجميعها قد صنف بالفارسية التى كان لها ولآدابها رواج عظيم ومركز ممتاز بالهند أيام الحكم الإسلامى بعامة وفى عهد الدولة المغولية بخاصة ، حتى أقبل كثير من الهنادكة على دراستها واشتهر نفر من براهمة كشمير بإجادة النظم بها .

وبلغ من تقدير أكبر للعلماء أن استبد به الحزن حين بلغه خبر مقتل وزيره ومؤرخه أبى الفضل ، حتى ود لو كان هو المقتول مكانه ، فنوابغ العلماء — على حد قوله — لا يجود بهم الزمان إلا فى القليل النادر بخلاف الملوك وإن صلحوا .

---

(١) كان لبابر كذلك مكتبة قيمة عليها قيم يدعى عبد الله كتابدار

ولأكبر يدين المناركة ببعث آدابهم السنسكريتية وإحيائها من جديد ، وظهور طبقة ممتازة من كتابهم وشعرائهم . وبفضل نظرته المتسامحة وتشجيعه أقبل فريق من المسلمين أنفسهم على الاشتغال بتلك الآداب ، حتى نظم الشعر بالسنسكريتية الوزيرُ عبد الرحيم خانخانان الذى نقل بابرنامه من الجغتائية إلى الفارسية على ما أشرنا إلى ذلك من قبل .

وفى عهد جهانكير كتب معتمدخان تاريخه المعروف باقبالنامه‌جهانكيرى وكامكارخان مآثر جهانكيرى ، والشيخ نور الحق زبدة التواريخ ، كما ألف فى عهد شاهجهان ، بادشاهنامه لعبد الحميد لاهورى ثم لأمين قزوينى ، وشاهجهاننامه لعنايت خان وعمل صالح لمحمد صالح .

هذا : كما كتب دارا شكوه بن شاهجهان بعض كتب فى التصوف المقارن مثل « مجمع البحرين » ، وترجم لجمهور من أهل التصوف فى كتابه « سفينة الأولياء » . ودفعه شغفه بالاطلاع على فلسفة الهند القديمة وعقائدها إلى أن عهد إلى بعض المترجمين بأن ينقلوا إلى الفارسية قدراً من كتبها مثل اليوپانيشاد وبهجفادجيتا ويوجاماشيست .

حتى إذا بلغنا عصر أورنكزيب وجدنا عنده من المؤرخين محمد هاشم المعروف بخافى خان صاحب منتخب اللباب وسجن راى‌خترى صاحب خلاصة التواريخ ، ثم محمد مستعد خان صاحب مآثر عالمكير ومحمد كاظم صاحب عالمكيرنامه . وأشهر ما كتب فى عهد هذا السلطان هو الموسوعة الفقهية الكبرى ، المعروفة بالفتاوى الهندية أو العالمكيرية التى عهد بتأليفها إلى فريق من خيرة علمائه ، وبذل لهم فى سخاء ، فأجملوا فيها الفقه الحنفى كله إجمالا شاملا . ولم يمض على الفراغ من تأليفها أكثر من قرن ونصف القرن حتى

طبعت فى القاهرة ونشرت ، وذلك قبيل منتصف القرن التاسع عشر الميلادى مما يدل على قيام الروابط الثقافية الوثيقة بين الشعوب الإسلامية برغم بعد الشقة بينها ، وما أصابها من انحلال وضعف فى ذلك القرن . ويعد هذا الكتاب من أهم المراجع التى اعتمد عليها المصلحون فى السنين الأخيرة لإصلاح قوانين الأحوال الشخصية بمصر .

اللغة الأوردوية : كان من أجلى مظاهر التجاوب القوى بين الثقافتين الهندية والإسلامية وآدابهما ، تطور اللغة الأوردوية ، أوسع لغات شبه القارة الهندية انتشاراً ، والتى تعد مزيجاً من لغات الحاكمين والمحكومين ، أى من الفارسية أساساً ، وما تسرب إليها من ألفاظ عربية كثيرة ومصطلحات اللهجات اللهجات المحلية الهندية [1] .

فقد بدأت ألفاظ كثيرة من لغات الفاتحين تتسرب إلى لهجات الهند منذ أن غزا محمود الغزنوى هذه البلاد واستقر خلفاؤه من بعده بها ، كما غدت ألفاظ وعبارات هندية بدورها تجرى على لسان المسلمين فى الهند ، حتى تمكن فريق منهم من آداب البلاد المفتوحة تمكناً بيناً ظهرت آثاره عند خسرو الدهلوى الذى كان ينظم الشعر بالفارسية والبهاشا ، لهجة دهلى ، على الأوزان السنسكريتية فى القرن الرابع عشر الميلادى .

فى الالتحاق بالدواوين ، وجاء سلاطين المغول يفتحون لهم الأبواب إلى

(1) اللهجات الهندية هى فى الغالب خليط من اللغات الدراويدية والآرية عدا قديماً السنسكريتية . وقد بقيت السنسكريتية الأدبية الخالصة وقفاً على أبناء الطبقات العليا منذ أن وضع دستوره ، الذى نظام الطبقات فعزلت نفسها بذلك فى الغالب عن عامة الناس

المناصب ويعنون بالنهضة بالآداب الفارسية والسنسكريتية على السواء ، ازداد تقرب اللغتين من بعضهما واختلاطهما ، ليظهر من أثر هذا المزج لهجة ثالثة في عهد شاهجهان في القرن السابع عشر الميلادى ، وقد بدا عليها معالم النضج والاستقلال واضحة ، وقد عرفت باسم « زبان أردو » أى لغة سوق المعسكر بدهلى ، حيث كان لها رواج ملحوظ .

وبقيت هذه اللغة الجديدة فى الغالب تساهم فى النشاط الأدبى بنصيب محدود لا تبلغ فيه بعض مقام الفارسية ، حتى تم للبريطانيين استعمار الهند فعملوا على اقتلاع الفارسية من هذه البلاد — بوصفها لسان المفكرين المسلمين الذين جروا على مناهضتهم حتى نزعوا آخر الأمر ثورة التحرير الهندية ضدهم فى منتصف القرن التاسع عشر — فبذلوا جهوداً كبيرة لتنظيم أصول الأوردوية ونحوها وطبعوا كتبها ، حتى عمت الهند على حداثة عهدها وازدهرت آدابها ولا تزال للمطارحات الشعرية الأوردنية بالهند كلها سوق رائجة حتى اليوم .

وكانت الأوردوية هى لسان الزعماء المسلمين من أمثال السيد أحمد خان وإقبال وخلفائهما الذين نصبوا أنفسهم للنهضة بالمسلمين فى الهند والدفاع عن حقوقهم بإزاء عداء البريطانيين المرير لهم .

وعالج بها نفر من المسلمين والهنادكة كثيراً من الموضوعات الحديثة والقديمة فبرهنوا بذلك على مرونتها وصلاحيتها كل الصلاحية فى العصور الحديثة[1] . وهى اليوم لغة باكستان الأولى ومن أكثر اللغات تداولا بجمهورية الهند .

كان من أثر الإسلام البالغ بالهند ، فضلا ، عن اجتذابه الملايين من أهلها

(١) Lgacy of India pp 293-5

بسماحته وقوله بالمساواة بين الناس جميعاً ، أن برز طائفة من المصلحين الهنادكة ينادون بإنكار عبادة الأوثان من دون الله الواحد القهار [1] ، كما أنكروا كذلك نظام الطبقات والوظائف الدينية وزواج الأطفال وعادة الساتى ، وأباحوا زواج الأرامل وسمحوا لغير الهنود باعتناق دينهم .

ولم تكن دعوات نانك صاحب ديانة السك ، وكبير صاحب مذهب بهكتى ، ورام موهن صاحب « برهما سماج » وتعظيمهم جميعاً للأنبياء والمرسلين إلا صدى لتعاليم الإسلام الذى كان بالهند ديناً وحكما ومدنية .

(١) ديانات الهند القديمة كانت تقول أصلا بالتوحيد فى الغالب (البيرونى : ذكر ما للهند من مقولة . . . ص ١٣) وان لم يبدو عندها بالمظهر الراسخ المؤكد عند المسلمين حتى انحرف بها سدنتها من بعد ذلك فباعدوا ما بينها وبين مبادئها الأولى

أفغانستان

قلعة الإسلام الشامخة بقلب آسيا

تاريخها وكفاحها ضد الاستعمار في العصر الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمدك اللهم وحدك ، يا من صدق وعدك ، ونصرت عبدك ، وأعززت جندك ، وهزمت الأحزاب وحدك ، وأصلي وأسلم على نبيك وحبيبك المصطفى محمد بن عبد الله يا من بعثته رحمة لكل خلقك ونوراً يهتدى به كل من آمن بك وبه وأحبك ، وجاهد بنفسه وماله في سبيل نصرة الإسلام واتباع دين الحق من عبيدك .

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » . التوبة (١١١)

وبعد ، فإن أفغانستان ـــ قلعة الإسلام الشامخة بقلب آسيا ـــ يعيش شعبها المؤمن المجاهد العظيم محنة حضارية قاسية منذ مستهل عام ١٩٨٠ م حين أقدم خائن مرتد من أبنائه وهو بابراك كارميل على فتح

جميع أبواب بلاده على كافة مصاريعها لجحافل السوفييت الروس وذلك بعد أن خلع سلفه فى حكم البلاد عميل الروس السابق حفيظ الله أمين وقتله فى ظل حراب السوفييت وبأمرهم .

ولقد نهض أبناء الشعب الأفغانى الأبطال إلى مجالدة عدوهم المستعمر الروسى الدخيل منذ اللحظة الأولى التى اقتحم فيها حدود ديارهم ، لا يفت فى عضدهم أبدأ تدفق قواته الكثيفة على بلادهم ، ولا ما يملك من أسلحة الموت والدمار الرهيبة بالقياس إلى ما بأيدى هؤلاء المجاهدين من العتاد غير الكثير والسلاح القليل .

وأطماع الروس فى بلاد الأفغان — قلعة الإسلام الشامخة فى قلب آسيا — ليست وليدة الصراعات السياسية فى زمننا هذا أو الدعوات المذهبية ، إذ ترجع جذورها إلى مستهل القرن التاسع عشر الماضى ، حين شرع القياصرة الروس يدفعون بقواتهم إلى التوغل فى قلب آسيا بهدف الاستيلاء على التركستان والقضاء على الإمارات الإسلامية فى هذا الإقليم الذى يعرف فى التاريخ كذلك باسم « إقليم بخارا الكبرى » .

وكانت بريطانيا تستكمل بدورها كذلك وضع أيديها ، فى تلك الفترة ، على كل شبر من شبه القارة الهندية كلها .

وما إن أرسخ المستعمر الروسى قدمه فى تلك البلاد التى غزاها

بآسيا الوسطى ، وتبعه المستعمر البريطاني بدوره ، فأحكم من قبضته على شبه القارة الهندية ، حتى طفق كل واحد من هذين المستعمرين يتطلع إلى الاستيلاء على أفغانستان بدعوى تأمين حدود مستعمراته الجديدة .

على أن واقع الأمر هو أن بريطانيا كانت تحرص كل الحرص على أن يبقى المحيط الهندى بحيرة بريطانية خالصة حماية لمصالحها الاستعمارية فى جنوب آسيا وشرق أفريقيا ، وأن عليها أن تمنع روسيا بذلك من الوصول إلى هذه المياه الدافئة عبر أفغانستان وإلى الجنوب منها بالتالى .

وقد وقفت أفغانستان وسط هذا الصراع ، بين المستعمرين ، الروسى والبريطانى ، قلعة شامخة بفضل بسالة رجالها .

ولئن كان البريطانيون قد استطاعوا ، لفترات ، دخول كابل وتنصيب عملاء لهم من الأفغان على عرش البلاد ، إلا أن كل هذه المحاولات التى بذلها المستعمر لطى بلاد الأفغان فى دائرة نفوذه قد باءت بالفشل ، فضاعت للمستعمر جيوش بأكملها برغم بدائية أسلحة الأفغان بالقياس إلى أسلحة المستعمر الحديثة ، وذلك على ما سنفصله فى الصفحات التالية ، وأرغمت بذلك أفغانستان المستعمر على احترام إرادة أبنائها والاعتراف باستقلالها :

وانتقل ميدان الصراع بين الروس والبريطانيين من بعد ذلك إلى إيران ، جارة أفغانستان ، فصار للروس نفوذهم فى الشمال وللبريطانيين نفوذهم بالجنوب حتى جاء رضا شاه بهلوى الكبير فخلص بدوره بلاده من المستعمرين . وليس هذا من موضوعنا على كل حال[١] .

وخرجت بريطانيا من شبه القارة الهندية بعد تقسيمها إلى جمهوريتى باكستان والهند المستقلتين ، كما دال النفوذ البريطانى فى جنوب شرق أسيا ، وبذلك خلا الجو للسوفييت الذين لم تتحول أبداً أنظارهم عن أفغانستان أو تغيب أطماعهم عنها . ولم يكن هؤلاء الروس لينسوا كذلك أبداً لذلك الشعب الأفغانى المسلم موقفه منهم ، حين انطلقوا يتوغلون بقواتهم فى الإمارات الإسلامية الممتدة من وسط آسيا حتى القوقاز ، وطفقوا يخضعون لسلطانهم بقوة السلاح شعوب تلك المناطق الإسلامية طوال القرن التاسع عشر الماضى وأوائل القرن العشرين الحالى ، إذ سارع الأفغان آنذاك بفتح حدود بلادهم وأبواب دورهم لتلك الألوف المؤلفة من جموع المسلمين من التركستانيين وغيرهم الذين هاجروا بدينهم هرباً من حرب الإبادة التى كان يمارسها المستعمر الروسى معهم فى بلادهم أيام القياصرة وفى عهد البلاشفة على السواء .

---

(١) أنظر كتابى « تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها » ص ١٠٥ وما بعدها .

وقد رحب الأفغان بهؤلاء المهاجرين المسلمين واستقبلوهم كما استقبل الأنصار إخوانهم المهاجرين بالمدينة المنورة لعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد جاهد المسلمون فى تلك الإمارات الإسلامية المستعمر الروسى فى بسالة واستماتة حتى استشهد منهم طول تلك الفترة ما يقارب الملايين العشرة ، دون أن يتلقوا معونات تذكر من الشعوب الإسلامية الأخرى التى كانت ترزح ذياك الوقت فى أغلال الاستعمار بدورها .

وحين حاول أبناء تلك البلاد عرض قضية بلادهم على عصبة الأمم القديمة ، ثم على هيئة الأمم المتحدة من بعد ذلك ، لم يلتفت إليهم أحد ولا تزال هناك بعض منظمات لهم ، بألمانيا الغربية على الأخص ، تسعى لتحقيق هذا الهدف .؟

وقد عمد السوفييت أخيراً إلى تهجير مجموعات من المسلمين من سكان التركستان إلى مناطق متفرقة بقلب روسيا ، وإحلال جموع من الروس البلاشفة محلهم . وغنى عن البيان أن هذه المناطق الإسلامية يعتمد السوفييت اعتماداً كبيراً على ما تنتجه من القطن والحبوب وما بها من بترول وثروات معدنية وافرة .

وقد جاءت الأنباء أخيراً بفرار نفر من المسلمين التركستانيين من قوات الغزو الروسية بأفغانستان وانضمامهم بأسلحتهم إلى صفوف المجاهدين الأفغان .

وقد كشف هؤلاء عن مدى خداع السوفييت لهم حين ألقوا فى روعهم بأنهم إنما يقدمون إلى تلك البلاد تلبية لدعوة الأفغان لهم فى إلحاح لإنقاذهم من براثن الأمريكيين فى بلادهم .

هذا والواضح الأكيد أن السوفييت يهدفون آخر الأمر إلى ضم بلاد الأفغان إلى تلك الدول والإمارات الإسلامية التى استعمروا أرضها واستعبدوا أهلها فى تلك المناطق الممتدة من التركستان حتى القوقاز ، والتى كان لها دور بارز فى بناء الحضارة الإسلامية ، فهى الأرض التى ظهر فيها ابن سينا والبيرونى والإمام البخارى والبيهقى والترمذى وغيرهم . بل إن روسيا نفسها تدين بنشأة كثير من معالم الحضارة والمدنية فيها إلى حكام تلك البلاد الذين بلغوا بفتوحاتهم مرات متكررة إلى موسكو فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين . وظل دوق موسكو نفسه لسنين طويلة لا يمارس سلطاته إلا على إرادتهم .

وفى الصفحات التالية حديث عن تاريخ أفغانستان منذ الفتح الإسلامى حتى وقتنا هذا وما تعرضت له تلك البلاد فى العصور الحديثة

من محاولات المستعمرين — الروس والبريطانيين — لطيها تحت نفوذهم. وقد تصدى أبناء تلك البلاد لتلك المحاولات فى بسالة وتمرس بالقتال أرغمت العدو نفسه على احترام مشيئتهم الحرة واستقلالهم. وهم فاعلون ذلك مرة أخرى مضطلعون به فى هذه الأيام من جديد بإذن الله فى مجالدتهم للغزو الروسى الحالى لبلادهم ومحاولتهم دفع هذا المستعمر الغاشم بجحافله عن بلادهم.

ويلى ذلك حديث آخر عن السيد جمال الدين الأفغانى، ودعوته التى خرج بها من بلاده داعياً إلى يقظة الشعوب الإسلامية فى مختلف الأقطار، ومحرضاً لها على استردادها لحريتها وبعثها وإحيائها لأمجاد الإسلام من جديد، وما أسفرت هذه الدعوة عن نتائج خطيرة وآثار عميقة لا تزال تُلتمس فى أنحاء البـــلاد الإسلامية حتى اليوم، والله الموفـق.

أ. د/ أحمد محمود الساداتى

المعادى فى ١٥ شعبان ١٤٠٠ هـ

٢٨ يونيه ١٩٨٠ م

تاريخ بلاد الأفغان «أفغانستان»

منذ الفتح الإسلامى

لم تعرف هذه البلاد بهذا الإسم الذى تشتهر به اليوم إلا منذ القرن الثامن عشر الميلادى، وإن ذكرت القبائل الأفغانية فى التاريخ من قديم واشتهرت مواطنها التى تتألف منها هذه الدولة اليوم، اشتهرت «كابل» و «غزنه» بدورها فى التاريخ الإسلامى، كما اشتهرت «هراة» بمكانتها المرموقة فى ميادين الثقافة الرفيعة، فضلا عما لأراضيها وأراضى «بدخشان» و «سجستان» من خصب عميم، وعرفت «قندهار» بشهرتها التجارية وموقعها الاستراتيجى الهام.

تقع بلاد الأفغان عند الركن الشمالى الشرقى من الهضبة الإيرانية الآسيوية. وإقليمها جبلى شديد الوعورة فى أغلبه تصل مساحته إلى ربع المليون من الأميال المربعة، وتحيط به فارس وباكستان وتركستان.

وفى أمة الأفغان، التى يبلغ تعدادها خمسة عشر مليوناً من الأنفس، تتمثل الشعوب الإسلامية كلها بعروقها خير تمثيل. ففيهم من ينتسبون إلى العرب؛ بل وإلى خير العرب من قريش، وفيهم من عناصر الترك والفرس والمغول.

وكما تتمثل شعوب المسلمين فى أمة الأفغان ، فكذلك تتمثل لغاتهم فى « البشتو » لغة الأفغان الثانية بعد « الفارسية » ، نجد فيها ألفاظاً ومصطلحات من العربية والفارسية والتركية .

هكذا يتمثل المسلمون ، عروقاً وألسنة ، فى قلعة الإسلام الشامخة هذه .

وقد كان للأفغان — قبل دخول الإسلام إلى بلادهم — مساهمة فى حضارة العالم القديم ، كما عرفوا كذلك قدواً من حضارة الهند ، وحضارة إيران ، بحكم الجوار ، وعرفوا حضارة اليونان حين كانت بلادهم جزءاً من دولة « بقطريا » التى أقامها قواد الإسكندر المقدونى فى تلك الأنحاء .

وأول مادخل الإسلام بلاد الأفغان فى القرن الأول الهجرى ؛ فلقد فتح المسلمون العرب بلاد فارس أيام ثانى الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب كما هو معروف مشهور . حتى إذا ما ولى عثمان بن عفان ثالث أمراء المسلمين ، وجدنا عبد الله بن عامر عامله على البصرة يبعث بقائده عبد الرحمن لغزو « سيستان » ، فلا يرجع من غزوته هذه حتى يبلغ جبال الغور ويدخل « كابل » فيأسر أميرها البدهى (البوذى) ويحطم كل ماصادفه فى طريقه من أوثان البدهيين ، ومنها ما كان من ذهب محلى بالجواهر . وقد استسلمت له كذلك : « نيسابور » و « هرات » و « مرو » .

واشتدت غزوات المسلمين فى هذه النواحى أيام الأمويين حتى

بلغت آسيا الوسطى وتخطت حدود الهند ، وذلك بحسن تدبير القائد العربي المعروف « الحجاج بن يوسف الثقفي » بخاصة ؛ واستقر على أثر هذه الغزوات كثير من أفخاذ القبائل العربية في البلاد المفتوحة ؛ استقروا في بلاد وراء النهر وفي إقليم السند وفي خراسان ومنازل الأفغان ؛ ولم ينتج عن استقرار العرب بهذه المناطق انتشار الإسلام بين الأهلين هناك على نطاق واسع فحسب ، بل لقد ظهر كذلك من بعد ذلك بوقت قصير طبقة من أبناء هذه البلاد المفتوحة ، تجيد العربية وتشتغل بعلوم اللغة والقرآن والحديث .

وهنا نشير إلى حقيقتين هامتين : الأولى ، هي أن العقائد التي كانت تسود هذه المناطق ، من بوذية وزرادشتية وغيرها ، كانت تقوم على نظام الطبقات حتى كان الأمر يصل ببعضها إلى أن تحرم على أتباعها مجالسة غيرهم أو مطاعمتهم ، فضلا عن استبداد كهنة هذه العقائد الشديد بأتباعهم . فحين أقبل الإسلام فوجد فيه الأهلون المساواة التامة ، لا فضل فيه لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، أقبلوا على الدخول فيه دون إكراه . نقول دون إكراه ونستشهد في ذلك بما ذكره المستشرق بارتولد في كتابه عن تاريخ الحضارة الإسلامية من تشدد المعتصم العباسي في عقاب نفر من المسلمين كانوا قد تعرضوا لمعبد من معابد المجوس ببلاد الصغد . والحقيقة الثانية ، هي أن ما من بلد دخله الإسلام إلا وتحول أهله في الغالب عن لغاتهم وعقائدهم وعاداتهم إلى لغات المسلمين وعقائدهم ورسومهم .

وخلف العباسيون الأمويين ، وفى عهدهم بدأت تظهر الدويلات الإسلامية المستقلة فى القسم الشرقى من الدولة الإسلامية . فظهر الطاهريون ثم الصفاريون الذين بسطوا سلطانهم على كابل وهرات وطبرستان ، وخلفهم السامانيون فضموا إلى ملكهم أراض كثيرة فى بلاد ما وراء النهر . وكان من بين عمال الدولة السامانية أمير يدعى سبكتكين كان يحكم ولاية غزنه الأفغانية فى القرن الرابع الهجرى .

وعلى يد سبكتكين هذا قامت أول دولة أفغانية إسلامية هى الدولة الغزنوية التى اضطلعت بدور من أعظم أدوار التاريخ الإسلامى .

فقد استطاع سبكتكين مدة حكمه القصير أن يمد حدود دولته حتى البنجاب ويضم إليه خراسان وأجزاء من بلاد ماوراء النهر . وخلفه ابنه يمين الدولة محمود الغزنوى أعظم سلاطين المسلمين لعصره . ولا يرجع إلى محمود الفضل فى نشر الإسلام ببلاد الأفغان كلها فحسب ، بل وفى الهند كذلك التى خرج إليها غازياً مجاهداً سبع عشرة مرة فى مدى سبع وعشرين عاماً ابتداء من آخر القرن الرابع الهجرى ، ولم يغر محمود ما عرضه عليه الهنادكة من أموال طائلة ليفتدوا بها أوثانهم ، وهو فى جهاده لنشر الإسلام ببلادهم ، ورد عليهم بمقالته المشهورة بأنه يؤثر أن يقال عنه بأنه محطم الأصنام على أن يقال عنه بأنه بائع الأوثان .

وهنا نعرض لحادثة مهمة ، ذلك أن المستعمرين البريطانيين حين دخلوا كابل فى القرن الماضى ، عمدوا إلى نقل بعض حجارة منها إلى



جمهورية أفغانستان

الهند انطلقوا بها يزعمون للهنادكة بأنها من بقايا معابدهم التي خربها محمود الغزنوي قبل ذلك بألف عام ونقلها إلى بلاده ليدخلها في بناء مساجده . أراد البريطانيون بصنيعهم هذا أن يزيدوا من الوقيعة بين الهنادكة والمسلمين بالهند ، لكن أمرهم ما غدا أن افتضح وظهر كذب ما ادعوه .

وفي عهد محمود ، الذي امتدت دولته من شرق الهند حتى فارس ، صارت حاضرته غزنة الأفغانية مركزاً من أهم مراكز الثقافة الإسلامية . فكان ببلاطه جمهور كثير من رجال العلوم والآداب والفنون ، نذكر من بينهم العلامة أبا الريحان البيروني والعُتبي المؤرخ ثم الفردوسي أعظم شعراء الفرس جميعاً .

وتعرضت الدولة الغزنوية لهزات عنيفة في عهد خلفاء محمود بسبب حروبهم مع السلاجقة والغز ، حتى ورثهم الغوريون الأفغان في القرن السادس الهجري . وكان هؤلاء الغوريون هم خير جند الغزنويين أيام مجدهم .

وإذا كان « محمود الغزنوي » يبدأ دور الحكم الإسلامي بالهند ، فبجهود الغوريين انتشر الإسلام هناك على نطاق واسع ، واستقرت الحكومة الإسلامية التي ظلت بأيدي سلاطين من الأفغان حتى أوائل القرن العاشر الهجري حين انتقلت مقاليد الأمور إلى أيدي الدولة المغولية التي أقامها هناك الأمير التيموري ظهير الدين محمد بابر . وفي عهد هؤلاء الأمراء الأفغان ازدهرت الهند حكماً وحضارة ومدنية .

وتعرضت بلاد الأفغان بدورها لمحنة الغزو المغولى التى نزلت بالعالم الإسلامى على أيدى جنكيز خان وأولاده ، وأصاب الخراب أغلب مدنه . وظلت بلاد الأفغان تخضع لأبناء جنكيزخان الذين كانوا يحكمون فى فارس باسم الايلخانيين حتى ظهور تيمورلنك . وفى عهد الايلخانيين بدأت الحضارة الإسلامية تنتعش من جديد . فمن الحقائق المقررة أن جموع الترك والمغول المخرِّبة ، بعد أن دخلوا فى الإسلام ، انقلبوا بفضل الحضارة الإسلامية إلى بناة للمدنية ، حتى ازدهرت على أيديهم الثقافة والمدنية الإسلامية ازدهاراً ملحوظاً نجد مثاله عند الايلخانيين المغول فى فارس الذين ترجم كثير من المؤلفات فى عصرهم ، أى فى القرن الثامن الهجرى ، إلى اللاتينية بأوروبا ، وفى آثار تيمورلنك وأولادهم من بعده ببخارى وسمرقند وهراة .

واستطاع تيمورلنك أن يقيم له دولة واسعة امتدت من قلب الروسيا حتى ضفاف الكنج الهندى . وصحبت انتصاراته الحربية الكثيرة هذه نهضة حضارية واسعة لم يشهدها القسم الشرقى من الدولة الإسلامية من قبل .

وفى عهد الأمراء التيموريين عمرت هراة الأفغانية بالمنشآت الفخمة من مساجد ومدارس ودور للشفاء وغيرها . وصارت هذه المدينة من أهم مراكز الثقافة الإسلامية ، فقصدها مشاهير الفقهاء والحكماء والشعراء والكتاب والمؤرخون والنقاشون (أى المصورون)

أولئك الذين أفادت الإنسانية جمعاء بما خلفوه من تراث فوائد جليلة .
وكانت هذه المدينة هى كذلك أعظم مراكز التجارة والسياسة بآسيا الوسطى فى هاتيك الأوقات ، حتى رأينا الأمير التيمورى ظهير الدين بابر يقول عنها ، فى سيرته القيمة المعروفة ببابرنامة ، بأنها كانت أعظم مدن العالم المسكون إذ ذاك .

وفيما كان حسين بيقرا آخر الأمراء التيموريين بخراسان يحكم فى هراة التى بلغ نشاطها الحضارى والثقافى ذروته فى عهده ، كان ابن عمه ظهيرالدين بابر يحكم فى كابل وغزنه . وظل بابر فى بلاد الأفغان ما ينوف على العشرين عاماً . حتى تم له ختام الربع الأول من القرن العاشر الهجرى الاستيلاء على الهندستان . أى شمال شبه القارة الهندية كله ، حيث أقام دولته التى تعرف فى التاريخ باسم الدولة المغولية ، فظلت تحكم الهند أكثر من ثلاثة قرون حتى دخلها المستعمرون البريطانيون عليهم . وفى عهد الدولة التيمورية هذه شهدت الهند دوراً من أعظم أدوار الحضارة بها .

ولم ينس بابر ، حين تم له الجلوس على عرش الهند ، أن يبعث بقطعة من النقود الفضية تذكاراً منه إلى كل قاطن بكابل ، رجلا أو امرأة طفلا أو شيخاً حراً أو عبداً . ولا يفتؤ ، وهو بالهند يتغنى بمحاسن كابل ، فلا يقيم جملة من الرياض على نمط مغانيها اشتهرت باسم البساتين الكابلية فحسب ، بل نراه كذلك يوصى بأن يدفن بهذه المدينة ،

وكان له ما تمناه فثوى على ربوة تطل على بلده الحبيب .

ظلت بلاد الأفغان تعد فى الغالب جزءاً من الدولة التيمورية أى المغولية بالهند ، يرى فيها أصحابها موطن أبيهم الأكبر وحصنهم الذى يلوذون به حين تهددهم الأخطار .

حتى إذا ما أخذ الضعف يتسرب إلى الدولة المغوليه بالهند ، انطلق حكام الفرس يتخطفون بعض الأراضى الأفغانية فى حين أخذت بعض القبائل الأفغانية بدورها تتطلع إلى الاستقلال ببلادها وتطمح إليه .

واستولى على مقاليد الحكم بفارس ، فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الهجرى — القرن الثامن عشر الميلادى — نادر شاه الأفشارى مكان الصفويين ليجتاح من بعد ذلك بلاد الأفغان وينحدر إلى الهند فيدخل دهلى ويُنزل بها من الدمار والخراب أكثر مما أنزل بها تيمورلنك من قبل ، ويستولى على ما بها من ثروات وأموال طمع من ورائها إلى إعداد جيش قوى يكشف به خطر العثمانيين عن بلاده .

وكان نادر شاه قد عمد بعد دخوله بلاد الأفغان إلى ضم فريق منهم إلى جنده ، وكان من بينهم فتى فى الرابعة عشر من عمره يدعى أحمد قتل أبوه وجده فى حروبه معهم ، وكان من زعماء الأبداليين الأقوياء . وسرعان ما وصل هذا الفتى بطموحه وجده إلى قيادة فرقة الأبداليين الأفغان بالجيش الفارسى ، وكانت تضم بضعة آلاف من المحاربين الأشداء .

وحين قُتل نادر شاه ، بتدبير من القاجاديين فى جيشه ، سارعت الفرقة الأفغانية تشق طريقها عائدة إلى بلادها ، وهناك نودى بقائدها أحمد ، فى مدينة قندهار أميراً على بلاده باسم « أحمد شاه الأبدالى الدُّرَّانى » ، وكان إذ ذاك فى الثالثة والعشرين من عمره ، فكانت دولته هذه هى أول دولة فى التاريخ تعرف باسم « الدولة الأفغانية » .

وسار أحمد شاه هذا فى حكمه سيرة عدل ألّفت القلوب من حوله ، ولم يكن يبرم أمراً دون مشورة زعماء القبائل فى بلاده .

وما إن تمّ له إرساء قواعد حكومته حتى انحدر إلى سهول البنجاب فخاض غمار حروب متكررة عند دهلى وما حولها ، هدف من ورائها إلى دفع خطر الجماعات التى كانت تكيد للدولة الإسلامية بالهند وعلى رأسهم المرهتها والسِّك .

وأعظم هذه المعارك هى التى كسر فيها مائتى ألف من محاربى المرهتها الأشداء فى سهل پانى پت إلى الشمال الغربى من دهلى . وكانت جموعهم قد زحفت من وسط الهند وجنوبها بهدف القضاء التام على الدولة الإسلامية بشبه القارة الهندية .

ولولا ما تعرض له أحمد الابدالى من متاعب ، بسبب ضعف موارده المالية وتفشى المرض فى صفوف جنده ، حتى اضطر إلى

الرجوع إلى بلاده لكان قد استطاع فى الغالب أن يعيد للحكومة الإسلامية بالهند سابق هيبتها ، ويعوق بلا شك استعمار البريطانيون الشمال الهندى بعد أن كانوا قد تغلغلوا فى الشرق والجنوب .

وسار أبناء أحمد شاه من بعده سيرته فحاول تيمور شاه وزمان شاه فى غزوات متكررة إقرار الأمور فى إقليم البنجاب أهم أقسام باكستان الحالية .

ولم يكن البريطانيون بعد أن تم لهم دخول دهلى ليسكتوا على وجود الأفغان الأشداء بالبنجاب ، وهم يعلمون تمام العلم أن هؤلاء لم يقدموا الهند إلا لشد أزر المسلمين أخطر أعدائهم بها .

هنالك عمد هؤلاء المستعمرون إلى أسلحتهم الاستعمارية المشهورة. فما زالوا بشاه فارس حتى حملوه على مهاجمة بلاد الأفغان ، فلم يفته الحال إلى انسحاب الأمير الأفغانى من الهند فحسب ، بل لقد خُلع كذلك عن عرشه بتحريض منافسيه عليه .

حتى إذا ما جلس على عرش الأفغان الأمير القوى دوست محمد أوائل القرن التاسع عشر ، عزم البريطانيون على غزو تلك البلاد التى تعد أقوى قلاع المسلمين بآسيا إذ ذاك وكان قد تم لهم تثبيت أقدامهم بالهند وتنظيم انتهاب خيراتها وثرواتها . هنالك انبروا نظاهرون شاه شجاع الملك فى منافسته لأمير الأفغان الجديد على العرش

حتى سيروا معه فريقاً من رجالهم وأمدوه بأسلحة حديثة خاض بها عدة معارك انتهت بانتصار دوست محمد انتصاراً حاسماً . وقرن الأمير الأفغانى انتصاراته هذه بفوز آخر ، كتب له عند حدوده الغربية ، إذ دفع عنها خطر الفرس الذين كانوا قد أقبلوا يهاجمونه بتحريض من الروس وعون منهم .

صالح دوست محمد البريطانيين كما صالح الروس بدورهم كذلك ، وكانت ولايات آسيا الوسطى الإسلامية قد أخذت تتساقط بأيديهم الواحدة بعد الأخرى فضلا عن ازدياد نفوذهم ببلاد فارس .

ولم يعترف البريطانيون بموقف الحياد الذى التزمه أمير الأفغان بإزاء المنافسة الشديدة التى قامت بين روسيا وبريطانيا فى هذه المنطقة حتى زعموا أن المندوب الروسى فينكوفتش لم يكن ليمارس نشاطه بالعاصمة الأفغانية لولا تأييد دوست محمد له ، وتذرعوا بهذه الحجة فزحفوا على بلاد الأفغان .

ولئن كان قد تم لهؤلاء المستعمرين دخول كابل وإجلاس ربيبهم شجاع الملك على عرشها بعض الوقت ، فإن إرادة الأفغان كانت أمضى من أسلحة الاستعمار ، إذ قاموا قومة رجل واحد فلم يكتفوا بإخراج هؤلاء الدخلاء وصنيعتهم من العاصمة فحسب ، بل وتمكنوا كذلك ، على قلة عددهم ، من أن يبيدوا فى بعض المواقع جيوشاً بريطانية بأكلها ، كما حدث عند « خورد كابول » حيث أبيد جيش بريطانى

بأكمله قوامه عشرون ألفاً من الجند المجهز بأحدث الأسلحة ، فلم ينج من رجاله جميعاً إلا طبيب شاب يدعى « بريدون » استطاع أن يصل إلى سادته فى جــــلال آباد فيخبرهم بالكارثة التى نزلت بجيش الإمبراطورية التى لم تكن تغرب الشمس عن أملاكها .

وعاد البريطانيون إلى بلاد الأفغان من جديد طلباً للثأر فنزلت بهم الهزائم ، وسقط الوطنيون على ربيبهم شجاع الملك فقتلوه ، فلم يروا بداً آخر الأمر من مصالحة دوست محمــــد والاعتراف به أميراً على الأفغان .

وما إن مات الأمير عام ١٨٦٣ م وخلفه ابنه « شير على » حتى عمد البريطانيون إلى محاولة التدخل فى شئون هذه البلاد من جديد بحجة تأمين حدود الهند من هجمات قبائل الأفغان عليها . والواقع أنهم كانوا هذه المرة يمهدون لتنفيذ خطة يعينها ، رسمها « دزرائيلى » داهيتهم المشهور ، ترمى إلى مهاجمة الروس فى آسيا الوسطى لو تعرضت الآستانة إذ ذاك لخطر استيلائهم عليها ، وقد تمكن البريطانيون عام ١٨٧٨ م من دخول كابل مرة أخرى فى جيوش كثيفة ، وفر من وجههم أميرها « شير على » حيث وافاه أجله بعد ذلك بعام واحد .

ولم يقبل الشعب الأفغانى أن يولى عليه « يعقوب خان بن شير على » ، على أن تقوم إلى جانبه بكابل بعثة بريطانية . فانطلق يقاوم المحتلين فى

كل مكان حتى قتل كل أعضاء بعثة الاستعمار وأنزل بقوات الاحتلال خسائر كبيرة وهزائم متكورة اضطرتهم إلى الجلاء من فورهم .

هنالك قبض على أزمة الحكم الأمير عبد الرحمن ، حفيد « دوست محمد » فمضى فى عزم وحزم يقر الأمور ويشيع الأمن فى بلاده ويصلح نظم الحكومة وينظم الجيش ويوفر له عدده وأسلحته حتى وافاه أجله عام ١٩٠١ م .

وخلفه ابنه حبيب الله خان فسار سيرته ، وآثر أن يهادن البريطانيين إبان الحرب العالمية الاولى حتى رفض أن يستجيب إلى نداء العثمانيين والألمان مع مابذلوه من جهد لحمل الأفغان على حرب البريطانيين بدعوى الجهاد . ولم تقدر له بريطانيا صنيعه هذا فأصرت على الاحتفاظ ببعض مناطق الحدود الأفغانية بدعوى تأمين حدود الهند .

وقُتل هذا الأمير عام ١٩١٩ وهو فى مصطاده بلمغان دون أن يهتدى أحد إلى قاتله . ويعد حبيب الله خان رائد النهضة الحديثة فى بلاد الأفغان بلا نزاع .

وخلفه ابنه أمان الله خان ؛ وبجهود هذا الأمير تحقق لبلاد الأفغان استقلالها الكامل ، إذ استرد بقوة السلاح كافة الأراضى التى كان

البريطانيون قد انتزعوها ، وبلغ إلى أن إعترفت بريطانيا له بالاستقلال التام ، وضمنت له مرور ما يحتاج إليه من سلاح وعتاد عن طريق الهند ، ووافقت علي إنشاء شقة حرام بين حدوده وحدود الهند .

هكذا بعثت حكومة الأفغان لأول مرة بالسفراء الرسميين إلى الدول الأخرى ، ووثقت من علاقاتها بصفة خاصة مع روسيا وتركيا الحديثة وإيران . واهتم أمان الله خان ملك الأفغان اهتماماً بالغاً بتنظيم حكومته وجيشه ونشر التعليم ، وعنى عناية شديدة بتعمير بلاده ، كما وضع أسس الحياة الدستورية بها ، غير أنه نزع إلى تقليد مصطفى كمال أتاتورك فى نبذ كثير من التقاليد الإسلامية وجهر بذلك فى رحلته المشهورة التى خرج فيها عام ١٩٢٨ م إلى بعض البلاد الشرقية والغربيه . حتى إذا ما عاد إلى بلاده ثار عليه فريق من قومه ومعهم طائفة من العلماء ثورة عارمة انتهت بخروجه من بلاده . هنالك سارع إلى بلاد الأفغان محمد نادر شاه ، أحد أبناء عمومته ، وكان يعانى من المرض الشديد بالخارج ، فقضى على أسباب الثورة وسار فى حكم أمته على مقتضى العدل والحزم ملتزماً قواعد الشرع متمسكا بمكارم الأخلاق والتقاليد الإسلامية . وتجلت همة نادر شاه فيما بذله من جهود للنهوض بالبلاد من جديد بعد تلك الفتنة العارمة التى كانت قد أنهكت قواها واستنزفت مواردها ومحمد نادر شاه هذا هو الذى قاد جيوش الأفغان

فى حربهامع البريطانيين عامى ١٩١٩ ، ١٩٢٠ ، فهو بحق بطل استقلالها ، وقد اغتالته يد أثيمة عام ١٩٣٣ .

وخلفه ابنه محمد ظاهر شاه فسار سيرته فى تدعيم الحياة الدستورية والنهوض بالجيش ونشر التعليم وتقوية اقتصاديات البلاد وتعميرها واستثمار ما بأرضها من ثروات فضلا عن توثيق علاقاتها بجيرانها بعامة وبالبلاد الإسلامية بخاصة .

وفى ١٧ يوليو عام ١٩٧٣ أعلنت أفغانستان إلغاء النظام الملكى وقيام الجمهورية برئاسة محمد داود ابن عم الملك السابق محمد ظاهر شاه .

وظهرت ميول داود هذا إلى توثيق علاقاته بالسوفييت واضحة منذ أن أمسك بزمام الحكم فى بلاده . وما لبث هؤلاء أن دفعوا بعميل من أوليائهم ، وهو نورالدين تره كى ، فسقط على « محمد داود » رئيس الجمهورية فى ١٨ أبريل ١٩٧٨ وفتك به وبأسرته ، ثم اتخذ مكانه ولم يطل بـ « تره كى » الأجل إذ باغته بأمر من الروس عميل آخر لهم هو حفيظ الله أمين فقتله فى منتصف سبتمبر عام ١٩٧٩ ، ولم يهنأ حفيظ الله بالحكم بدوره إلا أشهراً ثلاثة ، إذ رأى الروس فى عميل وخائن آخر ، هو بابراك[1] كارميل ، رجلهم المنشود الذى بادر بأمرهم

---

(١) بابرك : الأسد الصغير .

وفى ظلال سيوفهم إلى خلع حفيظ الله أمين فى ٢٧ ديسمبر ١٩٧٩، ثم قتله فى اليوم التالى واتخذ مكانه .

لقد بدأ تسلل الروس إلى بلاد الأفغان كخبراء وأصدقاء — على عادتهم — أيام محمد داود ثم فى عهد نور الدين تره‌كى الذى شرع يمهد الأرض أمام الغزو السوفييتى لأفغانستان ، ذلك الغزو الذى كشف عن وجهه أيام حفيظ الله أمين وبلغ ذروته ابتداء من ولاية بابراك كارميل وفى عهده .

والواضح المؤكد الجلى هو أن السوفييت لا يهدفون من وراء غزوهم لأفغانستان إلى مجرد الاستيلاء على الموارد الطبيعية والثروات المعدنية بتلك البلاد ، ومن بينها مصادر الغاز الطبيعى الغنية ، فحسب . بل إنهم ليهدفون أساساً وفى المقام الأول كذلك الوصول إلى منابع البترول فى الخليج ، تلك المنابع التى تعد بلا مبالغة ، عصب الحياة للدول الصناعية الكبرى ، وهم أى السوفييت ، فى تطلعاتهم هذه ، لا يغيب عن تفكيرهم أو يسقط من حسابهم وتخطيطاتهم ، ما أدت إليه ثورة إيران الخمينى من اضطراب واضح بالمنطقة وانحسار الوجود السياسى الأمريكى هناك بالتالى .

إن بلاد الأفغان لا يزيد عدد سكانها على الخمسة عشر مليوناً من الأنفس ومساحتها كذلك ليست بالكبيرة بالقياس إلى أراضي جيرانها كإيران وباكستان ، وليس فى جيرانها بدورهم من له من القوة الحربية ما يستطيع أن ينجد به جاره ، وهذه أوضاع واضحة معروفة لدى الجميع كافة دون مرية أو شك .

وبرغم ذلك كله فإن الروس بدأوا غزوهم لأفغانستان بقوات تقرب من الثمانين ألف جندى أخذت من بعد ذلك — وعلى ضوء مقاومة الشعب الأفغانى الباسلة — تزيد فى تدفق جنودها على تلك البلاد حتى تجاوز عددهم المائة والعشرين ألفاً ، إلى جانب أسراب الطائرات وحشود المدرعات والدبابات وأسلحة الدمار الأخرى .

إن السوفييت حين أقدموا على غزو أفغانستان ، لم يكن يغيب عن بالهم أو لا يدخل فى حسابهم تاريخ شعب أفغانستان المجيد ومواقفه الباسلة وضراوته فى قتال أعدائه حرصاً على حريته واستقلاله حتى أفنى للمستعمر عدوه جيوشاً بأكلها فى القرن التاسع عشر الماضى على ما أشرنا إليه من قبل .

ولقد أيقن الغزاة السوفييت أنهم بالغون هذه المرة بأسلحتهم

الكثيفة المدمرة إلى مالم يلقوه هم وغيرهم من قبل بالقضاء التام على إرادة هذا الشعب الأفغاني الأبي ، ولم يلق هذا المستعمر بالا إلى ماحدث في حرب رمضان — أكتوبر بسيناء ، حيث أقام جند مصر الدليل القاطع الأكيد على أن السلاح بالرجل وليس الرجل بالسلاح .

وهكذا لم يتردد المجاهدون الأفغان بأسلحتهم القليلة البسيطة عن التصدى لغزاة بلادهم بكل شبر من أرضهم ، فأفنوا جموعاً عدة من قواتهم واستولوا على مقادير كبيرة من عتادهم وأسلحتهم الحديثة التى ما غدوا أن استخدموها بدورهم فى حربهم ، فضلا عما أسقطوه لهم من طائراتهم .

صنع المجاهدون الأفغان هذا كله ويداومون على صنعه كل يوم برغم ما يستخدمه الغزاة من أسلحة اجتمع المجتمع الإنسانى المتحضر على حظر استخدامها .

إن المجاهدين الأفغان الأبطال ببسالتهم وضراوتهم فى القتال واستماتتهم فى الدفاع عن كل شبر من أرض ، هم جديرون بكل حق وبكل فخر أن يكونوا أحفاد أولئك الأشاوش الأمجاد الذين علّموا المستعمر فى القرن الماضى كيف يحترم مشيئة الأحرار .

وخير مثال لتقديس الأفغان لمعانى الحرية والاستقلال نراه فى تلك الدعوة التى انطلق جمال الدين الأفغانى يجاهد بها فى سبيل يقظة الشعوب الإسلامية جمعاء وينفخ فيها من روح الجهاد ، ويحرضها على طلب الحرية والتفانى فى سبيلها .

ودعاء إلى الله أن يكلل جهود المجاهدين الأفغان بالنصر المبين .

« وإن ينصركم الله فلا غالب لكم » .

السيد جمال الدين الأفغانى

ودعوته ليقظة الشعوب الإسلامية

تجمع المصادر والآراء على أن هدف السيد جمال الدين الأساسى الذى كرّس كل جهوده طوال حياته ولتحقيقه كان هو إيقاظ الشعوب الإسلامية من ذلك السُّبات الذى كان يريم عليها وإنهاضها من ضعفها حتى تلحق بركاب الأمم القوية فيعود للإسلام — عقيدة وحضارة ومدنية — مجده بالتالى وعلوّ شأنه .

وقبل أن أتعرض بالحديث عن جهاد السيد وجلاده فى سبيل تحقيق غاياته وتوقيع أهدافه ، أشير هنا إلى حقيقة بلغ إليها أحد علماء المسلمين قبل أن يعلنها العلماء المحدثون بأكثر من ألف عام وذلك حين قرر عالمنا « المقلاسى » الجغرافى عن تجربة ويقين بأن « للبقاع تأثير فى الطباع » وهو ما يعرف اليوم بأثر البيئة الراسخ فى مزاج الفرد ومقوّمات حياته وطرائق تفكيره .

وبيئة السيد الأفغانى التى خرج من ترابها عام ١٢٥٤ هـ/١٨٣٨ م وعاش أحداثها هى أفغانستان التى تعرضت قبل مولد هذا الزعيم وإبّان حياته ومن بعد مماته لعدوان أكبر دول الاستعمار فى المنطقة إذ ذاك وهى روسيا وبريطانيا .

وفى القرن الذى عاش فيه السيد جمال الدين ، أى القرن التاسع عشر الماضى كانت بريطانيا قد أرتخت أقدامها فى الهند وأخذت تتهيأ للانقضاض على بلاد الأفغان عند حدود الهند الشمالية الغربية بدعوى تأمين حدود مستعمرتها الهندية فى حين انطلقت روسيا تتخطف بلاد المسلمين فى آسيا الوسطى والتركستان . ولئن تنافست هاتان الدولتان وتسابقتا بدعوى الاستعمار فى وسط آسيا ، فقد كان يجمعهما فى الواقع ائتلاف راسخ بهدف القضاء على كل كيان للمسلمين أينما وجدوه .

وبين هاتين القوتين العظميين بجيوشهما الجرارة وقفت أفغانستان قلعة للإسلام شامخة فى وسط آسيا تدفع عن حدودها جند المستعمرين فى صلابة أبطال حطين وضراوة جند عين جالوت .

وحين غادر السيد جمال الدين بلاده عام ١٨٦٩ م لم يكن قد مضى إلا سنوات قليلة حين تمكن الشعب الأفغانى وعلى رأسه بطله الكبير « دوست محمد » من أن يفنى لبريطانيا جيشاً بأكمله عند « خورد كابول » قوامه عشرون ألفا من الجند لم ينج منه إلا ضابط واحد يدعى بريدون عاد إلى قومه ليفضى إليهم بأخبار تلك الكارثة . وهكذا كانت إرادة الأفغان أقوى من أسلحة الاستعمار ، فلم يسمحوا أبداً على مدى تاريخهم الطويل لمستعمر أن يطأ تراب بلادهم .

فعل صناديد الأفغان ذلك وأكثر منه فيما بعـــد حين انطلق جمال الدين من بلاده ليستنهض همم المسلمين فى الهند وفارس وتركيا ومصر ، يدعوهم إلى توحيد صفوفهم بإزاء المستعمر والعمل على استرجاع سالف أمجادهم .

وكان أطول مدة قضاها السيد فى بلد إسلامى واحد باختياره هى تلك التى عاشها بمصر وتزيد على سنوات ثمان (١٢٨٨ هـ — ١٢٩٦ هـ) (١٨٧١ م — ١٨٧٩ م) .

ولنا هنا أن نتساءل عن الأسباب التى أقنعته بالبقاء هذه الحقبة غير القصيرة بمصر بالذات .

فبالقطع لم يكن يغيب عن بال السيد الأفغانى أنه من مصر خرجت تلك القوات التى دمرت جيوش الصليبيين فى حِطّين . والمصريون هم كذلك الذين أوقفوا زحف المغول عند عين جالوت ، ولم يكن من أثر هذا النصر الحاسم انحسار خطر المغول عن العالم الإسلامى فحسب ، بل إننا نجد من بعد ذلك أبناء هولاكو ممن حكموا فى إيران وما حولها لا يلبثون بفعل الإسلام — عقيدة ومدنية — أن يقبلوا على الدخول فى دين الحق وينقلبوا إلى حُماة له . وهكذا ولأول مرة فى التاريخ يدخل الغالبون فى دين المغلوبين .

عرف السيد جمال الدين ذلك عن مصر الإسلامية دون شك ، كما عرف كذلك عن مصر فى القرن الذى عاش فيه أن المصريين لم يسكتوا حين دخل بلادهم نابليون بونابرت أعظم قواد عصره فحاربوا جنده فى شوارع القاهرة وأزقتها وطاردوهم فى كل شبر بقرى الريف ودساكره .

وعرف كذلك أن الشعب المصرى وحده وبمفرده هو الذى ردّ الحملة الإنجليزية بقيادة الجنرال فريزر عند رشيد .

وفى مصر كذلك — أولا وقبل كل شىء — كان وما زال الأزهر الشريف الذى تتمثل فيه الوحدة الإسلامية الواقعية بأروقته التى كانت تضم الطلاب من كافة أرجاء العالم الإسلامى ابتداء من رواق المغاربة عند أقصى المحيط الأطلسى غربا حتى رواق جاوه عند بحار الصين بأقصى الشرق .

ومن أبناء الأزهر من أمثال محمد عبده وسعد زغلول واللقانى ثم عبد الله النديم ومعهم فريق آخر — ممن أفادوا من جهود الطهطاوى والعطار والطويل وعلى مبارك وثمار أفكارهم — من هؤلاء جميعاً ومن أبناء البلاد الشرقية الأخرى من أمثال أديب إسحق وسليم النقاس كان حواريو جمال الدين الذين وجد فيهم الأرض الطيبة لغرس أفكاره التى عمت الشرق كله فيما بعد .

وفى مصر كان الرائد الزعيم الأفغانى هو أول من جهر بأن الشعب هو أساس الدولة وأنه هو مصدر السلطان كله ، وأنه لا إصلاح للحكومة إلا عن طريق إصلاح الشعب بكفالة حقوقه الكاملة فى الحياة الحرة الكريمة .

وفى مصر كان السيد كذلك هو أوّل من وجّه الصحافة وجهتها الصحيحة لخدمة الشعب والنهوض به .

وحين بان لدول الاستعمار خطر السيد عليها من وجوده بمصر التى كانوا يمهدون لاحتلالها ، ما زالوا بالخديو توفيق حتى أخرجه من مصر فى السادس من رمضان عام ١٢٩٦ هـ ؛ أى لمائة عام خلت (٢٤ أغسطس ١٨٧٩) .

وفى الهند التى نُفى جمال الدين إليها ، وبرغم ما فرضه البريطانيون عليه من الرقابة الدقيقة هناك ، فقد استطاع أن يجذب إلى حلقته العديد من الأحرار المسلمين هناك ، ومن بينهم الشاب محمد إقبال .

وكانت تعاليم جمال الدين ودعوته إلى تمكين كيان المسلمين هى التى أوحت فيما بعد للفيلسوف محمد إقبال بالجهر بدعوته إلى قيام وطن خاص بالمسلمين فى شبه القارة الهندية هو باكستان .

وسمح البريطانيون للسيد جمال الدين بمغادرة الهند وذلك بعد أن تم لهم احتـــلال مصر والقضاء على العرابيين بها ، وفى باريس لحق بالسيد حواريه الشيخ محمد عبده بعد نفيه من مصر بدوره ، فأصدرا ومعهم ميرزا محمد باقر صحيفة «العروة الوثقى» التى دوى صوتها فى كافة أنحاء العالم الإسلامى ، حتى انتبه المستعمرون إلى خطرها عليهم فأغلقوها .

ويسافر السيد من بعد ذلك عام ١٨٨٦ م إلى روسيا حيث أمضى هناك أربع سنوات جهد فيها على أن يحمل القيصر ورجال حكومته على وقف حملات التنصير والإبادة التى كان يمارسها جند الروس فى القوقاز والتركستان بآسيا الوسطى .

وبرغم المقاومة المجيدة المستميتة التى لقيها المعتدون الروس هناك والتى استمرت حتى النصف الأول من هذا القرن العشرين فسقط فيها ملايين عديدة من شهداء المسلمين هناك فإن أحداً من الشعوب الإسلامية لم يمد — مع الأسف — يد العون الجـــدى إلى تلك البلاد ذات الماضى الحضارى الإسلامى العريق والتى ظهر فيها من علماء المسلمين من أمثال ابن سينا والبخارى والترمذى والبيهقى والبيرونى ومئات غيرهم ، والتى كان أصحابها قد وصلوا بفتوحاتهم كذلك مرات متعددة إلى موسكو نفسها .

وفى ألمانيا التقى جمال الدين عام ١٨٨٩ م بناصر الدين شاه الفرس وكان يجوب أوروبا وقد خرج إليها من بلاده لأول مرة . وقبل السيد جمال الدين دعوة الشاه بالعودة معه إلى بلاده وفى خاطره أن العاهل الفارسي لا يلبث أن ينهض ببلاده بعد ما رأى ما صارت إليه شعوب أوروبا من تقدم وما تمارسه من الحرية والاستقلال .

ولكن خاب ظن السيد فى صاحبه ؛ فها هم الروس يتخطفون أراضى إيران فى الشمال ، وهاهم الإنجليز ينزلون فى الشرق والجنوب فضلا عن تدخلهم فى اقتصاد إيران واحتكارهم لبعض منتجاتها ، وناصر الدين فى شغل عن ذلك كله يرفض أن يستمع لمطالب شعبه بالدستور حتى طفق ينكل بأحرارهم وينصرف بكليته فى جمع المال مع إسرافه الشديد حتى أغرق بلاده فى الديون بدوره على غرار ما كان يفعل معاصره إسماعيل خديو مصر السابق .

وما إن يجهر السيد الأفغانى بمعارضته فى ذلك حتى يبعث الشاه بزبانيته فتُلقى به خارج إيران بعد أن أذاقه العذاب النُّكر .

وما أن استقر جمال الدين بلندن حاضرة بريطانيا حتى وافاه هناك مبعوثوا السلطان عبد الحميد فزينوا له القدوم إلى دار الخلافة فى استانبول ، وكان السلطان التركى يهدف بذلك إلى إبعاد السيد عن

أحرار الترك ودعاة الإصلاح ممن أفلتوا من سجونه ومعتقلاته إلى أوروبا ، ويفيد منه فى الوقت نفسه فى الدعوة لفكرة الجامعة الإسلامية التى انطلق ينادى بها عبد الحميد تحقيقاً لمآربه فحسب .

وما من شك فى أن السيد جمال الدين كان يرى فى الدولة العثمانية ، برغم ما أصابها من التفسخ ، آخر قوة عسكرية حقيقية كبرى للإسلام ، فضلا عما يعقده المسلمون فى كافة أنحاء الأرض من آمال كبيرة على الخلافة فى استانبول ، وأن الجيوش العثمانية فى حروبها الأوربية إنما تواجه فى الواقع تلك الدول الصليبية ، وأن جميع شعوبها مجمعة على عدائها للإسلام .

وقد أثبت صدق مقالة السيد هذه فيما بعد ما تضمنته نصوص معاهدة فرساى ومؤتمر الصلح الذى عقد عقب الحرب العالمية الأولى .

ومن هنا كان جمال الدين يرى وجوب تضافر الجهود لتحقيق قيام الجامعة الإسلامية ، وها هم المسلمون وتربطهم جميعاً روابط حضارية وثيقة بفضل عقيدتهم على اختلاف عروقهم .

ولئن كان عبد الحميد قد أصم أذنيه عن الاستجابة لآراء السيد جمال الدين وخططه لإصلاح أحوال المسلمين والنهوض بهم ، ثم مكر به

واعتقله فى قفص من ذهب حتى لقى ربه عام ١٨٩٧ ، فإن جذور دعوة الزعيم الأفغانى ومبادئه كانت على كل حال قد رسخت قوية عميقة متماسكة فى أغلب بقاع العالم الإسلامى ؛ ثم ما لبثت ابتداء من الربع الأول من القرن العشرين الحالى ، ولما يمضى اثنا وعشرون عاما على وفاة السيد ، حتى أخرج الزرع شطأه واستغلظ واستوى على سوقه وصمد كالطود الراسخ أمام عواصف المستعمر وطغيانه وجبروته ، فكان من أنضج ثماره وأصلبها ظهور قوى عسكرية إسلامية حقيقية مظفرة تمثلت فى تركيا كمال أتاتورك وإيران رضا شـــاه بهلوى ، وأفغانستان أمان الله خان ونادر شاه ، أولئك الذين انتظم عقدهم فى حلف سعد آباد المشهور بعد أن حققوا الاستقلال الكامل لبلادهم بقوة السلاح .

وبطبيعة الحال فإن ما حققه هؤلاء الأبطال العسكريين من آمال لبلادهم قد قوّى فى سواعد الشعوب الإسلامية الأخرى وهى فى كفاحها لتحرير أراضيها من الغاصب المحتل .

حتى جاء من بعد ذلك دور مصر العسكرى الحاسم فى العاشر من رمضان ، السادس من أكتوبر ، فانطلق أبناؤها ، أحفاد أولئك العرابيين ـــ أصحاب السيد الأفغانى وأول من تأثروا بدعوته

واستجابوا لها — انطلق صناديد مصر فى العاشر من رمضان صواعق خارقة كاسحة يدمرون السدود والقيود ويحققون بانتصاراتهم الكرامة والعزة لكل مسلم فيما بين المحيط الأطلسى وبحار الصين ، ويمهدون بذلك الأرض تمهيدا حقيقيا لقيام الوحدة الإسلامية القوية مناط كفاح السيد الأفغانى طوال سنى حياته

وأبطال حرب رمضان — أكتوبر — أحفاد العرابيين أصحاب السيد جمال الدين الأفغانى وتلامذته — هم الذين يضطلعون اليوم بتدريب المجاهدين الأفغان على استخدام الأسلحة الحديثة فى حربهم مع غزاة بلادهم من السوفييت . هذا وتقدم جمهورية مصر العربية إلى هؤلاء المجاهدين المزيد من هذه الأسلحة الحديثة إلى جانب المساعدات الأخرى مما تستلزمه المعارك . كما بادرت بعض الدول الإسلامية بدورها بمد المجاهدين بالمساعدات .

أهم مراجع الكتاب

أهم مراجع الكتاب

١ ــ تاريخ الطبرى لابن جرير الطبرى ــ القاهرة : ١٣٢٣ هـ

٢ ــ تاريخ الكامل لابن الأثير ــ القاهرة ١٣٠٢هـ .

٣ ــ تاريخ فرشته (فارسى) لمحمد قاسم هندوشاه ــ لكنو ١٣٢٣هـ .

٤ ــ حبيب السير لخواندمير (فارسى) ــ طهران ١٣٧٣ هـ ــ ش .

٥ ــ مخزن أفغانى (فارسى) لنعمت الله ــ لندن ١٨٢٩ م .

٦ ــ تاريخ سلاطين أفغانى (فارسى) لأحمد يادكر ــ تهران .

٧ ــ تتمة البيان در تاريخ أفغان (فارسى) للسيد جمال الدين الأفغانى ــ القاهرة ١٣٢٢ هـ .

٨ ــ حاضر العالم الإسلامى تأليف (لوترب) وترجمة زعيتر ، مع تعليقات مستفيضة بقلم الأمير شكيب أرسلان القاهرة : ١٤٥٢ هـ .

٩ ــ تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم ــ تأليف د . أحمد محمود الساداتى .
القاهرة ــ مكتبة الآداب ١٩٨٠م .

١٠ – تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها – تأليف د/ أحمد محمود الساداتى – القاهرة ١٩٧٩

١١ – تاريخ بخارا، تأليف أرمينيوس ڤامبرى، وترجمة د/ أحمد محمود الساداتى ، مع إضافات وتعليقات مستفيضة – القاهرة ١٩٦٥ م .

١٢ – أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث – ١٩٤٨م

1 — Ikbal Ali Shah : Afghanistan London 1928.

2 — Ferrier, T. P.: History of the Afghâns. London 1858.

3 — Sykes, Percy: A History of Afghanistan. London 1940.

4 — Brockelmann, Karl : Geschichte der Islamischer Voelker. Leipzig 1940.

5 — Kuhn, Hars : Geschichte der nationaleu Bewegunger im Orient Leipzig 1930.

6 — Haidar Bammat : Visages de L'Islam. Lussanne 1946.

7 — Baymira Hayit : Turkestan Darmstadt 1957.

8 — Ichwari Prasad : Muslim Rule in India, Allahabad 1933.

9 — Havell. E. The History of Aryan Rule in India. London.

مكتبة البحث

مراجع فارسية :

١ — إقبالنامه جها نكيرى : لمعتمد خان . كلكتا ١٨٦٥ م

٢ — أكبر نامه ، أو تاريخ أكبر شاه بانفصيل أحوال بدرش همايون ، لأبى الفضل بن المبارك — مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٨ م تاريخ فارسى .

٣ — انتخابات جهانكيرى — غير معروف مؤلفه .

(مجموعة إليوت ٦)

٤ — آيين أكبرى لأبى الفضل بن المبارك .

مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٠ تاريخ فارسى .

٥ — بابر نامه (بالتركية الجغتائيـة) — نشر السيدة بفريدج . ليدن ١٩٠٥

الترجمة الفارسية لعبد الرحيم خان خانان — نشرها محمد شيرازى . بمباى ١٣٠٨ هـ

٦ — تاريخ بيهقى — ترجمـة الخشاب ونشأت — القاهرة ١٩٦٥ م

٧ — بادشا هنامه — لعبد الحميد لاهورى . (مجموعة اليوت ٧)

٨ — تاريخ أحمد شاهى ، غير معروف مؤلفه (مجموعة اليوت ٨)

٩ — تاريخ ألفى ، لأحمد داود . (مجموعة اليوت ٥)

١٠ — تاريخ المغول لعباس إقبال تهران ١٩٣٣ م

١١ — تاريخ جهانكشاى ، لعلاء الدين عطا ملك الجوينى

٣ . م — ليدن ١٩١١ ، ١٩١٦ ، ١٩٣٧ .

١٢ — تاريخ حبيب السير فى أخبـــار أفراد البشر .

تأليف غياث الدين بن همـــام الدين الحسينى

المعروف بخواندمير ٤ م . (طهران ١٣٧٣ هـ)

١٣ — تاريخ رشيدى ، لميرزا محمد حيـــدر دوغلات

الترجمة الإنجليزية لســير دنيسون روس مع

تعليقات له . لندن ١٨٩٨ م

١٤ — تاريخ سلاطين أفغانى لأحمد يادكر . (مجموعة اليوت ٥)

١٥ — تاريخ شير شاه لعباس خان سروانى (مجموعة اليوت ٤)

١٦ — تاريخ عالمكير ثان ، غـــير معروف مؤلفه .

(مجموعة اليوت ٨)

١٧ — تاريخ عمومى إيران لعباس إقبال . طهران

١٨ — تاريخ فرشته لمحمد قاسم هندوشاه ، جزءان فى مجلد .

لكنو ١٣٢٣ هـ

١٩ — تاريخ گجرات لشاه أبى تراب ولى . كلكتا ١٨٩٩ م

٢٠ — تاريخ مظفرى ، لمحمد على خان . (مجموعة اليوت ٨)

٢١ — تاريخ هندى ، لرستم على (مجموعة اليوت)

٢٢ — تتمة واقعات، جها نـگيرى لمحمد هادى . (مجموعة اليوت ٦)

٢٣ — تذكرة آنندرام مخلص . (مجموعة اليوت ٨)

٢٤ — تذكرة الواقعات أو هما يو ننامة : لجوهر (مجموعة اليوت ٥)

٢٥ — تسكلة أكبر نامه ، لعناية الله . (مجموعة اليوت ٦)

٢٦ — جهار مقاله لنظامى عروضى سمرقندى مع

تعليقات القزوينى : ترجمة عزام والخشاب . القاهرة ١٩٤٩

٢٧ — رياض السلاطين : أو تاريخ بنغالة .

تأليف غلام حسين سليم : كلكتا ١٨٩٠،١٨٩٨

٢٨ — سير المتأخرين لغلام حسين خان . (مجموعة اليوت ٨)

٢٩ — شاهجها ننامه ، لعناية الله . (مجموعة اليوت ٧)

٣٠ — طبقات أكبرى ، لنظام الدين أحمد بخشى (مجموعة اليوت ٥)

٣١ — طبقات ناصرى لمنهاج السراج ترجمة

رافرتى لندن ١٨٧٣ — ١٨٩٧ م

٣٢ — ظفر نامه ، لنظام الدين شامى . بيروت ١٩٣٧

— ظفر نامه ، لشرف الدين يزدى — كلكتا ١٨٨٥ — ٨٧ م

٣٣ — عالمكير نامه، لمنشى محمد كاظم بن محمد أمين

كلكتا ١٦٦٨ م

٣٤ — عبر تنامه ، لمحمد قاسم . (مجموعة اليوت ٧)

٣٥ — عمل صالح : لمحمد صالح لاهورى . كلكتا ١٩١٢ م

٣٦ — فرحة الناظرين : لمحمد إسلام . (مجموعة اليوت ٨)

٣٧ — مآثر الأمراء لشاه نواز خان ـ ٤ م . كلكتا ١٨٨٠ ـ ١٨٩٦

٣٨ — مآثر عالمكيرى لمحمد ساقى مستعد خان كلكتا ١٨٧٧١ م

٣٩ — مرآة سكندرى لاسكندر بن محمد .

(مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٢ تاريخ فارسى)

٤٠ — منتخب التواريخ ، لعبد القادر بن ملوك شاه بدونى — ٣ م
كلكتا ١٨٦٨م

٤١ — منتخب اللباب لخافى خان (مجموعة اليوت ٧)

٤٢ — واقعات جهانكيرى ، سيرة جهانگير (« « ٦)

٤٣ — وقايعى (حالات) لأسعد قزوينى (« « ٦)

مراجع عربية : (مساعدة)

١ — اختلال التوازن العالمى ، لغو ستاف لوبون ،
ترجمة صلاح الدين وصفى . القاهرة ١٩٢٨ م

٢ — تاريخ الحضارة الإسلامية ، لبارتولد ، ترجمة
حمزة طاهر . القاهرة ١٩٣٣ م

٣ — تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبرى القاهرة ١٣٢٣ ه

٤ — تاريخ العتبى على هامش الفتح الوهبى القاهرة ١٢٨٦ ه

٥ — تاريخ الكامل ، لابن الأثير — ١٢ ج . القاهرة ١٣٠٢ ه

٦ — جنكيز خان . لهارولد لامب ، ترجمة بهاء الدين
نورى بغداد ١٩٤٦

٧ — حاضر العـــالم الإسلامى ، تأليف لوثرب ،
تعريب عجاج نويهض . (انظر تعليقات الأمير
شكيب أرسلان عليه) ٤ م القاهرة ١٣٥٢ هـ

٨ — حضارات الهند : لغوستاف لوبون ترجمة
عادل زعيتر القاهرة ١٩٤٨

٩ — الدعوة إلى الإسـلام ، لتوماس أرنولد ،
ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين القاهرة ١٩٤٧

١٠ — ذكر ما للهند من مقولة مقبولة للعقل أو مرذولة ،
لأبى الريحانى البيرونى (نشر زاخاو) لندن ١٨٨٧ م

١١ — ضحى الإسلام لأحمد أمين القاهرة ١٩٣٨ م

١٢ فتوح البلدان للبلاذرى ليدن ١٨٦٦ م

١٣ — المختصر فى أخبار البشر ، لأبى الفداء القاهرة ١٣٥٢ هـ

١٤ — مروج الذهب للمسعودى القاهرة ١٣٤٩ هـ

١٥ — معجم البلدان ، لياقوت الحموى ٨م القاهرة ١٩٠٦ م

١٦ — الهند وجيرانهــــا ، لول ديورانت ،
ترجمة زكى نجيب محمود القاهرة ١٩٥٠

مراجع أوروبية :

1 - Ameer Ali. The Spirit of Islam. London 1923

2 - Barthold W. Histoire des Turs d'Asie Paris 1945
Central. Adapt. Fr. par Mme Donskies Paris 1945

3 - Barthold. Turkestan London 1928

4 - Binyon. Laurence. The Court Painters of the Grand Moghul
Oxford 1921

5 - Cambridge History of India 5 Vols. Cambr. 1922-29

6 - Cunneingham, J. Hist of the Sikhs. London 1916

7 - Czaplika. M. A. The Turks of Central Asia. Oxford 1918

8 - Degwgnes, J. Histeire général des Huns, des Turcs, des
Mongols etc... 5 Vols. Paris 1756-58

9 - d'Ohsson, Baron C. Histoire des Mongols. Amesterdam 1852

10 - Duff, Grant. Hist of the Mahrattas. 2 Vols. 1921

11 - Dunbar, O. A. History of India from the Earliest Times
to the Present Day. London 1936

12 - Elliot H. M. & Dowson, John. The History of India
as told by its own Historians. The Mohamadan Period.
5 Vols. London 1867-77

13 - The English History Review. 1898

14 - Gabliz, H. C. Ueber die Sprache des Hazaras.
Z. Dmg. Bd XX.

15 - Gait, Edward. Hist of Assam Calcutta 1929

16 - Garratt. G. T. The Legacy of India Oxford 1938

17 - Carret Fd. Mughal Rule in India 1930

18 - Grenard Fer. Baber Paris 1930

19 - Grousset, R. L'Empire Mongol. Paris 1941

20 - Grousset, R. Hist. de l'Extrême Orient. 2 Vols. Paris 1920

21 - Hammer, J. D. Histoire de l'Empire Ottoman. 18 Vols.
Paris 1830

22 - Havell, E. B. The History of Aryan Rule in India London
23 - Howorth, H. History of the Mongols. 3 Vols London 1846
24 - Ikbal Ali : Afghanistan London 1928
25 - The Indian Moslems by an Indian. Mohamedan. London 1938
26 - Ischwari Prasad: medieval India 1925
27 - Ishwari Prasad. A. short History of Muslim Rule in India. Allahabad 1933
28 - Islamic Culture Review (1928)
29 - Lane-Poole, St, Medieval India under Mohamedan Rule. London 1917
30 - Moreland, W. H. & Chatterje. A short History of India. London 1936
31 - Mueller A, Der Islam in morgen-und Abendland Berlin 1887
32 - Sarkar. Hist. of Aurengzib. 2 Vols Calcutta 1912-24
33 - Sarkar. Shivaji and his times. Calcutta 1919
34 - Smith, V. A. Hist. of Fine arts in India and Ceylon. Oxford 1930
35 - Sirdar Ikbal Ali Shah. Afghanis London 1928
36 - Spear, P. Twilight of the Mughuls. Cambridge 1951
37 - Vambery, A. A. History of Bokhara London 1873

فهرس أبجدى عام

(ت)

(ج)

(ح)

رقم الإيداع بدار الكتب ٣١١٢ لسنة ١٩٧٠

مطابع سجل العرب
شارع بستان الدكة – ٩ عماد الدين – القاهرة
تليفون – ٩٣٦٤٧٠٦

الناشر
مكتبة نهضة الشرق
جامعة القاهرة